

الباب السابع والعشرون

مذهب الروم الكاثوليك

١٠٩٥ - ١٢٩٤

الفضل الأول

تقيدة الشعب

يعدّ الدين من كثير من الوجوه أكثر أساليب الإنسان طرافة لأنه آخر ما تفسر به الحياة ، وهو سبيله الوحيدة لانتقاء الموت . وليس في تاريخ العصور الوسطى كله ما هو أعظم أثراً في النفس من الدين ، فإنك تراه في كل مكان ، ويكاد يكون أعظم القوى في تلك العصور . وليس من السهل على من يعيشون الآن منعمين تتوافر لهم جميع حاجاتهم أن يدركوا حق الإدراك ، ما كان في تلك العصور من فوضى وعوزهما اللذان شكلا عقائد الناس في خلالها . ولكن من واجبتنا أن ننظر إلى ما كان عند المسيحيين واليهود من خرافات ، وأسرار خفية ، ووثنية ، وسذاجة ، وسلامة طوية ، نقول إن من واجبتنا أن ننظر إلى هذا كله بنفس العطف الذي يجب أن ننظر به إلى عنائهم ، وفقرهم ، وأحزانهم ، وإن فرار الآلاف المولفة من الرجال والنساء من « الدنيا ، واللحم ، والشيطان » إلى أدبرة الرجال والنساء أيوحى إلينا بما كان يسود ذلك الوقت من اضطراب ، واختلال أمن ، وعنق أوقت على الغاية أكثر مما يوحى بيجن أولئك الفارين وخور عزيمتهم . وبدا أن من البدائنه أن لا سبيل إلى السيطرة على الدوافع البشرية

الوحشية إلا بقانون أخلاقي تويده قوة تعلو على القوى البشرية . وكان أكبر ما يحتاجه العالم وقتئذ هو عقيدة توازن المحن بالآمال ، وتخفف من وقع الحرمان بالسلوى والعزاء ، وتزيل من ملل الكدح بخيال العقيدة ، وتمحو قصر الأجل بعقيدة الخلود ، وتضفي على المسرحية الكونية معنى ملهما يشرفها ويرفع من قدرها ، لولاه لكانت موكبا لا معنى له ولا يمكن احتمالها ، موكبا من الأنفس ، والأجناس ، والنجوم ، تهوى واحدة بعد واحدة إلى الفناء الذى ليس منه محيص .

وسعت المسيحية إلى الوفاء بهذه الحاجات بفكرة حماسية رائعة عن الخلق والخطيئة الآدمية ، والأم العذراء ، والإله المعذب ، والنفس الخالدة التى قدّر عليها أن تواجه يوم الحساب فيقضى عليها بالتردى فى الجحيم إلى أبد الأبدين ، أو أن تنجو وتنال النعيم السرمدي على يد كنيسة توفر لها بأسرارها المقدسة البركة الإلهية التى حلت على العالم بموت منقذه . وكانت حياة الكثرة الغالبة من المسيحيين تجول وتجد معناها فى هذه النظرة الشاملة إلى العالم . وكان أعظم ما أهدته العقيدة الدينية إلى العالم فى العصور الوسطى هو ثقته بأن الحق سيعلو آخر الأمر ، وأن كل نصر ظاهرى للشر سيفنى آخر العهد حين يظفر الخير بالشر فى العالم كله ، وتلك ثقة تعالى من قدر البشرية وتدعم كيائها .

وكانت عقيدة يوم الحساب أساس العقيدة المسيحية واليهودية والإسلامية . وبقى الاعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض ، ونهاية العالم لتكون هذه العودة وتلك النهاية تمهيداً ليوم الحساب الأخير ، بقى هذا الاعتقاد بعد حبوط مسعى الرسل ، ومرور العام الثم لم للألف بعد المسيح ، ومخاوف أربعين قرناً وآمالها . نعم إن هذا الاعتقاد أضحى أقل وضوحاً وأضيق انتشاراً مما كان قبل ، ولكنه لم ينم عن النفوس ، فقد قال روجر بيكن Roger Bacon فى عام ١٢٧١ : « إن العقلاء من الناس » يرون أن نهاية العالم قد قربت ^(١) ، وكان كل وباء شامل ، وكل

كارثة مدممة ، وكل زلزال مروع ، وكل مذنّب يظهر في السماء ، وكل
حادثة غير عادية ، كان كل شيء من هذا التنبيل يعد نذيراً بنهاية العالم ،
وحى إذا ظل العالم باقياً فإن أرواح الموتى وأجسامهم ستبعث من فورها (*)
بعد وفاتها لتحاسب على ما قدمت من خير وشر .

وكانت تجيش في صدور الناس آمال غامضة بدخول الجنة ، ولكنهم
كانوا يخافون النار خوفاً واضحاً صريحاً لا غموض فيه ، وكان في الدين
المسيحي في العصور الوسطى كثير من الرقة والرأفة ، ولكن رجال الدين
والوعاظ الكاثوليك ، والبروتستانت الأولين ، كانوا يشعرون بأن من الواجب
عليهم أن يزوعوا الناس بأهوال الجحيم (**). ولم يكن المسيح في هذا العهد
هو « عيسى الوديع الرقيق » ، بل كان هو المنتقم الجبار لكل ما يرتكبه
البشر من آثام . وكان في الكنائس كلها تقريباً رمز من يمثل المسيح في
صورة قاض ، وكان في الكثير منها صور ليوم الحساب ، تمثل ضروب
التعذيب التي يلقاها الملعونون تمثيلاً أشد وضوحاً من النعيم الذي يتمتع به السعداء
المقربون . ويقال إن القديس مثوديوس استطاع أن يقنع بوريس ملك Bóris
بلغاريا باعتراف الدين المسيحي بأن رسم له صورة الجحيم على جدار القصر
الملكي (٤) . وكان كثيرون من المتصوفة يدعون أنهم رأوا في أحلامهم صوراً
للنار ، وقد وصفوها وصفاً جغرافياً ، وصوروا ما فيها من عذاب (٥) ،
ونقل إلينا الراهب تنديل Tundale من رهبان القرن الثاني عشر تفاصيل لها
دقيقة : فقال إن في وسط الجحيم يرى الشيطان مشدوداً إلى مشواة ملتبة
من الحديد بسلاسل حمراء من شدة الحرارة ، لا ينقطع له صراخ من فرط

(*) وكانت النظرية المسيحية القائلة بأن حساب الموتى سيؤجل إلى « يوم الحشر » الذي
سينفي فيه العالم ، كانت هذه النظرية قد استبدلت بها العقيدة القائلة إن كل إنسان سيحاسب
بعد موته مباشرة (٢) .

(**) قارن هذا بقول القائد وليم بوث William Booth (١٨٢٩ - ١٩١٢) عن
أساليب وعاظ جيش النجاة : « لا شيء يؤثر في قلوب الناس كما تؤثر فيه الأشياء الرهيبة
المروعة . فهم لا يتأثرون إلا إذا تصاعد أمام أعينهم لهب الجحيم » (٣) .

الآلم ، ويداه طليقتان يمددهما ليقبض بهما على العصاة المذنبين ، يحطمهم بأسنانه كما يحطم العنب ، وأنفاسه النارية تجذبهم إلى حلقه الملتب . ويقذف أعوانه من الشياطين أجسام المذنبين بخطاطيف من الحديد في النار . مرة وفي الماء الزمهرير مرة أخرى ، أو يعلقونهم من ألسنتهم ، أو ينشرون أجسامهم بالمناشير أو يطرقونها بالمقاطع على سندان ، أو يقلونها في النار ، أو يعصرونها حتى تصفى من قطعة من النسيج . وكان الكبريت يمزج بالنار حتى تزيد رائحته الكريهة من عذاب الآثمين . وليس للنار ضوء ، ولهذا فإن الظلمة المروعة تغشى هذه الآلام المختلفة التي لا يحصى لها عد (٦) . أما الكنيسة نفسها فلم يصدر عنها رسمياً قول يحدد مكان النار أو يصفها ، ولكنها كانت تعلن سخطها على أمثال أرجن Origen الذين يرتابون في حقيقة نيرانها المادية (٧) . ولو أن أهوال هذه العقيدة قد نالها بعض التخفيف لأخفقت في تحقيق غرضها ، ولهذا فإن القديس توماس أكويناس كان يؤمن بأن « النار التي ستعذب فيها أجسام المجرمين نار مادية » وحدد مكان الجحيم « في أسفل الأرض » (٨) .

ولم يكن الشيطان في خيال العامة من أهل العصور الوسطى . وفي خيال رجال من أمثال جريجورى الأكبر ، رمزاً أو كناية أو تشبيهاً ، بل كان جسماً حقيقياً حياً من لحم ودم ، يغشى كل مكان في العالم ، يغوى الناس بضروب من المغريات ويخلق كل أنواع الشر . وكان من المستطاع عادة أن يطرد بقضه وقضيضه بقدر من الماء المقدس أو بعلامة الصليب ، ولكنه في هذه الحال يخلف وراءه رائحة خبيثة هي رائحة الكبريت المحترق . والشيطان شديد الإعجاب بالنساء ، ويتخذ بسماتهن ومفاتهن أدوات يغوى بها ضحاياه ، وينال رضاهن في بعض الأحيان - إذا كان لنا أن نصدق النساء أنفسهن . فقد اعترفت امرأة من طلوشة (Toulouse) أنها كثيراً ما ضاجعت الشيطان ، وأنها وهى في الثالثة والخمسين من عمرها ولدت منه هولة لها رأس ذئب ، وذنب أفعى (٩) . وللشيطان في رأى

أقوام العصور الوسطى عدد لا يحصى من أعوانه الأبالسة ، يحومون حول كل نفس ، ويعملون دائبين على جرّها إلى ارتكاب الإثم . وهؤلاء أيضاً يحبون أن يضاجعوا النساء اللاتي يهملن أنفسهن ، أو ينمن وحدهن ، أو ينقطعن للدين والعبادة^(١٠) . وقد وصف الراهب ريكالم Richalm أولئك الأبالسة بأنهم « يملأون العالم كله ، وأن الهواء كله ليس إلا كتلة سمكة منهم يترصدوننا في كل زمان ومكان . . . ومن أعجب العجائب أن يبقى واحد منا حياً يرزق ، ولولا رحمة الله لما نجا أحد من شرهم »^(١١) . وكان الناس كلهم تقريباً بما فيهم الفلاسفة أنفسهم يؤمنون بهذا العدد الجم من الأبالسة والشياطين ، ولكن روح الفكاهة المنجية كانت تخفف من رهبة هذا الإيمان بهم ، وكان كثير من الرجال ذوي العقول المتزنة ينظرون إلى أولئك الأبالسة الصغار على أنهم جماعة من الخيلاء أكثر منهم خلائق مروعين . وكان من العقائد الشائعة أن أولئك الأبالسة يتدخلون تدخلاً مسموعاً ، ولكنه غير منظور ، في أحاديث الناس ، ويحرقون أثوابهم ، ويلقون بالأقذار على عابري السبل . ويقال إن شيطناً متعباً جلس مرة على خسة فاكلتها راهبة وهي لا تدري ما تفعل^(١٢) .

وأكثر رهبة من العقيدة السالفة الذكر الاعتقاد بأن « كثيرين يُدعون وقليلين ينتخبون » (الآية ١٤ من الإصحاح ٢٢ من إنجيل متى) . وكان المؤمنون المستمسكون بدينهم يعتقدون أن الكثرة الغالبة من الجنس البشري ستردى في الجحيم^(١٣) ، وكان كثيرون من رجال الدين المسيحيين يؤمنون بحرفية القول المزعوم إلى المسيح : « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدين » (مرقس إصحاح ١٦ الآية ١٦) . ووصل القديس أوغسطين على الرغم منه إلى النتيجة القائلة إن من مات من الأطفال قبل التعميد مآله النار^(١٤) ، وكان القديس أنسلم يظن أن ليس في عذاب الأطفال غير المعمدين (الآثمين لأن آدم وحواء قد ارتكبا الإثم) من المخالفة للعقل والمنطق أكثر مما في فرض الرق على

أبناء الأرقاء — وهو لا يرى أن في هذا بعداً ما عن المعتول^(١٥) . وقد خفت الكنيسة من هول هذه العقيدة بأن علمت الناس أن الأطفال غير المعمدين لا يلقون في الجحيم بل يلقون في يموس *Infernus puerorum* حيث لا يكون عذابهم إلا ما يشعرون به من ألم لأنهم حرموا من الجنة^(١٦) . وكانت الكثرة الغالبة من المسيحيين تعتقد أن المسلمين جميعاً — كما كانت الكثرة الغالبة من المسلمين ما عدا النبي محمداً تعتقد أن المسيحيين جميعاً — سيلقون في النار ، وكان الاعتقاد السائد أن « غير المؤمنين » سيعذبون^(١٧) . وذهب مجلس لاتران الرابع إلى أبعد من هذا فأعلن (١٢١٥) أن لانجاة لأحد من النار إذا لم يكن من أتباع الكنيسة الجامعة^(١٨) . وقرر البابا جريجورى التاسع أن ما كان يأمله ريمند للى *Raymond Lully* من أن « الله يحب شعبه حباً يودى إلى نجاة الناس جميعاً تقريباً » ، لأنه لو كان المعبذون أكثر من الناجين لكانت رحمة المسيح خالية من كثير الحب^(١٩) ، وليس ثمة رجل آخر من رجال الدين البارزين أجاز لنفسه أن يعتقد — أو أن يقول — إن الناجين سيزيدون على المعبذين^(٢٠) . وقدر برثلد الرچنزبرجى *Bertshold of Regensburg* ، وهو من أشهر وعاظ القرن الثالث عشر وأحبههم إلى الناس ، نسبة المعبذين إلى الناجين بمائة ألف إلى واحد^(٢١) . ويرى القديس تومس أكويناس أن « في هذا أيضاً تظهر رحمة الله أكثر مما تظهر في شيء سواه » ، لأنه يرفع القليلين إلى معارج النجاة ، التى يعجز عن إدراكها الكثيرون^(٢٢) . وكان كثيرون من الناس يعتقدون أن البراكين هى أفواه جهنم ، وأن قعقتها ليست إلا صدى خافتاً لأنين المعبذين^(٢٣) ، وكان جريجورى الأكبر يقول إن فوهة بركان إتنا تزيد اتساعاً في كل يوم لتبتلع العدد الذى لا يحصى من الأرواح التى كتب عليها العذاب^(٢٤) . وكانت أحشاء الأرض المزدهمة تضم ثناياها الحارة الكثرة الغالبة من جميع من ولدوا من بنى الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يستريح أو يفر من النار إلى أبد الدهر ؛ وفي

ذلك يقول برثلد : أحص رمال شواطئ البحار ، أو الشعر الذى ينبت على أجسام البشر والحيوان من يوم أن خلق آدم ، وقدر سنة من العذاب لكل حبة رمل أو شعرة ، ثم اعلم أن هذه الحقبة من الزمن التى تصل إليها لا تكاد تمثل بداية آلام المعذبين^(٢٥) . وكانت اللحظة الأخيرة فى حياة الإنسان هى اللحظة فى الأبدية كلها ، وكان خوف الناس من أن يكون الإنسان فى هذه اللحظة الأخيرة آثماً لم تغفر له ذنوبه ، كان هذا الخوف عبئاً ثقيلاً ترزح تحته النفوس البشرية .

وكانت عقيدة المطهر أو الأعراف تخفف من هذه الأهوال تخفيفاً غير قليل . وكانت الصلوات من أجل أرواح الموتى عادة قديمة قدم الكنيسة نفسها ، وفى وسعنا أن نرجع طقوس التكفير عن الذنوب والصلاة على أرواح الموتى إلى عام ٢٥٠ م^(٢٦) . وقد تحدث أوغسطين عن وجود موضع يتطهر فيه الموتى من ذنوب غفرت لهم ولكنها لم يكفر عنها تكفيراً كافياً بعد موتهم ؛ وقبل جريجورى الأول هذه الفكرة ، وقال إن ما تعانيه الأرواح فى المطهر من آلام قد يخفف ويقصر مداه بفضل دعاء الأحياء من أصدقائهم وصلواتهم^(٢٧) ، غير أن هذه النظرية لم تصبح من العقائد الواسعة الانتشار حتى نفخ فيها بطرس دميان Peter Damian حوالى عام ١٠٧٠ من روحه الحاسية وأذاعها ببلاغته . وزاد انتشار هذه الفكرة فى القرن الثانى عشر حين ذاعت قصة تقول إن القديس بتريك St. Patrick أراد أن يقنع بعض المتشككين فأجاز حفر حفرة فى أيرلندة نزل إليها بعض الرهبان ؛ ثم عاد بعضهم . كما تقرر القصة . ووصفوا المطر والشار وصفاً واضحة ثبط عزيمة من يريدون أن يخذوا حذوه ، وادعى أون Owen الفارسي الأيرلندى أنه نزل من هذه الحفرة إلى الجحيم فى عام ١١٥٣ . ووصف ما لاقاه فى العالم السفلى وصفاً لا فى نجاحاً منقطع النظر^(٢٨) . فقد

أقبل الناس من بعيد لزيارة هذه الحفرة ، ونشأت من ذلك شرور ومساوئ مالية اضطرت البابا اسكندر السادس أن يأمر في عام ١٤٩٧ بردمها لأنها من الادعاءات الباطلة (٢٩) .

ترى كم من الناس في العالم المسيحي أثناء العصور الوسطى كانوا يصدقون العقائد المسيحية ، إننا نسمع عن وجود ملحدين كثيرين ، ولكن الكثرة الغالبة من أولئك الملحدين كانت تتمسك بالمبادئ الأساسية للعقائد المسيحية ، وقد حدث بمدينة أورليان Orleans في عام ١٠١٧ أن « رجلين من أكرم الناس أبا وأوسعهم علماً » أنكروا عقائد خلق العالم ، والتثليث ، والجنة ، والنار ، وقالوا إنها كلها مجرد هذيان » (٣٠) . ويقول جون السلزبرى John of Salisbury في القرن الثاني عشر إنه سمع كثيرين من الناس يتحدثون « أحاديث لا يقبلها الدين » (٣١) ، ويقول فلاني Villani إنه كان بمدينة فلورنس في ذلك القرن نفسه جماعة من الأبيقوريين ، يسخرون من الله والقديسين ، ويطلقون العنان لشواتهم الجسمية (٣٢) . ويحدثنا جرالندس كمبرنسس Giraldu Cambrensis (١١٤٦ ؟ - ١٢٢٠) عن قس ، لا يذكر اسمه ، لامة قس آخر على عدم عنايته بالاحتفال بالقداس ، فكان رده أن سأل ناقده هل يؤمن هو حقاً باستحالة مادة القربان إلى لحم المسيح ودمه ، وبعقيدة التجسد ، وبمولد المسيح من مريم العذراء ، وبالبعث - وزاد على ذلك أن قال هذا كله قد اخترعه القدماء الماكرون ليهبوا الناس ويسيطروا عليهم (*) ، وإن طائفة من المنافقين يحذون الآن حذوهم (٣٣) . وينقل جرالند الويلزى نفسه قول العالم سيمون التورنائى Simon of Tournai (حوالى ١٢٠١) في حسرة وألم : « ربّاه ياذا الجلال !

(*) يذكرنا هذ بقول أبي العلاء المعرى :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ديانا تم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الخطام فأفلحوا وماتوا فبادت سنة اللوام
وبغير هذين البيتين من أقواله وقد ورد بعضها في الجزء الثانى من هذا المجلد . (المترجم) .

إلى متى تبقى هذه الشيعة المخرفة من المسيحيين ، وتدوم هذه البدعة التي لا أصل لها ؟ » (٣٤) . وتقول إحدى القصص المتدارلة عن سيمون هذا إنه أثبت في محاضرة له عقيدة التثليث بالحجج القوية البارة ، فلما رأى إعجاب مستمعيه به تاه بنفسه عجباً فقال إن في وسعه أن يثبت عكس هذه العقيدة بحجج أخرى أقوى من حججه الأولى ، فلما نطق بهذا - كما تقول القصة - أصيب من فوره بالشلل والعتة (٣٥) . وفي عام ١٢٠٠ كتب بطرس رئيس دير الثالوث المقدس Holy Trinity في ألدجيت Aldgate بلندن يقول : « من الناس من لا يعتقدون بوجود الله ، ويقولون إن العالم تسيره الصدقة . . . ومنهم كثيرون لا يؤمنون بالملائكة الأخيار أو الأشرار ، ولا بالحياة بعد الموت أو بأى شيء روحى لا تراه العين » (٣٦) . وقد أثار شجن فنسنت من أهل بوفيه Vincent of Beauvais (١٢٠٠ - ١٢٦٤) أن كثيرين يسخرون من الروى ومن القصص (قصص القديسين) ويقولون « إنها من خرافات العوام أو لأنها بدع كاذبة ، ويضيف إلى ذلك قوله : « وليس لنا أن نعجب من أن هذه القصص لا تقبلها عقول الذين لا يعتقدون بوجود النار » (٣٧) . ولقد كانت عقيدة الجحيم من العقائد التي لا يستسيغها الكثيرون . وكانت بعض النفوس الساذجة تتساءل : « لم خلق الله الشيطان إذا كان قد سبقت في علمه خطيئته وسقوطه ؟ » (٣٨) . وقال بعض المتشككين إن الله لا يمكن أن تصل قسوته إلى الحد الذى يجعله يعاقب على الذنب المحدد بالألم الغير المحدود ، ويوجب رجال الدين عن هذا الاعتراض بقولهم إن الذنب الذى يرتكبه الآدمى إجرام فى حق الله ، وإنه لهذا يعد إثماً لا نهاية له . ولم يقنع هذا القول ناسجا كان يعيش فى طولوز عام ١٢٤٧ فقال : « لو أننى استطعت أن أقبض على هذا الإله الذى لا ينجى من كل ألف من خلقه إلا واحداً ثم يعذب الباقين ، لانتزعت أسنانه وأظافره كما يفعل بالخنونة المارقين ، ولبصقت فى وجهه » (٣٩) . وللبعض المتشككين أقوال لا تبلغ من

العنف هذا المبلغ كله ، فيقولون مثلاً إن نار الجحيم لا بد أن تُكَلِّس الروح والجسم حتى يصبحا عديمي الإحساس بها ويصير « من اعتاذ الجحيم مستريحاً فيها راحته في أى مكان سواها » (٤٠) . وتبدو في نشيد أوكاسين ونيقولا Queassin et Niolette (حوالى عام ١٢٣٠) الفكاهة القديمة القائلة بأن الإنسان يلتقي في الجحيم صحابا أظرف ممن يلقاهم في الجنة (٤١) . ويشكو القسيسون من أن معظم الناس يؤجلون التفكير في النار إلى آخر لحظة في حياتهم لوئوقهم من أنهم مهملون تكمن آثامهم فإن « ثلاث كلمات » (ego-te absolvo) « تكفى لنجاتي » (٤٢) .

ويبدو أنه كان في القرى وقتئذ كما فيها الآن من لا يؤمنون بالله ، ولكن الكافرين القرويين لا يتركون وراءهم ذكريات تحدث عنهم ، يضاف إلى هذا أن معظم ما وصل إلينا من أدب العصور الوسطى قد كتبه رجال الدين أو أن رجال الدين قد أخفوا الجزء الأكبر منه ولم يبرزوا لنا إلا ما وقع عليه اختيارهم . وسنجد فيما بعد « علماء جوالين » يقولون شعراً يبدو فيه عدم الاحتشام ، ولصوصاً غلاظاً ينطقون بأشد الأقوال تجديفاً ، وأناساً ينامون ويغطون (٤٣) ، بل ويرقصون (٤٤) ويفجرون (٤٥) في الكنائس ، كما نجد من يرتكبون « العهر ، والنهم ، والقتل ، والسرقه في يوم الأحد » (كما يقول أحد الرهبان) « أكثر ممن يرتكبون هذه الذنوب في جميع أيام الأسبوع الذى قبله » (٤٦) . وفي وسعنا أن نذكر في هذه الصفحة ما لا يحصى من الأمثلة نجتمعها من مائة بلد وبلد ، ومن ألف عام وعام . وكلها تدل على ما كان في العصور الوسطى من نقص في الإيمان الحق ، وتحذرننا من التغالى في الاعتقاد بتقوى الناس في تلك العصور ؛ ولكن العصور الوسطى لا تزال مع هذا تغمر الباحث ، في حو من العبادات والعقائد الدينية ؛ فلقد كانت كل دولة أوربية تأخذ المسيحية في كنفها وتحت حمايتها ، وترغم الناس بقوة الدنانون على الخضوع للكنيسة ، وكان كل ملك ، إلا القليل النادر منهم ، يتقل

الكنيسة بالهبات ، وكانت كل جاذبة تقع في التاريخ ، إلا ما ندر منها ، تفسر على أساس من الدين ، وكل واقعة في أسفار العهد القديم تسبق إلى تصوير شيء . أسفار العهد الجديد .

ومن أمثلة ذلك ما يقوله الأسقف العظيم من أن داود حين يراقب بثشبع وهو يستحم إنما يرمز إلى المسيح إذ يرى كنيسته تطهر نفسها من دنس هذه الدنيا^(٤٧) . وكان كل شيء عادي طبيعي علامة على شيء خارق للعادة ، كما كان لكل جزء من كنيسة ، في رأى جيوم ديوراند Guillaume Durant (١٢٣٧ - ١٢٩٦) ، أسقف مندى mende ، معنى ديني ؛ فدخل الكنيسة هو المسيح ، الذي يوصلنا إلى الجنة ؛ وعمدها تمثل المطارنة وعلماء الدين ، الذين يقيمون صرح الكنيسة ، وغرفة المقدسات التي يلبس فيها القس ثيابه هي رحم مريم ، الذي يتجسد فيه المسيح بجسد الآدميين^(٤٨) . ويقول أصحاب هذه النزعة إن لكل حيوان معنى في الدين ؛ من ذلك ما جاء في كتاب في الحيوان مؤلف في العصور الوسطى وهو نموذج لغيره من أمثاله : « إذا ولدت لبوة شبلا ، فهي تلده ميتاً ، وتظل تعني به ثلاثة أيام حتى يأتي أبوه في اليوم الثالث وينفخ في وجهه ، ويبعث فيه الحياة . وهذه الطريقة عينها أحيا الله جل وعلا ابنه سيدنا عيسى المسيح من بين الموتى^(٤٩) .

وكان الناس يسرون بسماع مائة ألف من القصص عن الحوادث ، والقوى ، ووسائل الشفاء الخارقة ، أو يخلقونها خلقاً من عند أنفسهم ، كقولهم إن صبيّاً إنجليزيّاً حاول أن يسرق بعض زغاليل الحمام من عشاها ، فالتصقت يده بقوة سماوية بالحجر الذي اتكأ عليه ، ولم تفك إلا بعد أن قضى أهله ثلاثة أيام في الصلاة والدعاء^(٥٠) . وقدم طفل طعاماً لتمثال المسيح الطفل المنحوت في مزار صور فيه مولده ؛ فما كان من الطفل المسيح إلا أن شكره ودعاه إلى دخول الجنة ؛ ولم تمض على هذا الحادث ثلاثة أيام حتى توفي الطفل الذي قدم الخبز للمسيح^(٥١) .

وكلف قس فاسق بإحدى النساء ، فلما عجز عن استمالتها إليه احتفظ بجسم المسيح الطاهر في فمه بعد القربان ، لعله إذا قبلها والجسم في فمه استجابت إلى رغبته بقوة القربان المقدس . . . ولكته لما أراد أن يخرج من الكنيسة خيل إليه أن جسمه قد تضخم حتى اصطدم رأسه بسقفها . فدفن الخبز المقدس في أحد أركان الكنيسة ؛ واعترف بعدئذ بما حدث لقس آخر ، فأخرجوا الخبز من الأرض فوجداه قد استحال إلى صورة رجل مصلوب يقطر منه الدم (٥٢). واحتفظت إحدى النساء بالخبز المقدس في فمها وهي في طريقها من الكنيسة إلى بيتها ، ثم وضعت في قفير نخل لتقلل بذلك من عدد ما يموت من نخلها ، فما كان من النخل « إلا أن بنى لضييفه العزيز من أحلى ما يخرج منه من الشهد معبداً صغيراً بديع الصنع » (٥٣). وملاً البابا جريجوري الأول مؤلفاته بقصص من هذا القبيل . ولعل الناس ، أو المتعلمين منهم ، كانوا يشكون في هذه القصص ويرون أنها أقاصيص مسلية طريفة وليست أسوأ من القصص العجيبة التي يطرد بها الملوك ورؤساء الجمهوريات الوقت الحاضر السأم عن أنفسهم ويريحون بها عقولهم المجهدة ، ولعل السذج في العصور الحالية لم يقبلوا أكثر من تبديل نوعها لا مداها ، وإن في كثير من أقاصيص العصور الوسطى لشواهد على إيمان أهل تلك العصور إيماناً يحدث في النفس أعمق الأثر ؛ وحسبنا أن نذكر منها أنه لما عاد البابا ليو التاسع المحبوب إلى إيطاليا بعد رحلة الإصلاح التي قام بها في فرنسا وألمانيا انشق له نهر أنين Aniene كما انشق البحر الأحمر لموسى ليستطيع أن يجتازه (٥٤).

وترجع قوة الدين المسيحي إلى أنه يعرض على الناس الإيمان لا المعرفة ، والفن لا العلم ، والجمال لا الحقيقة ؛ وقد فضله الناس في صورته هذه ، وكانوا يرون أن ليس فيهم من يستطيع أن يجيب عن أسئلتهم ، ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة التي ينطق بها رجال الدين ، ويؤكدوا توكيدها

يزيل مخاوفهم . ولو أن الكنيسة قد اعترفت بأنها تخطئ تارة وتصيب تارة أخرى لفقدوا ثقتهم فيها ، ولعلمهم كانوا يرتابون المعرفة ويرون أنها الثمرة المرة للشجرة المحرمة تحريماً ينطق بالحكمة ، أو السراب الذى يضل الناس ويغويهم ليخرجوا من جنة السداجة والحياة الخالية من الشك . وهكذا استسلم العقل فى العصور الوسطى للإيمان فى أغلب الأوقات والحالات ، وجعل كل اعتماده على الله وعلى الكنيسة ، كما يثق رجل هذه الأيام بالعلم وبالدولة . انظر إلى قول فليب أغسطس لملاحيه أثناء عاصفة ثارت فى منتصف الليل : « إنكم تهلكوا لأن آلافاً من الرهبان يقومون من فراشهم فى هذه اللحظة ، ولن يلبثوا أن يصلوا من أجلكم (هه) » . وكان الناس يعتقدون أنهم تسيطر عليهم قوة أعظم مما تستطيع المعرفة البشرية أن تهبط ، وكانوا فى العالم المسيحى ، كما كانوا فى العالم الإسلامى ، يسلمون أنفسهم إلى الله ؛ كما كانوا حتى فى دنسهم ، وعفثهم ، وفجورهم يبتهلون إليه أن ينجيهم . لقد كان هذا عصرًا ثملاً بنشوة الإيمان بالله .

الفصل الثانى

الأسرار المقدسة

كانت القوة الثانية من قوى الكنيسة التى تلى تحديد الدين هى عملها فى أداء الأسرار المقدسة — أى الشعائر التى ترمز إلى منح البركة الإلهية . ويقول القديس أوغسطين فى هذا : « لا يستطيع الناس فى دين من الأديان أن يرتبط بعضهم ببعض إلا إذا اجتمعوا فى نوع من الزمالة عن طريق رموز أو شعائر يرونها رأى العين » (٥٦) . ويكاد اللفظ اللاتينى الذى يعبر عن هذه الأسرار المقدسة وهو لفظ *Sacramentum* ينطبق فى القرن الرابع الميلادى على كل شىء مقدس — على التعميد ، وعلى الصليب ، والصلاة ؛ وأطلقه أوغسطين فى القرن الخامس على الاحتفال بعيد القيامة ؛ ثم قصره لزدور الأشبيلي *Isidore of Seville* فى القرن السابع على التعميد وتثبيت العباد ، والقربان المقدس . فلما كان الثانى عشر حددت الأسرار المقدسة بسبعة أسرار : التعميد ، وتثبيت العباد ، والكفارة ، والقربان المقدس ، والزواج ، ورتبة الكهنوت ، والمسح بالزيت قبيل الوفاة . أما الشعائر الصغرى التى تمنح البركة الإلهية كالرش بالماء المقدس أو علامة الصليب — فلم تكن من هذه الأسرار وسميت *sacramentals* أى المتعلقة بتلك الأسرار تمييزاً لها عن الأسرار الأصلية .

وكان التعميد أهم تلك الأسرار كلها ، وكان يهدف إلى غرضين : نحو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولداً جديداً يستقبل على أثره فى حظيرة الدين المسيحى . وكان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما فى هذا الحفل اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس فى المستقبل شفيع الطفل ، وأنموذجه ، وحاميه ، وهذا هو « اسمه المسيحى » أو الخاص . وقبل أن يحل القرن

التاسع كانت طريقة التعميد المسيحية الأولى - طريقة غمر الطفل كله - قد استبدلت بها تدريجاً طريقة الرش لأنها أقل خطراً على الصحة من الطريقة الأولى في الجواء الباردة الشمالية . وكان في وسع أى قسيس - أو أى مسيحي عند الضرورة - أن يقوم بعملية التعميد ؛ وكانت الطريقة القديمة ، طريقة تأجيل التعميد حتى يكبر الطفل ، قد استبدلت بها طريقة التعميد في سن الرضاعة ؛ وقد أنشأت بعض الجماعات وبخاصة في إيطاليا كنائس صغرى خاصة لأداء هذه الشعيرة .

وكانت مراسم تثبيت العماد والقربان المقدس تقام عند أتباع الكنيسة الشرقية بعد التعميد مباشرة . أما عند أتباع الكنيسة الغربية فقد أجلت سن تثبيت العماد شيئاً فشيئاً إلى السنة السابعة من حياة الطفل حتى يستطيع أن يتعلم المبادئ الأساسية للدين المسيحي . ولم يكن يقوم بهذه العملية إلا أحد الأساقفة ، ويصحبها دعاء إلى الروح القدس أن يدخل في جسم التعميد ، ومسح جبهته بالزيت المقدس ولطمة لطمة خفيفة على خده ؛ وهذه الطريقة الشبيهة بما كان متبعاً في مراسم الفروسية يثبت المسيحي الصغير في دينه ، ويكون له تبعاً لذلك كل ما للمسيحي من حقوق وعليه كل ما على المسيحي من واجبات .

وأهم من هذا مراسم الكفارة . فإذا كانت عقائد الكنيسة تلقن الناس أنهم آثمون ، فقد كانت تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حيناً بعد حين بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقودوا بمراسم الكفارات . فقد ورد في الإنجيل (متى الآية ١٩ من الأصحاح السادس عشر ، والآية ١٨ من الأصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا . وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها قدرة « الربط والخل » . وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن . واستبدلت

بطريقه الاعتراف العلنى التى جرت بها العادة فى أيام المسيحية الأولى طريقة الاعتراف السرى الفردى حتى لا تمس كرامة بعض الكبار ؛ ولكن الاعتراف العلنى بقى عند بعض الطوائف الخارجة على مبادئ الكنيسة . وكانت الكفارة العلنية تفرض أحياناً عند ارتكاب بعض الجرائم الشنيعة كـمذبحة سالونيك أو قتل بكت Becket . وقد قرر مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) أن يتكرر الاعتراف والعشاء الربانى كل عام ، وجعلهما من الواجبات الخطيرة ، إذا أهملهما إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة ومن الدفن دفنة مسيحية . وأريد تشجيع من يريدون التوبة وحمائهم فوضع « خاتم » على كل توبة بمفردها ؛ ومعنى هذا الخاتم أنه لا يجوز نقس أن يفشى ما اعترف له به . ونشرت منذ القرن الثامن قوائم تحدد الكفارة القانونية (التى قررتها الكنيسة) لكل مذهب - الصلوات ، والصيام ، والحج ، وإخراج الصدقات ، أو غيرها من أعمال التقى أو التصديق .

ولهذا « النظام العجيب » ، كما يصف لينتزر مراسم الكفارة ، كثير من النتائج الطبية . فهو يريح التائب من آلام وخز الضمير الصامتة المنهكة للأعصاب ؛ وهو يمكن القس من إصلاح أحوال أتباعه الخلقية والجسمية ، وهو يريح بال المذنب بما يبعثه فيه من أمل فى صلاح حاله ، وهو كما يقول فلتير المتشكك ، قيد يقلل من ارتكاب الجرائم^(٥٨) . ويقول جيته Goethe « لقد كان من الواجب ألا يحرم بنو الإنسان من الاعتراف السمعى »^(٥٩) . لكنه لم يخل من بعض النتائج السيئة : فقد كان هذا للنظام يستخدم أحياناً لتحقيق أغراض سياسية ، وذلك حين كان القساوسة مثلاً يأبون أن يغفروا للذين يناصرون الأباطرة على البابوات^(٦٠) . وكان يستخدم أحياناً فى محاكم التفتيش كما حدث حين أمر القديس شارل برميو St. Charles Borromeo (١٥٣٨ - ١٥٨٣) رئيس أساقفة ميلان قساوسته أن يطلبوا إلى من يأتونهم للتوبة على أيديهم أن يخبروهم بأسماء كل من يعرفونهم من الملحدىن أو ممن تحوم حولهم شبهة الإلحاد^(٦١)

وأخطأ بعض السذج فظنوا أن الغفران يبيع لهم أن يعودوا إلى ارتكاب الذنوب . ولما ضعف التحمس الدينى كانت الكفارات القاسية المفروضة على من يتقدمون للتوبة مما يغريهم بالكذب ، وأجيز للقساوسة أن يفرضوا على التائبين عقوبات مخففة ، كانت فى العادة هى التصديق بالمال لغرض ترنضيه الكنيسة . ونشأت من هذا « التخفيف » صكوك الغفران .

ولم يكن صك الغفران رخصة بارتكاب الإثم ، بل كان إعفاء جزئياً أو كلياً من بعض العقاب الذى يستحقه الإنسان جزاء له على آثامه الدنيوية ، أو من هذا العقاب كله ، وهذا الإعفاء تمنحه إياه الكنيسة . وكان الغفران الذى يمنح عند الاعتراف يمحو الخطيئة التى لولاه لأدت بكاسها إلى الجحيم ، ولكنه لم يكن يعفيه من العقاب « الزمنى » المترتب على إثمه . وكانت أقلية صغرى من المسيحيين هى التى تكفر عن ذنوبها فى هذا العالم تكفيراً تاماً ، أما ما بقى من هذا التكفير فيحدث فى المظهر . وكانت الكنيسة تدعى لنفسها حتى تتجاوز عن هذا العقاب ؛ وذلك بأن تنقل إلى أى نائب مسيحى يقوم بأعمال معينة من التقي أو التصديق قسماً صغيراً عن كنوز البركة التى تجمعت من تعذيب المسيح وموته ، ومن أعمال القديسين الأبرار الذين تزيد حسناتهم على سيئاتهم . وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ؛ وأعطى بعضها فى القرن الحادى عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة ؛ وكان أول صك بالغفران الكلى هو الذى عرضه إربان الثانى فى عام ١٠٩٥ على من يشركون فى الحرب الصليبية الأولى . ونشأت من هذه العادات سُنَّة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعية معينة أو يؤدون خدمات دينية خاصة ، أو ينشئون القناطر ، أو الطرق ، أو الكنائس أو المستشفيات ، أو يقطعون الغابات ، أو يحفون المستنقعات ، أو يتبرعون بالمال لحرب صليبية أو لهيئة كهنوتية أو لعبد كنسى ، أو حرب مسيحية واستخدمت هذه السنة فى كثير من الأغراض الصالحة ، ولكنها فتحت الأبواب

للمطامع البشرية ؛ فقد بعثت الكنيسة ببعض رجال الدين ، وكانوا في العادة من الرهبان ، ليجمعوا المال بأن يعرضوا على الراغبين صكوك الغفران نظير هبات يقدمها الطالبون ، أو توبة من الذنوب ، أو صلوات يؤدونها . وقد نشأ من هذه العروض التي يسميها الإنجليز « غافرات pardoners » تنافس شديد جلل بالعار كثيراً من المسيحيين ، فكانوا يتظاهرون بتعظيم بعض الآثار الدينية المزورة ليحملوا الناس على التبرع بالمال ، وكانوا يحتفظون لأنفسهم من هذه الأموال بقسط قليل أو كثير . وبذلت الكنيسة عدة محاولات لتقليل هذه المساوئ ، من ذلك أن مجلس لاتران الرابع أمر المطارنة أن ينبهوا المؤمنين إلى ما هنالك من الآثار الدينية الكاذبة والشهادات المزورة ؛ وحرمت رؤساء الأديرة من حق إصدار صكوك الغفران ، وفرضت بعض القيود على حق المطارنة في إصدارها ، وحثت جميع رجال الدين على أن يراعوا جانب الاعتدال في تحمسهم لهذه الوسيلة الجديدة . وندد مجلس ميوز الديني في عام ١٢٦١ بكثير من موزعي هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كاذبون أشرار ، يعرضون ما يعثرون عليه من عظام الناس أو الحيوان على أنها عظام أولياء صالحين ، مرنوا على البكاء حين يشاءون ، يسامون على التطهير من الذنوب بأكبر ما يستطيعون الحصول عليه من المال وبأقل ما يقدمونه من الأدعية والصلوات (٦٢) . وشهرت بها مجالس كنسية أخرى مثل هذا التشهير كمجلس فين Vienne (١٣١١) ومجلس رافنا (١٣١٧) (٦٣) ، لكن هذه المساوئ لم تنقطع .

وكان العشاء الرباني أهم الأسرار المقدسة بعد التعميد . ذلك أن الكنيسة تمسكت بحرفية العبارة المعزوة إلى المسيح وقت تناول العشاء الأخير ، والقائلة إن الخبز هو جسمه وإن النبيذ دمه . وأهم ما تقوم عليه شعيرة العشاء الرباني هو تحول رغيف الخبز وكأس النبيذ إلى جسم المسيح ودمه بقدرة القسيس المعجزة ؛ وكان الغرض الأول من القداس هو أن يسمح للمؤمنين بأن يشتركوا في « جسم »

الأقنوم الثانى من الثالث الإلهى « دمه ، ورحه ، وألوهيته » ، وذلك بأكل القربان المقدس ، وشرب النبيذ المقدس . وإذا كان شرب هذا النبيذ يعرض دم المسيح للانسكاب على الأرض فقد نشأت فى القرن الثانى عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الربانى بالخبز وحده ؛ ولما أن طالب بعض المحافظين (الذين أخذ عنهم الهوسيون البوهيميون (Hussites of Bohemia) آراءهم فيما بعد أن يتناولوا القربان بصورتيه ليتأكدا من أنهم حصلوا على دم المسيح وجسمه ، قال لهم علماء الدين إن دم المسيح « ملازم » لجسمه فى الخبز ، وإن جسمه « ملازم » لدمه فى النبيذ^(٦٤) . وانتشرت ألف قصة وقصة عن مقدرة الخبز المقدس على إخراج الشياطين ، ومداواة الأمراض ، وإطفاء النيران ، والكشف عن الكذب باختناق الكاذبين^(٦٥) . وكان يطلب إلى كل مسيحى أن يتناول العشاء الربانى مرة فى العام على الأقل ، وكان تناول الشاب المسيحى لأول مرة فرصة لإقامة المهرجانات الفخمة والحفلات السارة .

ونشأت عقيدة حضور المسيح فى أثناء العشاء الربانى نشأة بطيئة . وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هى التى أذاعها مجلس نيقية فى عام ٧٨٧ . ثم قام راهب بندكتى فرنسى يدعى رتراموس Ratramus فى عام ٨٥٥ وقال إن الخبز والخمر المقدسين لم يكونا جسم المسيح . ودمه إلا بطريقة روحية لاجسدية . وقام برنجار Berengar رئيس شمامسة تور حوالى عام ١٠٥٤ وجهر بارتياجه فى تحول الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه ، فكان جزاؤه الحرمان من الدين ، وكذب لافرانك Lafranc رئيس دير بك Bec رداً عليه (١٠٦٣) يقرر فيه العقيدة الدينية الصحيحة قال فيه :

إننا نعتقد أن المادة الأرضية . . . تستحيل بتأثير القوة السماوية التى لا يستطيع أحد وصفها . . . أو إدراك كنهها إلى جوهر جسم المسيح ؛ على حين أن مظهره ، وبعض صفاته الأخرى المتصلة بهذه الحقائق نفسها ، تبقى خافية حتى

ينجو الناس من هول رؤية الأشياء النبيثة المخضبة بالدماء ، وحتى ينال المؤمنون الجزء الكامل لإيمانهم . ومع هذا كله فإن جسم المسيح ذاته يبقى في الوقت عينه في السماء ... مصونا كاملاً ، لا يمسه أذى أو دنس^(٦٦) .

وأعلن مجلس لاتران في عام ١٢١٥ أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية في الدين المسيحي ، وأضاف مجلس ترنت Trent إلى هذا القول في عام ١٢٦٠ أن كل جزىء من الخبز المقدس مهما كسر يحتوى جسم عيسى المسيح كله ، ودمه ، وروحه ؛ وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر في الأديان البدائية - وهي أكل الإله .

وقد رفعت الكنيسة من شأن عقدة الزواج إلى أكبر حد ، وجعلتها عقدة دائمة ، حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة . وحين يحتفل بضم إنسان إلى رجال الدين يهب المطران القس الجديد بعض القوى الروحية التي ورثها عن الرسل والتي يفترضون أن الله نفسه قد وهبها إياهم عن طريق المسيح . وفي آخر الأسرار المقدسة وهو المسح الأخير ، يستمع القس إلى اعترافات المسيحي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ويمنحه المغفرة التي تنجيه من النار ، ويمسح أعضائه حتى تنظفهم من الخطيئة وتصبح مستعدة للبعث أمام الحكم العدل . ويدفنه الأحياء من أهله دفنة مسيحية بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون ، لأن الكنيسة كانت تقول إن الجسم أيضاً يبعث حياً بعد الموت ، وهم يلفونه في كفنه ، ويضعون قطعة من النقود في تابوته كما كان يفعل الأقدمون إذ يعتقدون أنهم يؤجرون كارون Charon لنقله إلى الدار الآخرة^(٦٧) ، ثم يحملونه إلى قبره باحتفال مهيب ينفق فيه الكثير من المال . وقد يستأجر النائحون أو النائحات ليكويه وينوحوا عليه ويرتدى أهله عليه سود الثياب مدة عام ، حتى لا يستطيع أحد أن يعرف لطول مدة الحزن أن قلباً ثابتاً ، وقسداً خادماً ، قد ضمنا لهذا الرجل جنة النعيم .

الفصل الثالث

الصلاة

الشعائر الدينية في كل دين عظيم لازمة لزوم العقيدة نفسها ، فهي تعلم الإيمان ، وتغذيه ، وتوجده في كثير من الأحيان ؛ وهي تربط المؤمن بربه برباط يريحه ويطمئنه ؛ وتفتن الحواس والروح بمظاهرها الروائية وشعرها ، وفنها ؛ وتربط الأفراد برباط الزمالة ، وتخلق منهم جماعة موئلفة حين تقنعهم بالاشتراك في شعائر واحدة ، وترانيم واحدة ، وأدعية وصلوات واحدة ، ثم يفكرون آخر الأمر تفكيراً واحداً .

وأقدم الصلوات المسيحية هما الصلاة التي مطلعها « أبانا الذي في السموات » والتي مطلعها « نؤمن بإله واحد » ، وقبل أن ينتهى القرن الثاني عشر بدأت الصلاة الرقيقة المحبة التي مطلعها « السلام لك يا مريم » تتخذ صيغتها المعروفة . وكانت هناك غير هذه الصلوات أورد شعيرة من الشناء والتضرع . ومن الصلوات في العصور الوسطى ما يكاد يكون رقي تمكن من يتلوها من الإتيان بالمعجزات ، ومنها ما هو إلحاح متكرر لا يتفق مع تحريم المسيح « للتكرار العديم النفع » (٦٧) . ونشأت عند الرهبان والراهبات تدريجاً ، وعند غير رجال الدين فيما بعد ، عادة استعمال المسبحة ، وهي عادة شرقية جاءها الصليبيون (٦٨) . ونشر الرهبان الدنيك هذه العادة ، كما نشر الف نسسكان عادة « طريق الصليب » أو « مواضعه » وهي التي تقضى بأن يتلو المتعبد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أو صور أربع عشرة تمثل كل منها مرحلة من مراحل آلام المسيح ؛ فكان القساوسة ، والرهبان ، والراهبات ، وبعض العلمانيين ينشدون أو يتلون أدعية الساعات القانونية — وهي أدعية ، وقراءات ، ومزامير ، وترانيم صاغها البندكتيون وغيرهم

وجمعها ألكوين Alcuin وجريجورى السابع فى كتاب موجز . وكانت هذه الأدعية تطرق أبواب السماء من مليون كنيسة وبيت متفرقة فى جميع أنحاء الأرض كل يوم وليلة فى فترات بين كل واحدة والتى تليها ثلاث ساعات . وما من شك فى أن نغماتها الموسيقية كان لها أحسن الوقع على آذان أصحاب البيوت التى تستمع إليها كما يقول أوردرىكس فيتالس : Ordericus Vitalis « ما أحلى أناشيد العبادة الإلهية التى تطمئن بها قلوب المؤمنين : وتدخل عليهم السرور » (٢٩) .

وكثيراً ما كانت الصلوات الرسمية التى تقلى الكنائس توجه إلى الله الأب ؛ وكان عدد قليل منها يوجه إلى الروح القدس ؛ ولكن صلوات الشعب كانت توجه فى الأغلب الأعم إلى عيسى ومريم ، والقديسين . وكان الناس يخافون الله سبحانه وتعالى ، فقد كان لا يزال يتصف فى عقول العامة بكثير من القسوة التى كانت ليهوه ؛ وكيف يجروء الشخص المذنب الساذج أن يوجه صلاته إلى ذلك العرش الرهيب البعيد ؟ إن عيسى لأقرب إليه من ذلك العرش ، ولكنه هو أيضاً إله ، ومن أصعب الأشياء أن يجروء الإنسان على مخاطبته . وجهاً لوجه بعد أن أنكر نعمه هذا النكران التام . ومن أجل هذا بدا للناس أن من الحكمة أن توجه الأدعية والصلوات إلى أحد القديسين (أو إحدى القديسات) تشهد قوانين الكنيسة بمقامه فى الجنة ، وأن يتوسل إليه بأن يكون وسيلته عند المسيح . وبهذه الطريقة بعثت فى عقول العامة من الماضى الذى لا يبيد أبداً جميع مظاهر الشرك الشعيرة الخيالية . وملاأت العبادات المسيحية بطائفة كبيرة من الأرواح ، ترافق الناس ، وتشد عزائمهم . وتكون لهم إخوة على الأرض تقربهم إلى السماء . وتخلص الدين من عناصره الأكثر قتامة ، فكان لكل أمة ، ومدينة ، ودير ، وكنيسة ، وحرقة ، ونفس ، وأزمة من أزمات الحياة ، وليتها الشفيع النصير ، كما كان لكل منها إله فى رومة القديمة . كان لإنجلترا القديس

جورج ، وفرنسا القديس دنيس ؛ وكان القديس بارثولميو حامى الدابغين ، لأن جلده سلخ وهو حى ؛ كان صانعو الشموع يضرعون إلى القديس يوحنا لأنه غمر فى قدر مليئة بالزيت المشتعل ؛ وكان القديس كرسفر St. Christopher نصير الحماليين لأنه حمل المسيح على كتفيه ، وكانت مريم المجدلية تتلقى توسلات بائعى العطور لأنها صبت زيتاً عطرة على قدمى المسيح المنقذ . وكان لكل من يحدث له حادث طارىء ، أو يصاب بمرض ، صديق فى السموات ؛ فكان القديس سبستيان والقديس رتش Roch ذوى قوة وبأس فى أيام الوباء . وكان القديس أبولينيا St. Appolinia الذى كسر الجلاّد فكه يشفى ألم الأسنان ؛ والقديس بليز St. Blaise يشفى آلام الحلق ، والقديس كورنى St. Corneille بحمى الثيران ، والقديس جول Gall يحمى الدجاج والقديس أنطون يحمى الخنازير ؛ وكان القديس ميدارد Médard هو الذى تتضرع إليه فرنسا أكثر من سائر القديسين لينزل إليها المطر ، فإذا لم ينزله ألّقى عبّاده الذين ينفد صبرهم تمثالاً له فى الماء من حين إلى حين ، ولعل هذا كان بمثابة رقية سحرية (٧٠) .

ووضعت الكنيسة تقويماً كنسيا جعلت كل يوم فيه عيداً لأحد القديسين . ولكن التقويم لم يتسع للخمسة والعشرين ألفاً من القديسين الذين اعترفت بهم قوانين الكنيسة قبل أن يحلّ القرن العاشر الميلادى . وقد بلغ من معرفة الشعب بتقويم القديسين أن التقويم العادى قسم السنة الزراعية أقساماً أطلق على كل منها اسم أحد القديسين ؛ ففى فرنسا مثلاً كان عيد القديس جورج يوم البذر ، وفى إنجلترا كان عيد القديس فالنتين St. Valentine يحدد آخر فصل الشتاء ؛ فإذا حل ذلك اليوم ، على حد قولهم ، تراوجت الطيور بحماسة فى الغابات ، ووضع الشباب الأزهار على أعتاب النوافذ فى بيوت البنات اللاتي يحبونهن . ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة داوموا على عبادتهم وإحياء ذكراهم ، أو لأن مكاناً ما قد أصرّ على هذه العبادة على الرغم من

معارضة رجال الدين . وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين في الكنائس ، والميادين العامة ، وفي الطرق ، وفوق المباني ، وتلقت من أنواع العبادة التلقائية ما جلل بالعار بعض الفلاسفة ومحطى العصور المقدسة . واضطر كلوديوس أسقف تورين إلى الشكوى من أن كثيرين من الناس « يعبدون صور القديسين ؛ . . . فهم لم يقلعوا عن عبادة الأصنام ، بل كل ما في الأمر أنهم غيروا أسماءها » (٧١) . وبهذه الطريقة ، على الأقل ، أوجدت إرادة الشعب وحاجته شكل العبادة التي يتبعها .

وما دام القديسون قد كثر عددهم إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعاً لذلك مخلفاتهم — عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شيء استعملوه في حياتهم . وكان المفروض أن كل مذبح يشمل واحداً أو أكثر من واحد من هذه المخلفات ؛ فكانت بأسلعة القديس بطرس تباهى بأنها تحتوى جسد القديسين بطرس وبولس اللذين أصبحت رومة بفضلهما كعبة الحجاج من جميع أنحاء أوروبا . وكانت كنيسة في سانت أومر St. Omer تدعى أن فيها قطعاً من الصليب الحقيقي ومن الحربة التي اخترقت جسم المسيح ، ومن مهده ، وقبره ، ومن المن الذي نزل من السماء ، ومن عصا هارون ، ومن المذبح الذي تلا عليه القديس بطرس القداس ، ومن شعر تومس أبكت وقلنسوته ، وقيصه المنسوج من الشعر ، والشعر الذي جز من مقدم رأسه ، ومن الألواح الحجرية الأصلية التي سجّلت عليها الوصايا العشر لإصبع الله نفسه (٧٢) ، وتحتوى كنيسة أمين Amiens رأس يوحنا المعمدان في كأس فضية (٧٣) ، ويحتوى دير القديس دنيس جسم ديونيسيوس الأريوبجي Dionysius the Areopagite وتاجه الشوكي . وتدعى واحدة من ثلاث كنائس متفرقة في فرنسا أن فيها جسد مريم المجدلية كاملاً (٧٤) ؛ كما تؤكد خمس كنائس في فرنسا أن في كل منها الأثر الحقيقي الوحيد الباقي من ختان المسيح (٧٥) . وتعرض كنيسة إكستر Exter أجزاء من

الشمعة التي استعملها ملاك الله لإضاءة قبر عيسى ، وأجزاء من العشب الذي تحدث منه الله إلى موسى (٧٦) . وفي دير وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه (٧٧) . ويعرض أحد أديرة درهام مفصلا من مفصل القديس لورنس ، والفحم الذي أحرقه ، والصفحة التي قدم عليها رأس يوحنا المعمدان إلى هيرود ، وقيص العذراء ، وقطعة من الصخر عليها علامات نقط من لبنها (٧٨) . وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام ١٢٠٤ غنية أكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة ، فكان فيها الحرية التي نفدت في جسم المسيح ، والتي لاتزال حمراء من دمه ، والعصا التي ضُرب بها ، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقي مغلقة بالذهب ، وثريد الخبز الذي قدم ليهوذا في العشاء الأخير ، وشعرات من لحية المسيح ، وذراع يوحنا المعمدان إلخ... (٧٩) . وسرقت كثير من هذه المخلفات حين نهبت القسطنطينية ، ثم اشترى بعضها ، وأخذت تنقل من كنيسة إلى كنيسة في بلاد الغرب إلى أيدي من يودى فيها أكبر الأثمان . وكانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات . وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما في وسعهم للحصول على أقل أثر ، أو أقل أثر من أثر ليتخذوه طلسما - كخيط من ثوب قديس ، أو قليل من تراب علية مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس في ضريح . وكانت الأديرة تتنافس وتتنازع في جمع المخلفات وعرضها على العباد الأمحاء ، لأن امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدرّ على الدير أو الكنيسة ثروة طائلة .

وحسبنا مثالا لهذا أن نذكر أن « نقل » عظام تومس أبكت إلى ضريح جديد في كنيسة كاتدرى الكبرى (١٢٢٠) جمع من الذين شاهدوا هذا العمل ما يقدر بنحو ٣٠٠٠٠ رyal أمريكي بنقود هذه الأيام (٨٠) . واجتذب هذا العمل الرايح كثيرا من ممارسيه ، فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغيرها الكسب بـ « كشف » مخلفات

جديدة حين تحتاج إلى المال . وكان شر هذه المساوئ هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته (٨١) .

ومما يذكر بالحمد لبعض رجال الدين من غير رجال الأديرة ، وللكثرة الغالبة من الأديرة نفسها ، أنها لم تكن ترضى ، وأنها كثيراً ما كانت تندد ، بهذه الدكاكيرية (الفيتنشية) المسرفة الواسعة الانتشار . ومن الرهبان الذين يسعون إلى العزلة في عباداتهم من لم يكونوا يرضون عن المعجزات التي تفعلها مخلفات أديرتهم . من ذلك أن رئيس جرامونت Grammont توسل إلى مخلفات القديس استيفن أن تمتنع عن الإتيان بخوارق العادات ، لأنها تغرى الجموع الصاخبة بالتجمع ؛ ثم هدد القديس بقوله : « وإلا ألقينا عظامك في النهر » (٨٢) . ولم تكن الكنيسة هي التي تزعمت حركة خلق الأقاصيص الخرافية عن معجزات المخلفات أو مضاعفة عددها ، بل الشعوب هي التي فعلت هذا ، وكثيراً ما كانت الكنيسة تحذر الجماهير من تصديق ما يذاع من تلك الأقاصيص (٨٣) . مثال ذلك أن مرسوماً إمبراطورياً لعله صدر بناء على طلب الكنيسة حرّم على الناس « حمل » مخلفات القديسين « أو بيعها » وأن القديس أوغسطين شكّا من المنافقين الذين يلبسون مسح الرهبان « والذين » يتجرون في أجسام الشهداء ، إذا كانوا شهداء بحق » ، وقد أعاد جستنيان نشر هذا المرسوم (٨٤) . وكتب الأب جيبيرت النوجنتي Guibert of Nogent حوالى عام ١١١٩ رسالة في مخلفات القديسين ينادى فيها بوضع حد لجنون المخلفات ، ويقول إن الكثير من هذه الآثار « لأولياء .. اشتهروا في سجلات لا قيمة لها » ، وإن بعض « رؤساء الأديرة أغوتهم كثرة ما يحمل إليهم من الهدايا ، فقبلوا اصطناع المعجزات الكاذبة » ، « وثمة نساء عجائز ونساء ساقطات كثيرات يتغنين بالأقاصيص الكاذبة عن القديسين الشفعاء وهنّ يعملن على أنوالهن . . . فإذا ما قنسد إنسان أقوالهن هاجته . . . بلقائطتهن » . ويقول إنه قلما أوتى أحد من رجال الدين

الجرأة أو الشجاعة على الاحتجاج ، ويعترف بأنه هو نفسه قد سكت حين رأى تجار الخلفات يعرضون على المؤمنين المصدقين « بعض ذلك الخبز عينه الذى مضغه السيد المسيح بأسنانه نفسها » ؛ ذلك « أنى لو جادلت المجانين لحقّ على القول بأنى مجنون » (٨٥) . ويضيف إلى ذلك أن فى عدد من الكنائس زعوساً كاملة ليوحنا المعمدان ، ويعجب مما كان لهذا القديس من رعوس كثيرة لا يمكن أن يقطعها قاطع (٨٦) . وحرم البابا اسكندر الثالث (١١٧٩) على الأديرة أن تطوف بما عندها من الخلفات لجمع التبرعات ؛ كما حرّم مجلس لاتران المنعقد فى عام ١٢١٥ عرض الخلفات فى خارج الأضرحة (٨٧) ؛ وندد مجلس ليون الثانى (١٢٧٤) بـ « الخط من قدر » الخلفات والصور (٨٨) .

ويمكن القول بوجه عام إن ما قامت به الكنيسة لم يكن هو تشجيع الخرافات بل كان أكبر نصيب لها فى هذه الناحية هو أنها ورثتها من خيال الناس أو من تقاليد عالم البحر المتوسط . وكان الإيمان بما لبعض الخلفات ، والطلاسم ، والتأتم ، والرقي ، من قدرة على الإتيان بالمعجزات عزيزاً على المسيحيين والمسلمين على السواء ، وقد ورثوا هذه العقائد من الأديان الوثنية القديمة . وبقيت أشكال قديمة من عبادة عضو التذكير زمناً طويلاً فى العصور الوسطى ، ولكن الكنيسة ألغتها شيئاً فشيئاً (٨٩) . وورثت عبادة الله بوصفه رب الجيوش ، وملك الملوك ، بعض أساليب التقرب إليه وتعظيمه ، ومخاطبته ، من الساميين والرومان ؛ وتذكرنا عادة حرق البخور أمام المذبح أو رجال الدين بعبادة تقريب القرابين المحروقة ؛ أما عادة الرش بالماء المقدس فكانت صورة قديمة من التعاويذ ؛ وأما المواكب ومراسم التطهير فهى امتداد لشعائر موغلة فى القدم ؛ وملابس القساوسة ، وتلقيب البابا بالخبر الأعظم Pontifex Maximus تراث من رومة الوثنية . ووجدت الكنيسة أن معتنى المسيحية من أهل الريف لايزالون يعظمون بعض العيون ، والآبار ، والأشجار ،

والحجارة ؛ فرأت أن من الحكمة أن تخلع البركة على هذه الأشياء ، وأن يستخدمها المسيحيون بدل أن تقضي قضاء مفاجئاً سريعاً على عادات شديدة الارتباط بعواطف الخلق . واتباعاً لهذا دشنت مجموعة من الحجارة في صورة مائدة في بلواريه Plouaret على أنها مصلى القديسين السبعة ، وحللت عبادة شجرة البلوط بأن علقت على الأشجار صور القديسين المسيحيين^(٩٠) . وعادت الاحتفالات الوثنية العزيزة على الشعوب أو التي لا بد منها لكي تبجح للناس الخروج على قواعد الأخلاق وأضحت أعياداً مسيحية ، واستحالت الطقوس الوثنية النباتية طقوساً كنسية مسيحية وظل الناس كما كانوا من قبل يوقدون النيران في منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا(*) ؛ وسمى عيد قيام المسيح (عيد القيامة) بالاسم الوثني القديم Eostre وهو اسم إلهة الربيع التيوتونية القديمة ، وحل تقويم القديسين المسيحي محل التقويم الروماني ؛ وأجازت الكنيسة أن تبقى الأرباب القديمة العزيزة على الناس وأن تحمل أسماء قديسين مسيحيين ، فأضحت إلهة النصر Dea Victovria إلهة إقليم الألب الأدنى هي القديسة فكتوار St. Victoire ، كما ولد كاستر وبلكس Castor and Pollux من جديد وأصبحا هما القديسين كزماس Cosmas ودميان Damian .

وكان أعظم ما ظفرت به هذه الروح ، روح التكيف المتساعمة ، من نصر هو السمو بعبادة الإلهة الأم الوثنية واستحالتها إلى عبادة مريم أم المسيح . وهنا أيضاً كان الشعب هو البادئ بهذا التسامي . ذلك أن سيريل Cyril كبير أساقفة الإسكندرية ووصف ، في موعظة له شهيرة ألقاها في إفسس Ephesus عام ٤٣١ ، مريم بكثير من العبارات التي كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها « إلهتهم الكبرى » أرتيميس — ديانا Artimis-Diana دلالة على حبهم إياها

(*) ويطلق على هذا العيد بالإنجليزية اسم Easter وكان عيد هذه الإلهة يحتفل به في يوم الاعتدال الربيعي . (المترجم)

واعترازهم بها ، ووافق مجلس إفسس في تلك السنة على أن تلقب مريم « أم الإله » وعلى الرغم من احتجاج نسطوريوس Nestorius . وما لبثت أرق صفات عشوت ، وسبيل ، وأرتيمس ، وديانا ، وإيزيس أن جُعت كلها في عادة مريم . ثم قررت الكنيسة في القرن السادس إقامة الاحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء ، وحددته باليوم الثالث عشر من شهر أغسطس ، وهو تاريخ عيدين قديمين لإيزيس وأرتيمس (٩١) . وأضحى مريم القديسة الشفعية للقسطنطينية وللأسرة الإمبراطورية ، وكانت صورتها تحمل في مقدمة كل موكب عظيم ، وكانت (ولاتزال) تعلق في كل كنيسة وبيت في العالم المسيحي اليوناني . وأكبر الظن أن الصليبيين هم الذين جاءوا من الشرق إلى الغرب بعبادة العذراء عبادة قوية بمظاهر ذات جمال وروعة (٩٢) .

ولم تشع الكنيسة نفسها عبادة مريم . نعم إن آباء الكنيسة كانوا قد كرموا مريم وفضلوها عن حواء ؛ ولكن عداءهم للمرأة بوجه عام ، ووصفهم إياها بأنها « الوعاء الضعيف » ، ومصدر كل غواية بارتكاب الإثم ؛ وخوف الرهبان من النساء وفرارهم منهن ، وحمة الوعاظ على مفاتن النساء ونقائصهن — هذا كله لم يكن من شأنه أن يؤدي إلى عبادة مريم هذه العبادة القوية الشاملة . وكان الشعب وحده هو الذي ابتدع أجمل زهرة في العالم الروحي أثناء العصور الوسطى وجعل مريم أقرب الأشخاص إلى القلوب في التاريخ كله . ذلك أن سكان أوروبا المستفيقة من رقتها لم يعودوا يقبلون تلك الصورة الصارمة لإله يعاقب الكثرة الغالبة من خلقه بلقائهم في نار جهنم ، فخففوا من تلقاء أنفسهم الأحوال التي يحدثهم عنها علماء الدين بما خلعه على أم المسيح من صفات الرحمة والحنان ، وكانوا يرون أن في وسعهم أن يقتربوا من عيسى — وهو لا يزال عندهم أسمى وأعدل من أن يتصلوا به مباشرة — عن طريق أمه التي لا ترد سائلا ، والتي لا يستطيع ابنها أن يرد لها شفاعته . وحسبنا دليلا على رأى الناس

في مريم القصة التي يرويها قيصر يوس المسترباخي *Caesarius of Heisterbach* (١٢٣٠) وهي أن شاباً أغواه الشيطان بإنكار المسيح نظير ثروة طائلة وعدها إياه ، ولكنه لم يفلح في أن يغريه بإنكار مريم ؛ فلما تاب الشاب استطاعت مريم أن تقنع المسيح بالعفو عنه . ويحدثنا الراهب نفسه عن أخ له سترسى من غير رجال الدين سمعه يناجى المسيح بقوله : « رباه ! إن لم تنقذنى من هذه الغواية فسأشكوك إلى أمك » (٩٣) . وقد بلغت صلوات الناس لها من الكثرة حداً جعل خيال العامة يصور عيسى في صورة من يغار منها ، فيقولون إن شخصاً ملأ السموات بصلاة العذراء « السلام لك يا مريم » فظهر له المسيح ، كما تقول القصة الطريفة ، وأنه أشد التأنيب وقال له : « إن أمتي لشكر لك كثيراً ما قدمت لها من أدعية وصلوات ، ولكن عليك مع ذلك ألا تغفل عن الصلاة لى أيضاً » (٩٤) . ولقد كانت عدالة المسيح في حاجة إلى رحمة مريم لتخففها ، كما كانت صرامة يهوه في حاجة إلى المسيح . والحق أن أم المسيح أصبحت كما وصفها القرآن ، ثالثة الثالث الجديده ، يشترك كل إنسان في حبها والثناء عليها ؛ فالعصاة أمثال أيلار ينحنون لها إجلالاً وتكريماً ، والهجاءون أمثال روتبوف *Rutebeuf* ، والمتشككون الصخابون أمثال المدرسين الجوالين لم يكونوا يجرعون على النطق بكلمة نائية عنها ؛ وكان الفرسان يندرون أنفسهم لخدمتها ، والمدن تقدم لها مفاتيحها ، والطبقات الوسطى الرأسمالية الناشئة ترى فيها الرمز الطاهر للأومومة والأسرة ؛ والجفء الغلاظ من رجال النقابات الطائفية - وحتى أبطال الثكنات وميادين القتال الذين لا يتورعون عن النطق بأقبح الألفاظ فيما هو مقدس - يتبارون مع الفتيات القرويات والأمهات الثاكلات في توجيه صلواتهم إليها ووضع هداياهم تحت قدميها (٩٥) . وكان أقوى أسفار العصور الوسطى عاطفة هو ذلك الورد الذى يعلن في حماسة متأججة متزايدة مجدها وبطلب معونتها . ولم يكن مكان ما يخلو من صورة لها ، بل لم تخل منها منحنيات

الشوارع وملتقيات الطرق والحقول . ولما أن تمخض القرنان الثاني عشر والثالث عشر عن أنبل مولد للشعور الدينى فى التاريخ أقبل الفقراء والأغنياء ، والأذلاء والعظاء ، ورجال الدنيا ورجال الدين ، والفنانون ، والصناع ، أقبل هؤلاء جميعاً يحدون بما ادخروه من مال وبما لديهم من حذق ومهارة لتكريمها فى ألف كنيسة وكنيسة سميت كلها إلا القليل منها باسمها أو كان أبهى ما فيها حرماً خاصاً هو ضريحها .

وعلى هذا النحو نشأ دين جديد ، ولعل السبب فى بقاء الكاثلكة إلى هذا اليوم هو أنها استوعبت هذا الدين . وصيغ إنجيل لمرىم ، لا تعترف به الكنيسة ، ولا يصدقه العقل ، ولكنه يفتتن به افتتاناً يحلّ عن الوصف ، وضع الشعب ما فيه من القصص وسطرها الرهبان ؛ نذكر منها القصة الرهبانية التى تقول إن أرملة قدمت ولدها الوحيد استجابة لنداء وطنها ، فلما أسره العدو أخذت الأرملة تصلى إلى العذراء فى كل يوم أن تنقذ ولدها وترده إليها ؛ ومرت على ذلك أسابيع طوال لم تستجب العذراء لدعائها ، فما كان منها إلا أن سرقت تمثال الطفل عيسى من بين ذراعى أمه وأخفته فى بيتها ، وحينئذ فتحت العذراء السجن ، وأطلقت سراح الشاب ، وأمرته أن « بلغ أمك ، يا بنى أن ترد إلى ولدى بعد أن رددت إليها ولدها » (٩١) .

وجميع رئيس دير فرنسى يدعى جولتييه ده كوانسى Gaultier de Coincy أقاصيص مريم فى قصيدة طويلة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت ، نجد فيها العذراء تشفى راهباً مريضاً بأن تجعله يمتص اللبن من ثديها العذب . وقبض على لص كان على الدوام يصلى لها قبل أن يقدم على السرقة ، وعلق اللص ليشق ، ولكن يديها ظلتا ترفعانه دون أن يراها أحد فلما تبين الناس أنها تحميه ، أطلق سراحه ؛ وخرجت راهبة من ديرها لتحيا حياة الإثم ، فلما عادت إلى الدير بعد عدة سنين تائبة محطمة الروح ، وجدت العذراء - التى لم تغفل هى عن الصلاة إليها فى كل يوم - قد شغلت مكانها على الدوام ، وأن

إنساناً ما لم يلاحظ غيابها^(١٧) . ولم يكن في مقدور الكنيسة أن ترتضى هذه القصص كلها ، ولكنها كانت تقيم احتفالات عظيمة في ذكرى الحوادث البارزة في حياة مريم - كالإبشارة ، والزيارة^(*) ، والتطهير (عيد تطهير العذراء ودخول المسيح إلى الهيكل) ، والصعود ؛ ثم خضعت الكنيسة آخر الأمر إلى إلحاح أجيال من غير رجال الدين ومن الرهبان الفرنسيسكان فأجازت للمؤمنين أن يعتقدوا ، ثم أمرتهم في عام ١٨٥٤ أن يعتقدوا ، بالحمل بلا دنس - أى أن مريم قد حملت مبرءاً من أثر الخطيئة الأولى التى تلتطخ ، حسب قول الكنيسة ، كل طفل يولد من رجل وامرأة من عهد آدم وحواء . واستحالت الكاتوليكية بفضل عبادة مريم من دين رهبنة - لعلها كانت ضرورية في العصور الوسطى - إلى دين رحمة وحب ؛ وإن نصف ما في العبادات الكاثوليكية من جمال ، وكثيراً مما في الفن الكاثوليكي والغناء الكاثوليكي من روعة وجلال ، لمن خلق هذا الإيمان السامى الذى يتجلى في وفاء امرأة ورقتها ، بل وفي جمال جسمها ورشاقها . لقد دخلت بنات حواء الهيكل وبدلت روحه ؛ وكانت هذه الكاتوليكية الجديدة من الأسباب التى ظهرت الإقطاع فاستحال فروسية ، ورفعت من شأن المرأة إلى حد ما في عالم من صنع الرجال ؛ وبفضله وهب النحت والتصوير في العصور الوسطى فن تلك العصور عمقاً ورقة قلما كان اليونان يعرفونهما في عهدهم . وفي وسع الإنسان أن يعفو عن كثير مما في دين وفي عصر أوجدا مريم وكنائسها الكبرى .

(*) زيارة مريم العذراء لإليصابات قبل أن تلد هذه ابنتها يوحنا المعمدان ، وتحتفل الكاتوليكية بهذه الذكرى في ٢ يولية من كل عام . (المترجم)

الفصل الرابع

الطقوس

لقد كانت الكنيسة حكيمة إذ أفسحت في فنها ، وترانيمها ، وصلواتها ، مكاناً لعبادة العذراء ؛ ولكنها أصرت في العناصر القديمة من عباداتها وطقوسها على النواحي الصارمة الجدية من الدين . من ذلك أنها جرت على السنة التي كان يجري عليها الأقدمون ، ولعلها رأت في هذه السنة فائدة للصحة ، فشرعت الصيام في أوقات معينة ، نهت فيها عن أكل اللحم في جميع أيام الجمعة ، كما حرمت أكل اللحم ، والبيض ، والجبن ، طوال أيام الصوم الكبير الأربعين ، وأمرت أن يدوم ذلك الصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ؛ وأمرت كذلك ألا يكون في هذه الفترة زواج ، أو طرب ، أو صيد ، أو محاكمات في دور القضاء ، أو صلوات جنسية بين الرجال والنساء^(٩٨) . وكانت هذه نصائح لمن أراد أن يكون مسيحياً كاملاً ، وقلما كان أحد يتمسك بها ، أو يرغم على اتباعها ، ولكنها أفادت في تقوية الإرادة وكبح الشهوات عند خلائق نهمين شهوانيين .

وكانت الصلوات أيضاً مما ورثته الكنيسة عن الأقدمين ، ثم عدلت فصارت أشكالاً من التمثيل الديني ، والموسيقى الدينية والنن الديني ، رفيعة ، سامية ، مؤثرة في النفس . وكانت أقدم العناصر في الصلاة المسيحية هي مزامير العهد القديم وأدعية هيكل أورشليم وعظاته ، وقرءات من العهد الجديد ، وتناول التبربان المتدس . وأدى انقسام الكنيسة شرقية وغربية إلى اختلاف في الشعائر الدينية ، كما أدى عجز البابوات الأولين عن أن يفرضوا إرادتهم كاملة خارج حدود إيطاليا لرسطى إلى وجود خلاف في الحفلات الدينية حتى داخل الكنيسة

اللاتينية نفسها . من ذلك أن أحد الطقوس الذى استقر فى ميلان انتشر إلى أسبانيا ، وغالة ، وأيرلندة ، وشملى بريطانيا ، ولم تغلب عليه الطقوس الرومانية إلا فى عام ٦٦٤ . وأصلح البابا هديران الأول طقوس الكنيسة فى منشور خاص بعث به شرلمان حوالى آخر القرن الثامن ؛ ولعل عمله هذا كان إتماما لجهود بنلها جريجورى الأول فى هذه السبيل ، ودون جويوم دوران Guillaume Durand أهم طقوس الكنيسة الرومانية فى كتابه

« عرصة للوظائف الربنية ، قائم على العقل Rationale divinarum officiorum (١٢٨٦) . وفى وسعنا أن ندرك ما لقيه هذا المؤلف من قبول إذا عرفنا أنه أول ما طبع من الكتب بعد الكتاب المقدس . وكان المحور الذى تدور عليه العبادات المسيحية وأهم شعائرها هو القداس . وكان هذا الاحتفال يعرف فى القرون الأربعة الأولى باسم « الحمد Eucharist » ، وقد بقيت هذه الذكرى القدسية للعشاء الأخير جوهر الصلوات وعمادها الأساسى ، ثم اجتمعت حولها فى خلال اثنى عشر قرناً من الزمان مراسيم متتابعة معقدة من الأدعية والتراتيم تختلف باختلاف أيام السنة ، وفصولها ، والغرض الذى يقام من أجله هذا القداس أو ذاك ، ودونت هذه المراسم فى كتاب القداس ليسهل على القس الرجوع إليها . وكانت الكنيسة اليونانية تفصل بين الرجال والنساء وقت الاجتماع لإقامة القداس كما كانت الكنيسة اللاتينية تفعل ذلك فى بعض الأحيان . ولم تكن هناك كراسى يجلس عليها المصلون ، بل كانوا يؤدون الصلاة وهم وقوف ، وكانوا فى بعض المحطات الرهيبة يؤدون راكعين ؛ ويعنى من الوقوف والركوع الشيوخ والضعفاء ؛ وأقيمت للرهبان والقساوسة الذين يضطرون إلى الوقوف خلال الصلاة الطويلة أفاريز صغيرة فى أمكنة الترتيل لتسند الجزء الأسفل من العمود الفقرى ، وأضحت هذه الرصمات misericordiae موضع عناية ناحت الخشب وحذقه . وكان القس الذى يقيم القداس يدخل وعليه (توغا toga) كالتى

يرتديها اليونان والرومان الأقدمون ، يغطيها قميص أبيض طويل all ، وحلة القديس Cbasuble وبطرشيل stole وكلها أثواب زاهية عليها زخارف رمزية ، أكثرها ظهوراً الأحرف IHS وهي أوائل الكلمات Jesos Huiss Soter أى عيسى ابن (الله) المنقذ . وكان القديس نفسه يبدأ عند أسفل المذبح بهذا النشيد المتواضع : سأدخل فى مذبح الله ، ويضيف إليه السادن : « إلى الله الذى يضيف البهجة على شبابى » . ثم يصعد القس المذبح ويقبله لأنه المكان المقدس الذى أودعت فيه مخلفات القديس . وترنم بالدعاء الذى مطلعته كبرى اليسون kyrie eleison (ارحمنا يا الله) وهو بقية يونانية فى القديس اللاتينى . ويتلو بعدئذ دعاء المجد (« المجد لله فى العلا ») والدعاء الأساسى الذى مطلعته « نؤمن بإله واحد » ثم يدشن قطعاً صغيرة من الخبز وقدرحاً من الخمر لتكون لجسم المسيح ودمه بأن يتلو عليها تلك الكلمات : هذا جسدى وهذا دمى .

Hic est sanguinis meus (*) و Hoc est corpus meum

ثم يعرض هذه العناصر المتحولة - أى ابن الله - لتكون قرباناً يتقرب به إلى الله وإحياء لذكرى التضحية على الصليب ، وبديلاً من التضحية القديمة بالأحياء . ثم يلتفت القس إلى المصلين ويأمرهم بأن يسموا بقلوبهم إلى الله ، فيرد عليه السادن بوصفه نائباً عن المصلين بقوله : « إنا نرفعها إلى الرب » . ويتلو القديس بعدئذ القديس المثلث Triple Sanctus وتحمل الله Ognus Dei ، وأبانا الذى ؛ ويشترك هو نفسه فى تناول الخبز والخمر المقدسين ، ويقدم العشاء الربانى إلى الحاضرين ، وبعد أن يؤدى عدة صلوات إضافية ينطق بالصيغة الأخيرة وهى : تفرقوا ، حان الفراق Ite missa est . ولعل لفظ القديس الإنجليزية mass مشتق من لفظ missa هذا^(٩٩) . ويبقى بعد هذا من القديس فى أشكاله المتأخرة أن يبارك القس المصلين ، وأن تتلى بعض فقرات أخرى من الإنجيل - وهى

(*) ومن هذه الألفاظ اشتق الساخرون « لفظ hevnspocus

عادة الديباجة الأفلاطونية الجديدة من إنجيل يوحنا . ولا يقام القداس عادة إلا على يد مطران ، وبعد القرن الثاني عشر لم يكن يقام إلا إذا أُلقي فيه راهب موعظة .

وكان القداس يُنشد على الدوام في أول الأمر ، وكان المصلون يشتركون في إنشاده ؛ ثم قلَّ اشتراكهم فيه أثناء القرن الرابع وما بعده ، وأخذ مرتلون مختصون يردون على المنشد(*) . وتعدّ الترانيم التي يتغنّى بها في الصلوات المختلفة بالكنايس من أعظم ما أنتجته العاطفة والفن في العصور الوسطى روعة وأقواها في النفس أثراً . ويبدأ التاريخ المعروف للترانيم اللاتينية بهلارى Hilary أسقف پواتيه (المتوفى عام ٣٦٧) . ذلك أنه لما عاد إلى غالة من منفاه في بلاد الشام جاء معه ببعض الترانيم اليونانية - الشرقية ، وترجمها إلى اللغة اللاتينية ، وأضاف إليها ترانيم أخرى من عنده ، وقد فقدت هذه كلها . ووضع أمبروز Ambrose بداية أخرى في ميلان ، ولدينا من ترانيم الطنانة ثمان عشرة ترنيمة كان لحرارتها المكبوتة أعظم الأثر في نفس أوغسطين . وأكبر الظن أن ترنيمة الشكر والإيمان النبيلة التي مطلعها « الشكر لك يا الله » والتي كانت تغزى قبل إلى أمبروز قد كتبها نيقيتاس مطران ريمسيانا Remisiana في أواخر القرن الرابع . وربما كانت الترانيم اللاتينية قد أصبحت أرق من الترانيم السابقة إحساساً وأجل صورة لتأثرها بالشعر العربي الإسلامي والبروفنسالى^(١٠٠) . ومن الترانيم ما يكاد يكون عبارات ركيكة لا تزيد على ألفاظ رنانة ، مقفاة ؛ غير أن ترانيم عهد العصور الوسطى الزاهر - في القرنين الثاني عشر والثالث عشر - أضحت من جوامع الكلم ، محكمة العبارات ، تتخللها القوافي الرخيمة ، وتعبّر عن أفكار طيبة رقيقة ، ترفعها إلى مستوى أعظم الشعر الوجداني الذي أنتجه الأدب العالمي .

(*) انظر الباب الثالث والثلاثين ففيه تفصيل واف لموسيقى القداس .

وجاء إلى دير القديس فكتور الشهير القائم في خارج باريس حوالى عام ١١٣٠ شاب من بريطاني بفرنسا ، لا نعرف من اسمه أكثر من آدم نزيل دير القديس فكتور . وقضى الشاب في ذلك الدير الستين عاما الباقية من عمره هادئاً راضياً ، وتشرب بروح هوجو Hugo ورتشرد الصوفيين الذائعي الصيت ، وعبر عن هذه النزعة الصوفية تعبيراً متواضعاً ، حلواً ، قويا ، ترانيم يقصد بمعظمها أن تتلى بعد مراسم القداس . وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألف راهب فرنسيسكاني يدعى چكوبون ده تودى Jacopone de Todi (١٢٢٨ ؟ - ١٣٠٦) أعظم ترنيمة في العصور الوسطى وهى المعروفة باسم « وقفت الأم Sébat mother » . وكان چكوبون هذا محامياً ناجحاً في تودى القرية من پروجيا Perugia ، واشتهرت زوجته بصلاحها وجمالها ، وماتت هذه الزوجة إثر حادث سقوط طوار عليها في أحد الأعياد ؛ فذهب الحزن بعقل چكوبان ، وأخذ يحول على غير هدى في طرق أمبريا Umbria مردداً بأعلى صوته ذنوبه وأحزانه ، وطلّى نفسه بالقار والریش ، وأخذ يمشی على أربع ، وانضم إلى جماعة الفرنسيسكان وأنشأ القصيدة التى تحتوى في إيجاز ما كان في هذا الوقت من تقى وحنان :

وقفت الأم كسيرة القلب ،

تزرّف الدمع أمام الصليب

وابنها معلق محتضر ،

وقد نفذ في روحها المثقلة بالأحزان ،

وهى تندبه وتتألم من أجله ،

سيف الأسى البتار .

ألا ما أشد حزنها

تلك الأم التى أنعم الله عليها بابنها الوحيد ،

والتي رماها الزمان بسهامه !

وأخذت وقتئذ تفتحب وتندب سوء حظها ،
وترتجف حين أبصرت عذاب ابنها النليل .
ومنذا الذى لا يحزن
إذا شاهد أم منقذنا
وقد شجتها الغصة ؟

منذا الذى يستطيع أن يحاجز نفسه عن أن يشاركها أحزانها حين
يرى هذه الأم الحنون

تندب مصير ولدها ؟ ...
أقبل يا أماه ، يا منبع الحب ،
وأشعرينى آلامك بأكلها
دعبنى أشاركك أحزانك ،
واشعلنى فى قلبى نار الشوق
وحب المسيح إلحنا ومنقذنا ،
دعبنى أفعم قلبه بالسرور !
أيتها الأم المقدسة ، افعلنى هذا رحمة بى !
اغرسى ضربات من مات شهيداً
عميقة فى قلبى .

دعبنى أفاسى آلام
ابنك الذى أصيب بجرح الألم
وتحمل الهوان من أجل !
دعبنى أبك بحق إلى جانبك ،
وأفرض سنى حياتى كلها

أشاركك الحزن على ابنك المصلوب ،
ألا ليتنى أستطيع أن أكون معك ،
وأقف بجوار الصليب في صحبتك ،
راضياً ، مغتبطاً ، مرتبطاً في الحزن بك
فليحمي الصليب ،
ولتنجي آلام المسيح المنقذة للبشر ،
وليرعى بلطفه ،
وإذا ما بلى جسمي
فلتنظر روحى في أعجاز السماء
إليه وجهاً لوجه .

وليس في الشعر ما يضارع هذه الترانيم المسيحية التي قيلت في العصور
الوسطى إلا قصيدتان إحداهما هي قصيدة عيد القربان Pange Lingue ،
والأخرى قصيدة « يوم الغضب » الرهيبة التي كتبها توماس السلانوى
Thomas of Celono حوالى ١٢٥٠ ، والتي تنشد في القداس الذى يقام
للموتى ؛ وهنا توحى رهبة يوم الحساب بقصيدة لا تقل كآبة وكمالاً عن أى
حلم من أحلام دانتي المعذبة (١٠١) .

وأضافت الكنيسة إلى طقوسها ذات الأثر الشديد في النفس والمشتعلة على
الأدعية والترانيم والقداس - أضافت إلى هذه الطقوس ما يحدث في الأعياد
الدينية من حفلات ومواكب . وأخذ عيد الميلاد في البلدان الشمالية المراسم
المفرحة للطبقة التي كان التيوتون الوثنيون يقيمونها احتفالاً بانتصار الشمس وقت
الانقلاب الشتوى على الظلمة المقبلة ؛ ومن هذا نشأت كُتَل عيد الميلاد التي تحرق
في بيوت الألمان ، وأهل فرنسا الشمالية ، والإنجليز ، وأهل اسكنديناوة ، كما
(٤ - ح - ٥ - مج ٤)

نشأت شجرة عيد الميلاد التي تثقل بالهدايا ، والولائم المرححة التي تثخن البطون القوية حتى الليلة الثانية عشرة بعد هذا العيد ، وكان ثمة أعياد واحتفالات أخرى يخططها الحصر - عيد الفطاس ، وعيد الختان ، وحاد السعف ، وعيد القيامة ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة . . . وكانت هذه الأعياد وأيام الآحاد كلها إلى درجة أقل منها قليلا ، أحداثاً مثيرة في حياة رجل العصور الوسطى . وكان يستعد لاستقبال عيد القيامة بالاعتراف بما يهيمه أن يتذكره من ذنوبه ، ويستحم ، ويخلق لحيته أو يقص شعره ، ويلبس خير ملابسه وأكثرها مضايقة له ، ويَطْعَمُ الله في العشاء الرباني ، ويحس أعماق الإحساس بالمرححة المسيحية الخطيرة الشأن التي قُدِّرَ عليه أن يكون جزءاً منها . وكانت حوادث آلام المسيح تمثل في كثير من المدن في الثلاثة الأيام الأخيرة من أسبوع الآلام ، تتضمنها مسرحية دينية ذات حوار وأغان بسيطة ؛ كذلك كانت عدة أوقات أخرى من السنة الكنسية تمتاز بأمثال هذه « الطقوس الخفية » . وحدث في عام ١٢٤٠ أن أبلغت يوليانا Juliana رئيسة دير قريب من لياج Liège قس القرية التي تقيم فيها أن رؤي سماوية قد نهتها إلى أنه لا بد من تكريم جسم المسيح حين يستحيل القربان إلى لحمه ودمه في العشاء الرباني وذلك بإقامة عيد فخم رهيب ، وأقر البابا إربان الرابع هذا الاحتفال في عام ١٢٦٢ وعهد إلى تومس أكوناس أن يضع له « صلاة مؤلفة من ترانيم وأدعية تناسبه » . وقام الفيلسوف بهذه المهمة على خير وجه ، وفي عام ١٣١١ ثبت أخيراً عيد القربان واحتفل به في أول يوم خميس بعد عيد العنصرة بأفخم موكب من مواكب السنّة المسيحية بأجمعها . وكانت هذه الحفلات تجتذب إليها جموعاً لا يحصى عددها ، وتبعث البهجة والمرح في قلوب الكثيرين ممن يشتركون فيها ؛ وهي التي مهدت السبيل للمسرحية غير الدينية في العصور الوسطى ، وساعدت على قيام مواكب الثعالب الطائفية واحتفالاتها ، وألعاب الأهرجاس والاحتفال بنصيب الفرسان ، وتوزيع الملوك ، وشغل ما هنالك من فراغ

في حياة الأهلين الذين لا يميلون بفطرتهم إلى السلم والنظام بالحركات المنبثقة عن التقى ، والصلاح ، والمناظر التي تسمو بأرواحهم إلى أعلى الدرجات . ولم تكن الكنيسة تقيم تعاليمها الأخلاقية ، التي تصل إليها عن طريق العقائد الدينية على الجدل المؤدى إلى الإقناع ، بل كانت تلجأ في الوصول إلى هذا الغرض إلى الحواس عن طريق التمثيل ، والموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، والعمارة ، والقصص ، والشعر ؛ ولا يسعنا إلا أن نعترف أن الالتجاء إلى العواطف على هذا النحو أكثر نجاحاً وأهدى إلى الغرض - شراً كان أو خيراً - من الالتجاء إلى العقل المتقلب ذى النزعة الفردية . ولقد أوجدت الكنيسة بالتجائها إلى هذا فن العصور الوسطى .

وكانت أعظم المهرجانات ما يقام منها عند أماكن الحج . فقد كان الرجال والنساء يحجون ليكفروا عن ذنب أو يوفوا بنذر ، أو يطلبوا شفاء من داء بإحدى المعجزات ، أو ينالوا غفراناً ؛ وما من شك في أنهم كانوا يسعون ، كما يسعى السياح في هذه الأيام ، ليشاهدوا بلدانا جديدة ومناظر جديدة ، وليقوموا في طريقهم بمغامرات تطرد ما يلقونه في حياتهم الضيقة الرتيبة من ملل وسآمة . وكان هناك عشرة آلاف مكان معترف يجواز الحج إليها في أواخر القرن الثالث عشر . وكان أكثر الحجاج شجاعة يؤمنون فلسطين النائية ، ومنهم الحفاة ، ومنهم من لا يلبسون إلا قيصاً واحداً ؛ وكانوا يحملون في الصلاة ، صليبا ، وعكازا ، وكيسا من النقود تناولوها كلها من يد قسيس . وحدث في عام ١٠٥٤ أن سار ليدبيرت Leidbert أسقف كبيره على رأس ثلاثة آلاف حاج إلى بيت المقدس ، وفي عام ١٠٦٤ سار كيرب أساقفة كولوني ، ومينز ، وأساقفة آسپار ، وبامبرج ، وأترخت إلى بيت المقدس أيضا ، ومن ورأيهم عشرة آلاف مسيحي هلك منهم ثلاثة آلاف في الطريق ، ولم يعد منهم إلى أوطانهم سالمين إلا ألفان . وعبر حجاج آخرون جبال البرانس ، أو جازفوا بحياتهم في المحيط الأطلنطي

ليزوروا الأماكن التي يقال إن بها عظام الرسول يعقوب بقمبستيل Compostela من أعمال أسبانيا . وفي إنجلترا كان الإنجليز يحجون إلى قبر القديس كثير Cuthbert في درهام ، وإلى قبر ادورد المعترف Edward the Confessor في وستمنستر ، أو إلى قبر القديس إدمند St. Edmund في بيوري Bury ، أو إلى الكنيسة التي أنشأها كما يقولون يوسف الأرماني Joseph of Armathea في جلاستنبري Glastonbury وكان أهم من هذه الأماكن كلها في نظر الإنجليز ضريح تومس أبكت في كنتربري . وكانت فرنسا تجتذب الحجاج إلى قبر القديس مارتن في ثور وإلى نتردام في تشارتر ، ونتردام في له - پوى - أن - فلابي Le-puyen-Velay وفي إيطاليا كنيسة القديس فرانسس وعظامه في أسسي Assisi ، وفيها أيضاً سانتا ، كاسا Santa Casa أو البيت المقدس في لوريتو Loreto ويعتقد المتقون أنه هو البيت الذي سكنت فيه مريم مع عيسى في الناصرة ، وأن الملائكة حملت هذا الكوخ من فلسطين حين طرد الأتراك آخر الصليبيين منها ، وطارت به في الهواء ثم أنزلته في دماشيا (١٢٩١) ، ثم طارت فوق البحر الأدرياي إلى غابات أنكونا (اللورتوم Louretum) التي اشتق منها اسم هذه القرية المكرمة .

وآخر ما نذكره في هذا المقام أن كل طرق العالم المسيحي كله كانت تؤدي بالحجاج إلى رومة ، ليشاهدوا قبرى بطرس وبولس ، ولينالوا الغفران بزيارة المنازل المقدسة ، أو الكنائس القائمة في تلك المدينة ، أو للاحتفال بعيد من الأعياد ، أو ذكرى سارة في التاريخ المسيحي . وحدث في عام ١٢٩٩ أن أعلن البابا بيقاس الثامن أن سيقام عيد كبير في عام ١٣٠٠ ، وعرض أن يغفر جميع ذنوب من يأتون للتعبد في كنيسة القديس بطرس في ذلك العام . ويقال إن عدد من دخل أبواب رومة من الغرباء في كل يوم من أيام هذه الشهور الاثني عشر لم يكن يقل عن مائتي ألف ، وإن مليوني زائر مع كل منهم نذر يناسبه وضعوا

ما معهم من الكنوز أمام قبر القديس بطرس ؛ وقد بلغت هذه الكنوز من الكثرة حدا شغل قسيسين ظلا يعملان بالمخاريف ليلا ونهارا لجمع النقود^(١٠٢). وكانت دلائل السياح ترشد الحجاج إلى الطرق التي يسلكونها ، والأماكن التي لا بد لهم أن يزوروها في طريقهم أو حين يحطون رحالهم . وفي وسعنا أن نرسم لأنفسنا صورة حقيقية من فرحة الحجاج المتعبين ، وقد كساهم العثير ، وحين تقع أبصارهم آخر الأمر على المدينة الخالدة ، وحين ترتفع عقيرتهم بأغنية الفرحة والحمد التي يتلوها الحجاج : « أى رومة النبيلة ، يا ملكة هذا العالم كله ، ويا خير المدائن كلها ، يا ذات اللون الأحمر الياقوتي الذي كستك به دماء الشهداء الوردية ، ولكنك كالسوسن النقي بمن فيك من العذارى . إليك نهدي تحياتنا خلال السنين وندعوك بالخبر ، ونحييك من خلال القرون ! » .

وقد أضافت الكنيسة إلى الخدمات الدينية المختلفة خدمات أخرى اجتماعية ؛ فقد أشعرت الناس بما للعمل من كرامة ، ومارس رهبانها العمل في الزراعة والصناعة . ووافقت على أن ينتظم العمال في نقابات طائفية ، ونظمت نقابات طائفية دينية للإشراف على أعمال الصدقات^(١٠٣) . وكانت كل كنيسة حرماً مقدساً من حق كل من بيطارد أن يلجأ إليها ليجد فيها مقاماً له حتى تهدأ سورة من يطارده ويخضع للإجراءات القانونية ، وكان إخراج هؤلاء الرجال من هذا الحرم الأمين تدينساً له يعاقب من يرتكبه بالطرد من حظيرة الدين . وكانت الكنيسة الصغيرة والكبيرة المركز الاجتماعي في القرية أو المدينة . وكان حرمها المقدس في بعض الأحيان أو الكنيسة نفسها يستخدمان برضاء التساوسة لحزن الحبوب أو الدريس أو النيذ ، كما كانا يستخدمان أيضاً في طحن الحبوب أو عصر الجعة^(١٠٤) . وفي الكنيسة عُمْد معظم أهل القرية ، وعندها سوف تدفن كثرتهم . وفيها يجتمع الكبار في أيام الأحد ليتجاذبوا أطراف الحديث أو يتناقشوا في شؤون القرية ، ويجتمع الشبان والشابات ليرى بعضهم بعضاً .

وعندها يجتمع المتسولون وتوزع الكنيسة صدقاتها ، وفيها يجتمع كل ما تعرفه القرية من فن إلا القليل منه ليكمل بيت الله ، ويتجهج ألف فقير بما يشهد من مجد المعبد المقدس الذى شاده الناس بأموالهم وأيديهم ، والذى بعدونه ملكا لهم ، وموطنهم الجماعى والروحى . وكانت الأجراس المعلقة فى برج الكنيسة تدق ساعات اليوم ، أو تدعو المؤمنين إلى الصلاة والدعاء ، وكانت موسيقى هذه الأجراس أحلى من كل ما عداها إذا استثنينا الترانيم التى تؤلف بين الأصوات والقلوب وتوحيدها ، أو تبعث الحماسة فى قلوب ذوى الإيمان الفاتر بتساويح القداس . وقد ارتفعت أبراج الكنائس ، المستدق منها وغير المستدق ، فى أقطار الأرض من نفجورود إلى فارس ، ومن بيت المقدس إلى هبريدة تشق الفضاء لأن الناس لا يستطيعون الحياة بلا أمل ولا يرضون بالموت .

الفصل الخامس

القانون الكنسى

نمت إلى جانب الطقوس الدينية المعقدة الرائعة طائفة من الشرائع الكهنوتية أكثر منها تعقيداً ، تنظم أعمال الكنيسة وقراراتها . وكانت الكنيسة ذلك الوقت تسيطر على دواة أعظم رقعة وأكثر تبايناً من أية إمبراطورية . وقد نشأ القانون الكنسى شيئاً فشيئاً من العادات الدينية القديمة ، ومن فقرات فى الكتاب المقدس ، وآراء آباء الكنيسة ، وقوانين رومة أو القبايل المتبربرة ، وقرارات مجالس الكنيسة ، وقرارات البابوات وآرائهم . وعدلت أجزاء من قانون جستنيان لكى تشرف على سلوك رجال الدين ، وأعيدت صياغة بعضها الآخر لكى يتفق مع آراء الكنيسة فى الزواج ، والطلاق ، والوصايا . وأعدت مجموعات من الشرائع الدينية فى البلاد الغربية فى القرنين السادس والثامن ، كما أعد أباطرة بيزنطية من حين إلى حين مجموعات مثلها فى بلاد الشرق . وصيغت قوانين الكنيسة الرومانية فى صيغتها النهائية التى كانت عليها فى العصور الوسطى على يد جراتيان Gratian حوالى عام ١١٤٨ .

وكان جراتيان هذا من رهبان بولونيا ، ولذلك لا يبعد أن يكون قد درس على إرنيرىوس Irenaeus فى جامعة تلك المدينة . وسواء كان هذا أولم يكن فإن الذى لا شك فيه أن الموجز الذى أصدره يدل على علم غزير بالقانون الرومانى وفلسفة العصور الوسطى . وقد سمي كتابه التوفيق بين القواعد المتعارضة Concordia discordantium Canonum ، ثم أطلقت عليه الأجيال المتأخرة اسم القرارات . وقد جمعت فيه ما أصدرته الكنيسة من قوانين ، وما كان لها من عادات ، وما أصدرته المجالس الدينية والبابوات حتى عام ١١٣٩ من قرارات

خاصة بالعقائد الدينية ، والطقوس ، والأنظمة ، والقواعد الإدارية ،
والحفاظة على أملاك الكنيسة وإجراءات المحاكم الكنسية ، وما لها من سوابق ،
وتنظيم حياة الرهبنة ، وعقود الزواج وقواعد الوصية . وربما كانت طريقة
العرض قد أخذت عن كتاب أبلار . Sic et non « هكذا وإلا فمور »

وما من شك في أنها كان لها بعض الأثر في الطريقة المدرسية بعد
جراتيان Gratian ، فهي تبدأ بقضية مقررة . ثم تنقل أقوالاً أو سوابق
تعارضها ، وتحاول أن تزيل هذه الاعتراضات وتضيف بعض الشروح
والتعليقات . ولم تتخذ الكنيسة في العصور الوسطى هذا الكتاب مرجعاً
نهائياً ، ولكنه أصبح في الفترة التي كان قائماً فيها نصاً لا غنى عنه ،
ويوشك أن يكون نصاً مقدساً . وأضاف إليه جريجورى التاسع (١٢٣٤)
وبنيقاس الثامن (١٢٩٤) وكلمنت الخامس (١٣١٣) ملاحق من
عندهم ، وقد نشرت هذه الملاحق وبعض إضافات أقل منها شأناً مع كتاب
جراتيان في عام ١٥٨٢ باسم « مجموعة من القوانين الكنسية مقابلة لمجموعة
قوانين جستنيان المدنية » (*) .

والحق أن الميدان الذى يشغله القانون الكنسى كان أوسع من الميدان الذى
يشغله أى قانون مدنى معاصر له ، فهو لا يقتصر على البحث فى تكوين الكنيسة ،
وعقائدها ، وأعمالها ، بل يبحث فوق ذلك فى القواعد التى تعامل بمقتضاها
غير المسيحيين المقيمين فى البلاد المسيحية ؛ والطرق التى تستخدمها عند النظر
فى أمر الإلحاد ، وفى القضاء على الملحدى ؛ وفى تنظيم الحروب الصليبية ؛
وفى قوانين الزواج وشرعية الأبناء ، والمهور ، والزنى ، والطلاق ، والوصايا ،
والدفن وأحوال الأرمال ، واليتامى ؛ وفى قوانين الإيمان ، ونقضها ، وانتهاك
حرمة المعابد ، والتجديف والمتاجرة بالدين والرتب الكهنوتية ، والسب ،

(*) وفى ٢٠ مايو ١٩١٨ أصبحت مجموعة القوانين الكنسية المعدلة هي قانون الكنيسة الرسمى .

والربا ، والأثمان العادلة ؛ وفيه قواعد لتنظيم المدارس والجامعات ، وهذبة الله وغيرها من الوسائل المقيدة للحرب والمنظمة للسلم ؛ وما يجب أن تكون عليه المحاكم الكنسية والبابوية ، وحق استخدام الطرد من الدين واللعنة والحرمان ؛ وتوقيع العقوبات الكنسية ؛ والعلاقة القائمة بين المحاكم المدنية والمحاكم الدينية ، وبين الدولة والكنيسة . وكانت الكنيسة ترى أن الواجب المفروض على المسيحيين جميعاً أن يخضعوا لهذه المجموعة الضخمة من القوانين ، وأن من حقها هي أن توقع على كل من يخرج على أى شىء منها مختلف العقوبات البدنية أو الروحية ، لا يستثنى من ذلك إلا شىء واحد وهو أنه لا يجوز لأية محكمة كنسية أن تنطق بـ « حكم الدم » — أى أن تمكن بالإعدام على شخص ما .

وكانت الكنيسة قبل عهد محاكم التفتيش (*) تعتمد على وسائل الإرهاب الروحي ؛ فكان الحرمان الأصغر Minor excommunication يمنع المسيحي من الاشتراك في العشاء الرباني وفي طقوس الكنيسة ؛ وكان من حق كل رجل من رجال الدين أن يصدر هذه العقوبة ؛ وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم في نار الجحيم إذا مات الآثم قبل العفو عنه . أما الحرمان الأكبر Maior excommunication (وهو الحرمان الوحيد الذى تستخدمه الكنيسة في هذه الأيام) فلا يصدره إلا مجلس ديني أو مطارنة أعلى مرتبة من القساوسة ، كما أنه لا يصدر إلا على أشخاص داخل دائرة هذه المجالس أو أولئك المطارنة . فإذا صدر أبعد المحروم من كل اتصال قانوني أو روحي بالمجتمع المسيحي : فلا يستطيع أن يقاضى ، أو يرث ، أو يعقد عقداً صحيحاً من الوجهة القانونية ، ولكنه يجوز لمقره أن يقاضيه ، ويحرم على أى مسيحي أن يواكبه أو يكلمه وإلا حق عليه الحرمان الأصغر . ولما أن صدر قرار الحرمان على ربرت ملك

(*) أو دواوين التحقيق كما يسميها بعضهم

فرنسا (٩٩٨) لزواجه من ابنة عمه ، تركه جميع رجال حاشيته وجميع خدمه تقريباً ؛ وكان الخادمان اللذان بقيا عنده يلقيان في النار ما يتبقى من طعامه بعد كل وجبة من وجباته ، حتى لا تدنسهما هذه البقايا . وكانت الكنيسة في الحالات القصوى تضيف إلى الحرمان عقوبة اللعنة Anathema ، وهي عقوبة ذكر فيها بعناية وبأقوى عبارة ، وبكل ما تحتويه العبارات القانونية من لغو ، كل ما يتصل بهذه العقوبة . وكان آخر ملجأ للكنيسة هو حق البابا في أن يصدر قرار تحريم (Interdict) على أية بقعة من العالم المسيحي — أى أن يمنع إلى أجل جميع الخدمات الدينية أو الكثرة الغالبة منها . وإذا كان الناس في تلك الأيام يشعرون بحاجتهم إلى العشاء الرباني ، ويخشون أن توافيهم المنية قبل أن يعفى عن خطاياهم ، فقد كان المحروم يضطر عاجلاً أو آجلاً إلى مصالحة الكنيسة . وقد صدرت قرارات بالحرمان من هذا النوع على فرنسا في عام ٩٩٨ ، وعلى ألمانيا في عام ١١٠٢ ، وعلى إنجلترا في عام ١٢٠٨ ، وعلى رومة نفسها في عام ١١٥٥ .

وكانت كثرة ما صدر من قرارات الحرمان والتحريم سبباً في ضعف أثرهما في القرن الحادى عشر (١٠٥) . فقد كان البابوات يصدرون بين الفينة والفينة قرارات لأغراض سياسية ؛ كما حدث حين هدد إنوسنت الثامن مدينة بيزا بإصدار قرار التحريم عليها إذا لم تنضم إلى الجامعة التسكانية (١٠٦) . وبلغت قرارات الحرمان بالجملة — للغش في أموال الزكاة التى كانت الكنيسة تتقاضاها من الأهلين — من الكثرة أن أضحت أقسام كثيرة من المجتمع المسيحى محرومة كلها في وقت واحد ، ومنها ما لم تكن تعرف أنها محرومة ، كما أن منها ما أغفل قرار الحرمان أو سخر منه (١٠٧) ولم يعبأ به . من ذلك أن قرار الحرمان بالجملة صدر على ميلان وبولونيا وفلورنس ثلاث مرات في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وظلت ميلان اثنين وعشرين عاماً تتجاهل القرار الثالث . ويحدثنا الأسقف جويوم له مير

Guillaume le Maire في عام ١٣٩١ عن هذه القرارات فيقول : « لقد رأيت بعينى فى بعض الأحيان أربعائة محروم فى أسقفية واحدة بل رأيت سبعمائة منهم... » (*) يزدرون سلطة المفاتيح ويوجهون ألفاظ التجديف والسباب للكنيسة ورجالها (١٠٨) » ولم يعبأ فليب أغسطس وفليب الجميل بقرارات الحرمان التى صدرت عليهما .

وكان ما يحدث آنأ بعد آن من تجاهل لهذه القرارات بداية اضمحلال سلطان القانون الكنسى على غير رجال الدين فى أوروبا . وكانت الكنيسة قد أخضعت لسلطانها طائفة كبيرة من شئون الحياة البشرية حين تضعضعت السلطات المدنية فى الألف السنة الأولى من التاريخ المسيحى ؛ فلما أن قويت الحكومة المدنية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر استرد القانون المدنى من القانون الكنسى طائفة بعد طائفة من الشئون البشرية . نعم إن الكنيسة قد نالت مكاسب جديدة فى التعيين فى الوظائف الدينية ، أما فى معظم الميادين الأخرى فقد أخذ سلطانها يضمحل فى شئون التعليم ، والزواج ، والأخلاق . والاقتصاد ، والحرب . فقد أعلنت الدول التى نمت وترعرعت فى ظل النظام الاجتماعى الذى أوجدته هى والذى أجاز لها أن تنمو وترعرع ، أعلنت هذه الدول أنها شبت عن الطوق وبدأت تلك العملية الطويلة - عملية التحرر من السلطة الدينية - التى بلغت غايتها فى هذه الأيام . ولكن جهود واضعى القانون الكنسى لم تذهب هباء ، كما لا تذهب هباء معظم الجهود المبذوعة الخلاقة فى هذا العالم ، فهى التى أعدت ودربت أعظم من أخرجتهم من الحكم :

(•) لعله يريد سلطة رجال الدين الذين كانت يقدم مفاتيح السماء فى ظنهم . (المترجم)

وأُسهمت في نقل القانون الرومانى إلى العالم الحديث ، وأيدت الحقوق القانونية للأرامل والأطفال ، ووضعت في القانون المدنى المعمول به في أوربا الغربية المبدأ الذى يجعل للزوجة في حياتها نصيبا من مال زوجها (١٠٩) ، وكان له نصيب في صياغة الفلسفة المدرسية ووضع مصطلحاتها . وملاك القول أن الشريعة الكنسية كانت من أعظم الأعمال التى تمخض عنها العقل البشرى في العصور الوسطى .

الفصل السادس

رجال الدين

كان الناس في حديثهم العادى في العصور الوسطى يقسمون الخلق طبقتين : طبقة رجال الدين وطبقة « رجال الدنيا » وكان الراهب من رجال الدين وكانت الراهبة من نسائه ، ومن الرهبان من كانوا أيضاً قسيسين وهؤلاء يكونون « رجال الدين النظاميين » أى رجال الدين الذى يتبعون قانون الأديرة (regula) ؛ أما غيرهم من رجال الدين فكانوا يسمون « دنيويين » أى يعيشون في الدنيا » (saeculum) ، وكانت طبقات رجال الدين جميعها تمتاز من غيرها بخلق قبة الرأس وبأن يلبس أفرادها مئزرًا طويلًا ذا لون واحد أيا كان ، ما عدا اللونين الأحمر والأخضر ، تضمه أزرار بطوله كله من الرأس إلى القدمين . ولم يكن لفظ رجال الدين يطلق على من كان منهم في « الدرجات الصغرى » فحسب - أى بوابى الكنائس ، وقارئى الصلوات ، وقارئى الرقعى ، والسدنة - بل كان يطلق كذلك على جميع طلبة الدين ومدرسيه في الجامعات ، وعلى كل من حلقة قبة رؤوسهم - أى دخلوا في زمرة رجال الدين - وهم طلاب ثم أصبحوا فيما بعد أطباء أو محامين ، أو فنانين ، أو مؤلفين ، أو اشتغلوا محاسبين أو مساعدين لرجال الأدب . وهذا هو السبب الذى من أجله ضاق معنى لفظى Clerical ، Clerk ، فصارا « كتابياً » و « كاتباً » . وكان يسمح لرجال الدين من غير الطبقات العليا أن يتزوجوا وأن يشتغلوا بأية مهنة محترمة ، ولم يكونوا يلزمون بأن بظلوا مستمسكين بعادة خلق قم رؤوسهم .

أما الطبقات الثلاث « الكبرى » أو « الطبقات المقدسة » - أتباع الشمامسة - والشمامسة - والقساوسة - فلم يكن يجوز لمن انضم إليها أن يخرج

منها ؛ وقد أغلق أمام أفرادها بوجه عام باب الزواج بعد القرن الحادى عشر ، ولكن لدينا شواهد تدل على أن بعض القساوسة اللاتين بعد أيام جريجورى السابع كانوا يتخذون لهم أزواجاً أو خليلات (١١٠) ، غير أن هذه الحالات أخذت تقل شيئاً فشيئاً حتى كانت من الحالات الشاذة النادرة (*) ، وكان على قس الأسقفية أن يقنع بالمتع الروحية . وإذ كانت حدود الأسقفية تتفق فى العادة مع حدود الضيعة أو القرية ، فإن مالك الضيعة كان فى أغلب الأحوال هو الذى يعين القس (١١١) بالاشتراك مع الأسقف . وقلم كان هذا القس ممن نالوا قسماً موفوراً من التعليم ؛ وسبب ذلك أن التعليم الجامعى كان وقتئذ كبير النفقة ، وأن الكتب كانت نادرة ؛ ولهذا كان يكفيه أن يعرف كيف يقرأ الصلوات والقداس ، ويقوم بتقديم العشاء الربانى وتنظيم شئون العبادة والصدقات فى الأسقفية . ولم يكن فى كثير من الحالات أكثر من مساعد أو نائب يستأجره قس أكبر منه ليؤدى الخدمات الدينية فى الأسقفية نظير ربع دخله من معاشه . وكان فى مقدور القس الكبير بهذه الطريقة أن يكون له معاش من أربع

(*) لقد خلقت العزوبة العامة بين الرهبان والقساوسة والراهبات بعد عام ١٢١٥ مشكلة من المشاكل الجنسية . وربما كانت أوروبا قد قاست بعض الحساسة فى القوة الحيوية من جراء امتناع عدد كبير من الأشخاص الأصحاء عن الاصطلاح بواجب الأبوة والأمومة ، ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق إلى أى حد تورث القدرة العالية على التناسل ، وأقرب من هذا البحث إلى الناحية العلمية أثر التفاروت فى العدد بين الرجال والنساء الذين لا ينتمون إلى الطبقات الدينية والناشئ من تحريم الزواج على الرهبان والقسيسين . ولما زادت نسبة الوفيات بين الرجال على مثلها بين النساء بسبب الأسفار للتجارة وغيرها ، وبسبب الحروب العادية والصليبية ، والنزاع بين الأفراد والجماعات ، وغير هذه من الأخطار ، بتمت نسبة كبيرة من النساء عانسات أو بلحان إلى الاختلاط الجنى غير المشروع . وكانت الكنيسة ترحب بمن يردن أن يترهب من النساء إذا استوفين شروط الترهب ، ولكن عدد الرهبان والقساوسة مجتمعين كان يفوق عدد الراهبات كثيراً . ومن أجل هذا فإن بنات الأشراف اللاتي لا يتزوجن كثيراً ما كن يوهبن إلى الأديرة أما بنات غير هذه الطبقة فكن يلجأن إلى العمل على عجلة الغزل ، أو يشن مع بعض أقاربهن ، أو يحين فى جو من العار والردبة ليشتعن مطالب رجال من ذوى المكانة .

أبرشيات أو خمس ، أما قس الأبرشية فكان يحيا حياة الفقر والمذلة (١١٣) ،
يعتصر دخله من « رسوم المذبح » أو التعميد ، أو عقود الزواج ، أو الدفن ،
أو قراءة القداس للموتى . وكان في بعض الأحيان ينحاز إلى جانب الفقراء
في حرب الطبقات ، كما فعل جون بول John Ball (١١٣) ؛ ولم يكن مستواه
الخلق يضارع مستوى قس هذه الأيام الذى سما إلى ما سما إليه بفضل المنافسة
الدينية ، ولكنه كان بوجه عام يقوم بعمله صابراً حريصاً على إطاعة نداء
الضمير وواجب الشفقة والرحمة . فكان يعود المرضى ، ويواسى المحرومين ،
ويعلم الشباب ، ويلوك صلواته ، ويبيت فى الأهليين الغلاظ الشداد شيئاً من
التحضر والخلق الطيب . ويقول أقسى ناقدى هذه الطائفة إن كثيرين من
قساوسة الأبرشيات « كانوا من لا غنى عنهم فى هذا العالم » (١١٤) ، وقال عنهم
لكى Lecky المتحرر من قيود الدين : « ليس ثمة طائفة غيرهم أظهرت ما
أظهروه هم من غيرة جامعة مجردة من الانهماك فى متاع الدنيا ، لا يثنيها عن
هدفها مصالحها الشخصية ، يضحى أفرادها فى سبيل الواجب المقروض عليهم
أعز ما فى العالم من متاع ، ويواجهون جميع الصعاب أياً كان نوعها وألوان
العذاب والموت ببسالة لا تتزعزع ولا تلين » (١١٥) .

وكان القساوسة والأساقفة يؤلفون فيما بينهم طبقة رجال الكهنوت . فأما
الأسقف فكان قساً اختير ليؤلف من عدة أبرشيات وعدد من القساوسة
أسقفية واحدة . وكان الذين يختارونه لهذا المنصب من الوجهة النظرية وفى
بداية الأمر هم القساوسة والشعب ، ولكن الذى كان يرشحه لمنصبه عادة قبل
أيام جريجورى السابع هو البارون أو الملك ، وكان يختاره بعد عام ١٢١٥ كهنة
الكنيسة الكبرى بالاشتراك مع البابا نفسه . وكان يعهد إليه بكثير من الشئون
الدنيوية والكنسية ، كما كانت محكمته الأسقفية تنظر فى بعض القضايا المدنية
وفى جميع القضايا التى تمس رجال الدين على اختلاف طبقاتهم . وكان من حقه

أن يعين القساوسة ويفصلهم ، ولكن سلطته على الأديرة ورؤسائها في أسقفيته
نقصت في الوقت الذي نتحدث عنه لأن البابوات أخضعوا طبقات الرهبان
لسلطانهم المباشر لحوفهم من سلطان الأساقفة . وكان لإيراد الأسقف يأتي
بعضه من الأبرشيات التابعة له ، ولكن معظمه كان يأتيه من الضياع التابعة
لكرسيه ؛ وكان في بعض الأحيان يعطى إحدى الأبرشيات من المال أكثر
مما يأخذ منها . وكان المتقدمون لشغل مناصب الأساقفة يتعهدون عادة بأن
يؤدوا — للملك أو لأئمة البابا فيما بعد — قدرأ من المال نظير ترشيحهم ؛ وكانوا
يوصفهم حكاماً دنيويين يطرأ عليهم ما يطرأ على غيرهم من ميل لتعيين أقاربهم
في المناصب ذات الإيراد المجزى — وكان مما يشكو منه البابا إسكندر الثالث
أنه « لما حرم الله الأساقفة من الأبناء وهبهم الشيطان أبناء الإخوة
والأخوات » (١١٦) . وكان كثيرون من الأساقفة يحيون الحياة المترفة ، التي
تليق بالسادة الإقطاعيين . ولكن كثيرين منهم كانوا يهبون أنفسهم لواجباتهم
الروحية والإدارية . ولقد كان أساقفة أوربا ، بعد أن أصلح ليو التاسع
نظام الأسقفيات ، خير الطوائف كلها في العصور الوسطى من الناحيتين
العقلية والخلقية .

وكان يرأس أساقفة كل إقليم كبير الأساقفة أو المطران ، وكان
له هو وحده حق دعوة مجلس الكنيسة الإقليمي ورياسته . وكان بعض
كبار الأساقفة ، بما أوتوا من قوة في الخلق أو سعة في الثراء ،
يسيطرون على حياة أقاليمهم من نواحيها كلها تقريباً . وكان كبار أساقفة
مدن همبرج ، وبرمن ، وكولوني ، وترير ، ومينز ، ومجدبرج ، وسلزبرج
الألمانية من السادة الإقطاعيين الأقوياء ، يختارهم الأباطرة في كثير من الأحيان
لتصريف شئون الإمبراطورية أو ليكونوا لهم سفراء أو مستشارين . وكذلك
اضطلع كبار أساقفة ريمس ، ورون ، وكنتربري ، يمثل هذا الواجب
الخطير في فرنسا ، ونورمندي ، وإنجلترا . ومن كبار الأساقفة — في

طليطلة ، وليون ، ونربوتة ، وريمس ، وكولوفى ، وكنتربرى - من أصبحوا « رؤساء » كباراً ذوى سلطان غير منازع على جميع رجال الدين فى أقاليمهم .

وكان كبار الأساقفة يجتمعون فى مجلس تتألف منه من حين إلى حين حكومة نيابية للكنيسة . وكانت هذه المجالس فى العهود المتأخرة تدعى لنفسها سلطات تعلو على سلطات البابا ؛ أما فى العصر الذى نتحدث عنه ، عصر أعظم البابوات ، فلم يكن أحد فى أوروبا الغربية ينازع سلطان أسقف رومة سلطاته العليا الدينية والروحية . وكانت فضائل ليو التاسع وهلدبراند قد كفرت عن فضائح القرن العاشر ، كما أخذ سلطان البابوية ينمو بين صفوف القرن الثانى عشر المتقلبة وكفاحه نمواً مكن إنوسنت الثالث من أن يدعى أن هذا السلطان يمتد إلى جميع بقاع الأرض . فقد كان الملوك والأباطرة يسكنون بركاب خادم خدم الله ، ذى الثياب البيض ، ويقبلون قدميه . وأضحى منصب البابوية فى ذلك الوقت أسمى ما يطمع فيه إنسان على ظهر الأرض ، فكانت أذكى العقول وقتئذ تنهأ فى أشد مدارس اللاهوت والقانون صرامة لتشغل فيما بعد مكاناً بين رجال الكنيسة . وكان الذين يرقون منهم إلى الذروة رجلاً من ذوى العقول الجبارة والقلوب الباسلة لا يخشون أن يحكموا قارة بأجمعها ؛ وقلما كان موت الواحد منهم يثنى غيره عن مواصلة السياسة التى وضعها هؤلاء الرجال هم ومجالسهم ؛ فلقد أتم إنوسنت الثالث ما لم يتمه جريجورى السابع ، وفاز إنوسنت الرابع والإسكندر الرابع بالنصر فى الكفاح الذى قام به إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ضد الأباطرة الذين أرادوا تضيق سلطان البابوية .

وكان سلطان البابا يؤول إليه من الوجهة النظرية من الحقوق التى منحها المسيح الحواريين . وكانت حكومة الكنيسة بهذا المعنى حكومة دينية - أى حكومة الشعب ، عن طريق الدين ، على أيدى خلفاء الله فى الأرض . لكن الكنيسة كانت بمعنى آخر حكومة ديمقراطية : فقد كان فى وسع أى إنسان فى

العالم المسيحي ، عدا المصابين في عقولهم أو أجسامهم ، والمحكوم عليهم في جرائم ارتكبوها ، والمطرودين من حظيرة الدين ، والأرقاء - كان في وسع أى إنسان عدا هؤلاء أن يُختار فساً أو باباً . وكان الأغنياء في هذا المجال ، كالأغنياء في كل مجال سواه ، تتاح لهم فرص أكثر من غيرهم لأن يُعيدوا أنفسهم لتسليم درجات هذا السلم الديني الكثيرة ؛ غير أن الباب كان مفتوحاً لجميع الناس على السواء ، وكانت المواهب العقلية ، لا الآباء والحدود ، هي التي يعتمد عليها النجاح في أكثر الأحيان . وقد خرج مئات من الأساقفة وعدد كبير من البابوات من بين صفوف الطبقة الفقيرة (١١٧) ، وكان سريان هذا الدم الحديد من جميع الطبقات في طوائف رجال الدين بمثابة غذاء مستمر لعقولهم ، وقد « ظل عصوراً طوالا الاعتراف العملي الوحيد بمساواة الناس بعضهم بعضاً » (*) .

ولقد مر بنا أن حق اختيار البابا قد اقتصر على « الأساقفة الكرادلة » المقيمين في رومة ؛ ثم زيد عدد هؤلاء الكرادلة السبعة تدريجاً بمن ضمهم البابوات إليهم من أمم مختلفة ، حتى أصبحوا كلية مقدسة مؤلفة من سبعين عضواً يمتازون من غيرهم بقلانسهم الحمراء ومآزرهم الأرجوانية ، وأصبحوا طبقة جديدة في سلم الدرجات الدينية لا يعلو عليهم إلا البابا نفسه .

(*) من كتاب جيمس وستفول طمنس James Westfall Thomsou « تاريخ المصور الوسطى الاقتصادي والاجتماعي Economic and Social History of the Middle Ages » المطبوع بنيويورك سنة ١٩٢٨ ص ٦٠١ . انظر أيضاً قول فلتير : « كانت الكاثوليكية تمتاز على الدوام بأنها تخص بنوى الجدارة ما تختص به الحكومات الأخرى ذوى النسب العريق » . مقال في آداب أوروبا وأخلاقتها (Essay on the Manners and Morals of Europe) في مجموعة مؤلفاته المطبوعة في نيويورك عام ١٩٢٧ المجلد الثالث عشر ص (٣٠) ويقول هتلر إن هذا هو مصدر السلطة القوية التي لا يصدقها العقل والتي تستقر في هذه المنظمة المعمرة . ذلك - أن هذا الحشد الكبير من الروساء الدينيين ، بفضل السنة التي جرى عليها دائماً دون استثناء سنة سد ما يطرأ على صفوفه من نقص بين أدنى طبقات الأمم ، يفضل هذه السنة يحتفظ هذا الحشد بما بينه وبين عالم العاطفة الشعبية من رابطة غزيرية ، ويضمن لنفسه فوق هذا قدراً من الطاقة والنشاط والقوة سيظل بهذه الصورة موجوداً إلى أبد الدهر في جبهة الشعب . من كتاب كفاحي Mein Kamp المطبوع في نيويورك سنة ١٩٣٩ ص (٦٤٣) .

وكان البابا يحكم دولة روحية بلغت في القرن الثالث عشر ذروة مجدها ، ويساعده في حكمها أولئك الرجال وطائفة كبيرة من رجال الكنيسة وغيرهم من الموظفين يؤلفون جميعاً « الكوريا » Curia أو المحكمة التنفيذية والقضائية . وكان من حقه وحده أن يدعو للانعقاد مجلساً عاماً من الأساقفة ، ولم يكن لما يصدرونه من الشرائع أية قوة إلا إذا صدق عليه البابا بمرسوم من قبله . وكان له الحرية المطلقة في تفسير قانون الكنيسة ، وإعادة النظر فيه ، وتوسيعه ، وإعفاء من يرى إعفائه من قواعده . وكان هو المحكمة العليا التي تستأنف إليها أحكام محاكم الأسقفيات ، وكان هو وحده الذي يستطيع أن يغفر بعض الذنوب الخطيرة أو يصدر صكوك الغفران الكبرى ، أو يسلك شخصاً في زمرة القديسين . وكان على جميع القساوسة بعد عام ١٠٥٩ أن يقسموا بيمين الطاعة له ، وأن يقبلوا رقابة مندوبي البابا على شئونهم . وكانت جزائر مثل سردانية وصقلية ، وأمم كالإنجليز ، والمجر ، والأسبان تعترف بأنه سيدها الإقطاعي وترسل إليه الجزية ؛ وكان في وسعه أن يرقب بعينه ويحرك بيديه كل جزء من أجزاء مملكته عن طريق الأساقفة ؛ والقساوسة ، والرهبان ، المنبشرين في كل مكان ، فقد كان هؤلاء يكونون هيئة للمخابرات والإدارة لا نظير لها في أية دولة من الدول . وهكذا عاد إلى رومة شيئاً فشيئاً ، بدهاء بابواتها ، ما كان لها من سلطان على أوروبا معتمدة على ما كان لكلمة الدين من قوة عجيبة .

الفصل السابع

البابوية في أوجها ١٠٨٥ - ١٢٩٤

ولم يقض على النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة حول المناصب الكنسية بعد عهد جريجورى السابع وانتصار الإمبراطورية فى الظاهر . بل ظل هذا النزاع قائماً جيلاً من الزمان ، تولى فيه عدة أحرار ، وانتهى براض بين الطرفين فى اتفاق ورمز Worms (١٢٢٢) الذى عقد بين البابا كلكستس الثانى Calixtus II والإمبراطور هنرى الخامس . وقد سلم هنرى بمقتضى هذا الاتفاق بحق الكنيسة فى « تعيين كل من يتمتعون بالخاتم والعصا » ، ورضى أن « يجرى » انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة « حسب القوانين الكنسية » ، أى أن يقوم به رجال الدين أو الرهبان ذوو الشأن - « وأن يكون بمأمن من كل تدخل » واستخدام للمال . ووافق كلكستس على أن يجرى انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين يمتلكون أرضاً من التاج فى حضور الملك ؛ وأنه إذا قام النزاع حول الانتخابات كان من حق الملك أن يفصل بين المتنازعين بعد استشارة أساقفة الإقليم ؛ وأن على الأسقف أو رئيس الدير الذى يمتلك أرضاً من الملك أن يؤدى له جميع الالتزامات الإقطاعية التى يجب على التابع أن يؤديها للمتبوع (١١٨) . وكانت اتفاقات مماثلة لهذا الاتفاق قد عقدت قبل ذلك الوقت مع إنجلترا وفرنسا . وادعى كل من الطرفين أنه هو المنتصر ، والحق أن الكنيسة تقدمت بهذه الاتفاقات خطوة كبيرة نحو استقلالها بشئونها ، ولكن الروابط الإقطاعية ظلت تعطى الملك الكلمة المسموعة فى اختيار الأساقفة فى جميع أنحاء أوروبا (١١٩) .

وحدث في عام ١١٣٠ أن انقسمت هيئة الكرادلة شيعتين ، اختارت إحداهما لكرسى البابوية إنوسنت الثاني واختارت الثانية أنكليتس الثاني Anacletus II . وكان أنكليتس ينتمى إلى أسرة بيرليونى Pierleoni الشريفة ، ولكنه كان له جد يهودى اعتنق الدين المسيحى ، وكان معارضوه يسمونه « الجلد اليهودى » ؛ وبعث القديس برنار ، وهو رجل كان في غير هذا الظرف الخاص صديقاً لليهود ، برسالة إلى الإمبراطور لوثير الثانى Lothaire II يقول إن « مما يجلل المسيح بالعار أن يجلس رجل من أصل يهودى على كرسى القديس بطرس » - وقد نسي قوله هذا أصل بطرس نفسه . وأيدت كثرة رجال الدين ، وأيد ملوك أوربا كلهم إلا واحداً منهم ، إنوسنت الثانى ، وأخذت الجماهير فى أوربا تسلى نفسها بتوجيه المثالب لأنكليتس ، واتهامه بأنه يضاجع محرمات عليه ، وينهب الكنائس المسيحية ليغنى بأموالها أصدقاءه اليهود ؛ ولكن أهل رومة ظلوا يؤيدونه إلى يوم وفاته (١١٣٨) . وأكبر الظن أن قصة أنكليتس هى مصدر خرافة أندريس Andreais التى ذاعت فى القرن الرابع عشر عن « البابا اليهودى » (١١٩) .

وكان هديران الرابع (١١٥٤ - ١١٥٩) مثلاً آخر لما يستطيع أن يرقى إليه من الدرجات الرفيعة ذوو المواهب السامية . فقد ولد من أسرة وضيفة فى إنجلترا ، وجاء إلى أحد الأديرة يطلب الصدقات . وارتفع نقولاس بريكسبير Nicholas Breakspear بجدارته وحدها إلى منصب رئيس الدير وإلى كردينال ثم إلى بابا . ووهب أيرلندة إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا ، وأرغم بربرسا على أن يقبل قدميه ، وكاد يحتال على الإمبراطور العظيم ويقنعه بأن يسلم بحق البابوات فى أن ينصرفوا حسب مشيئتهم فى عروش الملوك . ولما مات هديران اختارت كثرة الكرادلة إسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) واختارت أقلية منهم فكتور الرابع . وأراد بربرسا أن يستعيد السلطة التى كانت للأباطرة الألمان

على البابوية ، فدعا كلا الرجلين لأن يعرضا عليه مطالبهما . فأما الإسكندر .
فرفض الطلب ، وأما فكتور فقبله ، وأيد بربرسا في مجمع باقيا المقدس (١١٦٠)
اختيار فكتور لكرسى البابوية ، فما كان من الإسكندر إلا أن أصدر قراراً
بحرمان فردريك ، وأعفى رعايا الإمبراطور من طاعته في الشئون المدنية ،
وساعد الثورة القائمة عليه في لمباردية . وأذل انتصار الجامعة للمباردية
في لنيانو (١١٧٦) فرديك ، فعقد الصلح مع الإسكندر في مدينة البندقية ،
وقبل قدمى البابا مرة أخرى . وأرغم هذا البابا نفسه هنرى الثانى ملك
إنجلترا على أن يسير حافى القدمين إلى قبر بكت Becket ، وأن يتلقى هناك
درساً في الطاعة من قساوسة كنتربرى . وكان كفاح الإسكندر زمناً
طويلاً ونصره المؤزر في هذا الكفاح هما اللذين مهدا السبيل لبابا من أعظم
البابوات على بكرة أبيهم .

ولد إنوسنت الثالث في أنيانى القريبة من رومة في عام ١١٦١ . وكان
وهو لا يزال يسمى لوتاريودى كنتى Lotariodei Conti ، ابن كونت
سني Segni يتصف بجميع المزايا التى يمتاز بها أبناء الأشراف ممن نالوا
قسطاً كبيراً من الثقافة . ثم درس الفلسفة واللاهوت في باريس ، والشريعة
الكنسية والمدنية في بولونيا Bologna ، ولما عاد إلى رومة استطاع بمهارته
الدبلوماسية ، وعلمه الواسع بالعقائد الدينية ، وصلاته بأصحاب النفوذ ،
أن يرقى رقياً سريعاً في المناصب الدينية ؛ فكان وهو في الثلاثين من عمره
شماساً أكبر ، ولما بلغ السابعة والثلاثين اختير بابا بإجماع الآراء وإن لم يكن
قد أصبح قسيساً (١١٩٨) ، وجلس على كرسى البابوية في اليوم التالى
ليوم اختياره ، وكان من حسن حظّه أن الإمبراطور هنرى السادس الذى
تمت له السيادة على إيطاليا وصقلية قد مات في عام ١١٩٧ وترك عرش
الإمبراطورية لفردريك الثانى ، وهو طفل في الثالثة من عمره . وانتهز
إنوسنت هذه الفرصة السانحة ، وكان في استخدامها جد عنيف : فقد
طرد رئيس بلدية رومة الألمانى من منصبه ، وأخرج الملتزمين الألمان من

اسبوليتو Spoleto وپروجيا Perugia ، وتقبل خضوع تسكانيا ، وأعاد حكم البابا في الولايات البابوية ، واعترفت به أرملة هنرى سيدا أعلى للصقليتين ، وقبل هو أن يكون وصياً على ابنها ، ولم تمض عشرة شهور حتى كان إنوسنت سيد لإيطاليا بلا منازع .

ويدل ما لدينا من الشواهد على أنه كان أعظم أهل زمانه عتلاً ، فقد ألف وهو في بداية العقد الرابع من عمره أربعة كتب في علوم الدين ، تمتاز بغزارة المادة وبلاغة الأسلوب ، ولكن هذه الكتب قد طغى عليها سنا شهرته السياسية . وكانت عباراته التي ينطق بها في الشئون البابوية تمتاز بالوضوح والتفكير المنطقي السليم ، وقوة العبارة ، ولولا منصبه الديني لبلغ في الفلسفة ما بلغه أكويناس ، وبلغ في الأدب مبلغ أبلار وإن امتاز عنه بصدق العقيدة . وقد أكسبته عيناه الثاقبتان ، وأكسبه وجهه الأسمر ، مهابة لم ينتقص منها قصر قامته . ولم تكن تعوزه الفكاهة ، وكان يجيد الغناء ، ويقرض الشعر ، وكان رقيق الحاشية ، وفي وسعه إذا شاء أن يكون رجياً ، صبوراً ، ومتسامحاً فيما يمس شئونه الخاصة . أما فيما يختص بعقيدته وأخلاقه ، فلم يكن يقبل أى انحراف عن أحكام الكنيسة أو مبادئها الخلفية ؛ وإذ كان عالم الإيمان والأمل المسيحيين هو الدولة التي دعى لحمايتها فقد كان يسعه كما يسمع غيره من الملوك أن يدافع عن دولته بحمد السيف إذا لم تكف الكلمة للدفاع عنها . وكان وهو الذي ولد في مهد الثراء يعيش عيشة البساطة الفلسفية ، طول حياته ، طاهر اليد في عصر فشت فيه الرشوة في كل مكان (١٢٠) . وما كاد يتولى منصبه حتى حرم على موظفي هيئة الكرادلة أن يتقاضوا أجراً على ما يقومون به من أعمال . وكان يحب أن يرى كرسى الرسول بطرس يثرى من مال العالم كله ، ولكنه كان يصرف أموال البابوية بنزاهة معقولة . وكان دبلوماسياً بارعاً ، وكان له نصيب معتدل من النقائص الخلفية التي تلازم هذه الحرفة الممتازة (١٢١) . وكان الزمن قد عاد به

أحد عشر قرنا إلى الوراء ، فجعله إمبراطورا رومانيا رواقيا أكثر منه مسيحيا ، لا يشك قط في أن من حقه أن يحكم العالم .

وكان من الطبيعي ، وذكرى هؤلاء البابوات الأقوياء لا تزال ماثلة في أذهان أهل رومة ، أن يقيم إنوسنت سياسته على الاعتقاد بقداسة منصبه ورسالته . ولهذا كان شديد الحرص على أبهة الاحتفالات البابوية وفخامتها ، ولم ينزل قط أمام الجماهير عن قلامة ظفر من جلال منصبه وعظمته . وكان صادق الإيمان بأنه هو وارث السلطات التي يعتقد الناس عامة أن المسيح وهبها للحواريين وللكنيسة ، فلم يكن في مقدوره أن يعترف بأن لأحد ما له هو من السلطان . ومن أقواله في هذا المعنى : « إن المسيح لم يترك لبطرس حكم الكنيسة كلها فحسب بل ترك له حكم العالم بأجمعه » (١٢٢) . ولم يكن يدعى لنفسه السلطة العليا في الشؤون الأرضية أو الزمنية الخالصة ، اللهم إلا في الولايات البابوية (١٢٣) ، ولكنه كان يصر على أنه إذا ما تعارضت السلطة الروحية مع السلطة الزمنية وجب أن تسمو السلطة الروحية على السلطة الزمنية كما تسمو الشمس على القمر . وكان يستمسك بالمثل الأعلى الذي ستمسك به جريجورى السابع — وهو أن على الحكومات أن ترضى بأن يكون لها مكان في دولة عالمية يتولى البابا رياستها ، على أن تكون له الكلمة العليا في جميع الشؤون القضائية ، والأخلاقية ، والعقائد الدينية ، وأوشك في وقت ما أن يحقق هذا الحلم ، فقد نفذ جزءاً من خطته على أثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية في عام ١٢٠٤ ، إذ خضعت الكنيسة اليونانية إلى أسقف رومة ، واستطاع أن يتحدث وهو مغتبط عن ثوب المسيح غير الخيط ، وأخضع بلاد العرب وأرمينية البعيدة نفسها لسيطرة الكرسي البابوي في رومة ، واستطاع أن يكون هو صاحب الحق في تعيين رجال الدين في مناصبهم ؛ واندفع في سلسلة من المغامرات والنزاع الخطيرة انتهت بإرغام رؤساء الحكومات الأوربية على الاعتراف بسيادته عليهم سيادة لم يسبق لها من قبل مثيل . هذا في

في خارج إيطاليا ، أما في إيطاليا نفسها فكانت سياسته أقل من هذا نجاحاً : فقد عجز فيما بذله من جهود متعددة للقضاء على الحروب القائمة بين دول المدن الإيطالية ، ونقص عليه أعداؤه السياسيون في رومة حياته وجعلوها غير آمنة حتى كان في وقت من الأوقات يخشى المقام في عاصمته . كذلك أفلح الملك شفير Severre النرويي (١١٨٤ - ١٢٠٢) في مقاومته بالرغم من صدور قرار الحرمان عليه^(١٢٤) هو وبلاده ، وتجاهل فليب الثاني ملك فرنسا أمره حين عقد الصلح مع إنجلترا ، وإن كان قد خضع لما أصر عليه البابا من أن يعيد زوجته التي هجرها ، واقتنع ألفنسو التاسع صاحب ليون Leon أن يفارق برنجاريا Berengaria التي تزوجها لأنها من قريباته المحرمات عليه . واعترفت البرتغال ، وأرغونة ، وبلاد المجر ، وبلغاريا ، بأنها لإقطاعيات بابوية ، وأعطت البابا جزية سنوية ، ولما رفض الملك جون أمر البابا بتعيين لانجتون Langton كبيراً لأساقفة كنتربري اضطره البابا بقرار التحريم الذي أصدره على إنجلترا وبدهائه السياسي أن يضم إنجلترا إلى الإقطاعات البابوية . ووسع إنوسنت سلطاته في ألمانيا بأن أعان أتو الرابع على فليب صاحب سوابيا Swabia ، ثم أعان فليب على أتو ، وحصل في كلتا الحالين على منح وامتيازات للبابوية نظير انتصاره لكلا الطرفين المتنازعين ، فضلاً عن تحرير الولايات البابوية مما كان يهددها من التطويق ، وأذكر الإمبراطور أن بابا من البابوات هو الذي « نقل » السلطة الإمبراطورية من اليونان إلى الفرنجة ، وأن شارلمان لم يصبح إمبراطوراً إلا بعد أن مسح البابا وتوجه ، وأن في مقدور البابوات أن يستردوا ما منحوا . وحسبنا دليلاً على سلطان إنوسنت ما وصفه به زائر بيزنطي إلى رومة إذ قال إن إنوسنت « ليس خليفة بطرس بل خليفة قسطنطين »^(١٢٥)

وقد أحبط ما بذله الحكام الزمونيون من جهود لفرض الضرائب على رجال الدين دون رضا البابا ، ورصد المال في الكرسي البابوي لمعونة القساوسة المحتاجين ،

وبذلك ما في وسعه لتحسين تربية رجال الدين وتعليمهم ؛ وقد رفع من منزلتهم الاجتماعية حين عرّف الكنيسة بأنها ليست جميع المؤمنين المسيحيين بل هي جميع رجال الدين المسيحيين ؛ وقاوم عادة استيلاء الأساقفة أو رؤساء الأديرة على العصور التي تجمع من الأبرشيات وحرمان قساوسة الأبرشية منها^(١٣٦). وعمل على إصلاح ما كان في أديرة الرجال والنساء من تراخ وإهمال بأن نظم زيارات متابعة لهذه الأديرة لمعرفة أحوالها والتفتيش عليها . واستطاع بفضل ما وضعه من التشريعات أن يحدد العلاقة بين رجال الدين وغير رجال الدين ، وبين القساوسة والأساقفة ، والأساقفة والنبابوت . ورفع من شأن المجلس البابوي فجعله محكمة قديرة للمشورة ، والإدارة ، والقضاء ، حتى أضحت وقتئذ أقدر هيئة حاكمة في زمانها ، وقد ساعدت لإجرائاتها ومصطلحاتها على تشكيل فن الدبلوماسية وطرائقها . واكبر الظن أن إنوسنت نفسه كان أعظم أهل زمانه تبحراً في القانون ، وأنه كان قادراً على أن يجد في المنطق والسوابق سنداً قانونياً لكل قرار يصدره . وكان العلماء والمشرعون يهرعون إلى « مجمع الكرادلة » حيث كان يرأس هذه الهيئة بوصفها المحكمة الكنسية العليا ، ليفيدوا من نقاشها وأحكامها في المسائل القانونية المدنية والدينية ؛ وقد أسماه بعضهم « أبا القانون Pater iuris »^(١٣٧) ، وأسماه آخرون حياً وتفكهاً سليمان الثالث^(١٣٨)

وكان آخر ما ناله من نصر بوصفه مشترعاً وباباً أن رأس في عام ١٢١٥ مجلس لاتران الرابع الذي عقد في كنيسة القديس يوحنا برومة . وأقبل على هذا المجلس العام الثاني عشر ألف وخمسمائة من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وغيرهم من عليّة رجال الدين والمندوبين فوق العادة من جميع الأمم ذات الشأن في العالم المسيحي المتحد . وكانت خطبة الافتتاح التي ألقاها البابا اعترافاً وتحديداً غابة في الجراءة إذ قال « إن أكبر سبب في فساد الخلق هو فساد رجال الدين أنفسهم ، وهذا هو مصدر كل ما في العالم المسيحي من شرور : فقد

انمحي الإيمان ، وطمست معالم الدين . . . ووطئت العدالة بالأقدام ، وكثر
الخارجون على الدين ، وجروا الناس على الانشقاق ، وازداد غير المؤمنين
قوة ، وانتصر المسلمون (١٢٩) . ورضيت سلطات الكنيسة وعقولها المجتمعة
في هذا المجلس أن يسيطر عليها رجل واحد سيطرة تامة ، فكانت أحكامه
هي قرارات المجلس ، وقبّلت هذه السلطات أن يعيد هو تعريف عقائد
الكنيسة الأساسية ، وأن يحدد معناها ؛ وعرفت لأول مرة تعريفاً رسمياً
عقيدة استحالة العشاء الرباني إلى لحم المسيح ودمه . وقبل المجلس قرارات
البابا التي تطلب إلى غير المسيحيين في البلاد المسيحية أن يلبسوا شارة خاصة
تميزهم من غيرهم ؛ واستجاب بحماسة إلى دعوته بشن حرب على الملاحدة
الألبجنسيين ؛ ولكنه أيضاً أيده في الاعتراف بنقائص الكنيسة وعيوبها ،
وشهر بيع الخلفاء الزائفة ، وانتقد انتقاداً شديداً صكوك الغفران التي
لا يتورع بعض رجال الدين . . . عن منحها ويسرفون في ذلك لإسرافاً
بعيداً عن الحكمة ، والتي أضحت مفاتيح الكنيسة بفضلها محتقرة ، وفقدت
التوبة ما كان لها من قوة » (١٣٠) . وحاول المجلس أن يصلح حياة الرهبنة
إصلاحاً شاملاً ، وندد بإدمان رجال الدين الخمر وما انحدروا إليه من فساد
في الأخلاق ، وزواج في الخفاء ؛ واتخذ بلزائهم إجراءات شديدة ؛ ولكنه
رفض ما ادعاه الألبجنسيون من أن كل اتصال بين الرجال والنساء إثم .
وملاك القول أن مجلس لاتران الرابع كان في كثرة من حضره ، وفي
اتساع مداه وآثاره ، أهم مجمع عقدته الكنيسة بعد مجلس نيقية .

وبعد أن بلغ إنوسنت ذروة المجد في حياته أخذ ينهار مسرعاً نحو منيته
العاجلة . ذلك أنه قد انهمك في توسيع سلطانه وإدارة أعماله انهماكاً دائماً لم يخلد
فيه قط إلى شيء من الراحة ، وأنهك قواه وهو لا يزال في الخامسة والخمسين من
عمره . ومن أقواله وهو يتحسر : « ليس لدى متسع من الوقت أفكر فيه في
الشئون السبائية ، بل إنني قلما أجد وقتاً للتنفس ، ولقد كرست حياتي لغيري

حتى كدت أصبح غريباً عن نفسي^(١٣١) ، ولعله كان يسعه في آخر سنة من حياته أن يرجع بذاكرته إلى أعماله ، وأن يحكم عليها حكماً موضوعياً أصديق من حكمه عليها في عمرة النزاع الذي كان وقت أن قام بها . لقد أخفقت الحملات الصليبية التي نظمها لاسترداد فلسطين ، وكانت الحملة التي نجحت بعد وفاته هي التي أبيد فيها الألبجنسيون في جنوبي فرنسا بوحشية مجردة من كل رحمة . نعم إنه نال إعجاب مواطنيه ، ولكنه لم ينل حبهم كما ناله جريجورى الأول أو ليو التاسع ، وقد شكوا بعض رجال الدين من أنه كان ملكاً أكثر منه رجل دين ؛ وظن القديس لتجاردس Lutgardis أنه لن يستطيع الفرار من النار إلا بشق الأنفس^(١٣٢) ؛ وحتى الكنيسة نفسها امتنعت عن أن تسلكه في عداد القديسين وفيهم من هم أقل وأكثر منه إطاعة لصوت الضمير ، وإن كانت تفخر بعقريته وتشكر له صادق جهوده .

ولكننا لا ينبغي لنا أن نضن عليه بأنه رفع الكنيسة إلى ذروة مجدها ، وأوشك أن يحقق ما كانت تحلم به من أن تصبح دولة عالمية مهيمنة على شئون الناس الأخلاقية . وكان هو أقدر حكام زمانه ، يعمل لتحقيق أغراضه بعيد نظر ، وإخلاص ، ومزيج من الإصرار والمرونة ، وجهود لا يكاد يصدقها الإنسان ؛ فلما مات في عام ١٢١٦ كانت الكنيسة قد بلغت من دقة التنظيم ، وعظيم الأبهة ، وبعد الصيت ، وقوة السلطان ، ما لم تعرف له نظيراً قبل ، وما لم تستمتع به بعد إلا في فترات جد نادرة وقصيرة .

وليست لهونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) منزلة عالية في سجلات التاريخ القاسية ، لأنه كان لركة حاشيته عاجزاً عن أن يخوض بقوة الحرب الناشبة بين الإمبراطورية والبابوية ؛ أما جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) فقد خاض غمار هذه الحرب بعزيمة تكاد تصل إلى درجة التعصب ، وإن كان قد بلغ الثمانين من العمر حين جلس على كرسي البابوية ؛ وقد حارب فرديريك

الثاني وانتصر عليه انتصاراً كان من أثره أن تأخر عصر النهضة مائة عام ، وهو الذى نظم محكمة التفتيش ، ولكنه كان إلى ذلك مخلصاً إخلاصاً لا يرقى إليه الشك ، تقياً إلى حد البطولة ، قوياً فى دفاعه عما حسبه أثمن ما يملكه بنو الإنسان وهو الدين الذى جاء به المسيح .

وهل كان هذا الرجل قاسياً غليظ القلب ، وهو الذى حمى كريدنال فرانسس وهدهدته بحكمته ، ولولا هذا لكان من الجائز أن يصبح من الملحدین المارقين . وقضى إنوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤) على فردريك الثاني ، وأقر استخدام محكمة التفتيش للتعذيب (١٣٣) . وكان نصيراً صادقاً للفلسفة ، مساعداً للجامعات ، مؤسساً لمدارس القانون . وكان اسكتلر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١) محباً للسلم ، رحيماً ، شقيقاً عادلاً « أدهش العالم ببعده على الاستبداد » (١٣٤) ومعارضته لصفات أسلافه العسكرية ، (١٣٥) ، يفضل التقي عن السياسة ؛ وقد مات « كسير القلب » كما يقول مؤرخ فرنسكانى « ولم يتقطع يوماً عن التفكير فيما بين المسيحيين من نزاع متزايد رهيب » (١٣٦) ؛ وعاد كلمنت الرابع (١٢٦٥ - ١٢٦٨) إلى امتشاق الحسام ، ودبر هزيمة مانفرد Manfred ، وقضى على أسرة هوهنستاوفن وعلى ألمانيا الإمبراطورية . ولما استعاد اليونان مدينة القسطنطينية تعرض الاتفاق القائم بين الكنيسة اليونانية والرومانية لخطر الزوال ؛ ولكن جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) استحق حمد ميخائيل بليجلوس Michael Paleologus بمقاومته مطامع شارل دوق أنجو فى الاستيلاء على القسطنطينية ؛ فلما عاد إمبراطور الروم إلى ملكه أخضع الكنيسة اليونانية إلى رومة ، وعادت البابوية إلى ما كانت عليه من تفوق .

الفصل الثامن

مالية الكنيسة

لقد كانت الكنيسة في واقع الأمر دولة أوربية فوق الدول جميعها ، تضطلع بشئون العبادات ، والأخلاق ، والتعليم ، والزواج ، والحروب العامة ، والحروب الصليبية ، والموت ، والوصايا ، لنصف سكان قارة من القارات ، وتشترك اشتراكاً فعالياً في تصريف الشئون الزمنية ، وتقيم أكثر الصروح نفقة في تاريخ العصور الوسطى ، ولهذا كله لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه الوظائف كلها إلا باستغلال مائة مصدر من مصادر الإيراد .

وكانت العشور أكبر مصادر هذا الإيراد : ذلك أن قانون الدولة فرض بعد شارلمان على جميع الأراضي التي يمتلكها غير رجال الدين أن تؤدى عشر مجموع غلتها أو ريعها عيناً أو نقداً إلى الكنيسة المحلية ؛ كذلك فرض على كل أبرشية بعد القرن العاشر أن تبعث بجزء من عشورها إلى مطران الأسقفية . وأجازت مبادئ الإقطاع أن تقطع عشور الأبرشية للغير ، وترهن ، ويوصى بها ، وتباع ، شأنها في هذا شأن جميع الأملاك أو الإيراد ، فلم يكدر يحل القرن الثاني عشر حتى نشأت شبكة مالية معقدة كانت الكنيسة المحلية وقسيسها هما القائمين على جمع عشورها ولم يكونا من مستهلكيها . وكان ينتظر من القس أن « يصب اللعنات من أجل عشوره » على حد قول الإنجليز — أى أن يُخرج من الدين من يحاولون التخلص من أديانها أو يزورون في إيرادهم ؛ لأن الناس في تلك الأيام كانوا يكرهون أداء العشور للكنيسة التي يرون أن أعمالها لازمة لنجاتهم ، كما يكرهون في هذه الأيام أداء الضرائب للدولة . فنحن نسمع عن ثورات يقوم بها دافعو العشور من آن إلى آن : فقد حدث في رجيو إميليا Reggio Emilia عام

١٢٨٠ ، كما يقول الراهب سلمبين Salimbene ، أن تحدى الناس قرارات الحرمان والتحریم ، وتعاهدوا على « ألا يؤدى أحد منهم أى عشور إلى رجال الدين . . . وألا يجلسوا معهم على مائدة الطعام . . . وألا يقدموا لهم طعاما أو شرابا - وهو حرمان معكوس ، اضطر معه الأسقف إلى أن يترضاهم (١٣٧) .

وكان مصدر إيراد الكنيسة الأساسى هو أراضيها التى حصلت عليها بالهبية أو الوصية ، وبالبیع أو إغلاق الرهن ، أو بإصلاح الأراضي البور بأيدي جماعات الرهبان أو غيرها من الجماعات الدينية . وكان ينتظر من كل مالك حسب السنن الإقطاعية أن يوصى حين مماته بجزء من ماله للكنيسة ؛ وكان الذين لا يفعلون هذا يرتاب في صدق إيمانهم ، ويتعرضون لعدم الدفن في الأراضي المخصصة للموتى الصالحين (١٣٨) . وإذا كان الذين يعرفون الكتابة من غير رجال الدين نسبة ضئيلة من الأهلين ، فإن القس كان هو الذى يدعى في العادة إلى كتابة الوصايا . وقد أصدر البابا إسكندر الثالث في عام ١١٧٠ قراراً يحرم على أى إنسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية إلا في حضرة قسيس ، وينص على أن كل موثق من غير رجال الدين يجرؤ على كتابة وصية بغير هذا الشرط يطرد من حظيرة الدين (١٣٩) ، وكانت الكنيسة وحدها هي المختصة بإثبات صحة الوصايا . وكانت الهبات أو الوصايا للكنيسة ما في نظر الناس هي أول الطرق الموثوق بها للنجاة من آلام المطهر . وكان عدد كبير من الوصايا للكنيسة ، وبخاصة قبل عام ١٠٠٠ م يبدأ بهذه العبارة : *Adventante mudi vespero* ، ومعناها أنه « لما كانت أمسية العالم قريبة » (١٤٠) . ولقد سبق القول إن بعض الملوك كانوا ينزلون عن أموالهم إلى الكنيسة بوصف ذلك تأمناً لهم من العجز : فكانت الكنيسة تؤدى للراهب راتباً سنوياً وترعاه في حالتي المرض والشيخوخة ، على أن تتسلم تركته خالية من جميع الحقوق العينية حين وفاته (١٤١) . وكانت بعض الأديرة « توائخي » المحسنين إليها فتمنحهم نصيباً من تخفيف عذاب المطهر ، وهو

(٦ - ج - ٥ - مجلد :)

التخفيف الذى ناله الرهبان بفضل صلواتهم وصالح أعمالهم^(١٤٣) . ولم يكتف الصليبيون ببيع أراضيهم إلى الكنيسة بأثمان بخسة ليحصلوا ببيعها على ما يحتاجونه من المال ، بل لأنهم استدانوا الأموال من الهيئات الكنسية بضمان ممتلكاتهم أو برهنها لها ؛ وكثيراً ما كانت هذه الممتلكات تؤول إلى تلك الهيئات لعجز أصحابها عن أداء ما عليها من الديون . ومن الناس من كانوا يموتون وليس لهم ورثة . طيبعيون فيتركون أملاكهم كلها للكنيسة ، من ذلك أن ماتلدا دوقة تسكانيا Countess Matilda of Tuscany حاولت أن توصى للكنيسة بما يكاد يبلغ ربع مساحة إيطاليا كلها .

وإذ كانت أملاك الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها ، وكانت قبل عام ١٢٠٠ معفاة في الأحوال العادية من الضرائب الزمنية^(١٤٣) ، فقد أخذت هذه الأملاك تنمو على مر القرون ، فلم يكن من الأمور غير العادية أن تمتلك كنيسة كبرى ، أو يمتلك دير للرجال أو النساء ، عدة آلاف من الضياع تشمل فيما تشمله نحو اثنتى عشرة بلدة ، بل تشمل أحياناً مدينة كبرى أو مدينتين^(١٤٤) . فقد كان أسقف لانجر Langres مثلاً يمتلك المقاطعة كلها . وكان دير القديس مارتن في تور يحكم عشرين ألفاً من أرقاء الأرض ، وكان أسقف بولونيا يمتلك ألنى ضيعة ، وكان الدير لورسش Lorsch - مثل هذا القدر من الضياع ، وكان لدير لاس هولجاس Las Huelgas في أسبانيا أربع وستون بلدة^(١٤٥) ؛ وكانت الكنيسة في قشتالة تمتلك حوالى عام ١٢٠٠ م ربع الأراضى الزراعية ؛ وكانت في إنجلترا تمتلك خمسها ، وفي ألمانيا ثلثها ، وفي ليثونيا Livonia نصفها^(١٤٦) . على أنه يجدر بنا أن ننبه القارىء إلى أن هذه التقديرات تقريبية ، وليست كلها مما يوثق بصحتها . وأضحى هذه الثروة المكنسة موضع حسد الدولة ومطمعها . فقد صادر شارل مارتل أملاك الكنيسة ليمول بها حروبه ، وأصدر لويس الثقيف القوانين التى تحرم على من كان له أبناء أن يوصى بأملاكه إلى الكنيسة^(١٤٧) .

وجرد هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا كثيراً من الأديرة من أراضيها ، وقال فى تقرير هذا العمل إن الرهبان قد نذروا أن يعيشوا فقراء ، ووضعت بعض القوانين الإنجليزية الخاصة بالأموال المرصودة قيوداً على انتقال الأملاك إلى « الهيئات » أى الجماعات الكنسية . واستولى إدورد الأول من الكنيسة الإنجليزية فى عام ١٢٩١ على عشر أملاكها ، كما استولى منها فى عام ١٢٩٤ على نصف دخلها السنوى . وبدأ فليب الثانى سُنَّة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة فى فرنسا ، وجرى القديس لويس على هذه السنَّة وجعلها فليب الرابع شريعة مقررة . ولما تقدمت الصناعة والتجارة ، وكثرت النقود ، وارتفعت الأثمان ، أصبح دخل الأديرة والأسقفيات الآتى معظمه من الرسوم الإقطاعية التى كانت مقدرة من قبل على أساس مستوى الأثمان المنخفضة ، والتى لم يكن يستطيع رفعها فى هذه الأيام ، تقول أصبح دخل الأديرة والأسقفيات لاينى بمعيشة من فيها ، دع عنك ترفهم^(١٤٨) ، فلم يخل عام ١٢٧٠ حتى كانت كثرة الكنائس والأديرة فى فرنسا مستغرقة فى الدين ؛ ذلك أنها كانت قد استدانَت من أصحاب المصارف بفوائد مرتفعة لتقِّ بمطالب الملوك ؛ وكان هذا من أسباب ضعف نشاط البناء فى فرنسا فى آخر القرن الثالث عشر .

وزاد البابوات فى فقر الأسقفيات بما فرضوه من الضرائب على أملاكها وإبرادها ليمولوا الحروب الصليبية فى بادئ الأمر ، وليوفوا بنفقات الكرسي البابوى المطردة الزيادة فيما بعد ؛ وكان لابد من وجود مصادر للدخل المركزى كلما وسعت البابوية مجال أعمالها وزادتها تعقيداً . وتحقيقاً لهذه الغاية أمر البابا إنوسنت الثالث (١١٩٩) جميع الأساقفة أن يرسلوا إلى كرسي القديس بطرس جزءاً من أربعين جزءاً من إيرادهم فى كل عام ، وفرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء ، وعلى الكنائس الداخلة فى دائرة الحماية البابوية مباشرة . وفرض البابوات على كل أسقف فى أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة

النظرية جميع إيرادها في السنة الأولى ، ولكنها كانت من الوجهة العملية نصف هذا الإيراد ؟ وذلك نظير تثبيته في منصبه . وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعينون رؤساء أساقفة ، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسي البابوي بنساً ستويا (بنس من الريال الأمريكي) يعرف باسم « بنسات بطرس » . وقد جرت العادة على أن تفرض رسوم على القضايا التي تعرض على المحكمة البابوية . وكان البابوات يدعون لأنفسهم حق الخروج على القانون الكنسي في بعض الحالات ، كالأذن بزواج من يحرم زواجهم من ذوى القربى إذا بدا لهم أن ثمة غاية سياسية طيبة تبرر هذا الخروج ، وفرضت أجور على الإجراءات القضائية التي ينطلبها هذا العمل . كذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية ، ومن الحجاج القادمين إلى رومة . وقد حسب دخل الكرسي البابوي في عام ١٢٥٠ فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوروبية الزميين مجتمعين^(١٤٩) . ولقد تلقى البابا من إنجلترا في عام ١٢٥٢ ثلاثة أمثال إيراد التاج^(١٥٠) .

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها ، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد في هذا العصر . فقد أعلن آرنولد الرشياني Arnold of Brescia أن كل قس أو راهب يموت وله ملك ماله النار لا محالة^(١٥١) . وزاد البجوميل Bogoniles والولدنس Waldenses ، والباترين Paterines ، والكاثاري Cathari على ذلك فشنعوا حملة شعواء على ثروة أتباع المسيح . وكان من قصائد الهجاء المتداولة في القرن الثالث عشر قصيدة عنوانها « الإنجيل حسب الماركات الفضية » مطلعها : « وقال البابوات للرومان في تلك الأيام : إذا جاء ابن الإنسان إلى مقعد جلالتنا فليكن أول ما تقولون : أيها الصديق لم جئت إلى هذا المكان ؟ فإذا لم يعطكم شيئاً فآلقوا به في الظلمات الخارجية »^(١٥٢) . وإنا لنجد في جميع آداب ذلك الوقت — في الأقاصيص الخرافية ، وفي الأغاني ، وفي قصة الوردة Roman de La Rose

وفى قصائد الشعراء الجائلين ، وأشعار شعراء الفروسية الغزليين ، وفى قصائد دانتى ، وفى أقوال مؤرخى الأديرة الإخباريين أنفسهم شكاوى من بخل رجال الدين أو ثرائهم^(١٥٣) . وقد ندد ماثيو باريس Mathew . Paris أحد الرهبان الإنجليز بجشع رجال الدين الإنجليز والرومان الذين يعيشون منعمين من أملاك المسيح^(١٥٤) . وكتب هيوبرت ده رومان Hubert de Romans رئيس طائفة الرهبان الدمنيك عن « بائعى صكوك الغفران البابوية الذين يفسدون المحاكم الدينية بما يقدمونه من الرشا »^(١٥٥) . ويتحدث پترس كانتور Petrus Cantor وهو نفسه قسيس ، عن القساوسة الذين يبيعون القداس أو أدعية الغروب^(١٥٦) ، وشنع بكت Beckte رئيس أساقفة كنتربرى بمجلس القضاء البابوى الذى يباع ويشترى ، وينقل عن هنرى الثانى قولاً له يفخر فيه بأن جميع أعضاء مجلس الكرادلة يتقاضون منه أجوراً^(١٥٧) . والحق أن تهم الرشوة والفساد قد وجهت إلى كل حكومة ظهرت فى التاريخ . وإن فى هذه التهم شيئاً من الحقيقة فى جميع الأحوال ، غير أن فيها كذلك بعض المبالغة فى حوادث منشؤها أمثلة صاخبة حدثت فى بعض الأوقات ، ولكن هذه التهم تثير أحياناً غضباً يكاد يبلغ حد الثورة ، ولقد كان يسع الأهلين الذين أقاموا بدريهماتهم الكنائس لمريم العذراء أن يحتجوا وهم غضاب على جشع الكنيسة مجتمعة ، وكم من مرة قتلوا قسا عنيداً^(١٥٨) .

واشتركت الكنيسة نفسها فى نقد جشع رجال الدين ، وبذلت كثيراً من الجهود للقضاء على شره رجالها وترفعهم . فلقد حاول مئات من رجال الدين من القديس بطرس داميان St. Peter Damian ، والقديس برنار St. Bernard ، والقديس فرانسس ، والكاردينال ده فترى Cardinal de Vitry إلى صغار الرهبان تقليل هذه المساوىء^(١٥٩) ، وإن ما كتبه هؤلاء المصلحون من رجال الكنيسة هو أهم المصادر التى عرفنا منها ما نعرفه عن هذه المساوىء . وقام عدد من طوائف الرهبان يتنادون بضرورة إصلاحها ، ويضربون بأنفسهم المثل لما

يجب أن يكون عليه هذا الإصلاح ، وندد البابا اسكندر الثالث ومجلس
لاتران الذى عقد فى عام ١١٧٩ بفرض الأجرور على أداء مراسم التعميد ،
أو مسح المشرفين على الموت ، أو القيام بمراسم الزواج ، ودعا جريجورى
العاشر مجلس ليون الجامع سنة ١٢٧٤ خاصة لاتخاذ الإجراءات اللازمة
لإصلاح الكنيسة . ولم يكن البابوات أنفسهم فى ذلك العصر ممن يبدو عليهم
ميل إلى الترف ، وقد كسبوا ما لهم بالانهماك فى أداء واجباتهم المنهكة .
وإن من المأسى التى تتعرض لها الروحانيات أنها تضمحل ويضعف شأنها
إذا لم يعن بتنظيمها ، وأنها تفسدها ما يتطلبه تنظيمها من ضرورات مادية .

الباب الثاني والعشرون

محكم التفتيش في بداية عهدها

١٣٠٠ - ١٠٠٠

الفصل الأول

الإلحاد الألبجنسي

وصارت الحملة على رجال الدين سيلاً جارفاً في آخر القرن الثاني عشر. فقد كان في عصر الإيمان مخائى منزلة من التصوف الديني والعاطفة الدينية، بمنجاة من المسيحية الكهنوتية المنظمة، غير راضية عن أعمالها. وأقبلت على بلاد الغرب موجات جديدة من التصوف الشرقي لعلها سارت في ركاب الصليبيين العائدين إلى بلادهم. وجاءت من بلاد فارس عن طريق آسية الصغرى وبلاد البلقان أصداء الاثنيونية المانوية(*) والشيعية المزدكية. وجاءت من بلاد الإسلام كراهية الصور والاشتمزاز من القساوسة، وأعقب الحروب الصليبية وإخفاقها شك خفي فيما يعزى إلى الكنيسة المسيحية من أصل قدسي ومعونة إلهية. وجاء البوليسيون Paulicians إلى إيطاليا وبروفانس عن طريق بلاد البلقان فأرّبن نحو الغرب من وجه الاضطهاد البيزنطي، يحملون معهم سخرتهم من الصور المقدسة والعشاء الرباني، ورجال الدين، وقسموا الكون إلى عالم روحي

(*) المانوية أتباع ماني، وهو رجل من أهل همدان عاش بين عامي ٢١٥ و ٢٧٦ وقال إن كل شيء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلام أو الخير والشر. (المترجم)

من خلق الله وعالم مادي من خلق الشيطان ، وقالوا إن الشيطان هو هوة الوارد ذكره في العهد القديم . وتكونت طائفة البجوميل Bogomiles (أى أصدقاء الله) في بلغاريا ، وتسموا فيها بهذا الاسم ، وانتشروا في البوسنة بنوع خاص ؛ وهوجوا بالسيف والنار في أوقات مختلفة في القرن الثالث عشر ، واستماتوا في الدفاع عن أنفسهم ، ثم استسلموا آخر الأمر (١٤٦٣) للإسلام لا للمسيحية .

وظهرت في عام ١٠٠٠ شيعه في طولوز (طلوشة) وأورليان ، تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب ووجود المسيح في القربان المقدس ، وتأثير الصلوات للقسيسين . وأغفل أمرهم إلى حين ، ثم حوربوا ، وأحرق ثلاثة عشر منهم أحياء في عام ١٠٢٣ . ونشأت شيعه ملاحدة أخرى شبيهة بهم ، وأعقبت نشأتهم اضطرابات في كبريه ، وليبيج (١٠٢٥) ، وجسلار Goslar (١٠٥٢) ، وسواسون Soissons (١١١٤) ، وكولوني (١١٤٦) ، وغيرها من المدن ، أحصى منها برثلد الرجنزبرجي Berthold of Regensburg مائة وخمسين شيعه في القرن الثالث عشر^(١) ؛ منها جماعات عديمة الضرر تلتقى ليقراً بعضها إلى بعض الكتاب المقدس بلغتها القومية دون الاستعانة بقسيس ، وليفسروا بأنفسهم ما فيه من عبارات تختلف الناس في تفسيرها ؛ ومنها جماعات عدة كالهيوملياتي Humiliati في إيطاليا ، والبجوين Béguines والبغاراد Beghards في البلاد الوطيفة ، تتمسك بالدين في كل شيء إلا في إصرارها المحير على أن يعيش القساوسة فقراء . وكان الفرنسي سكان شيعه من هذا الصنف ، وكانت تعبد من الشيعه الملاحدة ولم تنج من هذا إلا بشق الأنفس .

لكن الولد نزيين Waldenses لم ينجوا من هذا المصير ، فقد استأجر تاجر ثرى يدعى بطرس ولدو Pater Waldo في عام ١١٧٠ جماعة من العلماء ليرجموا الكتاب المقدس إلى اللانج ذلك langue d'oc لغة جنوبي فرنسا . وأقبل على درس الترجمة بشغف ، وخرج من هذا الدرس معتقداً أن من واجب المسيحيين

أن يعيشوا كما كان يعيش الرسل — ليس للواحد منهم ملك خاص .
ثم نزل عن جزء من ثروته لزوجته ، ووزع الباقي منها على الفقراء ، وقام
يدعو الناس إلى أن يعيشوا فقراء . وجمع حوله طائفة قليلة العدد هي « رجال
ليون الفقراء » لبسوا مسوح الرهبان ، وعاشوا عيشة العفة والطهارة ،
ومشوا حفاة أو منتعلين الصنادل ، وكانوا ينفقون من مكاسبهم مشاة^(٢) .
وصبر عليهم رجال الدين بعض الوقت فلم يعارضوهم في شيء ، وسمحوا
لهم بأن يقرأوا أو ينشدوا في الكنائس^(٣) . ولكن بطرس ضرب بمنجله
محصول رجل غيره ، منفذاً بذلك أوامر الإنجيل بحرفيتها ، فأذكره رئيس
أساقفة ليون بعبارة قوية أن الأساقفة وحدهم هم الذين يجوز لهم أن يعطوا
الناس . وسافر بطرس إلى رومة (١١٨٩) ، وطلب إلى الإسكندر الثالث
أن يمنحه إذناً بالوعظ ، فأجابه البابا إلى طلبه على شريطة أن يوافق على
ذلك رجال الدين المحليون ، وأن يكون خاضعاً لإشرافهم . وواصل بطرس
عظاته ، دون أن يحصل على موافقة رجال الدين المحليين ؛ وأصبح أتباعه
من أشهر رجال الدين تمسكاً بالكتاب المقدس ، وحفظوا فقرات طويلة منه عن
ظهر قلب . واصطبغت هذه الحركة تدريجاً صبغة معادية لرجال الدين ،
ونبذتهم جميعاً ، وأنكرت صحة العشاء الرباني الذي يقدمه قس آثم ، وعزت
إلى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو عن الذنوب . وعارض بعض
الأعضاء صكوك الغفران ، وعقيدة المطهر ، وتحول القربان المقدس إلى
جسم المسيح ودمه ، والصلاة للتديسين . وقامت طائفة منهم تنادى بأن
« الأشياء جميعها يجب أن تكون ملكاً مشاعاً »^(٤) . ونادت طائفة أخرى
بأن الكنيسة هي المرأة الحمراء المذكورة في سفر الرؤيا^(٥) . وصدر في
عام ١١٤٨ قرار بحل هذه الجماعة ، وقبل إنوسنت الثالث في الكنيسة
عام ١٢٠٦ فئة منها هي فئة « الكاثوليك الفقراء » ، أما كثرتها الغالبة
فقد أصرت على آرائها الخارجية على الدين ، وانتشرت من فرنسا إلى
إسبانيا وألمانيا . وأصدر مجلس عقد في طولوز عام ١٢٢٩ ، ليعاوم أغلب

الظن انتشار هذه الشيعة ، قراراً يقضى ألا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب الترتيل والأدعية (ومعظمها مزامير) ؛ وبحرم عليهم أن يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية ، لأن الكنيسة لم تكن حتى ذلك الوقت قد بحثت أية ترجمة إلى اللغات القومية وأيدت صحتها^(٦) . ولما قاومت حركة القضاء على الألبجنسيين حرق آلاف من أتباع ولدو ، ومات بطرس نفسه في بوهيميا في عام ١٢١٧ ، ويبدو أنه مات ميتة طبيعية .

وقبل أن ينتصف القرن الثاني عشر كانت بلدان أوروبا الغربية معشاة للشيع الملهدة ، حتى قال أحد الأساقفة في عام ١١٩٠ إن « المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين »^(٧) ، وكان في ميلان وحدها سبعة عشر ديناً جديداً ، وكان أهم الشيع الملهدة فيها شيعة البترائيين Patarines — ويبدو أن اسمهم مشتق من بتاريا Pataria أحد الأحياء الفقيرة في البلدة . ويلوح أن هذه الحركة بدأت احتجاجاً على الأغنياء ، ثم استحوطت حركة ضد رجال الدين ، وأخذت تندد بالرشا وبيع المناصب الكهنوتية ، وثرء رجال الدين وزواجهم ، وانتشار التمرى بينهم ، واقترحت كما قال أحد زعمائها « أن تصادر أموال رجان الدين ، وأن تباع أملاكهم بالمزاد ؛ فإذا قاوموا فلتبح بيوتهم للنهب ، وليطردوا هم وأبنائهم غير الشرعيين من المدينة »^(٨) . ونشأت شيع مثلها ضد رجال الدين في فيرربو Viterbo ، وأرفيتو Orvieto وفيررنا Verona ، وفرارا Ferrara وبارما Parma وبياسنرا Piacenza ، ورعيني Rimini . . .^(٩) ، وكانت هذه الشيع في بعض الأوقات هي المسيطرة على الجمعيات الشعبية ، والمستولية على زمام الحكم ، وبلغ من سلطانها أن فرضت الضرائب على رجال الدين لتمويل المشروعات المدنية^(١٠) . وأمر إنوسنت الثالث مندوبه في لمبارديا أن يستقسم جميع موظفي البلديات ألا يعينوا أحداً من الملاحدة في أية وظيفة أو أن يوافقوا على أى تعيين من هذا القبيل . وثار الغوغاء في مدينة ميلان عام ١٢٧٣ وأخلوا « يجهرون

بأقوال التجديف والسباب » ، وذنسوا عدة كنائس « بالأقذار التي نستنكف عن ذكرها » (١١) .

وكانت أسماء مختلفة تطلق على أقوى الشيع المملحة كلها ، فكانت تسمى شيع الكاثاري ، وهذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها « الطاهر » . أو البلغاري نسبة إلى أصلهم (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة « بجر Bugger » للسباب) ، والألبجنسيين نسبة إلى بلدة ألبى Albi التي كانوا يكثرون فيها بنوع خاص . وكانت مدائن منبليه ، ونربونه ومرسيليا المراكز الفرنسية للشيع المملحة ، ولعل منشأ هذا هو اتصالها بالمسلمين واليهود ، وتردد التجار من مراكز الإلحاد في البوسنة ، وبلغاريا ، وإيطاليا . ونشر التجار حركة الإلحاد في طولوز ، وأورليان ، وسواسون ، وأراس ، وريمس ؛ ولكن لانجويديك Languedoc وپروفانس بقيتا حصنها الحصين . وكانت حضارة العصور الوسطى الفرنسية قد بلغت ذروتها في هاتين المقاطعتين ؛ فكان أتباع الأديان الكبرى يختلطون فيهما متحابين كما يتحاب أهل الحضر المهدبون .

وكانت النساء حسانا مزهوات ، والأخلاق طليقة من القيود ؛ وكان الشعراء الغزلون ينشرون الأفكار المرحية ، وكان عصر النهضة وشيك البدء فيهما كما كان وشيك البدء في إيطاليا أيام فردريك . وكانت فرنسا الجنوبية تتألف وقتئذ (١٢٠٠) من إمارات تكاد تستقل كل منها بشؤونها لا يربطها بالولاء إلى ملك فرنسا إلا رباط واه . وكان نلاء طولوزهم أعظم السادة في ذلك الإقليم ، فقد كانوا يملكون من الأراضي أكثر من أملاك الملك الخاصة . وكانت عقائد الكاثاري وشعائهم من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى ، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للإلحاد الأريوسي الذي انتشر في فرنسا الجنوبية في عهد القوط الغربيين ، ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغير هامن الآراء الشرقية . وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ، ومطارنة يسمون

الكامل Perfecti ، يقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم ، وأبنائهم ، وأن يهبوا أنفسهم « لله والإنجيل » ولا يقربوا امرأة قط ، ولا يقتلوا حيوانا ، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان ، وألا يطعموا إلا السمك والخضر (*) وكان أتباعهم « المؤمنون (Credentes) » يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الإيمان على هذا ، وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم ، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يسيروا نحو الحياة « الكاملة » ، وأن يُحيُوا كل واحد من الكمل بثلاث ركعات علامة على التعظيم .

وتقسم فلسفة الكاثارى الدينية الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير : الله والروح ، والسماء ؛ والشر : الشيطان ، والمادة ، والعالم المادى . وتقول إن الشيطان لا الله هو الذى خلق العالم المرئى . وهى تعد المادة كلها شرا بما فيها الصليب الذى مات عليه المسيح والقربان المقدس ، وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخبز : « هذا جسمى » (١٣) . وإذا كانت الأجسام كلها من المادة فإن كل اتصال بها يندس المتصل ، وكل الاتصال الجنسى إثم ، وكان الجماع هو خطيئة آدم وحواء (١٤) . ويصف أعداء الألبجنسيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الربانى ، والقداس ، وتعظيم الصور المقدسة ، والتثليث ، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء ؛ وعندهم أن المسيح من الملائكة ، ولكنه ليس هو الله . ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة ، ويأملون أن تقسم الطيبات بين الناس بالتساوى (١٥) . وقد اتخذوا « عظة الجبل » أساساً لمبادئهم الأخلاقية ؛ وكانوا يعلمون أن يحبوا أعداءهم ، وأن يعنوا

(*) من تقرير كتبه سكوتى Sacchoni أحد قضاة محكمة التفتيش (١٧) . ولستأ نعرف شيئاً من عنائد الكاثارى وشعائهم إلا منقولاً عن أعدائهم . أما ما كتبه هم فقد ضاع أو تلف .

بالمرضى والفقراء ، وألا يقسموا قط ، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم ؛ وكان يقال لهم إن العنف يتنافى مع الخلق الكريم ، ولو كان موجهاً للكفار ، وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم ، وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة^(١٦) . ولم يكن في هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر ؛ بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تنقلب في عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها ؛ ولا بد للإنسان أن يموت وهو طاهر لكي يصل إلى السماء ؛ ولهذا كان عليه أن يتلقى من قس مسيحي القديس الأخير الذى يتم به تطهير الروح من آثامها . وكان الكاثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القديس (كما كان بعض المسيحيين الأولين يؤجلون التعميد) إلى مرضهم الأخير في ظنهم ، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد ، وللموت دون أن يقوموا بمراسيم القديس الأخير ؛ ولهذا كان من أكبر البلايا أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسمه . وكان القساوسة الألبجنسيون يهتمون بأنهم يعملون لمنع هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يميئوا أنفسهم جوعاً ليرقوا إلى السماء . ويؤكد لنا أعداؤهم أنهم كانوا في بعض الأحيان يميئون المريض خفياً برضاه حتى لا يكون ثمت مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير^(١٧) .

واقدر كان يسع الكنيسة أن تترك شيعة الكاثارى تقضى بنفسها على نفسها ، لولا أن هذه الطائفة أخذت توجه سهام النقد إلى الكنيسة . فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح ؛ وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى رومة ، ولم يؤسس البابوية ، وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل ؛ وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه ، أما البابا فيسكن قصرأ منيفاً ، وإن المسيح لم يكن له ملك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوى الثراء

العريض ، وما من شك - كما يقول الكاثارى - فى أن رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ذوى الأملاك الواسعة ، والقساوسة الدنيويين ، والرهبان السمان ، هم الفرّيسيون Pharisees (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد ! ولم يكونوا يشكّون فى أن الكنيسة الرومانية هى « زانية بابل » ، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان ، وأن البابا هو المسيح الدجال (١٨) . وكانوا ينددون بالداعين إلى الحروب الصليبية ويصفونهم بأنهم قتلة (١٩) ، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران والمخلفات المقدسة . ويقال إن جماعة منهم صوروا العذراء فى صورة قبيحة ، عوراء ، مشوهة الجسم ، وادعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات ، وإن كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة الزائفة ، ثم كشفوا هم أنفسهم آخر الأمر عن خديعتهم (٢٠) . ونشرت كثير من آراء الكاثارى عن طريق الأغاني التى يذيعها شعراء الفروسية الغزلون ، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الأخلاقية وإن لم يعتنقوا آراء الشيعة الجديدة . غير أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يعدّون من أنصار الألبجنسيين ؛ فقد كانوا يسخرون من الحجج ، والاعتراف ، والماء المقدس ، والصليب ، وكانوا يسمون الكنائس « معششات اللصوص » ، كما كان القساوسة الكاثوليك فى رأيهم « خونة ، كاذبين ، منافقين » (٢١) .

وظل رجال الدين والسلطة الزمنية فى فرنسا الجنوبية حيناً من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثارى ؛ ويلوح أنهم أجازوا لجمهرة الشعب أن تختار بملء حريتها بين الدينين القديم والجديد (٢٢) . وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثارى والكاثوليك ، منها واحد عقد فى كاركسون Carcassonne حضره مندوب من قبل البابا وآخر من قبل پدرو الثانى ملك أرغونة (١٢٠٤) . كذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثارى مجلساً من رجال دينها فى عام ١١٧٦ ، وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة .

وتباحث المجتمعون في عقائد هذه الشيعة ، ونظمها ، وشؤونها الإدارية ، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها ، وانفض المجتمعون دون أن يتعرض لهم أحد (٢٣) . وفوق هذا فإن الأشراف رأوا أن من الخير لهم أن يضعفوا سلطان الكنيسة في لانجويدك ؛ ذلك أن هذه الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الأرض ، على حين أن الأشراف كانوا إذا قيسوا إليها فقراء ؛ ولهذا شرعوا ينتزعون بعض أراضيها . وحدث في عام ١١٧١ أن هاجم فيكونت بيزير Béziers ديراً من الأديرة ، وزج أسقف ألبي Albi في السجن ، وعين أحد الخارجين على الدين لحراسته . ولما أن اختار رهبان آلبي Allet رئيساً عليهم ممن لا يرضى عنهم الفيكونت أحرق الدير وزج بالرئيس في السجن . فلما مات هذا السجين نصب الفيكونت المرح جثته في المنبر ، وأرغم الرهبان على أن يختاروا في مكانه رئيساً يرتضيه . كذلك طرد ريمند روجر Raymond Roger كونت فوا Foix رئيس دير پامير Pamiers ورهبانه من ديرهم ، وأطعم خيله الشوفان من فوق المذبح ، واستخدم جنوده أذرع الصليبان التي عليها صورة المسيح مصلوباً وأرجلها مدقات لطحن الحبوب ، واتخذوا صورة المسيح هدفاً للتدريب على الرماية . وهدم ريمند كونت طولوز عدداً من الكنائس ، واضطهد رهبان مواساك Moissac ، وطُرد من حظيرة الدين (١١٩٦) ؛ ولكن الحرمان الديني كان وقتئذ أمراً لا قيمة له في نظر الأشراف المقيمين في فرفسا الجنوبية ؛ واعتنق الكثيرون منهم آراء الكاثارى الإلحادية ، أو بسطوا على معتنقيها حمايتهم (٢٤) .

ولما جلس إنوسنت الثالث على كرسي البابوية في عام ١١٩٨ رأى في هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً . لقد كان يرى بعض العذر فيما يوجه إلى الكنيسة من نقد ، ولكنه كان يحس بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين ، يرى هذا الصرح الديني العظيم الذي وضع له أكبر الخطط ، وعقد عليه أنبل الآمال ، والذي بدا له أقوى عاصم من العنف البشري ، والفوضى

الاجتماعية ، ومن ظلم الملوك - ، يرى هذا الصرح يهاجم من أساسه ، وتغتصب ممتلكاته ، وتهان كرامته ، ويتعرض لضروب السخرية والتجديف . لقد ارتكبت الدولة هي أيضاً كثيراً من الذنوب ، واحتضنت الفساد والموظفين الفاسدين ، ولكن البلهاء وحدهم هم الذين يرغبون في القضاء عليها . وهل يستطيع إقامة نظام اجتماعي دائم على المبادئ التي تنهى عن الأبوة ، وتدعو إلى الانتحار ؟ وهل يفلح نظام اقتصادي يمجّد الفقر ويخلو من كل ما في الملكية من حافز إلى السعى والعمل ؟ وهل يستطيع إنقاذ العلاقات الجنسية بين النساء والرجال ، وتنشئة الأطفال ، من الفوضى الوحشية إلا بنظام كنظام الزواج . وقد بدت عقائد الكاثارتي لإنوسنت كأنها خليط من السخف ، نفثت فيها سذاجة الجاهل سما زعافاً ؟ وما فائدة حرب صليبية توجه إلى المسلمين في فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبجنسيون يتضاعفون في قلب العالم المسيحي نفسه ؟

وكتب إنوسنت بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتش Auch في غسقونية يقول :

إن قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه أمواج البحر ، ولكن أشد ما يحزنني ويقض مضجعي . . . أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلاً في تحزرها من جميع القيود وفي شدة أذاها ، قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين ، وأخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبالها ، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس ، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية . وإذ كان . . . هذا الوباء قد أخذ ينتشر في غسقونية والأقاليم المجاورة لها ، فإننا ندعوكم أنتم والأساقفة زملائكم إلى مقاومته بكل ما أوتيتم من قوة . . . وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القوي النافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل ، وأن تخرجوا من

أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها . . . وفي وسعكم إذا اضطرتتم أن تجعلوا
الأمراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف (٢٥).

ويبدو أن رئيس أساقفة أوتش - وهو رجل متسامح مع غيره كما هو
متسامح مع نفسه - لم يقم بالعمل الذي تدعوه هذه الرسالة إلى القيام به ؛
أما رئيس أساقفة نربونة وأسقف بيزير فقد قاوما المندوبين اللذين عينهما
إنوسنت لينفذا أوامره . وحدث حوالى ذلك الوقت أن اعتنقت ست سيدات
تترعهمن أخت كونت فواه مبادئ الكاثاريين ، وكان ذلك فى احتفال عام
شهده كثير من النبلاء ، فما كان من إنوسنت إلا أن استبدل بمندوبيه المحققين
مندوباً آخر أشد منهم بطشاً وأمضى عزيمة ، وكان هذا المندوب هوارنو
Arnuad رئيس الرهبان السترسيين (١٢٠٤) ومنحه قوات غير عادية تجيز
له أن يفحص ويحقق فى جميع أنحاء فرنسا . وأمره أن يعرض على ملك فرنسا
وأشرافها عفواً شاملاً لكى يساعده فى القضاء على شيعة الكاثارى الملحدة ،
ثم عرض البابا على فليب أغسطس فضلاً عن هذا أن يمنحه نظير هذه
المساعدة جميع الأراضي التى يمتلكها من يابون الانضمام إلى حملة صليبية ضد
الألبجنسيين (٣٧) . لكن فليب تردد فى قبول هذا العرض لأنه كان قد أتم
قريب ذلك الوقت فتح نورمندي ، وكان فى حاجة إلى متسع من الوقت يهضم
فيه هذا الكسب الجديد . ووافق ريمند السادس صاحب طولوز أن يستخدم
طريقة الإقناع مع الملحددين ، ولكنه أبى أن يشترك فى حرب تشن عليهم ،
فما كان من إنوسنت إلا أن أصدر عليه قرار الحرمان ؛ فلما وعد ريمند
بأن يجيب البابا إلى طلبه ، وعفا عنه البابا ، عاد إلى التباطؤ والإهمال ،
وقال أحد الفرسان الذين أمرهم مندوب الباب بطرد الكاثارى من أرضه ؛
« كيف نفعل هذا وقد نشأنا مع هؤلاء القوم ومنهم بعض أهلينا ،
ونراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين ؟ » (٢٧) . وأقبل على القوم القديس
دمنيك من أسبانيا ؛ وأخذ يخطب داعياً إلى مسالة الزنادقة ، وعاد
(٧ - ج - ٥ - مجلد ٤)

بعضهم إلى الدين القويم متأثرين بتقواه وصلاحه^(٢٨) . ولعل المشكلة كانت .
تحل بهذه الطريقة ، يصاحبها إصلاح شأن رجال الدين لو لم يقتل بيرده
كاستلنو Pierre de Castelnau أحد مندوبي البابا بيد فارس بسط عليه
ريمند بعدئذ حمايته^(٢٩) . وكان إنوسنت قد رأى جهوده التي بذلها نحو
عشر سنين طوال ضد هذه الطائفة الملاحدة تبوء بالخيبة ، فلجأ إلى أساليب
العنف الشديد ، وحرم ريمند ومحرضيه من الكنيسة ، وأصدر قرار التحريم
ضد الأراضي الخاضعة لهم ، وعرض هذه الأراضي على كل مسيحي
يستطيع القبض عليهم ، ودعا المسيحيين في جميع أقطار العالم إلى حرب
صليبية ضد الألبجنسيين ومن يحمونهم . وأجاز فليب أغسطس لكثيرين
من بارونات مملكته أن يتطوعوا في هذه الحرب ، وجاءت فصائل من
ألمانيا وإيطاليا . ووعد جميع من يشتركون في هذه الحرب بالغفران الشامل
الذي وعد به من يحملون الصليب للقتال في فلسطين . وطلب ريمند
المغفرة ، وكفر عن ذنبه علنا (ضرب بالسوط وهو نصف عار في كنيسة
القديس جيل St. Gilles) ونال المغفرة للمرة الثانية واشترك في الحرب
المقدسة (١٢٠٩) .

وقاوم معظم سكان لانجويدك ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، أولئك
الصليبيين ، لأنهم رأوا في هجوم أشراف الشمال وجنوده المغامرين محاولة تبغى
الاستيلاء على أرضهم تحت ستار الغيرة الدينية ، بل إن المسيحيين الصادقين من
أهل الجنوب قاوموا غارات أهل الشمال^(٣٠) . ولما اقترب الصليبيون من بيزير
عرضوا عليها أن يجنبوها ويلات الحرب إذا ما سلمت إليهم جميع الملتحقين
الذين دون أسقفها أسماءهم ؛ ولكن زعماء المدينة رفضوا هذا العرض وقالوا إنهم
يفضلون أن يضرب عليهم الحصار حتى يضطروا إلى أكل أطفالهم . فما كان من
الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة ؛ واستولوا عليها ، وقتلوا من أهلها عشرين
ألفاً من الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز بينهم ، وحتى الذين احتموا منهم

بالكنيسة لم ينجوا من القتل^(٣١) . ومن القصص التي شاعت وقتئذ قصة لا نجد لها سنداً إلا فيما كتبه قيصر يوس هيستر باخ *Caesarius Heisterbach* بعد عشرين عاماً من ذلك الوقت ، وهي تقول إن أرنود *Arnaud* مندوب البابا سئل هل يؤمن الكاثوليك على حياتهم فلا يقتلون ، فأجاب : « اقتلوهم جميعاً فالله يعلم من هم أنصاره »^(٣٢) ، ولعله كان يخشى أن يجهر جميع المغلوبين وقتئذ باعتناق الدين القويم ، ثم يعودو بعد إلى ضلالهم . ولما حرقت بيزير عن آخرها تقدم الصليديون بقيادة ريمند لهاجوا حصن كاركسرون حيث وقف روجر كونت بيزير وابن أخى ريمند وقفته الأخيرة يدافع عن الحصن ، لكن الحصن سقط في أيدي المهاجمين ومات روجر بزحار البطن .

وكان أكثر القواد شجاعة في هذا الحصار هو سيمون ده مونت فورت *Simon de Montfort* . وقد وُلد سيمون هذا في فرنسا حوالى عام ١١٧٠ وكان أكبر أبناء سيد مونت فورت القريبة من باريس . وأصبح سيمون بعدئذ إيرل ليسستر *Earl of Leicester* ، وهو لقب ورثه عن أمه الإنجليزية . وقد استطاع سيمون أن يجمع بين التقى العظيم والحروب العوان ، كما استطاع ذلك كثيرون من رجال وقته المتغطرسين . فكان يستمع إلى الصلوات في كل يوم ، واشتهر بطهره وعفافه ونال شهرة عظيمة في حروب فلسطين . وأخذ في هذه الحرب الألبجنسية يهاجم بجيشه الصغير المؤلف من ٤٥٠٠ رجل بلدة في إثر بلدة يستحثه مندوب البابا ، ويسحق كل ما يعترضه من مقاومة ، ويعرض على الأهلي أن يختاروا بين يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو القتل لأنهم مارقون ؛ واختار آلاف منهم أن يقسموا يمين الولاء ، وفضل مئات أن يقتلوا^(٣٣) . وواصل سيمون حملاته أربعة أعوام خرب فيها أملاك كونت ريمند كلها تقريباً ما عدا طولوز ، حتى استسلمت له طولوز نفسها في عام ١٢١٥ ، واجتمع مجلس من مندوبى البابا في منبليه وقرر خلع كونت ريمند ، وورث سيمون لقبه والجزء الأكبر من أملاكه .

ولم يكن إنوسنت الثالث راضياً كل الرضا عن هذه الأعمال ، فقد هاله أن يجد أن الصليبيين استولوا على أملاك رجال لم يخرجوا قط على الدين ، وأن هؤلاء الرجال نهبوا وقتلوا كما يُقتل القراصنة المتوحشون ويُنهبون^(٣٤) . وأشفق البابا على ريمند فوظف له معاشاً سنوياً ، ووضع جزءاً من أملاكه تحت وصاية الكنيسة تحتفظ بها لابنه ولما بلغ ريمند السابعة سن الرشيد فتح طولوز واستردها من سيمون ؛ ومات سيمون نفسه وهو يحاصر المدينة مرة ثانية (١٢١٨) . ووقفت الحرب الصليبية وقتئذ لما مات إنوسنت ، وخرج من بقي حيا من الألبجنسيين المستمسكين بعقيدتهم يمارسون شعائر دينهم ويدعون له تحت حكم كونت طولوز الجديد اللين الرحيم .

وعرض لويس الثامن ملك فرنسا في عام ١٢٢٣ أن يخلع ريمند ، وأن يقضى على كل الحوارج في أملاكه . إذا سمح له هونوريوس الثالث بأن يضم هذا الإقليم إلى أملاكه الخاصة . ولسنا نعرف بم أجاب البابا ، وكل ما نعرفه أن حرباً صليبية بدأت . وأن لويس أو شك أن ينتصر فيها حين وافته المنية في منبيليه (١٢٢٦) . وانتهز ريمند هذه الفرصة ليعقد الصلح مع بلانش صاحبة قشتالة النائية فيها عن لويس التاسع ، فعرض أملاك ابنته جين Jeanne على الفونس أخى لويس . وعودة أملاك ريمند بعد وفاته إلى جين وزوجها . وكانت بلانش يورقها ويقض مضجعها الأشراف الثائرون عليها ، فقبلت هذا العرض ، ووافق عليه البابا جريجورى التاسع بعد أن تعهد ريمند بالقضاء على حركة الإلحاد بقضها وقضيضها . وعقدت معاهدة الصلح في باريس عام ١٢٢٩ ووضعت الحروب الألبجنسية أوزارها بعد ثلاثين عاماً من التقتيل والتخريب ، وخرج الدين القويم ظافراً من هذه الحروب ، وانتهى بانتصاره عهد التسامح ؛ وحرم مجلس نربونه (١٢٢٩) أن يمتلك أحد من غير رجال الدين أى جزء من الكتاب المقدس^(٣٥) . وأخذ الإقطاع ينتشر ، وأخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية في

الاضمحلال ؛ وانقض عصر شعراء الفروسية الغزليين في جنوبي فرنسا .
وماتت في عام ١٢٧١ حين هي وألفونس اللذان ورثا أملاك ريمند دون أن
يكون لهما أبناء ، وآلت ولاية طولوز الواسعة إلى لويس التاسع والتاج
الفرنسي ، وأصبحت لفرنسا الوسطى وقتئذ منافذ تجارية حرة على البحر
المتوسط ، وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها ؛ وكانت هذه الوحدة
هي ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبجنسية ٥

الفصل الثاني

منشأ محكمة التفتيش أو التحقيق

لقد سنّ كتاب العهد القديم قانوناً بسيطاً لمعاملة المارقين من الدين ، يقضى بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً ، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم : « ذهبوا وراء آلهة أخرى » أخرج المارقون من المدينة و « رجموا بالحجارة حتى يموتوا » . (تثنية التثنية ١٣ : ١٠) (*) :

إذا قام في وسطك نبي أو حالم وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قاتلاً لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحالم ، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبي أو الحالم ذلك الحالم يقتل لأنه يتكلم بالزيف من وراء الرب إلهكم . . . فتزعمون الشر من بينكم . وإذا أغواك سرّاً أخوك ابن أمك ، أو ابنك أو ابنتك ، أو امرأة حضنك ، أو صاحبك الذي مثل نفسك قاتلاً نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا تسره بل قتلاً تقتله . (تثنية التثنية ١٣ : ١ - ٩) . . . لا تدع ساحرة تعيش (الخروج ٢٢ : ١٨) .

وقد ورد في إنجيل يوحنا (٦ : ١٥) أن عيسى عليه السلام ارتضى هذا القول : « إن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجاً كالغصن فيجف ، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق » . وحافظت الجماعات اليهودية في العصور الوسطى من الوجهة

(*) في الأصل الإنجليزي (١٧ : ٢٥) ولكن ١٣ : ١٠ هو الصحيح . (المترجم)

النظرية على شريعة الكتاب المقدس الخاصة بالمروق من الدين ، ولكنها قلما عملت بها . واستمسك بها ابن ميمون بلا تحفظ (٣٦) .

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين - أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية - جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت ؛ وفى رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم أو التجديف فى حقهم من جرائم الخيانة العظمى التى يعاقب عليها بالإعدام . فإذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب ، استدعى القاضى الرومانى نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية (inquisitio) ، ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق فى العصور الوسطى شكلها واسمها . وطبق أباطرة الروم القوانين الرومانية فى العالم البيزنطى فحكموا بالإعدام على المانويين وغيرهم من المارقين . ثم كثر التسامح فى البلاد الغربية خلال العصور المظلمة وهى التى قلما كان أبناؤها يتحدون الكنيسة ، وقال ليو التاسع أن الحرمان من الدين يجب أن يكون هو العقاب الوحيد الذى يوقع على المارقين (٣٧) . ولما انتشر الإلحاد فى القرن الثانى عشر قال بعض رجال الكنيسة إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفي الدولة إليهم أو سجنهم (٣٨) . ولما عادت بولونيا فى القرن الثانى عشر إلى اتباع القوانين الرومانية جاءت فى قانونها نصوص وأساليب ، ودوافع . لإنشاء محكمة تحقيق ، ونقل قانون الإلحاد الكنسى كلمة كلمة من القانون الخامس المعنون De hereticis (الضلال) فى كتاب چستنيان (٣٩) . وكان آخر ما فعلته الكنيسة أن أخذت فى القرن الثالث عشر قانون ألد أعدائها . فردريك الثانى ، وهو أن يكون الإعدام عقوبة الضلال .

ولقد كان من المبادئ العامة لدى المسيحيين - ولدى كثيرين من الضالين أنفسهم - أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وتبعا لهذا المبدأ كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكي جريمة موجهة إلى الله نفسه ؛ وكانت النظرة التى ينظر بها

إلى الضال العاصى هي أنه أداة للشيطان أرسل للقضاء على عمل المسيح ، وكل
« جل من رجال الحكم بغض النظر عن الضلال إنما يخدم الشيطان بعمله هذا .
وإذ كانت الكنيسة تشعر بأنها جزء لا يتجزأ من حكومة أوروبا الأخلاقية
والسياسية ، فقد كانت تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة : أى أنه
عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى . وفى ذلك يقول إنوسنت الثالث :
« إن القانون المدنى يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإعدامهم . . . وهذا
يؤكد حقنا فى أن يحرم من الدين من يخونون دين المسيح ، وأن تصدر
أملاكهم ؛ ذلك بأن الإساءة إلى الذات العلية المقدسة جريمة أشنع من
الإساءة إلى جلالة الملك » (٤٠) . وكان الضال يبدو فى أعين الحكام الدينيين
أمثال إنوسنت شراً من المسلم أو اليهودى ؛ ذلك أن هذين يعيشان إما فى خارج
العالم المسيحى أو يخضعان لقانون نظامى - صارم - إذا كانا فى داخله ؛
يضاف إلى هذا أن العدو الأجنبى جندى فى حرب صريحة ، أما الضال فهو
خائن فى داخل البلاد يقوّض أسس المسيحية وهى مشتبكة فى حرب طاحنة
مع الإسلام ، يضاف إلى هذا فى رأى رجال الدين ، أنه إذا أجزئ لكل
إنسان أن يفسر الكتاب المقدس حسب ما يراه عقله (مهما يكن قاصراً) ،
وينشئ لنفسه الصورة التى يرتضيها من صور المسيحية ، فإن الدين الذى
حفظ لأوروبا قانونها الأخلاقى الضعيف لن يلبث أن ينهار ويتفرق إلى مائة
عقيدة ، ويفقد ما له من أثر بوصفه قوة اجتماعية تربط الآدميين المتوحشين
بفطرتهم وتخلق منهم مجتمعاً وحضارة .

وكان الشعب نفسه ، إلا فى جنوبى فرنسا وإيطاليا ، أشد الناس حماسة
اضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لأن الشعب نفسه يعتقد آراء رجال الدين
السالفة الذكر دون أن تكون لها فى ذهنه صورة واضحة لها ، أو لأن النفوس
الساذجة تخشى بفطرتها كل مخالف وغريب ، أو لأن الناس يسرهم أن يطلقوا
فى غمار الجماهير المجتعة المجهولة العنان لغرائزهم المكبوتة بسبب ما عليهم من

التبعات بوصفهم أفراداً . وأياً كان السبب فإن « الغوغاء أنفسهم قد عاقبوا الضالين قبل أن تشرع الكنيسة في اضطهادهم بزمن طويل »^(٤١) ، بل لقد كان الأهليون المتدينون يشكون لين الكنيسة المفرط مع الضالين^(٤٢) ، وكانوا في بعض الأحيان « يختطفون المذشحين من أيدي القساوسة الذين يحملونهم »^(٤٣) ؛ وشاهد ذلك ما كتبه قس من فرنسا الشمالية إلى إنوسنت الثالث يقول : « لقد بلغ من تقوى الناس في هذه البلاد أنك لا تراهم دائماً على استعداد لأن يبعثوا إلى موضع الحرق بمن ثبتت ضلالتهم فحسب ، بل لأنهم ليعثون إليه فوق ذلك بكل من يظنونه ضالاً »^(٤٤) ؛ وحدث في عام ١١١٤ أن زوج أسقف سواسون ببعض الضالين في سجن ، ولكن العامة انتهزوا فرصة غيابه و« خافوا أن يصطنع رجال الدين اللين معهم » فهجموا على السجن وجردوا الضالين منه وحرقوهم أحياء^(٤٥) . وأصر العامة في لبيج عام ١١٤٤ على أن يحرق بعض الضالين الذين كان الأسقف أدلبرو Adilbero لا يزال يأمل في هدايتهم^(٤٦) . ولما قال بيري ده بروي Birre de Bruys « إن القساوسة يكذبون حين يدعون أنهم يصنعون جسم المسيح » (وهم يصنعون القربان المقدس) وأحرق كومة من الصليبان في يوم الجمعة الحزينة ، قتله العامة في مكانه وأحرقوه لساعته^(٤٨) .

واشتركت الدولة على كرهه منها في اضطهاد الضالين لأنها كانت تخشى ألا تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة التي تغرس في قلوب الناس عقيدة دينية موحدة . يضاف إلى هذا خوفها أن يكون الضلال الديني ستاراً يخفى وراءه التطرف السياسي ، ولم تكن في ظنها هذا مخطئة على الدوام^(٤٩) . وقد يكون للاعتبارات المادية أثر في هذا الشأن لأن الضلال الديني أو السياسي كان يعرض للخطر أملاك الكنيسة والدولة ؛ ولهذا كان الرأي العام بين الطبقات العليا - مع استثناء لا نجويدك مرة أخرى - يطلب إلى الدولة أن تقضى على الضلال مهما كلفها ذلك القضاء^(٥٠) . ولهذا أمر هنري السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٤)

أن ينزل بالضالين أشد أنواع العقاب ، وأن تصادر جميع أملاكهم ، وأصدرت
أثو الرابع (١٢١٠) ، ولويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٦) ، وأصدرت
مدينتا فلورنس (١٢٢٧) وميلان (١٢٢٨) ، مراسيم شبيهة بمرسوم هنرى .
وكان أشد قوانين الاضطهاد هو القانون الذى سنّه فردريك الثانى فيما بين
عامى ١٢٢٠ و ١٢٣٩ وقضى بأن يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة
إلى « اليد الزمنية - أى إلى ولاية الأمور المحليين - وأن يحرقوا أحياء ، فإذا
ما رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ،
ثم صودرت جميع أملاكهم ، وحرم ورثتهم من ميراثهم ، وظل أبنائهم
محرومين من حق الاختيار إلى أى منصب دى دخل أو كرامة ، إلا إذا
كفّروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين . وقضى القانون
بأن تحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط (٥١) . وأضاف لويس التاسع
الرفيق الظريف أحكاماً شبيهة بهذه الأحكام إلى قوانين فرنسا . والحق أن
الملوك هم الذين كانوا ينازعون الشعب فضل البداية فى اضطهاد الضالين .
وحسبنا أن نذكر غير ما سبق أن ربرت ملك فرنسا أمر بإحراق ثلاثة عشر
ضالاً فى أورليان عام ١٠٢٢ ؛ وكان هذا أول حادث معروف من عوادم
إعدام الضالين بعد إعدام برسلين Priscillian بأيدى السلطات الزمنية
فى عام ٣٨٥ . وبعد ذلك شتق هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا عدداً من المانويين
أو الكاثارين جسلار غير عابئ باحتجاج وأزو Wazo أسقف لبيج وقوله
إن فى الحرمان من الدين عقاباً كافياً للضالين (٥٢) . وفى عام ١١٨٣ « بعث »
الكونت فليب صاحب فلاندرز هو ورئيس أساقفة ريمس « عدداً كبيراً من
النبلء ، ورجال الدين ، والفرسان ، والفلاحين ، والفتيات ، والنساء
المتزوجات ، والأرامل إلى حيث أحرقوا وهم أحياء بعد أن صادرا أملاكهم
واقسماها بينهما » .

وكان البحث عن الضالين قبل القرن الثالث عشر يترك فى الأحوال العادية

للأساقفة . وإنا ليصعب علينا أن نسمى هؤلاء الأساقفة باحثين ، لأنهم كانوا ينتظرون الشائعات العامة أو الضجيج الذى يدهم على الضالين ، فيستدعونهم ولكنهم يصعب عليهم أن يحملوهم بطريق التحقيق على الاعتراف بذنوبهم . ولم يكونوا يرتضون أن يلجأوا إلى التعذيب ، فكانوا لذلك يعمدون إلى طريق التحكيم الإلهى ، وهم مخلصون فى ظاهر الأمر فى اعتقادهم أن الله سيرسل المعجزات لحماية البريئين . وأيد القديس برنار هذه الوسيلة ووصفها مجلس من الأساقفة عقد فى ريمس (١٢٥٧) بأنها إجراء عادى فى محاكمة الضالين ، ولكن إنوسنت الثالث حرمها . وساء البابا لوسيسوس الثالث إهمال الأساقفة فى محاربة الضلال ، فأمرهم بأن يزوروا أسقفياتهم مرة فى كل عام على الأقل ، وأن يقبضوا على كل من تحوم حولهم الشبهات ، وأن يسلكوا كل من لا يقسم بيمين الولاء التام للكنيسة فى زمرة الضالين (وقد رفض الكاثارى أن يقسموا هذا القسم) ، ثم عليهم بعد ذلك أن يسلموا هؤلاء العصاة إلى ولاية الأمور المحليين . وخول مندوبو البابا حق خلع الأساقفة الذين يتوانون فى القضاء على الضلال (٥٤) . وطلب إنوسنت الثالث فى عام ١٢١٥ إلى جميع ولاية الأمور المندنيين أن يقسموا علناً بأن « يبيدوا من الأراضى الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عينتهم الكنيسة ليلقوا ما يستحقون من العقاب » فإذا لم يفعلوا هذا كانوا هم أنفسهم ضالين . وكل أمير يهمل فى أداء هذا الواجب يخلع ويعفى البابا رعاياه من طاعته (٥٥) ، ولم يكن « العقاب الذى يستحقونه » حتى ذلك الوقت يزيد على النفي ومصادرة الأملاك (٥٦) .

ولما ارتقى جريجورى التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وجد أن الضلال آخذ فى الازدياد رغم المحاكمات الشعبية ، والحكومية ، والأسقفية . فقد كانت جميع بلاد البلقان ، وكان الجزء الأكبر من إيطاليا ، وغير قليل من فرنسا ، كانت هذه البلاد مرتعاً للزيف والضلال . حتى لقد أضحت الكنيسة . ولما يمحض على

سلطان إنوسنت الرائع إلا زمن وجيز ، يهددها خطر الانقسام والتفكك . وكانت المسألة ، كما يراها الحبر الطاعن في السن ، أن الكنيسة وهي تقاتل فردريك والضلال في وقت واحد ، إنما تقاتل في سبيل المحافظة على حياتها ، وأنها يحق لها من أجل ذلك أن تلجأ إلى المبادئ الأخلاقية والأساليب التي تختمها حالة الحرب . وروغ جريجورى أن عرف أن الأسقف فلبو پاترنون Filippo Paterrenon الذى تمتد أسقفيته من بيزا إلى أرزو قد اعتنق مذهب الكاثارى ، فعيّن لجنة للتحقيق يرأسها راهب من الدمنيك تعقد جلساتها في فلورنس وتقدم الضالين إلى المحاكمة (١٢٢٧) . وكانت هذه اللجنة في واقع الأمر بداية محكمة التحقيق البابوية ، وإن كان المحققون فيها خاضعين من الوجهة الرسمية لسلطان الأسقف المحلى . فلما كان عام ١٢٣١ أدخل جريجورى في قانون الكنيسة الشرائع التي سنها فردريك في عام ١٢٢٤ ؛ وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام ؛ وبهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسمياً تحت سلطان البابوات .

الفصل الثالث

المحققون (المفتشون)

أرسل جريجورى وخلفاؤه بعد عام ١٢٢٧ عدداً متزايداً من المحققين أو المفتشين الخصوصيين لمطاردة الضلال ، وكان يفضل أن يختار لهذا العمل أعضاء طوائف الرهبان المتسولين الجدد لأن حياتهم البسيطة وإخلاصهم يختلفان عن ترف رجال الدين من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى لا يستطيع الاعتماد على الأساقفة على أنه لم يبح لأى محقق أن يقضى بحكم شديد على أى ضال من غير موافقة الأسقف ، ولهذا اختير كثير من الرهبان الدمينيك لهذا الغرض ، حتى لقد سموا من قبيل السخرية Domini Canes أى « كلاب الله » (الصيادين)^(٥٧) . وكان كثيرون منهم رجالاً متميزين في أخلاقهم ولكن قلّ منهم من كان يتصف بالرحمة ، ولم يكونوا يعتقدون في أنفسهم أنهم قضاة يزنون الأدلة بعدل ونزاهة ، بل كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح . وكان منهم رجال ذوو عناية وضمائر حية أمثال برنار جوى Bernard Gui ، ومنهم من كانوا مرضى ساديين مثل ربرت الدمينيكي Robert the Dominican وهو رجل ضال تائب أرسل في يوم واحد من أيام ١٢٣٩ مائة وثمانين شخصاً ليحرقوا أحياء ، من بينهم أسقف منح الضالين حسب رأيه حرية أكثر مما يستحقون . وقد أعفى ربرت هذا من منصبه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة^(٥٨) .

وكان اختصاص محكمة التحقيق مقصوراً على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين^(٥٩) . ولقد بذل الدمينيك جهوداً خاصة لتحويل اليهود إلى المسيحية ،

ولكنهم لم يكونوا يلجئون في هذا العمل لغير الوسائل السلمية ؛ وبلغ من حرصهم على هذا أنه لما اتهم بعض اليهود في عام ١٢٥٦ بقتل بعض أطفال المسيحيين في بعض طقوسهم ، عرض الرهبان الدمنيك والفرنسيسكان حياتهم للخطر لإنقاذهم من الغوغاء^(٦٠) . وخير ما يوضح لنا الغرض من إنشاء محكمة التحقيق ودائرة اختصاصها مرسوم بابوى أصدره نقولاس الثالث (١٢٨٠) :

نعان بهذا حرمان جميع الضالين ونصب عليهم اللعنة — الكاثارى ، والپتارين ، ورجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذى يسمون به . فإذا أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضى الزمنى لمعاقبتهم . . . وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله وأراد أن يكفّر عن ذنبه ، وجب سجنه مدى الحياة . . . وكل من يأوى الضالين ، أو يحميهم ، أو يساعدهم ، بحرم من الدين ؛ وإذا بقى إنسان محروماً عاماً كاملاً ويوماً حرم من حماية القانون . . . وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم ، طردوا من حظيرة الدين ، فإذا بقوا محرومين عاماً كاملاً حكم عليهم بما يحكم على الضالين . وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم . . . وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان ويظل كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه . . . فلا يُغفر له ذنبه حتى يخرج بيده جثث المحرومين ويطرحها في العراء . . . ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا في مسائل الدين الكاثوليكي ، ومن يفعل هذا يحرم من الدين ؛ وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ، أو ممن يعقدون اجتماعات سرية ، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يفضى إليه باعترافه ، أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق ، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين . والضالون ، وكل من يأوونهم ، أو يؤيدونهم ، أو يساعدونهم ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثانى — هؤلاء لا يسمح لهم بتولى المناصب الكنسية . . . وها نحن أولاء نحرمهم جميعاً وأمثالهم من دخلهم إلى أبد الدهر^(٦١) .

ويجوز أن تبدأ إجراءات محاكم التحقيق بالقبض العاجل على جميع الضالين ، وعلى جميع المشتبه في ضلالهم أحياناً ، وقد تبدأ بأن يستدعى المحققون الزائرون جميع السكان البالغين في مكان ما للبحث المبدئي . والذين يقرون بضلالهم في خلال « المهلة القانونية » الأولى ، ومدتها ثلاثون يوماً ، ثم يتوبون ، يطلق سراحهم بعد حبسهم زمناً وجيزاً ، أو بعد أن يقوموا بعمل من أعمال التقى ، أو يتصدقون بالمال^(٦٢) . أما الضالون الذين لا يعترفون في أثناء هذه المهلة ، ثم يكشف عن أمرهم في هذا التحقيق المبدئي ، أو تدل عليهم عيون محكمة التحقيق^(٦٣) ، أو يكشف عنهم بأية طريقة أخرى ، أما هؤلاء جميعاً فيدعون إلى المثول أمام محكمة التحقيق . وكانت هذه المحكمة تؤلف في الأحوال العادية من اثني عشر رجلاً يختارهم الحاكم الزماني في الإقليم من ثبت يحتوى أسماء المرشحين ، يعرضه عليه الأسقف وهيئة المحققين ، ويضم إليه اثنان من المسجلين وعدد من الحجاب . فإذا ما انتهز المتهمون هذه الفرصة الثانية ، وأقروا بذنبهم ، عوقبوا عقاباً يختلف باختلاف ذنبهم ، وإذا أنكروا جرمهم زجوا في السجن . وكان من المستطاع محاكمة المتهمين وهم غائبون أو بعد مماتهم . وكانت المحاكمة تحتاج إلى شاهدين من شهود الإثبات ، وتقبل من يعترفون بذنبهم من الضالين شهود إثبات على غيرهم ؛ وكان يسمح للزوجات أن يشهدن على أزواجهن وللأبناء على آبائهم ، ولا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يشهدن أو يشهدوا لهم^(٦٤) . ويسمح لجميع المتهمين في مكان ما بناء على طلبهم أن يطلعوا على ثبت شامل يحوى جميع أسماء من يتهمونهم ، ولكن هذا ثبت لا يدل على متهم على من اتهمه ، فقد كان يخشى أنه إذا واجه أى متهم من اتهمه فقد يعمد أصدقاء المتهم إلى قتل من يتهمه . وفي ذلك يقول لي Lea : « والحق أن عدداً من الشهود قد قتلوا لريبة بسيطة حامت حولهم »^(٦٥) . وكان يطلب إلى المتهم عادة أن يذكر أسماء أعدائه ، وكانت المحكمة ترفض أى دليل يقدمه أولئك الأعداء^(٦٦) .

وكان المبلغون الكاذبون يعاقبون أشد العقاب^(٦٧) ؛ ولم يكن يسمح للمتهمين قبل عام ١٣٠٠ بأن يستعينوا بأية معونة قانونية^(٦٨) ، أما بعد عام ١٣٥٤ فقد صدر مرسوم بابوي يحتم على المحققين ألا يعرضوا أدلة الإثبات على الأسقف وحده بل أن يعرضوها عليه وعلى رجال من ذوى السمعة الطبية في الإقليم ، وأن يصدروا حكمهم بما يتفق مع آرائهم^(٦٩) . وكانت هيئة من الخبراء (perite) تدعى في بعض الأحيان لتبدي رأيها في الأدلة . وقصارى القول أن الأوامر الصادرة إلى المحققين كانت تنبههم إلى أن نجاة المذنب من العقاب خير من إدانة البريء ، وأن من واجهم أن يحصلوا بما على دليل واضح أو اعتراف صريح .

وكان القانون الروماني القديم يجيز الالتجاء إلى التعذيب للحصول على الاعتراف ؛ ولم تكن هذه الطريقة تتبع في المحاكم الأسقفية ؛ أو في السنين العشرين الأولى من سنى محاكم التحقيق . غير أن إنوسنت الرابع (١٢٥٢) أجازها حيث يكون القضاة واثقين من جرم المتهم ، ثم أجازها من جاء بعده من الأحيار^(٧٠) . ولكن البابوات كانوا ينصحون بأن يكون التعذيب آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين ، وألا يلجأ إليه إلا مرة واحدة ، « وألا يصل إلى ما يؤدي إلى فقد عضو من الأعضاء أو إلى خطر الموت » . وفسر المحققون عبارة « مرة واحدة » بأنها تعنى مرة واحدة في كل محاكمة ، فكانوا لذلك يقطعون التعذيب في بعض الأحيان ليواصلوا المحاكمة ، ويرون بعدئذ أن من حقهم أن يعودوا إلى تعذيب المتهم . وكان التعذيب يستخدم في كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة ، أو لإجبار الضال المعترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين^(٧١) . وكان من أنواعه الجلد ، والكي بالنار ، والتعذيب بالعذراء ، والسجن الانفرادي في جب مظلم ضيق . وكانت قدما المتهم توضع أحياناً على الفحم المتقد ؛ أو كان يشد إلى إطار على شكل مثلث ثم تجذب يده وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية . وكان طعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف

بذلك جسمه وإرادته فيؤثر فيه ذلك التعذيب النفساني ، كالوعد بالرقعة أو التهديد بالقتل (٧٢) . وقلمًا كانت محكمة التحقيق ترى قيمة للاعتراف الذي يأتي من طريق التعذيب ، ولكن هذه المشكلة كان يتغلب عليها بإرغام المتهم على أن يؤكد ، بعد ثلاث ساعات من اعترافه ، ما قرره أثناء التعذيب ؛ فإذا أتى أمكن تعذيبه من جديد . وحدث في عام ١٢٨٦ أن بعث موظفو كركسون Carcassonne برسالة إلى فليب الرابع ملك فرنسا وإلى البابا نقولاس الرابع يشكون فيها من صعوبة التعذيب الذي يلجأ إليه المحقق جان جالان Jean Galand . فقد كان بعض مسجونى جان هذا يتركون زمناً طويلاً في السجن الانفرادى الحالك الظلام ، وكانت قيود بعضهم تبلغ من الضيق حداً يضطرون معه إلى الجلوس في برازهم ، أو لا يستطيعون إلا النوم على ظهورهم فوق الأرض الباردة (٧٣) . وقد شد بعضهم إلى العذراء شداً عنيفاً فقدوا معه استخدام أيديهم وأرجلهم ، ومنهم من مات في أثناء التعذيب (٧٤) . وشنع فليب على هذه الوحشية وحاول البابا كلمنت الخامس (١٣١٢) أن يحد من التجاء المحققين إلى التعذيب ، ولكن سرعان ما أهملت أوامره (٧٥) .

وكان المسجونون الذين يأبون أن يفيدوا من الفرصتين اللتين تتاح لهم للاعتراف ثم يدانوا بعدئذ، والذين يرتدون إلى ضلالهم بعد توبتهم ، كان هؤلاء وأولئك يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة أو بالإعدام . وكان السجن مدى الحياة يخفف بمنح السجن شيئاً من الحرية في التنقل، والزيارة ، والألعاب ، أو يشدد بحرمانه من الطعام أو بتقييده بالأغلال (٧٦) . وكان الذين يدانوا بعد أن يقاوموا يحكم عليهم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى بمصادرة أملاكهم . وكان بعض هذه الأملاك المصادرة يعطى عادة لحاكم الإقليم الزمنى ، ويعطى بعضها للكنيسة ؛ وكان ثلث هذه الأملاك يعطى في إيطاليا للذى يبلغ عن الضال ؛ أما في فرنسا فكانت الأملاك المصادرة تذهب كلها للتاج . وكانت هذه الاعتبارات كلها

(٨ - ج ٥ - مجلد ٤)

تغرى الدولة والأفراد بالاشتراك فى تعقب الضالين ، وفى محاكمة الموتى ؛ وكان من المستطاع فى أى وقت من الأوقات الاستيلاء على أملاك البرشين من الناس بحجة أن من أورثوهم إياها قد ماتوا وهم ضالون . وكان هذا من الشرور الكثيرة التى حاول البابوات أن يقضوا عليها ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح (٧٧) . وكان مما يفتخر به أسقف رودس أنه جمع مائة ألف « صول (*) » فى حملة واحدة على الضالين فى أسقفيته (٧٨) .

وكان الحقوقيون يعلنون فى حفل رهيب يقام من آن إلى آن إدانة المذنبين وما يحكم به عليهم من عقاب . فأما التائبون فكانوا يوضعون على منصة فى وسط الكنيسة ، ثم يُقرأ اعترافهم ، ويطلب إليهم أن يؤكدوا هذا الاعتراف ، وأن ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها إقلاعهم عن الضلال ؛ ثم يقوم المحقق الذى يرأس الاحتفال فيعفى النائب من الحرمان ، ويعلن سائر الأحكام المختلفة . فأما الذين « سيطلقون » أى يتركون إلى السلطات الزمنية فكان يسمح لهم بيوم آخر يرجعون فيه عن ضلالهم ؛ وأما الذين يعترفون ويتوبون ، ولو كانوا عند عمود الحرق ، فكان يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ؛ وأما الذين يبقون على عنادهم فكانوا يحرقون وهم أحياء فى الميدان العام . وكان هذا الإجراء كله ، من حكم وتنفيذ ، يطلق عليه فى أسبانيا اسم « عمل الإيمان auto da fé » لأنه كان يقصد به أن يقوى عقائد الشعب الصحيحة ، ويؤيد الإيمان بالكنيسة . ولم تنطق الكنيسة قط بحكم الإعدام ، فقد كان شعارها القديم هو : إن الكنيسة تحجم عن إراقة الدماء « ecclesia abhorret a sanguine » ، ولهذا كان القسيسون يؤثرون بالألأ يسفكوا دماء ؛ ومن أجل ذلك فإن الكنيسة حين تبعث إلى السلطات انزمنية باللذين تدينهم لم تكن تطلب إلى ولاية رجال الدولة

(.) عملة فرنسية قديمة كانت قيمتها ١/٢ من الجنيه الفرنسى استبدلها « الصلدى » .

(المترجم)

أكثر من أن يوقعوا عليهم « العقاب الذى يستحقونه » وتنبههم إلى أن يتجنبوا « كل ما من شأنه سفك الدماء أو التعريض لخطر الموت » . ثم اتفقت الكنيسة والدولة بعد جريجورى التاسع على ألا يؤخذ هذا التحذير بمعناه الحرفى ، بل أن يقتل المذنبون دون أن تسفك دماؤهم أى أن يجرقوا عند عهود الإحراق (٧٩) .

وكان عدد من حكمت عليهم محكمة التحقيق الرسمية بالموت أقل مما كان يعتقد المؤرخون فى وقت من الأوقات (٨٠) . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن برنارده كو Bernard de Caux وهو من المحققين المتحمسين ، قد خلف سجلا طويلا بالقضايا التى نظر فيها ؛ وليس فى هذا السجل قضية واحدة حكم فيها بإرسال المذنب إلى السلطات المدنية (٨١) . وحكم محقق يدعى برنار جوى Bernard Gui فى مدى سبعة عشر عاما على تسعمائة وثلاثين ضالا ، فلم يتجاوز من حكم عليهم بالموت من بين هذا العدد خمسة وأربعين (٨٢) . وكانت الأحكام الصادرة فى جفل عام بطولوز (طلوشة) عام ١٣١٠ هى أن أمر عشرون شخصا بأن يخرجوا للحج ، وحكم على ستة وخمسين بالسجن مدى الحياة ، وعلى ثمانية عشر بالإعدام . وفى عمل الإعدام الذى حدث فى عام ١٣١٢ أرسل واحد وخمسون إلى الحج ، وحكم على ثمانية وستين بالسجن مدداً مختلفة ، وأرسل خمسة إلى السلطات الزمنية (٨٣) . وقصارى القول أن شر مآسى محاكم التحقيق قد أخفها السجون ولم تر الضوء عند أعمدة الإحراق .

الفصل الرابع

النتائج

لقد حققت محاكم التحقيق في العصور الوسطى أغراضها العاجلة ، فقد قضت على الكثرارية . فرنسا ، ولم تبق من الولندنيين إلا عددا قليلا من المتحمسين المتفرقين في أماكن مختلفة ، وأعادت جنوبي إيطاليا إلى الدين القويم ، وأجلت تمزق المسيحية الغربية مدى ثلاثة قرون . وبها انتقلت زعامة أوروبا الثقافية من فرنسا إلى إيطاليا ، ولكن الملكية الفرنسية المطلقة ، بعد أن قويت باستيلائها على لانجوبدك ، بلغت من السلطان مبلغاً استطاعت به أن تخضع البابوية لأمرها في أيام بنيفاس الثامن ، وأن تزجها في السجن في عهد كلمنت الخامس .

ولم يكن لمحاكم التحقيق في أسبانيا قبل عام ١٣٠٠ إلا شأن صغير ، وترجع نشأتها فيها إلى عام ١٢٣٢ حين استطاع ريمند الپنيا فورتى Raymond of Panafort الراهب الدمينكى عند جيمس الأول ملك أرغونة ، أن يقنع هذا الملك بإدخال محاكم التحقيق في بلده . ولعل هذا الملك أراد أن يقلل من شطط محاكم التحقيق فسنّ في عام ١٢٣٣ قانوناً يجعل الدولة هي التي توول إليها أملاك الضالين المصادرة ، وإن أصبح هذا العمل نفسه في القرون التالية حافظاً قويا للملوكة الذين وجدوا أن التحقيق والاستيلاء عملاً شديداً الاتصال أحدهما بالآخر .

وفي شمالي إيطاليا ظل الضالون كثيرون العدد ، فلم يكن أتباع الدين القويم يعنون كثيراً بالاشتراك في اصطيات الضالين ، وكان الطغاة المستقلون أمثال إزليينو Ezzelino في فيسنزا Vicenza وپلافيشينو Pallavicino في كرمونا وميلان يحمون الضالين سرّاً أوجهرّاً . وفي فلورنس أنشأ الراهب روجييري Ruggieri

جماعة عسكرية من النبلاء المستمسكين بالدين لتأييد محكمة التحقيق ؛ واشتبك معهم البتاريون في معارك دموية في الشوارع ولكنهم هزموا فيها (١٢٤٥) ؛ ثم أخفت الضلالة في فلورنس رأسها فيما بعد ؛ وحدث في عام ١٢٥٢ أن اغتال بعض الضالين الراهب بيرودا قرونا Plero da Verona في ميلان ، فلما قتل سلكته الكنيسة في عداد القديسين الشهداء وأسمته الشهيد بطرس ؛ وكان لعملها هذا من الأثر في مقاومة الضلالة في شمال إيطاليا أكثر مما كان لجميع فظائع المحققين . وشتت البابوية حروباً صليبية على لزلينو وبلافسينو ، وقضى على أولها في عام ١٢٥٩ وعلى الثاني في عام ١٢٦٨ ، وبهذا كان انتصار الكنيسة في إيطاليا نصراً حاسماً في ظاهر الأمر .

ولم تثبت محكمة التحقيق قدمها في إنجلترا . نعم إن هنري الثاني حرص على إثبات تمسكه بدينه في أثناء نزاعه مع بكت بأن جلد واحداً وعشرين من الضالين وكواهم بالنار في أكسفورد عام ١٢٦٦^(٨١) . ولكننا لا نكاد نسمع عن ضلالة في إنجلترا قبل أيام ويكلف Wycalf . وفي ألمانيا ترعرعت محكمة التحقيق وأقدمت على أعمال جنونية زمناً قصيراً ، ثم ماتت . فقد حدث في عام ١٢١٢ أن أحرق هنري أسقف استرسبرج ثمانين ضالاً في يوم واحد ، وكان معظمهم ولدين ؛ وأعلن زعيمهم القس يوحنا عدم إيمانه بالغفران ، وبالمطهر ، وببقاء رجال الدين بلازواج ، وقال إن رجال الدين يجب ألا تكون لهم أملاك . وفي عام ١٢٢٧ عين جريجورى التاسع كتراد Conrad قس ماربرج Marburg رئيساً لمحاكم التحقيق في ألمانيا وأمره ألا يكتفى بالقضاء على الضلال ، بل أن يصلح أحوال رجال الدين بعد أن وصمهم البابا بالفساد ، وقال إن فسادهم هو أهم أسباب ضعف الإيمان بين الناس . واضطلع كتراد بكل الواجبين بمنتهى القسوة ، وخير كل من اتهموا بالضلال بين واحدة من اثنتين : إما الاعتراف بالعقاب ، أو الإنكار فالمرت حرقاً . ولما أن سار في إصلاح رجال الدين على

هذا النحو من الجلد ، انضم المستمسكون بدينهم والضالون بعضهم إلى بعض في مقاومته ، وانتهى الأمر بأن قتله أصدقاء ضحاياه (١٢٣٣) ؛ وتولى الأساقفة الألمان أعمال محاكم التحقيق ، وخففوا من غلوائها ، وجعلوا إجراءاتها أقرب إلى العدالة من ذي قبل . وبقيت بعض الشيع الدينية ، بعضها شيع ضالة وبعضها صوفية ، في بوهيميا وألمانيا ، ومهدت السبيل إلى هوس Huss ولوثر Luther .

وبعد فلما حين نصدر حكماً على محاكم التحقيق يجب أن ننظر إليها على ضوء عصر اعتاد الوحشية ، ولعل عصرنا الحاضر الذي قتل في الحروب وأزهق من الأرواح البريئة دون أية محاكمة ، أكثر من أمثالهم بين أيام قيصرونابليون ، أقدر من غيره على فهم هذه المحاكم . إن التعصب يلزم الإيمان القوى على الدوام ، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه ، أما اليقين فسيف بتار . ولقد أقر أفلاطون التعصب في « قوانينه » ، وأقره المصلحون في القرن السادس عشر ، وإن بعض من ينتقدون محكمة التحقيق ليدافعون عن أساليبها إذا جرت عليها الدول الحديثة . ولقد تضمنت قوانين كثير من الحكومات الأساليب التي سارت عليها محاكم التحقيق ، ولعل ما يحدث من تعذيب المشتبه فيهم سرّاً في هذه الأيام يسير على نمط محاكم التحقيق أكثر مما يسير على نمط القانون الروماني . وإذا وازننا بين اضطهاد المسيحيين للضالين في أوروبا من ١٢٢٧ إلى ١٤٩٢ ، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين في الثلاثة القرون الأولى بعد المسيح ، حكمنا من فورنا بأن هذا أخف وطأة وأكثر رحمة من ذلك . وإذا ما أسقطنا من حسابنا كل ما يطلب إلى المؤرخ من اعتدال في حكمه ، وما يسمح به للمسيحي من تمسك بدينه ؛ إذا أسقطنا من حسابنا هذا وذاك ، فلا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق في مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها ، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كله ، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أي وحش من الوحوش .

الباب التاسع والعشرون

الرهبان والإخوان

١٠٩٥ - ١٣٠٠

الفضل الأول

حياة الرهبنة

لعل الذى أنجى الكنيسة من محنتها لم يكن هو ما لجأت إليه محاكم التحقيق من تعذيب ، بل كان نشأة طوائف جديدة من الرهبان انتزعت من أفواه الضالين دعوة التقشف الدينى والفقر ، وظلت مدى قرن من الزمان تهب طوائف الرهبان ، وغير الرهبان من رجال الدين ، مثلاً طيباً من الإخلاص المطهر للنشوء .

وكانت الأديرة قد تضاعف عددها فى أثناء العصور المظلمة ، وبلغت ذروتها فى القرون العاشر والمضطرب الذى ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد ، ثم أخذ عددها فى النقصان حين أخذ النظام يسود الشئون الزمنية ، وأخذ الرخاء فى الازدياد : مثال ذلك أنه كان فى فرنسا حوالى عام ١١٠٠ خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً ، وفى عام ١٢٥٠ كان فيها ٢٨٧ ؛ وربما كان هذا النقص فى عدد الأديرة قد عوضه ازدياد متوسط أعضائها ، ولكن الأديرة التى كان رهبانها يبلغون المائة كان جد قليل . وكان لا يزال من السنن المتبعة فى القرن الثالث عشر عند الآباء الاتقياء أو ثقال الظاهر أن يهبوا أطفالهم فى سن السابعة أو ما بعدها إلى الأديرة « زلقى » إلى الله . وهكذا بدأ القديس تومس أكويناس حياته فى الدير ، وكانت طائفة الرهبان البندكتيين ترى أن النذر الذى ينلره أبوا الطفل بأن يهباه إلى الدير

لا يمكن الرجوع فيه^(٣) . أما القديس برنار وطوائف الرهبان الجدد فكان من رأيهم أن لا ضير على الطفل الموهوب للدير إذا عاد إلى العالم متى بلغ سن الرشد^(٤) ، وأصبح الراهب الراشد على مر الزمن في حاجة إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع في يمينه من غير أن يرتكب ذلك إثماً .

وكانت معظم الأديرة الغربية قبل عام ١٠٩٨ تسير على نمط ما من أنماط طائفة الرهبان البندكتيين بدرجات متفاوتة من الاستمساك بمبادئ هذه الطائفة . فكانت تخصص للمبتدئ سنة يستطيع الطالب في أثناءها أن ينسحب من الدير بكامل حريته ، وفي ذلك يقول الراهب قيصر يوس الهيستر باخي *Caesarius of Heisterbach* إن فارساً من الفرسان انسحب من الدير « متذرعاً بتلك الحجة الدالة على الجبن وهي أنه يخشى الحشرات التي في ثياب (الرهينة) ، وذلك لأن ملابسنا الصوفية تأوى الكثير من الحشرات »^(٥) . وكان الراهب يقضى من يومه أربع ساعات في الصلاة ؛ وكانت وجبات الطعام قصيرة الأجل ، وتقتصر عادة على الخضر ؛ أما بقية اليوم فكانت تقضى في العمل ، والقراءة ، والتعليم ، وأعمال المستشفيات ، والصدقات ، والراحة . ويحدثنا قيصر يوس بأن دير وزع أثناء القحط الذي حدث في عام ١١٩٧ ألفاً وخمسمائة صدقة من الطعام في يوم واحد و « حافظ على حياة كل من جاءنا من الفقراء حتى حل موعد الحصاد »^(٦) وذبح دير للسترسين في وستفاليا جميع ضأنه وماشيته ، ورهن كتبه وآتنته المقدسة ، ليطعم الفقراء^(٧) ، وشاد الرهبان بعملهم وعمل أرقاء أرضهم أديرة ، وكنائس صغيرة وكبيرة ، وفلحوا ضياعاً واسعة ، وجففوا مستنقعات ، واستصلحوا أرض الغابات ، ومارسوا مائة من الصناعات اليدوية ، وعصروا أحسن النبيذ والجمعة . ولقد دربت الأديرة آلافاً من الرجال الصالحين القادرين على الآداب والأنظمة الخلقية والذهنية ، وإن كانت في ظاهر الأمر قد انتزعت الكثيرين منهم من

العالم لتدفعهم في غمار الصلاحية الأنانية ، ثم أعادتهم إليه مرة أخرى ليكونوا مستشارين للأساقفة ، والبابوات والملوك ومديرين لأعمالهم (*) .

وقاض ثراء المجتمع المتزايد على مر الزمن على الأديرة ، وكان سخاء الشعب مصدراً لما كان ينغمس فيه الرهبان أحياناً من ترف . ولنضرب لذلك مثلاً دير القديس ركويه St. Riquier ، ولم يكن من أغنى الأديرة ولكنه كان له ١١٧.٠٠٠ تابعاً يملكون ٢٥٠٠ بيت في البلدة التي كان قائماً فيها ، ويحصل من مستأجريها على عشرة آلاف دجاجة وعشرة آلاف ديك مخضى مسمن ، وخمسة وسبعين ألف بيضة ، ... وعلى أجر تقدي معتدل لكل فرد ولكنه في مجموعه كبير (٨) . وثمة أديرة أعظم من هذا الدير ثراء وهي أديرة مونتي كسينو Monte Cassino ، وكلوني Cluny ، وفلدا Fulda ، والقديس جول St. Gall ، والقديس دنيس St. Denis . وكان رؤساء الأديرة أمثال سوجر Suger رئيس دير القديس دنيس ، وبطرس المبعجل رئيس دير كلوني ، وحتى سامسون Samson رئيس دير القديس إدمند في بيوري ، كان هؤلاء الرؤساء سادة أقوياء عظماء أصحاب ثروات مادية طائلة وسلطان سياسي واجتماعي عظيم ؛ وهذا هو سوجر بعد أن أطعم رهبانه وشاد كنيسة (٧) فخمة كبرى تبقى لديه من الموارد المالية ما يمكنه من أن يتكفل

(*) يتول عالم من كبار العلماء ليس في العادة عن يشفقون على الكنيسة : « ليس أدل على كذب التهم التي يذمها السفلة وهي أن رهبان العصور الوسطى كانوا نهمين ، متلفين ، مبذرين ، فاسقين ، ليس أدل على هذا الكذب من مئات السجلات ، وقوائم الجرد التي بقيت حتى اليوم ، والتي تشهد بما كان يتصف به الرهبان من عناية ، وذكاء ، وأمانة في إدارتهم أعمالهم . وإن ما قام به الرهبان من إصلاح اقتصادي لأوروبا في العصور الوسطى ليشهد بأنهم كانوا بوجه عام ملاكاً وزراعاً أذكاء » تاريخ العصور الوسطى الاقتصادي والاجتماعي لطمسن Thomson, Economic and Social History of the Middle Ages ١٩٣٠ ، ويقول : « إن أكل أعمال المسيحية وأعظمها أثراً هي التي قامت بها طوائف الرهبان » طبعة ماركة أورول Marc Anrèle بباريس ١٩٢٧ .

بنصف نفقات إحدى الحملات الصليبية^(٩) ، ولعل القديس برنار كان يع-
 وجر حين كتب يقول : « لو أنني قلت إنى لم أر رئيس دير يركب على
 أس موكب مؤلف من ستين فارساً أو أكثر لكنت من الكاذبين »^(١٠) .
 ولكن سوجر كان رئيس وزراء لا بد له أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة
 والفخامة ليؤثر بذلك فى نفوس الشعب ! أما فى حياته الخاصة فكان يعيش
 عيشة التقشف والبساطة ، فى خلوة متواضعة مراعيأ جميع قواعد طائفته
 بقدر ما تمكنه من ذلك واجباته العامة . وكان بطرس المبجل رجلاً صالحاً
 ولكنه عجز رغم جهوده المتكررة عن أن يحول دون ازدياد الثروة الجماعية
 فى الأديرة التابعة لدير كلونى - وهى التى كانت من قبل تزعم حركة
 الإصلاح - إلى حد أمكن الرهبان من أن يعيشوا عيشة البطالة الموهنة للقوى
 وإن كانوا أفراداً لا يملكون شيئاً .

إن الأخلاق تفسد كلما زاد الثراء ، وفطرة الإنسان تظهر كلما أهكنتها موارده
 من الظهور ، وفى كل جماعة كبيرة أيا كان نوعها يوجد أفراد غرائزهم أقوى من
 إيمانهم . ولقد ظلت كثرة الرهبان مستمسكة بالقواعد التى ارتبطت بها وفية لها ،
 ولكن أقلية منهم أخذت تنظر إلى العالم وإلى شئون الجسم نظرة أكثر ليناً .
 وكان رئيس الدير فى كثير من الأحيان يعينه سيد إقطاعى أو ملك ويختاره من
 طبقة تعودت الراحة ؛ ولم يكن هؤلاء الرهبان يتقيدون بقيود الأديرة ، فكانوا
 يستمتعون بالصيد ، والقنص ، وألعاب الفروسية ، وينغمسون فى السياسة ؛
 وسرت عدواهم إلى الرهبان أنفسهم . وها هو ذا جرالدوس كمبرنسس Giral-
 dus Cambrensis يصور لنا حياة رئيس دير إقشام Evesham بصورة مروعة
 فيقول : « لم يكن أحد بمنجاة من فجوره » ، وكان جيرانه ينجسون له ثمانية عشر
 ولداً ، وكان لا بد من خلعه آخر الأمر^(١١) . وأصبح رؤساء الأديرة المنكبتون على
 مباحج الدنيا ، السمان ، الأغنياء ، الأقوياء ، هدفأ لسخرية الشعب وتشهير
 الأدباء ، فكان أقسى ما كتب من الهجاء وأبعده عن المعقول وصفاً لرئيس دير

بقلم ولتر ماب Walter Map^(١٢) . ومن الأديرة ما اشتهر بطعامه الشهى وخمره . على أننا يجب ألا ننكر على الرهبان قليلاً من الهناهة ، وفي وسعنا أن ندرك مقدار ملهم من الخضر ، واشتياقهم إلى اللحوم ؛ ولا يسعنا إلا أن نعطف على ثرثرتهم ، وشجارهم ، ونومهم وقت الصلاة من حين إلى حين^(١٣) .

ولقد استخف الرهبان ، وهم يقسمون بأن يبقوا عزاباً ، بقوة الغريزة الجنسية التي يستثيرها مراراً وتكراراً ما يشاهدون من مناظر وأمثلة من غير رجال الدين . ويروى قيصر يوس الهيسبرباخي قصة تتكرر كثيراً في العصور الوسطى ، عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً . ووقعت عيننا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير : « من هؤلاء ؟ » فأجابه « هؤلاء شياطين » فرد عليه الراهب بقوله : « لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت في حياتي كلها »^(١٤) . ويقول الزاهد بطرس داميان في آخر أيام حياته الورعة المريرة :

في وسعى وأنا الآن رجل طاعن في السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه ذابل مجمّد لامرأة عجوز شمطاء عمشاء العينين . أما من هنّ أجمل منها وجهاً وأكثر زينة فإني أغضّ طرفي عنهن وأحذرهن كما يحذر الصبيان النار . ويلاه أيها القلب المفجوع ! - الذي لا يستطيع الاحتفاظ بأسرار الكتاب المقدس التي قرأناها من أولها إلى آخرها مائة مرة ، ثم لا تتمحى منه صورة لم أرها إلا مرة واحدة^(١٥) .

وكانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفساني بين المرأة والمسيح ، ولم يكن تشهيرهم بالنساء إلا جهوداً يبذلونها لإماتة شعورهم بمفاتنهن ، كما كانت أحلامهم الصالحة التقنية في بعض الأحيان يرطبها رضاب الشهوة ، وكثيراً ما كانوا يعبرون عن روائهم القدسية الروحية بعبارات مستعارة من العشق الآدمي^(١٦) (*) . وكانت قصائد أوفد من الأشعار المحبوبة في بعض الأديرة ،

(•) وإنا لنجد هذا بعينه في أشعار الصوفية المسلمين . (المترجم)

ولم تكن مؤلفاته في فن الحب بأقل منها تداولاً بين الرهبان^(١٧) . وكانت التماثيل المقامة في بعض الكنائس الكبرى ، والنقوش المحفورة في أثاثها ، بل الرسوم المصورة في بعض الكتب المقدسة نفسها ، تمثل عبث الرهبان والراهبات - تمثل خنازير في ثياب الرهبان ، وأثواب الدير بارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبة ، والراهبات يعشن مع الشياطين^(١٨) . ويمثل نقش بارز فوق مدخل يوم الحشر في كنيسة ريمس شيطاناً يجرّ الرجال الآثمين إلى الجحيم ، ومن بينهم أسقف على رأسه تاج الأسقفية . وقد سمح رجال الكنيسة في العصور الوسطى - ولعلهم كانوا من غير الرهبان الذين يحسدون هؤلاء على ما هم فيه من نعم - سمحوا بأن تبقى هذه الرسوم الهزلية في أماكنها ؛ ولكن رجال الدين هذه الأيام رأوا من الخير إزالة الكثرة الغالبة منها . ولقد كانت الكنيسة نفسها أقسى من وجه النقد إلى آثام رجالها ، وقامت طائفة متتابعة من المصلحين الدينيين تبذل ما وسعها من الجهد لكي تعيد الرهبان وروساء الأديرة إلى المثل العليا التي جاء بها المسيح .

الفصل الثاني

القديس برنار

عمت العالم المسيحي في أواخر القرن الحادى عشر ، وفي نفس الوقت الذى تطهرت فيه البابوية ، وامتلاّت القلوب تحمّساً للحرب الصليبية الأولى ، حركة من الإصلاح الذاتى تحسّنت بسببها أحوال رجال الدين غير الرهبان ، وقامت فى أثناءها طوائف من الرهبان جديدة أخذت نفسها بقواعد الأوغسطين والبندكتيين الصارمة . فقد حدث فى وقت غير معروف قبل عام ١٠٣٩ أن أسّس القديس يوحنا جلبرتس St. John Galbertus^(١) طائفة من القلمبروزا Vallombrosa فى « الوادى الظليل » المسمى بهذا الاسم فى إيطاليا ، وبدأ فيه نظام الإخوة العلمانيين الذى وطدت دعائمه فيما بعد طوائف الرهبان المتسولين . وأهاب المجمع الرومانى المقدس الذى عقد فى عام ١٠٥٩ برجال الدين الذين يقتسمون أعمال الكنيسة ومواردها أن يعيشوا جماعة ، وأن تكون أملاكهم مشاعة بينهم كما كان شأن الرسل الأولين . ولم يستجب بعضهم إلى هذا النداء وبقوا « كهنة علمانيين » ؛ واستجاب له كثيرون منهم ، واتبعوا قاعدة رهبانية يعزونها إلى القديس أوغسطين ، وكونوا من أنفسهم جماعات شبه رهبانية تعرف فى مجموعها باسم « الكهنة الأوغسطين أو الأوسطين Austins »(*) . وأنشأ القديس برونو St. Bruno الكولونى فى عام ١٠٨٤ ، من بعد أن رفض أن يكون رئيس أساقفة ريمس ، طائفة الكرتوزيين Cortusians ، وذلك بأن أسّس ديراً فى

(*) يجب ألا يخلط بينهم وبين الإخوان الأوغسطين أو الأوسطين الذى أنشأه الزمطه فى تسكانيا عام ١٢٥٦ .

بقعة منعزلة تدعى كارتريز Chartreuse في جبال الألب بالقرب من جرينوبل Grenoble ؛ وأنشأ غيره من الأتقياء الصالحين وحدات كرتوزية في أماكن منعزلة بعد أن سئموا بما يسود العالم من نزاع وما يتصف به رجال الدين من تهاون . وكان كل راهب في هذه الأماكن يعمل ، ويطعم ، وينام ، في خلوته الخاصة المنعزلة ، ويعيش على الخبز واللبن ، ويلبس ثياباً من شعر الخيل ، ويكاد يلزم الصمت على الدوام . وكانوا يجتمعون معاً ثلاث مرات كل أسبوع للقيام بمراسم القداس ، وصلاة الغروب ، وصلاة منتصف الليل ؛ وفي أيام الآحاد ، والأعياد ينطلقون في الحديث ويطعمون جماعة . وكانت هذه الطائفة أشد طوائف الرهبان صرامة ، وظلت ثمانية قرون كاملة تأخذ نفسها بقواعدها الأصلية وفيّة لها أشد الوفاء .

وأنشأ روبرت المولسميسى Robert of Molesmes في عام ١٠٩٨ بيت رهبنة جديد في مكان برّى يدعى سيتو Citeaux قريب من ديجون Dijon ، وذلك بعد أن أعينه الحيل لإصلاح أديرة البندكتيين المتفرقة التي كان هو رئيساً عليها ، واشتق من لفظ سيتو اسم الرهبان السسترسيين كما اشتق من لفظ كارتريز اسم الرهبان الكرتوزيين . وأعاد ستيفن هاردنج من دورسسترشير Stephen Harding of Dorsetshire تنظيم هذا الدير ووسعه ، وأنشأ له عدة فروع ، ووضع عهد الحب Carta caritatis ليضمن به التعاون السلمي الموحد بين سيتو والبيوت السسترسية المختلفة . وعادت مبادئ البندكتيين إلى كل ما كانت عليه من صرامة ، فكان الفقر التام أهم مستلزماتها ، وامتنع الأعضاء عن أكل اللحم بكافة أنواعه ، وحيل بينهم وبين التعليم ، وحرم عليهم قرض الشعر ، وأمروا أن يتجنبوا جميع مظاهر الأبهة في الملابس الدينية ، والآنية ، والآبنة . وحتم على كل راهب قوى الجسم أن يشترك في الأعمال اليدوية في الحدائق والمصانع التي تجعل الدير مستقلاً عن العالم الخارجي ، فلا يكون لراهب ما

حجة في مغادرة ديريه . وامتاز السترسيون عن جميع الطوائف الأخرى ،
رهبانية كانت أو غير رهبانية ، بنشاطهم وحذقهم في الأعمال الزراعية ،
وأنشأوا مراكز جديدة لطائفتهم في الأصقاع غير المسكونة ، وجففوا
المستنقعات ، وقطعوا أشجار الغياض والغابات ليفسحوا مكاناً للزراعة ،
وكان لهم فضل كبير في استعمار ألمانيا الشرقية وإصلاح الأضرار التي ألحقها
وليم الفاتح بإنجلترا . وكان يساعد الرهبان السترسيين في هذه الجهود التي
يبدلون في سبيل الحضارة إخوان علمانيون مهتمون نذروا أن يبقوا عزاباً ،
صامتين ، أميين^(٢٠) ، يعملون زراعاً أو خدماً نظير الطعام والملبس
والمسكن^(٢١) .

وبعثت هذه الصرامة الخوف في قلوب من يريدون الانضمام إلى هذه
الطائفة ، ولهذا كان نمو هذه الجماعة القليلة بطيئاً ، ولولا ما بعثه القديس
برنار في الطائفة الجديدة من حماسة قوية لقضى عليها في مهدها .

وُلد القديس برنار بالقرب من ديجون (١٠٩١) من أسرة عريقة تنتمي
إلى طبقة الفرسان ، وكان في صباه شاباً حياً تقياً ، يؤثر العزلة ، ولم يجد
راحة في العالم الدنيوى ، فاعتزم أن يدخل الدير ، وكأنما أراد الرفقة
في الوحدة ، فأخذ ينشر دعاوة قوية موفقة بين أهله وأصدقائه ليدخلوا
معه دير سيتو . ويحدثنا المؤرخون أن الأمهات والفنيات الصالحات للزواج
كانت ترتعد فرائصهن حين يقترب منهن ، خشية أن يغرى أبناءهن أو
عشاقهن بالتزام العفة ، ولكنه نجح على الرغم من دموعهن . ولما أن
قبل في دير سيتو (١١١٣) جاء معه بتسعة وعشرين ممن يريدون دخول
الدير ، ومنهم إخوة له ، وأحد أعمامه ، وطائفة من أصدقائه ، وأفلح
فيما بعد في إقناع أمه وأخته بأن ترهباً ، وأقنع أباه أيضاً بأن يترهب
بعد أن توعدده بأنه « إن لم يكفر عن ذنوبه فسيحترق إلى أبد الدهر... »
وينبعث منه الدخان والرائحة الكريهة^(٢٢) .

وأعجب استيفن هاردنج من فوره بتقوى برنار ونشاطه إعجاباً حمله على أن

يرسله (١١١٥) على رأس ثلاثة عشر راهباً لينشئ بيتاً مسترسياً جديداً يكون هورثيسه . واختار برنار لبيتته الحديد بقعة شَجيرة على بعد تسعين ميلاً من سيتو تعرف باسم الوادى المراع Clairvaux أو Clara vallis ، ولم يكن فى هذا المكان مسكن ولم يكن فيه قط لإنسان . وكان أول عمل قامت به الفئة المتأخية أن بنت بأيديها « ديرها » الأول - وهو بناء خشبي يحوى تحت سقف واحد مصلى ، ومطعم ، وفى أعلاهما مكان للنوم يصلون إليه بسلم خشبي . وكانوا ينامون فى صناديق نثرث عليها أوراق الأشجار ، ولم تكن النوافذ أكبر من رأس الرجل ولم يكن على الأرض شئ . وكان طعامهم مقصوراً على الخضر إلا سمكة يطعمونها من حين إلى حين ؛ ولم يكونوا يطعمون خبزاً أبيض ، أو توابل ، وقلم كانوا يشربون نبيذاً ، فكان هؤلاء الرهبان الحريصون على دخول الجنة يأكلون كما يأكل الفلاسفة الراغون فى طول العمر . وكانوا يعدون طعامهم بأيديهم ، فيتناوبون عهوه . وكان من القواعد التى وضعها برنار ألا يبتاع الدير أملاكاً ، وألا يكون له إلا ما يوهب ، وكان يرجو ألا يكون له من الأرض أكثر مما يستطيع الرهبان العمل فيه بأيديهم وبأدواتهم البسيطة . وأخذ برنار وإخوانه المتزايد عددهم يعملون فى هذا الوادى الهادئ فى صمت وقناعة بعيدين عن « زوبعة العالم » يقطعون أشجار الغابة ، ويزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون أثاثهم بأيديهم . ويجتمعون فى أوقات الصلاة ليرتلوا الأناشيد بغير أرغن ، ويتلوا مزامير اليوم وترانيمه . وبصفهم ولهم السانت تيرى William of St. Thierry بقواه : « كلما أنعمت النظر فيهم زاد يقيمى أنهم أعظم أتباع المسيح كمالاتهم . لا ينقصون إلا قليلاً عن الملائكة ، ولكم أرقى كثيراً من الآدميين » (٢٣) . وانتشرت أنباء هذا السلام المسيحى وهذا الاستقلال الذاتى حتى كان فى كليرقو قبل موت برنار سبعائة من الرهبان . وما من شك فى أنهم كانوا سعداء فى ذلك المكان ، لأن الذين بعثوا من هذه البيثة الشيعية ليكونوا رؤساء أديرة ، أو أساقفة ،

أو مستشارين ، كانوا كلهم تقريباً يتوقون للعودة إليها ، وكان برنار نفسه - وقد عرضت عليه الكنيسة أرقى مناصبها ، وذهب إلى أراض كثيرة بناء على طلبها - يحزن دائماً للعودة إلى صومعته في كليرفو « حتى تسبل أيدى أبنائ عيسى » ، وحتى يوارى جسدى في كليرفو بجوار أجساد الفقراء .

وكان رجلاً متوسط الذكاء ، ثابت اليقين ، ماضى العزيمة ، متناسق الصفات الخلقية ، ولم يكن يعنى بالعلم ولا بالفلسفة لأنه يحس أن عقل الإنسان وهو جزء من الكون متناه فى الصغر عاجز عن الحكم على الكون ، لا يستطيع الادعاء بأنه يفهمه ؛ وكان يدهش من كبرياء الفلاسفة السخيف وهم ينطقون بهذرهم عن طبيعة الكون ، وأصله ، ومصيره . وقد هاله ما يراه أبلار من تحكيم العقل فى الدين ، وقاوم هذه النزعة العقلية لأنها تجديف وقحة . وكان يفضل أن يمشى فى ضياء معجزات الوحي غير سائل أو متشكك ، مفضلاً هذا عن محاولة فهم العالم . وكان من رأيه أن الكتاب المقدس هو كلام الله ، وإلا كانت الحياة فى رأيه بيداء من الشك الحالك الظلام ، وكلما أوغل الدعوة إلى هذا الإيمان الشبيه بإيمان الأطفال ، ازداد يقينه بأن هذا هو الطريق السوى . ولما أن جاءه أحد رهبانه واعترف له فى رهبة وفزع أنه لا يستطيع الإيمان بقدرة القس على أن يحول خبز القربان إلى جسم المسيح ودمه ، لم يلمه برنار على ما قال ، وأمره مع ذلك أن يشترك فى العشاء الربانى ، وقال له : « اذهب واشترك فيه بإيماني أنا » ؛ ويؤكد لنا الرواة أن إيمان برنار فاض على المتشكك وأنجى روحه^(٢٥) . وكان فى وسع برنار أن يكره ويطارد حتى الموت ، أو ما يقرب من الموت ، الضالين أمثال أبلار أو آرنلد البريشيائى لأنهم أضعفوا كنيسة تبلو له رغم أخطائها وعبوبها مطية المسيح نفسها ، كما كان فى وسعه أن يحب برقة لا تكاد تقل عن رقة العذراء التى كان يعبدها بغيرة متقطعة النظر . ورأى يوماً لصاً يساق إلى المشنقة فشفع له عند كونت شميانيا ووعدته أن يوقع عليه عقاباً أقسى من الموت

الذى لا يقاسيه إلا لحظة وجيزة^(٢٦) . وكان يعظ الملوك والبابوات ، ولكنه يكون أكثر رضىً عن نفسه حين يعظ الفلاحين والرعاة فى واديه . وكان يتسامح فى أخطائهم ، ويهديهم بما يضر به لهم بنفسه من مثل صالح ، وينال حبهم الصامت ويبادلهم حباً بحب . ووصل فى تقواه إلى حد الزهد المنهك للقوة ، وقد أكثر من الصوم حتى اضطر رئيسه فى سيتو أن يأمره بتناول الطعام . وظل ثمانية وثلاثين عاماً يعيش فى صومعة واحدة ضيقة فى كليرفو ، على فراش من ورق الشجر ، وليس فيها مقعد إلا حفرة فى الجدار^(٢٧) . وكانت طبيبات العالم جميعها وما فيه من أسباب الراحة ، تبدو له وكأنها لا شيء إذا قيست إلى التفكير فى المسيح ووعده . وكتب وهو فى هذه النشوة عدة ترانيم غاية فى البساطة والرقّة الأخاذة بمجامع القلوب :

أيها المسيح يا صاحب الذكرى الحلوة ،

هب القلب البهجة الحقة ؛

إن أحلى من الشهد ومن الأشياء جميعها

مشهده الحلو ،

وليس فى كل ما يُغَنَّى شيء أجمل من ذكر عيسى ابن الله

ولا فيما يسمع شيء أحسن وقعاً على الأذن منه

ولا فيما يفكر فيه العقل أحلى منه .

أى عيسى يا أمل التائبين

ما أرق قلبك على المتسولين !

وما أقربك لطالبك !

ترى ماذا تكون لمن يلقونك ؟

وقلما كان يعنى بغير الجمال الروحى رغم إدراكه جمال اللفظ ، فكان يغطى

عينه خشية أن تسرفا في الاستمتاع الحسى بجمال بحيرات سويسرا^(٢٩) . وكان ديره عارياً من جميع الزينة عدا صورة المسيح مصلوباً ، وكان يلوم دير كلوني لكثرة ما ينفقه من المال في بناء الأديرة التابعة له وزينتها ، ويقول في هذا : « إن الكنيسة تتلأأ جدرانها وتغلّ يدها عن فقرائها ، وتطلى حجارتها بالذهب وتترك أبناءها عراة ، وتفتن عيون الأغنياء بالفضة التي تأخذها من البائسين »^(٣٠) . وكان يشكو من أن دير القديس دنيس العظيم غاص بالفرسان المتكبرين المدرعين بدل العباد السذج ؛ ويسميه : « حامية عسكرية ، ومدرسة الشيطان ، ومعشش اللصوص »^(٣١) . وتأثر سوجر بهذا اللوم ، فأصلح عادات كنيسته ورهبانه ، وعاش حتى استحق ثناء برنار .

ولم يكن لإصلاح الأديرة الذي سطع ضياؤه من كليرفو ، ورفع مستوى رجال الدين بترقية رهبان برنار إلى مراتب الأساقفة وروساء الأساقفة ، لم يكن هذا إلا بعض ما أحدثه ذلك الرجل ، الذي لم يكن يطلب شيئاً غير الخبز ، من الأثر في جميع الطبقات وفي خلال نصف القرن الذي عاشه . وجاء لزيارته الأمير هنرى الفرنسى أخو الملك وتحدث إليه برنار ، وقبل أن ينتضى اليوم كان هنرى راهباً يغسل الصحاف في كليرفو^(٣٢) . وقد استطاع بعظاته - وقد أوشكت لفصاحتها وجزالة لفظها أن تكون شعراً - أن يؤثر في نفوس كل من سمعه ؛ كما استطاع برسائله - وهي آيات خالدة في الدعوة الحاسية الحارة - أن يؤثر في المجالس ، والأساقفة ، والبابوات ، والملوك ؛ وأمكنه باتصاله الشخصى أن يشكل سياسى الكنيسة والدولة . وأبى أن يكون أكثر من رئيس ديز ، ولكنه رفع البابوات إلى عروشهم وأنزلهم عنها ، ولم يكن الناس يستمعون إلى خبر من الأخبار بإجلال وخشوع أكثر مما يستمعون بهما إليه .

وقد خرج من صومعته ليقوم بنحو اثنتى عشرة مهمة دبلوماسية عالية ، كانت في العادة بناء على طلب الكنيسة . ولما أن اختارت طاقتان متنازعتان

أنكليستس الثانى وإنوسنت الثانى للجلوس على كرسي البابوية (١١٣٠)
أيد برنار إنوسنت ؛ ولما أن استولى أنكليستس على رومة دخل برنار إيطاليا
وأثار بقوة شخصيته وخطبه الحماسية مدن لمبارديا لتأييد إنوسنت ؛
وسكرت الجموع بخطبه وتقاه فانكبت عليه تقبل قدميه ومزقت مئزره
إرباً اتخذتها مخلفات مقدسة تورثها أبناءها من بعدها . وأقبل عليه المرضى
في ميلان ، وأعلن المؤمنون المصابون بالصرع والشلل وغيرهما من
الأمراض أنهم شفوا من أمراضهم بلمسه . ولما عاد إلى كليرفو بعد
انتصاراته الدبلوماسية جاءته جموع الفلاحين من الحقول والرعاة من أعلى
التلال ، يطلبون إليه أن يباركهم ، فلما تلقوا منه هذه البركة عادوا إلى
كدحهم مرفوعي الرأس راضين .

وقبل أن يتوفى برنار في عام ١١٥٣ كان عدد أديرة السسترسيين
قد زاد من ثلاثين ديراً في عام ١١٣٤ (وهي السنة التي مات فيها
استيفن هاردنج) إلى ٣٤٣ ديراً وانضم إلى هذه الطائفة عدد كبير من
الناس متأثرين بتقواه وقوته ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد أفرادها
ستين ألفاً يقيمون في ٦٩٣ ديراً . ونشأت طوائف أخرى من الأديرة
في القرن الثاني عشر ، فأنشأ ربرت الأبرسولى Robert of Abrisol
حوالي عام ١١٠٠ طائفة الفنتشورول Fontevroult في أنجو ، وفي
عام ١١٢٠ تخلى القديس نربير Norbert عن ثروة عظيمة آلت إليه
وأنشأ طائفة « رهبان المرعى الموعود » (*) النظامية في بريمنتره Premontre
بالقرب من ليون Leon . وفي عام ١١٣١ أنشأ القديس جلبرت طائفة

(*) Premonstratensian وتسمى أيضا طائفة النيريتين نسبة إلى منشأها . أما تسميتها
بطائفة المرعى الموعود فسببها كما يقول نربير أن المكان الذي نشأوا فيه قد حدد له في رؤيه
ظهرت له وهو في غاية كوسى Coucy بالقرب من ليون Leon في مقاطعة ابن Aisme .

(المترجم)

السمبر بنجهام Sempringham الجلبريتين الإنجليز على غرار طائفة فترفول .
وفي عام ١١٥٠ سار بعض الزهاد الفلسطينيين على سنة القديس باسيلي
وانتشروا في جميع أنحاء فلسطين . ولما استولى المسلمون على فلسطين
هاجر هؤلاء الرهبان « رهبان الكرمل » إلى قبرص ، وصقلية ، وفرنسا ،
وإنجلترا . وفي عام ١١٩٨ صدق إنوسنت الثالث على قانون طائفة
الرهبان « الثالوثيين Trinitarians » وحضهم على افتداء المسيحيين الذين
وقعوا أسرى في أيدي المسلمين . وكانت هذه الطوائف الجديدة « شعلا
أضاء ظلمات الكنيسة المسيحية .

وأخذت حركة الإصلاح في الأديرة التي بلغت ذروتها على يد القديس
برنار تضعف في خلال القرن الثاني عشر . فقد كانت الطوائف الحديثة
النشأة تحافظ على مبادئها الصارمة بإخلاص معقول ، غير أنه لم يكن
من المستطاع أن يوجد الكثيرون من الناس الذين يستطيعون الصبر على
هذا النظام الصارم في ذلك العهد السريع الخطى ؛ فأثرى السسترسيون
- ومنهم أتباع برنار نفسه في كليرفو - على مر الزمن بما أنهال
عليهم من هدايا ذوى الآمال ، واستطاع الرهبان بفضل الأعيان الموقوفة
من « التائبين » أن يضيفوا إلى طعامهم اللحم وكثيراً من النبيذ (٣٣) ،
وعهدوا بجميع الأعمال اليدوية إلى إخوانهم العلمانيين ؛ ولما مضت أربع
سنين على موت برنار ابتاعوا عدداً من الأرقاء المسلمين (٣٤) ، وكانت
لهم تجارة واسعة تدر عليهم أرباحاً طائلة في منتجات صناعاتهم المشاعة ؛
وأناروا حقد نقابات أرباب الحرف لأنهم كانوا معفين من العوائد المفروضة
على نقل البضائع (٣٥) . ولما ضعف إيمان الناس على أثر إخفاق الحملات الصليبية
قل عدد الطلاب الجدد وانحطت بسبب هذا الضعف أخلاق جميع طوائف الرهبان ،

ولكن المثل الأعلى القديم القاضى بأن يحيا الرهبان كما كان يحيا الرسل حياة
شيعية خالية من الملك الفردى لم يمت ، بل بقى فى نفوس الآلاف من الناس
الاعتقاد الراسخ بأن من واجب المسيحى الصادق أن يبتعد عن الثروة
والسلطان ، وأن يحافظ أشد المحافظة على السلام . ثم ظهر فى تلال إمبريا
Umbria بإيطاليا فى أوائل القرن الثالث عشر رجل أعاد تلك المثل العليا
القديمة إلى سابق قوتها ، وذلك ببساطته ، وطهارته ، وتقواه ، وحبه ،
وأدهش الناس بهذه الصفات حتى ظنوا أن المسيح قد ولد من جديد .

الفصل الثالث

القديس فرانسس (*)

وُلد جيوفاني ده برنادون Giovanni de Bernadone في أسيسى Assisi عام ١١٨٢ . وكان أبوه سرپيترو ده برنادون Ser Pietro de Bernadone من أثرياء التجار ، ذا تجارة واسعة مع بروفانس ؛ وفيها أحب فتاة فرنسية تدعى بيكا Pica وتزوجها وجاء بها إلى أسيسى . ولما عاد من رحلة أخرى ووجد أنها أنجبت له ولدا بدل اسم الطفل فجعله فرانسسكو Francesco أي فرانسس ، ويبدو أن ذلك كان تحية منه لبيكا . وشب الطفل وترعرع في أجمل صقع في إيطاليا ، ولم يفقد قط حبه لمناظر أمبريا الجميلة وسماها الصافية . وتعلم من والديه اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وأخذ اللغة اللاتينية عن قس الأبرشية ، ولم يكن له بعدئذ نصيب من التعلم المنظم ، ولكنه سرعان ما انتظم في عمل أبيه ، وأغضب سرپيترو بما أظهره من قدرة على صرف المال تفوق قدرته على كسبه . فقد كان أغنى شباب البلدة وأسخاهم بدأ ، يجتمع حوله أصدقاؤه يطعمون معه ويشربون ويغنون أغاني الشعراء الغزلين . وكان فرانسس بين الفينة والفينة يرتدى حلة المنشدين الجاثلين المتعددة الألوان^(١) . وكان شابا وسيما ، أسود العينين ، فاحم لون الشعر ، صبوح الوجه ، جميل الصوت . ويقول المترجمون الألوان له إنه لم تكن له قط صلة بالنساء ، وإنه لم يعرف إلا امرأتين معرفة لا تتجاوز النظر

(*) إن بعض ما كتب عن فرانسس تاريخ صحيح وبعضه قصص . وإذا كان بعض القصص من أروع الآيات الأدبية التي خلفتها العصور الوسطى فقد أثبتنا هذا البعض في الصفحات التالية وفيها القارئ إلى طبيعته هذه في كل مرة . ونقول هنا من بادئ الأمر إن معظم « زهيرات القديس فرانسس Floretti » و « مرآة الكمال Speculum Perfectiones » من القصص الموضوعية . وعلى هذا النحو يجب أن يفسر ما نقتبسه من هذين الكتابين .

إليهما^(٢٧) ، ولكن هذا بلا ريب يظلم فرانسس بعض الظلم . ولعله سمع من أبيه في تلك السنين التي يتشكل فيها خلقه شيئا عن الضالين الإلبجنسين والولدسين في جنوبي فرنسا ، وعن إنجيلهم الجديد إنجيل الدعوة إلى الفقر وحارب في عام ١٢٠٢ في جيش أسيسى ضد پروجيا Perugia ، وأسر ، وقضى في الأسر سنة شغلها كلها بالتأمل العميق . وفي عام ١٢٠٤ تطوع في جيش البابا إنوسنت الثالث . وبينما هو طريق الفراش في إسبوليتو ينتفض جسده من الحمى إذ خيل إليه أن صوتاً يناديه : « لم تهجر الإله إلى الخادم ، والأمير إلى تابعه ؟ » فسأل هو ذلك الصوت : « ربّاه ماذا تريدني أن أفعل ؟ » فأجابه الصوت : « عد إلى موطنك ، وهناك سيقال لك ماذا تفعل »^(٢٨) . فما كان منه إلا أن ترك الجيش وعاد إلى أسيسى ، ومن ذلك الوقت أخذ اهتمامه بتجارة أبيه يقلّ واهتمامه بالدين يزيد . وكان بالقرب من أسيسى مصلى صغيرة للقديس دميان . وبينما كان فرانسس يصلى فيها ذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٢٠٧ إذ خيل إليه أنه يسمع المسيح يتحدث إليه من المذبح ، ويتقبل حياته وروحه قرباناً له . وأحس من تلك اللحظة أنه موهوب إلى حياة جديدة ، فأعطى قس المصلى كل ماله من المال وعاد إلى منزله . والتقى ذات يوم بشخص مصاب بالجدام ففر منه مشمئزاً ، ثم لام نفسه لمدم إخلاصه للمسيح ، وعاد أدراجه وأفرغ ما كان في كيسه من النقود في يد المجنوم وقبّل يده ، ويقول لنا هو إن هذا العمل كان بداية عهد جديد في حياته الروحية^(٢٩) . وأخذ من ذلك الحين يزور مساكن المجنومين ويتصدق عليهم .

وقضى بعد قليل من ذلك الحادث عدة أيام في المصلى أو بالقرب منها ، ويبدو أنه لم يكن يأكل في تلك الأيام إلا القليل الذي لا يغني عن جوع ، فلما ظهر مرة أخرى في أسيسى كان جسمه قد ضعف وهزل ، ولونه قد امتقع ، وثيابه قد تمزقت ، وعقله قد تحير ، حتى أخذ الأطفال في الميدان العام يصيحون

« پزو ، پزو ! pazzo ,! pazzo المجنون ، المجنون ! » وهناك عثر عليه أبوه ، وسماه بالشاب الذى ذهب نصف عقله ، وجره إلى منزله ، وأغلق عليه حجرة ضيقة . ولما أن أطلقت أمه من حبسه عاد مسرعاً إلى المصلى ، فلحق به أبوه الغاضب ، وأنبه لتعريضه أسرته للسخرية ، ولألمه لأنه لم يفد شيئاً من المال الذى أنفقه على تربيته ، وأمره أن يخرج من البلدة التى هو فيها . وكان فرانسس قد باع كل ممتلكاته الشخصية لينفق من ثمنها على المصلى ، فلما سمع هذا القول من أبيه أعطاه ما كان معه من ثمنها ، وقبله منه أبوه ، ولكنه لم يعترف لوالده بحقه فى أن يأمر شخصاً هو وقتئذ ملك للمسيح . ولما استدعى للمثول بين يدى محكمة الأسقف فى ميدان القديسة مارية مجبورى ، مثل أمامها فى خشوع وحوله جمع حاشد ينظر إليه . وقد خلد جيوتو هذا المنظر فى صورة له ذات روعة . ووثق الأسقف بما قطعه على نفسه من وعد وأمره أن يتخلى عن جميع أملاكه . وآوى فرانسس إلى حجرة فى قصر الأسقفية ، وما لبث أن عاد عارياً كما ولدته أمه ، وألقى أمام الأسقف بشيابه المحزومة وما كان باقياً معه من نقود قليلة وقال : « لقد ظلت حتى هذه الساعة أدعو بييترو برنادون أبى ، أما الآن فأنى أحب أن أكون خادماً لله ، ولهذا فأنى أرد إلى هذا المال . . . هو وثيائى وكل ما حصنت عليه منه ، لأنى من هذه الساعة لن أنطق بغير « أبانا الذى فى السموات » (١٠) . وأخذ برنادون الثياب وغطى الأسقف فرنسس المرتجف بمنزله ، وعاد فرانسس إلى مصلى القديس داميان ، ونسج لنفسه ثوباً من أثواب النساك ، وأخذ يسأل الناس طعامه من باب إلى باب ، وشرع يبنى بيديه المصلى المتصدعة ، وجاء بعض أهل القرية يساعدونه ، وكانوا يغنون جميعاً وهم يعملون .

وبينا كان يستمع إلى القداس فى شهر فبراير من عام ١٢٠٩ أثرت فى نفسه العبارات التى كان القس يتلوها من تعاليم المسيح إلى الرسل : وفيما « أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا مرضى ، طهروا برصاً ،

أقيموا موتاً ، أخرجوا شياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تفتنوا ذهباً
ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً في الطريق ولا ثوبين ، ولا
أحذية ولا عصا » (متى ١٠ : ٧ - ١٠) .

وخيل إلى فرانسس أن المسيح نفسه هو الذى يتكلم وأنه يتكلم إليها
مباشرة ، وصمم على أن يطبع هذه الألفاظ وينفذها بنصها - أن يدعو إلى
ملكوت السموات ، وألا يقتنى شيئاً ، وأن يرجع إلى الورا خلال المائتين
والألف من الأعوام التى أخفت عن الناس صورة المسيح ، وأن يعيد تشكيل
حياته على غرار هذا المثل القدسى .

وهكذا وقف في ربيع ذلك العام في ميدان أسيسى متحدثاً سخرية
الساخرين جميعها يدعو إلى إنجيل الفقر وإلى المسيح . واشتأزت نفسه مما كان
سائداً في هذا العصر من سعى لكسب المال بالحق أو بالباطل ، وروعه ما رآه
من ترف بعض رجال الدين وأهنتهم ، فأخذ يندد بالمال نفسه ويقول إنه
هو الشيطان وهو اللعنة ؛ وأمر أتباعه أن يجتنبوه كما يجتنبوا الرجس (١١) ؛
وأهاب بالرجال والنساء أن يبيعوا كل ما يملكون وأن يهبوا ثمنه للفقراء .
واستمعت إليه جماعات قليلة في دهشة وإعجاب ، ولكن الكثرة مرت به
وحسبته أبله مفتوناً بالمسيح ، ولما قال له أسقف أسيسى الصالح : « يبدو
لى أن طريقتك في الحياة من غير أن تملك شيئاً قاسية صعبة على النفس »
أجابه فرانسس بقوله : « مولاي ، إننا إذا كان لنا ملك احتجنا إلى
الأسلحة للدفاع عنه » (١٢) . وتأثرت به بعض النفوس ، وعرض عليه
اثنا عشر ممن تأثروا به أن يتبعوا تعاليمه ويسيروا على سنته ، فرحب بهم ،
ولقنهم الفقرة السالفة الذكر من أقوال المسيح ليتخذوها رسالة لهم وقاعدة
يسيروا عليها ؛ ونسجوا لأنفسهم ثياباً سمراء ، وأقاموا لهم أكواخاً من
أغصان الأشجار ، ونبذوا هم وفرانسس عزلة الرهبان القديمة ، فكانوا يخرجون
كل يوم حفاة ، ليس معهم شيء من المال ، يعظون الناس . وكانوا في بعض

الأحيان يغيبون عدة أيام، وينامون في مخازن الدريس، أو مستشفيات المجذومين، أو تحت أبواب الكنائس؛ فإذا عادوا غسل فرانسس أقدامهم وقدم لهم الطعام. وكانوا يحبون بعضهم البعض، ويحيون كل من يلتقون بهم في الطريق، التحية الشرقية القديمة: «سلام الله عليكم» ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أطلق عليهم اسم «فرانسكان»، فقد كانوا يسمون أنفسهم «الإخوان الصغار Minorites Frates أو المينوريين Minores». ذلك أنهم كانوا إخواناً لا قساوسة، ومعنى كونهم صغاراً أنهم أصغر خدام المسيح شأنًا، وأنهم لا يمارسون قط سلطاناً، بل يخضعون على الدوام لسلطان من هم أرقى منهم؛ فهم يخضعون لأقل القساوسة درجة، ويقبلون يد أى قسيس يلقونه، ولم يرسم إلا عدد قليل منهم في الحيل الأول من نشأتهم قساوسة، ولم يرق فرانسس نفسه إلى أكبر من مرتبة شماس، وكانوا في جماعتهم الصغيرة يخدم بعضهم بعضاً، ويشغلون بالأعمال اليدوية، ولم يكونوا يسمعون بوجود متعطل منهم، أو يشجعون الدراسة العقلية بينهم، لأن فرانسس لم يكن يرى في المعلومات الزمنية أية فائدة غير تكديس الثروة أو الجرى وراء السلطان: «وسيجد إخواني الذين تغويهم الرغبة في العلم أنهم صفر الأيادي في يوم المحنة»^(٤٣). وكان يسخر من المؤرخين الذين لا يقومون هم أنفسهم بعمل عظيم، ولكنهم يشرفون لأنهم يسجلون ما يقوم به غيرهم من جليل الأعمال^(٤٤). وقد سبق فرانسس قول جيته إن العلم الذى لا يؤدى إلى العمل باطل مسمم فقال: «ليس للإنسان من العلم إلا القدر الذى يستخدمه في العمل»^(٤٥) ولم يكن واحد من الإخوان يمتلك كتاباً بما في ذلك كتاب الترتيل نفسه؛ وكانوا في عظاتهم يلجأون إلى الغناء كما يلجأون إلى الخطابة، بل كانوا يحذون حذو الشعراء المغنين الجاثلين فيكونون

مطربي الله^(٤٦)

وكان الإخوان أحياناً يُسخر منهم ويُضربون، وتُسرق منهم أثوابهم حتى الثوب الأخير. وقد أمرهم فرانسس ألا يبلدوا أية مقاومة. وكان المعتدون

فى كثير من الأحيان يدهشون من احتقار الإخوان للمجد والملك ، وهو احتقار كان يبدو لهم فوق الطاقة البشرية ، ولهذا كانوا يتقدمون إليهم يطلبون الصفح ويعيدون إليهم ما سرقوه^(٧) . ولسنا نعرف هل هذا المثل الآتى المأخوذ من زهرات القدس فرانسيس تاريخ حق أو خيال ، ولكنه فى كلنا الحالىين بصور نشوة التقوى التى تسرى فى كل ما نسمعه عن القديس :

قال فرانسيس فى يوم من أيام الشتاء وهو سائر فى طريقه من پروچيا يعانى الأمرين من برد الشتاء القارس : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان البصغار يضربون أحسن الأمثلة فى الصلاح والتهديب ، ومع هذا فاكتب إليهم ، ولا تتوان عن تعليمهم ، أن البهجة الكاملة ليست فى هذا » . وبعد أن واصل فرانسيس السير فى طريقه بعض الشيء قال : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار قد ردوا البصر إلى المكفوفين ، وقوموا المعوجين ، وأخرجوا الشياطين ، وأعادوا السمع إلى الصم ، ومكنوا العرج من المشى المستقيم . . . وأحيوا من قضوا فى القبر أربعة أيام ، ومع هذا فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . ثم سار فى طريقه قليلا وصاح بأعلى صوته : « أيها الأخ ليو ، لو أن الأخ الصغير عرف كل اللغات والعلوم ، وجميع الكتب المقدسة حتى استطاع أن يكشف عن الأمور المستقبلية ويتنبأ بها ، بل استطاع أكثر من هذا أن يكشف عن مخبآت الضمائر والنفوس — فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . . . ومع هذا فقد سار بعدئذ قليلا وصاح قائلا : « أيها الأخ ليو ، إن الأخ الصغير يحذق الوعظ إلى حد يستطيع معه أن يهدى الكفرة إلى دين المسيح — فاكتب : « ليس السرور الكامل فى ذاك » . ولما استمر هذا الطراز من الحديث ميلين كاملين سأله الأخ ليو : « أبى ، بالله قل لى أين يوجد السرور الكامل ؟ » فأجابه فرانسيس بقوله : « حين نصل إلى كنيسة مارية الملائكة » (وكانت وقتئذ مصلى الفرانسيسكان فى أسيسى) يبللنا المطر ، متجمدين من شدة البرد ، ملطخين

بالوحل ، معذبين من شدة الجوع ، وحين تدق الباب ويقبل البواب ثائراً ويقول : « من أنتم ؟ » فتقول له : « نحن اثنان من إخوانك » فيرد علينا قائلاً : « إنكما كاذبان ، بل أنتما وغدان تسيران في الطرق تخدعان العالم ، وتختلسان صدقات الفقراء . اذهبا ! » ثم لا يفتح لنا الباب ، ويتركنا في خارجه نعاني آلام الجوع والبرد طوال الليل في المطر والثلج ؛ فإذا ما تحملنا هذه القسوة صابرين . . . من غير أن نشكو أو نحزن ، ونعتقد في ذلة وشفقة أن الله هو الذى أنطق البواب بالسخرية منا - ألا أيها الأخ ليو ، اكتب ، هناك السرور الكامل ! وإذا ما واصلنا دق الباب ، وخرج هو وطردها وهو غاضب ، وسبنا ولطم خدودنا وقال لنا : « أبعداً أيها اللسان السافلان ! - فإذا ما تحملنا هذا صابرين يملأ قلوبنا الحب والفرح فاكتب أيها الأخ ليو : هذا هو السرور الكامل ! وإذا ما عضنا الجوع وآلمنا البرد فدفعنا الباب مرة أخرى ودعونا بحب الله أن يفتح لنا . . . فخرج بعضا كبيرة معقدة وقبض علينا من قلنسوتينا ، وألقانا على الأرض ، ودحرجنا على الثلج ، ورض كل عظم من عظامنا بتلك العصا الثقيلة ، فإذا ما فكرنا في آلام المسيح الرحيم ، وتحملنا هذه الآلام كلها في صبر و سرور مدفوعين إليها بحب الله - فاكتب أيها الأخ ليو أن هنالك وفي هذا يوجد السرور الكامل » (٤١) .

وكانت ذكرى حياته المترفة الباكورة تبعث في نفسه شعوراً بالخطيئة يؤثره ويقض مضجعه ، وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء في الزهيرات فإنه كان في بعض الأحيان يسائل نفسه في حيرة هل يغفر له الله ذنوبه ؟ وثمة قصة مؤثرة تقول إنه في الأيام الأولى من نشأة الطائفة حين لم يكن في وسعهم أن يجدوا كتاب صلوات يتلون منه أدعيتهم المقدسة ، ارتحل فرانسس وِرداً للتوبة ، وأمر الأخ ليو أن يعيد بعده عبارات تهم فرانسس بالخطيئة . وحاول ليو أن يعيد التهمة في كل جملة ، ولكنه وجد أنه لم يكن يكرر التهمة ، بل كان يقول بدلا منها

إن « رحمة الله وسعت كل شيء »^(٤٩). وحدث في مرة أخرى ، وكان فرانسس قد نفه تَوّاً من الحمى ، أن طلب أن يُجَرَّ وهو عار من الثياب أمام الناس في سوق أسيسى وأن يلتق أحد الإخوان على وجهه صفحة من الرماد ، ثم قال هو للحاضرين : « إنكم تعتقدون أنى ولى صالح ، ولكنى أعترف لله ولكم أننى فى ضعفى هذا أكلت لحماً وشربت مرق اللحم »^(٥٠) . وزاد ذلك القول يقين الناس بطهره وقداسته ، ورووا أن أخاً شاباً أبصر المسيح والعنراء يحدثانه ؛ وكانوا يعزّون له عدة معجزات ، ويأتون إليه بمرضاهم ومن بهم « مس » ليشفيهم . وأصبحت صدقاته مضرب المثل وموضوع القصص ، فلم يكن يطيق أن يرى أحداً أفقر منه ، وكثيراً ما كان يتصدق على من يمرّ به من الفقراء بالثوب الذى يلبسه حتى كان يريدوه يجدون من أصعب الصعاب أن يبقوه مكتسباً . وتقول **مرآة الكمال** التى هى فى أكبر الظن من نسج الخيال^(٥١) :

وبينا هو عائد من سينا Siena إذ التقى فى طريقه برجل فقير ، فقال لزميل من الرهبان : « يجب أن نعيد هذا المتزّر إلى صاحبه ، لأننا لم نأخذنه إلا عارية حتى نعثر على من هو أفقر منا . . . وإنا إذا لم نعطه من هو أشد حاجة إليه منا عدّه هذا منا سرقة » .

وفاض حبه من الآدميين على الحيوان والنبات ، وعلى الجهاد نفسه ، وتعرّوا إليه **مرآة الكمال** التى لم تثبت صحتها تسديحاً للشمس يقول فيه :

حين تشرق الشمس فى الصباح ، يجب على كل إنسان أن يحمّد الله الذى خلقها لننتفع بها . . . وإذا جن الليل وجب على كل إنسان أن يسبح بحمد الله الذى أمدنا بأختنا النار التى تبصر بها أعيننا ، لأننا جميعاً أشبه بالمكفوفين ، وقد أضاء الله أعيننا بهذين الأخوين .

وكان يعجب بالنار إعجاباً يحمله على التردد فى إطفاء شمعة ؛ لأن النار قد

تعارض في أن تطفأ . وكان قوى الإيمان بما بينه وبين كل كائن حي من أواسج القرى . وأراد أن « يتوسل إلى الإمبراطور » (فردريك الثاني الذي كان مولعاً بصيد الطير) « لكي يخبره بحق حبه لله ولى أن يضع قانوناً خاصاً يحرم على أى إنسان أن يقبض على أخوتنا القبريات أو يقتلها ، أو يلحق بها أذى ما ، وأن يطلب رؤساء البلديات وعمد البلاد ، وملاك القصور والقرى ، إلى كل رجل أن ينثر الحب في خارج المدن والقصور في يوم عيد الميلاد من كل عام حتى نجد أخواتنا القبريات وغيرها من الطير ما تأكله » (٥٢) .

والتقى مرة بشاب اقتنص بضع قريبات وسار بها إلى السوق . وأقنع فرانسس الشاب أن يعطيه إياها ، وبني القديسون عشوشاً لها « حتى تثمر وتتضاعف » ، وأطاعت القمريات فأثمرت وتضاعفت أضعافاً مضاعفة ، وعاشت بجوار الدير سعيدة بصداقة الرهبان ، وكانت أحياناً تخطف الطعام من المائدة التي يطعم عليها أولئك الرهبان (٥٣) . ونسجت حول هذا الموضوع عشرات من الأقاصيص لتزيينه وتجمله ، منها واحدة تقول إن فرانسس خطب في « أخوات الصغار من الطير » وهو في طريقه من كانورا Cannora إلى بيفانيا Bevagna ؛ فنزلت إليه الطيور التي على الأشجار لتستمع إليه ، وظلت ساكنة بينا كان فرانسس يحتم عظمته :

أخواتي الصغار من الطير ! ما أكثر ما أنتن مديونات به إلى الله خالقكن ، ومن واجبك أنيما كنتن وأنى كنتن أن تحمدنه لأنه وهبكن حلة ثنائية وثلاثية . لقد وهبكن الحرية التي تمكنكن من الذهاب أينما شئن . . . وفوق هذا فإنكن لا تزرعن ، ولا تحصدن ، والله يطعمكن ويهيكن الأنهار والعيون لتشربن من مائها ؛ وهبكن الجبال والوديان لتأوين إليها ، والأشجار الباسقة التي تبين فيها أعشاشكن ، وإذا كنتن لاتستطعن أن تغزلن أو تخطن فإن الله يكسوكن أنتن وأبناءكن . . . فاحذرن إذن يا أخواتي الصغار أن ترتكبن ذنب الكفران بالنعمة ، ولا تغفلن أبداً عن حمد الله (٥٤) .

ويؤكد لنا الأخوان جيمس وماسيو أن الطيور كانت تنحني احتراماً لفرانسيس ، وأنها لم تكن تبرح أماكنها حتى يباركها . والزهرات Fioretta التي نقلنا منها هذه القصة هي تبسيط باللغة الإيطالية لكتاب Actus Beati Francisci المكتوب باللغة اللاتينية (١٣٢٣) ، وهي أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ الحق ، ولكنها تعد في مستوى أجل مؤلفات عصر الإيمان وأعظمها متعة .

ولما قيل له إن إنشاء طائفة دينية جديدة يتطلب الحصول على إذن من البابا ، سافر فرانسيس ومريدوه الاثنا عشر إلى رومة في عام ١٢١٠ ، وعرضوا طلبهم ومبادئهم على إنوسنت الثالث . فنصحهم البابا العظيم بلطف أن يؤجلوا مسألة الإنشاء الرسمي للطائفة الجديدة حتى يحين الوقت لاختبار مبادئهم اختباراً عملياً ، وقال لهم : « أبناءى الأعزاء ، إن حياتكم لتبدو لي أقسى مما تطيقون ، نعم إنى أرى أنكم شديدو التحمس لمبادئكم . . . ولكن من واجبي أن أفكر فيمن سيأتون بعدكم خشية أن يكون أسلوب حياتكم فوق ما يطيقون » (٥٥) . وأصر فرانسيس على طلبه ، وخضع له البابا آخر الأمر - خضعت القوة الممثلة في شخص البابا إلى الإيمان الممثل في شخص فرانسيس - ، وقص الإخوان شعورهم ، وخضعوا لرجال السلطة الدينية ، وحصلوا من البندكتيين في مونت سباسيو Mt. Subasio القريب من أسيسى على مصلى القديسة ماري الملائكية St. Mary of the Angels ، وهي مصلى لا يزيد طولها على عشر أقدام ، وقد بلغ من صغر مساحتها أن أطلق عليها فيما بعد اسم بورقي أنكولا Portiuncula - « أى الجزء الصغير » . وبني الإخوان لهم أكواخا حول المصلى ، وكانت هذه الأكواخ أولى أديرة طائفة القديس فرانسيس الأولى .

وانضم إلى الطائفة أعضاء جدد ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، ولكن فتاة ثرية في الثامنة عشرة من عمرها هي كلارا دى اسكى Clara dei Sciffi طلبت

إليه أن يأذن لها بإنشاء طائفة ثانية من طوائف القديس فرانسس خاصة بالنساء (١٢١٢) . وابتهج القديس لهذا الطلب أعظم ابتهاج - فقد غادرت الفتاة بيتها ونذرت نفسها للفقير ، والطهر ، والطاعة ، وأصبحت رئيسة دير فرنسيسى أقيم حول مصلى القديس دميان . ثم أنشئت طائفة ثالثة من طوائف القديس فرانسس - هى الطائفة الثلاثية - من بين العلمانيين الذين لم يكونوا يرتبطون بقواعد القديس فرانسس كاملة ، ولكنهم أرادوا أن يتبعوا هذه القواعد قدر المستطاع ، وأن يعيشوا فى « الدنيا » ، ويساعدوا الطائفة الأولى والثانية بعملهم وصدقاتهم . وحملت الطوائف الفرنسيسية المطردة الزيادة لإنجيلها إلى بلدان أمبريا (١٢١١) ، ثم حملته فيما بعد إلى غيرها من مقاطعات إيطاليا . ولم يكن هؤلاء الرهبان ينطقون بشيء عن الضلالة ، بل كانوا يعظون الناس عظات بسيطة فى شئون الدين ؛ ولم يكونوا يطلبون إلى المستمعين أن يأخذوا أنفسهم بالعفة ، والفقير ، والطاعة التى وهبوا هم أنفسهم لها ، بل كانوا ينادونهم « خافوا الله وعظموه ، وأثنوا عليه وسبحوه ... وتوبوا إليه واستغفروه ... فإنكم تعلمون أنا عما قليل ميتون ... تجنبوا الشر ، وثابروا على الخير » .

لقد طالما سمعت إيطاليا هذه الألفاظ من قبل ، ولكنها قلما سمعتها من رجال أوتوا من الإخلاص البين مثل ما أوتى هؤلاء الرجال . وأقبل الناس ذرافات ليستمعوا إلى مواعظهم ، وعرفت قرية فى أمبريا أن القديس فرانسس مقبل عليها ، فخرجت على بكرة أبيها لتحييه بالأزهار ، والأعلام ، والأناشيد^(٥٦) . ولما أقبل على سينا Siena وجد المدينة فى حرب أهلية ؛ فلما استمع الحزبان المتحاربان إلى مواعظه أقبلوا عليه خاضعين ، وأنهوا نزاعهم طوعاً لأمره إلى حين^(٥٧) . وكانت هذه الرحلات التبشيرية التى قام بها فى إيطاليا هى التى أصيب فيها بالمalaria التى قضت على حياته فى سن مبكرة .

بيد أن ما لقيه من النجاح فى إيطاليا وجهله بالإسلام قد شجعه على مواصلة

العمل ، فاعتزم أن يذهب إلى بلاد الشام ويدعو المسلمين والسلطان نفسه إلى اعتناق الدين المسيحي . ولهذا أبحر في عام ١٢١٢ من إحدى الثغور الإيطالية ولكن عاصفة بحرية قذفت بسفينته إلى شاطئ دلاشيا واضطرتته أن يرجع إلى إيطاليا ؛ غير أن إحدى الأقاصيص تقول إن « القديس فرانسس أدخل في دينه سلطان بابل » (٥٨) . وتقول قصة أخرى أكبر الظن أنها غير صادقة كسابقتها إنه سافر في ذلك العام نفسه إلى أسبانيا ليدخل المسلمين في دين المسيح ، ولكنه حين وصل إليها أصيب بمرض شديد اضطّر مريديه أن يعودوا به إلى أسيسى . وتروى قصة أخرى مشكوك في صحتها أنه جاء إلى مصر ، وأنه مر بسلام في صفوف جيش المسلمين الذي كان يقاوم الصليبيين عند دمياط ، وعرض أن يخوض النار إذا وعده السلطان أن يعتنق هو وجنوده الدين المسيحي إن خرج من النار سالما ؛ ورفض السلطان هذا العرض ولكنه أمر بأن يعد للقديس حرس يصحبه إلى معسكر المسيحيين . وروى فرانسس حين رأى ما أظهره جنود المسيح من وحشية وهم يذبحون السكان المسلمين حين استولى الصليبيون على دمياط (٥٩) ، فعاد إلى إيطاليا مريضاً محزوناً ، وأصيب وهو في مصر ، فضلا عن مرض الملاريا ، بمرض أوشك في مستقبل حياته أن يفقده بصره .

وإزداد أتباع القديس في أثناء غيابه زيادة أسرع مما يستطيع معها السيطرة عليهم . ذلك أن شهرته جعلت الأتباع ينضمون إليه دون أن يفكروا في الأمر التفكير الواجب ، فأخذ بعضهم يندمون على تسرعهم ، وشكا البعض الآخرون صرامة مبادئ الطائفة ، فنزل فرانسس عن بعض القواعد وهو كاره . وما من شك كذلك في أن انتشار الطائفة التي انقسمت إلى عدة بيوت منتشرة في أنحاء أمبريا قد تطلب منه مهارة إدارية وكياسة لا قبل له بهما لشدة انهماكه في مبادئه الصوفية . من ذلك ما يروى أن راهبا اغتاب زميلا له فأمره فرانسس أن يأكل قطعة من روث حمار حتى لا يحلو الخبث في لسانه من بعد . وصدع

الراهب بالأمر ولكن زملاءه هالم العقاب أكثر مما هالتهم الجريمة (١٠) .
وتخلى فرانسس فى عام ١٢٢٠ عن زعامة الطائفة ، وأمر أتباعه أن يختاروا
لها غيره مرشداً عاماً ، وارتضى فيما بعد أن يكون راهباً بسيطاً . لكنه أزعجه
بعد عام من ذلك الوقت ما رآه من استمرار التراخى فى إطاعة المبادئ الأولى
(١٢١٠) فوضع للطائفة قواعد جديدة - هى « العهد » الذائع الصيت -
أراد بها أن يتقيد أتباعه تقيداً تاماً بمراعاة يمين الفقر التى أقسموا أن يراعوها ،
ونهى الرهبان عن الانتقال من أكوأخهم عند الپورتى أنكولا إلى الأحياء
الطيبة الهواء التى أنشأها لهم أهل المدينة ؛ وعرض هذه القواعد على هونوريوس
الثالث فأحاطها إلى لجنة من المطارنة لمراجعتها ، فلما خرجت من أيديهم كانت
قد أخذت بنحو اثنتى عشرة قاعدة من قواعد فرانسس وبمثلا من التعديلات
المخففة ، وهكذا تحققت نبوءة إنوسنت الثالث .

وعمد فرانسس فى ذلك الوقت على كره منه ، وإطاعة لما أخذ به نفسه
من خشوع ، عمد إلى حياة قضى معظمها فى التفكير ، والعزلة ،
والزهد ، والصلاة . وجاءته شدة خشوعه وقوة خياله من حين إلى
حين بروى المسيح ، أو مريم ، أو الرسل . وفى عام ١٢٢٤ غادر أسيسى
مع ثلاثة من مريديه وخرج يقطع الجبال والسهول حتى وصل إلى صومعة
على جبل فرنا M. Verna بالقرب من شيوزى Chiusi ، وأقام منفرداً
فى كوخ منعزل وراء أخدود عميق لا يسمح لأحد غير الأخ ليو أن يزوره ،
وأمره ألا يأتى إليه إلا مرتين كل يوم ، وألا يجيء إذا لم يتلق رداً على نداءه
بأنه قريب منه . وفى اليوم الرابع عشر من سبتمبر عام ١٢٢٤ يوم عيد
تمجيد الصليب المقدس ، وبعد صوم طويل وليلة قضائها ساهراً مصلياً -
فى هذا اليوم خيل إلى فرانسس أنه رأى ملكاً ينزل من السماء يحمل معه صورة
للمسيح المصلوب ، ولما توارى الشبح أحس بآلام غريبة وتبين زوائد لحمية فى
كفيه وظهري يديه ، وفى أسفل قدميه وأعلاهما ، وفى جسمه كله شبيهة فى أماكنها

وفي لونها بالجروح التي أحدثتها في ظن الناس المسامير التي يعتقدون أنها دقت أطراف المسيح في الصليب والحربة التي نفذت في جنبه(*) .

وعاد فرانسس إلى صومعته وإلى أسبسي ، وشرع بعد عام من ظهور تلك القروح يفقد بصره ، إلى أن كان يوماً في زيارة لدير القديسة كلارا ففقد بصره فقداً تاماً . ومرضته كلارا حتى عاد إليه نور عينيه واستبقته في دير القديس دميان شهراً من الزمان ، وفيه أُلّف في يوم من أيام ١٢٢٤ « تسبيحة الشمس » بالثر الإيطالي الموزون ، ولعله أُلّفها وهو في نشوة الفرحة أيام النقاهة من مرض عينيه(٦٢) :

ربّاه يا ذا الخير والجلال والسلطان الأعظم ،

إليك الحمد ، والمجد ، والتكريم ، وكل البركات ؛

إنك أنت وحدك يا ذا الجلال خالق بها

وما من أحد يليق به أن يذكرك .

إليك الحمد يا رب أنت وجميع مخلوقاتك ،

وأكثر ما يكون ذلك الحمد لأخينا الشمس

الذي يهبنا النهار ويضيئنا به

والشمس جميلة ساطعة ذات روعة ،

بينها وبينك يا ذا الجلال بعض الشبه ،

تسبّح بحمدك يا رب قمر السماء ونجومها ؛

فقد خلقتها في السماء صافية ، ثمينة ، جميلة

(*) قيل إنه ربما كان سبب هذه الفقايع هو الملاريا الخبيثة . وما هو معروف أن هذا المرض يحدث نزيفاً في الجلد من الدم الأرجواني ، لعدم معرفة القوم وقتئذ بوسائل العلاج الحديثة(٦١) .

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ الرِّيحِ ، وَالْهَوَاءِ ، وَالسَّحْبِ ، وَالْجَوَاءِ كُلِّهَا ،
الطَّيِّبِ مِنْهَا وَغَيْرِ الطَّيِّبِ ، وَهِيَ الَّتِي تَهْبِئُ بِهَا الْقُوَّةُ لِلْمَخْلُوقَاتِكَ .
تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ أَخْتِنَا الْمِيَاهِ
ذَاتِ النِّفْعِ الْعَظِيمِ وَالتَّوَاضُعِ الْجَمِّ ، الثَّمِينَةِ النَّقِيَّةِ .
تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ أَخْتِنَا النَّارِ
الَّتِي أَضْأَتْ بِهَا دَجَى اللَّيْلِ ،
وَهِيَ جَمِيلَةٌ ، وَمُبْتَهَجَةٌ ، وَشَدِيدَةٌ وَقَوِيَّةٌ ،
تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ أَخْتِنَا وَأَمْنَا الْأَرْضِ ،
الَّتِي تَعْمَدُنَا بِالْغَدَاءِ وَتَسِيطِرُ عَلَيْنَا ،
وَتُخْرِجُ لَنَا الْفَاكِهَةَ الْمُخْتَلِفَةَ الْأَشْكَالَ وَالْأَزْهَارَ ،
وَالْأَعْشَابَ ذَاتِ الْأَلْوَانِ .
يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ مَنْ يَعْفُونَ عَنِ النَّاسِ حُبًّا فِيكَ ،
وَيَحْتَمِلُونَ آَلَامَ الْمَرَضِ وَالْحَنَنِ ،
طَوْبَى لِمَنْ يَحْتَمِلُونَهَا فِي هَدُوءٍ ،
لَأَنَّكَ أَنْتَ يَا ذَا الْعِظَمَةِ سَتَضَعُ عَلَى رُءُوسِهِمُ التَّيْجَانَ .

وَرَأَى بَعْضُ الْأَطْبَاءِ فِي رَيْئِي أَنْ يَمْرُوا بِقَضِيبٍ مِنَ الْحَدِيدِ الْمَتَوَهِّجِ
عَلَى جِهَتِهِ لِيُعَالَجُوا بِذَلِكَ مَرَضَ عَيْنَيْهِ بَعْدَ أَنْ مَسَحُوهُمَا « بِيُولِ غَلَامٍ لَمْ يَبَاشِرْ
قَطَّ النِّسَاءَ » . وَيَقَالُ إِنَّ فِرَانْسِسَ نَادَى : « الْأَخُ النَّارُ : إِنَّكَ جَمِيلٌ فَوْقَ
كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَمَنْ عَلَى فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَقْدَارَ حُبِّي الْعَظِيمِ
الدَّائِمِ لَكَ » ؛ وَقَالَ فِيهَا بَعْدَ إِنَّهُ لَمْ يَحْسُ قَطَّ بِأَلَمٍ . وَاسْتَرَدَّ مِنْ قُوَّةِ الْبَصَرِ
مَا يَكْفِيهِ لِأَنْ يَبْدَأَ رَحْلَةً أُخْرَى يَعْظُ فِيهَا النَّاسَ ، وَلَكِنْ مَتَاعِبُ السَّفَرِ
لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَنْهَكَتْ قَوَاهُ ؛ وَأَقْعَدَهُ دَاءُ الْمَلَارِيَا وَمَرَضُ الْاسْتِسْقَاءِ ، فَعَادُوا
بِهِ إِلَى أَسِيسِي .

واضطروه رغم احتجاجه إلى الرقاد في قصر الأسقفية ؛ وسأل الطبيب أن يصدقه الخبر ، فقبل له : إنه لا يكاد يبقى حيا بعد الخريف ، وأدهش جميع الحاضرين إذ بدأ يغنى ، ثم أضاف ، على حد قولهم ، مقطوعة أخرى إلى تسيبحة الشمس :

نُسبح بحمدك يا رب يا من مننت علينا بأختنا مَيِّتة الجسد التي لا ينجو منها بشر .

فوا أسقى على من يموتون وهم آثمون
وطوبى لمن هم طوع لإرادتك المقدسة ،
لأن الميتة الثانية لن ينالهم منها أذى (٦٣) .

ويقال : إنه ندم في تلك الأيام الأخيرة على زهده لأنه « أساء به إلى أخيه الجسم » (٦٤) . ولما خرج الأسقف من عنده أقنع فرانسيس الرهبان — أن ينقلوه إلى پورتي أنكولا ؛ وفيها أملى وصيته ، وهي وصية تجمع بين التواضع والقوة ، فقد أمر أتباعه أن يقنعوا « بالكنائس الفقيرة المهجورة » ، وألا يقيموا في بيوت لا تتفق مع الإيمان التي أقسموها بأن يظلوا فقراء ؛ وأن يسلموا للأسقف كل ضال أو ناكث للعهد من رهبان الطائفة ؛ وألا يغيروا قط مبادئهم (٦٥) :

وأدركته المنية في اليوم الثالث من شهر أكتوبر من عام ١٢٢٦ ولا يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ؛ وكان في اللحظة الأخيرة ينشد أحد الزمائر . وبعد سنتين من وفاته سمته الكنيسة قديسا . وكان زعيما آخران يسيطران على هذا العصر القوي الحركة هما إينوسنت الثالث وفرديك الثاني . فأما إينوسنت فقد رفع مقام الكنيسة إلى أعلى ذروته ، ومن هذه الذروة هوت بعد قرن من الزمان ؛ وأما فرديك فقد رفع الإمبراطورية إلى ذروة مجدها ، ومن هذه الذروة هوت بعد عقد واحد . ولسنا ننكر أن فرانسيس قد بالغ في فضائل الفقر والجهل ،

ولكنه بعث القوة في الدين المسيحى بأن أعاد إليه روح المسيح . وأولو العلم وحدهم هم الذين يعرفون اليوم البابا والإمبراطور ، أما القديس الساذج فيتغلغل حبه في قلوب الملايين من بنى الإنسان .

وبلغ عدد أعضاء الطائفة التى أنشأها خمسة آلاف عضو عند وفاته ، وانتشرت في بلاد الحجر ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا . وكانت هى الدعامة التى تعتمد عليها الكنيسة في عودة شمالي إيطاليا من الضلالة إلى الكثرة . ولم تقبل لإنجيل الفقر والامية الذى كانت تنادى به إلا أقلية صغيرة ، لأن أوروبا أصرت على التخبط في تيه الثروة ، والعلم ، والفلسفة ، والشك المثير للنفوس . وفي هذه الأثناء (١٢٣٠) تحلل رهبان الطائفة مرة أخرى من القواعد المعدلة التى وافق عليها فرانسس وهو كاره ؛ فلم يكن يُنتظر من الناس أن يبقوا زمناً طويلاً ، وأن يبقوا بالعدد المطلوب ، محفظين بذلك المستوى العالى من الزهد الذى لا يكاد يقبله عاقل ، والذى عجل منية فرانسس . فلما خفت وطأة قواعد الطائفة بعض الشيء زاد عدد الإخوان الضغار حتى بلغ قبل عام ١٢٨٠ نحو مائتى ألف راهب يقيمون في ثمانية آلاف دير ، وحتى أصبحوا من كبار الواعظين ، وحتى حملوا رجاله الدين بما ضربوه لهم من الأمثلة على أن يقوموا بالوعظ والإرشاد ، وكانت هذه العادة حتى ذلك الوقت مقصورة على الأساقفة دون غيرهم . وخرج من بينهم قديسون أمثال القديس برندينو السينائى Bernardino of Siena والقديس أنطوني البدوائى Antony of Padua ، كما قام من بينهم علماء مثل روجر بيكن ، وفلاسفة مثل دن اسكوتس Dun Scotus ومعلمون مثل اسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وأضحى بعضهم عمالاً لحاكم التحقيق ؛ وارتقى بعضهم إلى كراسى الأساقفة ، وروساء الأساقفة ، والبابوية ؛ وقام كثيرون منهم بمغامرات تبشيرية في بلاد أجنبية بعيدة . وتوالت عليهم الهبات من الأتقياء الصالحين ، وتعلم بعض زعمائهم ، مثل الأخ إلياس ،

حب الترف ، وأقام لذكرى فرانسيس تلك الباسلقة الرائعة التي لا تزال تنوّج نل أسيسى وإن كان مؤسس الطائفة قد حرّم إقامة الكنائس الكبرى . ولقد كانت رسوم سيابيو Cimabue وجيتو Giotto في هذه الباسلقة أول نتاج ذلك الأثر العظيم الخالد الذي كان للقديس فرانسيس ولتاريخه وقصصه في الفن الإيطالي .

واحتج كثيرون من أبناء الطائفة على التحلل من بعض قواعد فرانسيس وآووا إلى صوامع أو أديرة صغيرة في جبال الأبنين يعيشون فيها زهاداً « روحيين » أو « متحمسين » ، أما بقية الفرنسيين فقد آثروا الأديرة الراجعة . وكان الروحيون يقولون إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع ؛ ووافقهم على هذا القديس بونا فنتورا Bonaventura ، وصدق البابا نقولاس الثالث على ذلك الرأي في عام ١٢٧٩ ، غير أن البابا يوحنا الثاني والعشرين أعلن في عام ١٣٢٣ أنه رأى خاطئ ؛ ومن ذلك الحين عادت « الروحيون الذين أصرّوا على الدعوة إلى هذا المبدأ من الضالين ، وقعت حركتهم . وبعد مائة عام من وفاة فرانسيس حُرقت محاكم التحقيق أتباعه عند أعمدة التحريق .

الفصل الرابع

القديس دمنيك

يظلم الناس دمنيك حين يقولون إن اسمه يوحى بمحاكم التحقيق ، ذلك أن دمنيك لم يكن هو الذى أنشأ تلك المحاكم ، ولم يكن هو الذى تلقى عليه تبعة ما لحأت إليه من إرهاب ؛ فقد كان نشاطه مقصوراً على هداية الناس بالقُدوة والموعظة الحسنة . وكان أقوى من فرانسس شكيمة ، ولكنه كان يحله ويراه أعظم منه قداسة ، وحباه فرانسس بحبه جزاء له على هذه الصفات الطيبة . وكان عمل الرجاين فى جوهره واحداً : فكلاهما نظم طائفة عظيمة من الرجال لا يعمدون إلى نجاة أنفسهم بطريق العزلة ، بل بالتبشير بين المسيحيين وغير المسيحيين . وأخذ كلاهما من الصالين أعظم أسلحتهم إقناعاً — وهو مدح الفقر والقيام بالوعظ ، وكان لهما معاً فضل إنقاذ الكنيسة .

ولد دمنجو ده جزمان Domingo de Guzman فى قلعة رويجا من أعمال قشتالة (١١٧٠) ونشأ فى رعاية عم له من القساوسة ، فكان رجلاً من آلاف الرجال الذين تمكنت المسيحية من نفوسهم ، وعمرت بها قلوبهم . ويقال إنه لما نزل القحط بمدينة بلنسية ، باع جميع متاعه ، وفيه كتبه الثمينة ليطعم بثمنها فقراء المدينة . وأصبح قساً أغسطينياً نظامياً فى كنيسة أسما Osma ، وصحب أسقفها فى عام ١٢٠١ فى بعثة تبشيرية إلى طولوز ، وكانت وقتئذ مركز الفتنة الألبجنسية الضالة . وكان مضيفهما نفسه ألبجنسياً ، وقد يكون من الأقاصيص الموضوعة أن دمنيك هداه إلى الدين القويم فى أثناء الليل . وأوحى إليه نصيح الأسقف ، والمثل الذى ضرب له بعض الصالين ، فعمد إلى حياة الفقر الاختيارى .

ومشى حافى القدمين ، وبذل ما يستطيع من الجهد ليعيد الناس بطريق السلم إلى حظيرة الدين القويم . والتقى في منبلييه بثلاثة من مندوبي البابا - أرندل

Arnold وراؤل Raoul وبطرس الكاسلنوى Peter of Castelnaud وروع حين شهد ثيابهم الغالية وترفهم ، وعزا إلى هذا ما أقرأ به من عجز عن كفاح الضلالة ، وأخذ يؤنبهم بجرأة لا تقل عن جرأة أنبياء العبرانيين : « إن الضالين لا يردون الناس عن دينهم ويضمونهم إليهم بما يظهرون من القوة والأبهة ، ولا بمواكب الخدم والحشم ، وإنما يردونهم بالوعظ الحامسى ، وبالحشوع المائل للحشوع الحوارين ، وبالتكشف ، والاستمسك بالدين » (٦٦) ويقال إن المندوبين استحووا من عملهم ، فصرفوا حاشيتهم وخلعوا نعالم .

وأقام دمنيك فى لانجويديك عشر سنين (١٢٠٥ - ١٢١٦) ، يعظ الناس بكل ما أوتى من غيرة وحماسة . ولم يذكر اسمه فى حادث ذى صلة بالاضطهاد البدنى إلا ما قيل من أنه أنجى أحد الضالين من اللهب عند عمود الإحراق (٦٧) . ويطلق عليه بعض أتباعه تفاخراً به اسم - Persecutor Haereticorum - وليس معنى هذا حتماً أنه مضطهد الضالين بل قد يكون معناه أنه مطاردهم فحسب . وجمع حوله طائفة من الوعاظ ، بلغ من تأثيرهم أن اعترف البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦) بأن « الإخوان الوعاظ » طائفة جديدة ، وصدق على دستورهم الذى وضعه لهم دمنيك ، واتخذ الرجل مركزه الرئيسى فى رومة ، وأخذ يجمع الأنصار ويعلمهم ، ويثبت فيهم من روحه الحماسية التى كادت تبلغ حد التعصب ، ثم بعثهم يجوسون خلال أوروبا حتى كيف Kiev من جهة الشرق ، والبلاد الأجنبية ، ليهلوا المسيحيين والكفار إلى دين المسيح . ولما عقد أول اجتماع للدمنيكيين فى بولونيا عام ١٢٢٠ ، أقنع دمنيك أتباعه بأن يوافقوا بإجماع الآراء على دستور الفقر المطلق . ومات فى هذه البلدة بعد عام من ذلك الاجتماع .

وانتشر الدمنيكيون ، كما انتشر الفرنسيسيون ، فى كل مكان فكانوا

إخوانا ، متسولين ، جوالين . ويصف ما يثو باريس في عام ١٢٤٠ طائفهم في إنجلترا بقوله :

إنهم قوم شديدو الاقتصاد في طعامهم ولباسهم ، لا يقتنون ذهباً ولا فضة ولا شيئاً ما لأنفسهم ، يطوفون بالمدن ، والبلدان ، والقرى ، يدعون إلى الإنجيل . . . ويعيشون جماعات من عشرة أو سبعة . . . لا يفكرون في الغد ، ولا يحتفظون بشيء ما للصباح التالي . . . يعطون الفقراء من فورهم كل ما بقى لديهم من الطعام الذى يتصدق بها الناس عليهم . يسرون حفاة ، ولا يحتفظون إلا بالإنجيل ، وينامون بثيابهم على الحصر ، ويتخذون الحجارة وسائد يضعونها تحت رؤسهم (٦٨) .

واضطلعوا في أعمال محاكم التحقيق بدور نشيط لم يكن على الدوام مشوباً برقة القلب ، وعينهم البابوات في مناصب رفيعة وأرسلوهم في بعثات دبلوماسية خطيرة ، والتحقوا بالجامعات ، ونبغ منهم رجلان جباران في الفلسفة المدرسية هما ألبرتس ماجنوس وتوماس أكويناس ، وكانوا هم الذين أنتقدوا الكنيسة من أرسطو بأن بدلوه رجالاً مسيحياً . ولقد أحدثوا هم والفرنسيون ، وإخوان الكرمل وأوستن ثورة في حياة الرهبنة ، وذلك باختلاطهم بعمامة الشعب كل يوم في أثناء الخدمات الدينية ، وسموا بالرهبنة في القرن الثالث عشر فوهبوا من القوة والجبال ما لم تستمتع بمثله قبل.

وإن النظرة الشاملة إلى تاريخ الرهبنة لا تؤيد إمبراف علماء الأخلاق في مدحها ولا سخرية شائذها . وفي وسعنا أن نذكر أمثلة جمة من سوء السيرة بين الرهبان وهذه الأمثلة إنما تلفت أنظارنا لأنها الشواذ وليست القاعدة ؛ وهل منا من بلغ من الطهر والصلاح درجة يحق له معها أن يتطلب من أية طائفة من الناس حياة تقية لا تشوبها أدنى شائبة ؟ ولقد مجا الرهبان الذين بقوا مخلصين لأيمانهم

— أى الذين عاشوا مغمورين فى فقرهم ، وعفتم وتقواهم — نجا هؤلاء من الغيبة ، ومن التاريخ ؛ ذلك أن الفضيلة لا تنقل أخبارها ، وأن القراء والمؤرخين يملون تكرارها . فنحن نسمع عن « صروح شاذة » يملكها الرهبان الفرنسيسيون منذ عام ١٢٤٩ ، وفى عام ١٢٧١ أبلغ روجر بيكن — الذى طالما تفرق سامعوه من حوله لشدة مغالاته — أبلغ هذا الراهب البابا أن « الطوائف الحديثة قد سقطت سقوطاً مروعاً من علياء كرامتها الأولى » (٦٩) . ولكن هذه ليست هى الصورة التى بصورها لنا الأخ سلمين Salimbene فى أخباره الصريحة الدقيقة (١٢٨٨ ؟) فهذا هو ذا راهب فرنسيسى ينتقل بنا إلى ما وراء السجف وإلى الحياة اليومية للطائفة التى ينتمى إليها . ولسنا ننكر أن فى حياة أفرادها هفوات متفرقة ، وأن فيها شيئاً من التنازع والتحاسد ؛ ولكن جواً من التواضع ، والبساطة ، والأخوة ، والسلام يغمر هذه الحياة الشاقة المكبوتة (٧٠) . وإذا ما دخلت بين الفينة والفينة امرأة فى هذه القصة ، فكل ما لها فيها من أثر أنها تضىء مسحة من الرشاقة والحنان على حياة العزلة والضيق التى يحياها أولئك الرهبان . وها هو ذا مثل من ثرثرة الأخ سلمين الصريحة :

كان فى دير بولونيا شاب يسمى الأخ جيدو Guido اعتاد أن يغط فى نومه غطيظاً عاليا لا يستطيع معه إنسان أن يبقى معه فى نفس البيت . ولهذا امير أن ينام فى سقيفة من الخشب والقش . ولكن هذا أيضاً لم يُنَج منه الإخوان ، لأننى هزيم هذا الرعد الملعون كان يتردد صدهاء فى جميع أنحاء الدير . ولهذا اجتمع القساوسة وذوو الرأى من الإخوان على بكرة أبيهم . . . وأصدروا قراراً رسمياً أن يردوه إلى أمه التى خدعت الطائفة ، لأنها كانت تعرف هذا كله عن ولدها قبل أن تضمه إلينا . ولكنه مع ذلك لم يرسل إلى أمه ، وكان عدم إرساله بفعل الله . . . ذلك أن الأخ نقولاس قال فى نفسه : إن الغلام سيتردد لعيب طبيعى فيه ، دون

أن يرتكب هو نفسه ذنباً ، فكان يدعو الصبي في كل يوم عند مطلع الفجر أن يأتي إليه ويخدمه في ساعة القداس ، حتى إذا فرغ منه أمر الغلام أن يركع وراء المذبح يرجو أن ينال منه بعض البركة . وفي هذه الساعة يلمس الأخ نقولاس يديه وجه الغلام وأنفه ، ويدعو الله أن يمن عليه بنعمة الصحة . وبجملته القول أن الغلام شفى فجأة من مرضه شفاء تاماً ، ولم يسبب للإخوان بعدئذ متاعب أخرى . وأصبح من هذه الساعة ينام نوماً هادئاً سالماً كما تنام الزغبة(*) :

(•) وتسمى أيضاً الفأرة النومة وهي حيوان بين الفأر والسنجاب dormouse .
(المترجم)

الفصل الخامس

الراهبات

كانت العادات المألوفة في المجتمعات المسيحية منذ أيام القديس بولس أن تهب بعض الأرامل وغيرهن من النساء الصالحات ، أو اللاتي يعشن وحدهن ، بعض أيامهن وثروتهم أو كل هذه الأيام والثروة إلى أعمال البر . ثم أخذت بعض النساء في القرن الرابع ينافسن الرهبان ، فتركن شئون الدنيا وعشن عيشة دينية منفردات أو مجتمعات ، وندرن أنفسهن للفقر ، والطهر ، والطاعة ؛ حتى إذا كان عام ٥٣٠ أنشأت اسكولاستيكا Scholastica توأمة القديس بندكت ديراً للنساء بالقرب من جبل كسينو Monte Cassino يسير على دستوره وتحت إشرافه . وأخذت أديرة النساء البندكتية من ذلك الحين تنتشر في أنحاء أوروبا ، حتى كان عدد الراهبات البندكيات يضارع عدد الرهبان البندكتيين . وافتتحت طائفة الرهبان السترسيين أول دير للنساء في عام ١١٢٥ ، ثم افتتحت أشهر أديرتها كلها وهو دير پورت رويال Port Royal في عام ١٢٠٤ ، ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان في أوروبا ٧٠٠ دير مستمرى للنساء^(٧٣) . وكانت معظم الراهبات اللاتي دخلن أديرة هذه الطوائف القديمة من الطبقات العليا^(٧٤) ، وكثيراً ما كانت الأديرة ملاجئ للنساء اللاتي تضيق بهن بيوت أهلهن أو اللاتي لم يكن يوائمن أذواق هؤلاء الأهلين . ومن أجل هذا اضطر الإمبراطور مجوريان Majorian أن يحرم على الآباء التخلص من بناتهم الزائدات عن حاجتهم بإرغامهن على دخول الأديرة^(٧٥) . وكان دخول أديرة النساء البندكتية يتطلب عادة بائنة ، وإن كانت الكنيسة قد حرمت جميع الهبات إلا الاختيارية منها^(٧٥) . ولهذا

كان في وسع رئيسة الدير أن تكون ، كما كانت الرئيسة الوارد ذكرها في أشعار تشوسر Chaucer ، امرأة من أسرة عريقة ، ذات تبعات كثيرة ، تدبر أملاكاً واسعة هي مصدر إيراد ديرها ، وكانت الراهبة في تلك الأيام تسمى « السيدة » لا « الأخت » :

وأحدث القديس فرانسس انقلاباً كبيراً في نظم أديرة النساء كما أحدث انقلاباً في نظم أديرة الرجال ؛ ولما أن أقبلت عليه القديسة كلارا Clara في عام ١٢١٢ وأبدت إليه رغبتها في أن تنشئ للنساء طائفة من الراهبات كالتى أنشأها هو للرجال ، تغاضى عن النظم الكنسية ، وتلقى منها إيمانها ، وإن لم يكن وقتئذ أكثر من شماس ، وضمها إلى طائفة الرهبان الفرنسيسيين وأذن لها أن تنشئ طائفة الكلاريات الفقيرات The Poor Clares ، وأيد إنوسنت الثالث ، بما اعتاده من قدرة على خرق حرفية القوانين في سبيل روحها ، هذا الإذن (١٢١٦) . وجمعت القديسة كلارا حولها بعض النساء الصالحات اللاتي عشن معها عيشة فقيرة مشتركة ، يغزلن وينسجن ، ويعنين بالمرضى ، ويوزعن الصدقات . ونسجت حولها القصص الخرافية التي لا تكاد تقل في تمجيدها عما نسج حول فرانسس نفسه ، منها ، على حد قولهم ، أن أحد البابوات :

جاء إلى ديرها ليستمع إلى حديثها عن الأمور القدسية والسماوية ... وأمرت القديسة كلارا بأن تمد المائدة ، ووُضعت عليها أرغفة الخبز لكي يباركها الأب المقدس ... وركعت القديسة كلارا في خشوع عظيم ، وسألت أن يتفضل فيبارك الخبز ... فأجابها الأب المقدس بقوله : « أيتها الأخت يا كلير Clare ، يا أعظم النساء وفاء وإخلاصاً ، إني أحب أن تباركي أنت هذا الخبز ، وأن ترسمي فوقه علامة الصليب المقدس ، صليب المسيح ، الذى وهبت نفسك كاملة إليه » . فأجابته القديسة كلارا بقولها : « مغفرة أيها الأب المقدس ؛ لو أننى ، وأنا المرأة الفقيرة الحقيرة ، بلغت بنى الجرأة أن أنطق بهذه البركة في حضرة خليفة المسيح لحق على

أشد اللوم . ورد عليها البابا قائلا : « ولكيلا يعزى هذا العمل إلى غطرستك وجراتك بل يعزى إلى فضيلة الطاعة منك ، فإنى أمرك ، بحق ما يجب عليك من الطاعة المقدسة ، أن تباركى ... أنت باسم الله هذا الخبز » . فلم تجد القديسة كلارا وقتند مناصاً من أن تبارك الخبز في خشوع بعلامة الصليب الأقدس عملاً بواجب الطاعة المفروضة عليها . ومن أعجب الأشياء أن علامة الصليب ظهرت على جميع تلك الأرغفة مرسومة أجمل رسم . فلما رأى الأب المقدس هذه المعجزة ، طعم من الخبز وغادر المكان وهو يحمد الله ويودع بركته مع القديسة كلارا (٧٦) .

وماتت كلارا في عام ١٢٥٣ ، وما لبثت أن ضمت إلى القديسين والقديسات . ونظم الرهبان الفرنسيون في عدة أماكن مختلفة مثل هذه الطوائف **الكلارية** ، أو طوائف كلارا الفقيرة . وكذلك أنشأت طوائف الرهبان المتسولين — الدمنيكية ، والأوغسطينية ، والكرملية — طائفة ثانية من الراهبات ؛ ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد الراهبات في أوروبا لا يقل عن عدد الرهبان . ونزعت أدبرة الراهبات في ألمانيا نزعة صوفية شديدة ، وفي فرنسا وإنجلترا كثيراً ما كانت ملاجئ لنساء الأسر الشريفة اللاتي « هُدين » لترك شئون الدنيا ، أو اللاتي أصابهن الهجر ، أو الخيبة ، أو الشك . ويكشف دستور الناسكات Ancren Rwie ما كان يطلب إلى الراهبات الإنجليزيات أن يتصفن به في القرن الثالث عشر . ولربما كان الأسقف پور Poore هو الذى وضع هذا الدستور لدير نسائي في ترانت Tarrant من أعمال دورستشير Dorsetshire . ويخيم على هذا الدستور جو قاتم من الحديث الطويل عن الخطيئة والنار ، وبعض الدم التجديف لجسم المرأة (٧٧) . ولكن نعمة من الإخلاص الجميل تخفف من وقع هذا القتام ، وهو من أقدم نماذج النثر الإنجليزية وأنبليها (٧٨) .

وبعد ، فإن من السهل على الإنسان أن يجمع من عشرة قرون أمثلة رائعة

من الفساد الخلقى المؤلف . فقد دخلت بعض الراهبات الأديرة على الرغم منهن^(٧٩) ووجدن متاعب في حياة التقى والصلاح ، ولقد رأى ثيودور رئيس أساقفة كنتربرى وإجبرت أسقف يورك من الواجب عليهما أن يحكما على رؤساء الأديرة ، والقساوسة ، والأساقفة غواية الراهبات^(٨٠) .

وكتب إيفو Ivo أسقف تشارتر (١٠٣٥ - ١١١٥) يقول إن بعض راهبات دير القديسة فارا Fara يحترفن الدعارة ، ويرسم أبلار (١٠٧٩ - ١١٤٢) صورة شبيهة بهذه الصورة لبعض لأديرة الفرنسية القائمة في أيامه ؛ ووصف إنوسنت الثالث دير أجاثا Agatha بأنه ماخور انتشرت علوى فساد الحياة فيه وسوء سمعته في جميع أنحاء الإقليم المجاور له^(٨١) . ويرسم ريجو Rigaud أسقف رون (١٢٤٩) صورة طيبة بوجه عام للطوائف الدينية المنتشرة في أسقفيته ، ولكنه يتحدث عن دير من أديرة النساء فيه ثلاث وثلاثون راهبة وثلاث أخوات من غير الراهبات وجدت منهن ثمان يحترفن الفسق أو يشتهن في أنهن يحترفن ، « ولا تكاد رئيسة الدير تبتعد عن الحمر ليلة واحدة »^(٨٢) . وحاول بنيفاس الثامن (١٣٠٠) أن يرقى بقواعد الآداب التقليدية في الأديرة فأمر بالتشديد في عزلة الراهبات عن العالم ، ولكن أمره هذا لم يكن في الإمكان تنفيذه^(٨٣) ، ولما جاء الأسقف ليودع هذا القرار في أحد أديرة النساء في أسقفية لنكلن Lincoln قذفت الراهبات به رأسه ، وأقسمن أنهن لن يطعنه قط^(٨٤) ، وأكبر الظن أن هذه العزلة لم تكن مما نص عليه في قسمهن ، ولم يكن لرئيسة الدير الواردة في أفاصيص تشوسر عمل تقوم به لأن الكنيسة حرمت على الراهبات أن يخرجن حتى للحج^(٨٥) .

ولأن التاريخ كان يعنى بذكر أمثلة الطاعة للقواعد المألوفة عنايته بذكر الأمثلة التي تخرق فيها هذه القواعد ، لاستطعنا في أغلب الظن أن نذكر في مقابل كل زلة آتمة ألف مثل من الإخلاص والأمانة . ولقد كانت دساتير الأديرة في كثير من الحالات قاسية شدة تخرجها عن طاقة البشر ، وكانت خليفة

(١١ - ج ٥ - مجلد ٤)

بالخروج عليها . من ذلك أنه كان يتطلب إلى الراهبات الكرنوزيات ،
والسترسيات أن يلتزم الصمت فلا يتكلمن إلا إذا لم يكن من الكلام
بد - وذلك قيد شديد على الجنس اللطيف . وكانت الراهبات في العادة
يقمن بجميع ما يحتاجه من أعمال التنظيف ، والطبخ ، والغسل ،
والخياطة ؛ ويصنعن الملابس للراهبان ، والفقراء ، والأغذية التالية
للمذبح ، وأثواب القسس ؛ وكنّ ينسجن السجف ، والأقشة التي تزين
بها الجدران ، ويتقشن عليها بأصابعهن الرقيقة ، ونفوسهن الصابرة ،
نصف تاريخ العالم . وكنّ ينسجن المخطوطات ويزينها بالرسوم والحروف
الكبيرة الجميلة ويقبلن الأطفال للإقامة في الدير ، ويعلمنهم الأدب ،
وقانون الصحة ، والفنون المنزلية ، وكانت كثيرات منهن يعملن ممرضات
في المستشفيات ، وكنّ يقمن في منتصف الليل ليصلين ، ثم يقمن مرة
أخرى قبل الفجر ، ويتلون الصلوات الأخرى في ساعاتها المحددة . وكانت
أيام كثيرة أيام صوم ، لا يذقن فيها الطعام حتى تحين وجبة المساء .

ولما لنا أمل أن تكون هذه القواعد الشديدة قد خرقت أحياناً . ونحن إذا
ما رجعنا بعقولنا إلى القرون التسعة عشر التي عاشتها المسيحية ، وإلى
من فيها من الأبطال ، والملوك ، والقديسين ، صعب علينا أن نخصي
كثيرين من الرجال الذين اقتربوا من الكمال المسيحي كما اقتربت منه
الراهبات ؛ وما أكثر الأجيال التي سعدت بفضل حياتهن التي تفيض
بالخشوع الهادي والعمل في ابتهاج لخدمة بني الإنسان . ولو أن آثام
التاريخ جميعها وزنت أمام فضائل أولئك النساء لرجحتها هذه الفضائل
ولكفرت عن كل ما اقترفه الجنس البشري من ذنوب .

الفصل السادس

المتصوفة

واستطاعت كثيرات من أولئك النساء أن تكن قديسات لأنهن أحسن بالالوهية أقرب إليهن من أيديهن وأرجلهن . وقد تأثرت أخيلة الناس في العصور الوسطى بكل ما كان للألفاظ ، والصور ، والتماثيل ، والحفلات ، من قوة ، بل تأثرت فوق هذا بلون الضوء ومقداره تأثراً جعل الروى غير الحسية تتوارد سراعاً على هذه الأخيلة ، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . وكان العقل البشرى نفسه بكل ما له من سلطان غامض خفى يبدو كأنه شيء خارق للطبيعة ، وللأشياء الأرضية ، وقريب بلا ريب من العقل الكلى الذى يسير مادة العالم ويمكن فيها - أو أنه صورة من هذا العقل الكلى غير واضحة المعالم . وعلى هذا فإن فى مقنور ذروة العقل أن تلمس أسفل عرش الله . وكان الصوفى الخاشع المتذلل الطموح يتخرق أملاً فى أن تسمو روحه غير المثقلة بالذنوب ، والتي علت بالصلوات ، بفضل الله ونعمته إلى الروى الطوباوية والصحبة الإلهية ، ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الروى عن طريق الحس ، أو العقل ، أو العلم ، أو الفلسفة المقيدة بالزمان ، وبالكثرة ، وبالأرض ، ولا تستطيع أن تصل إلى لب الكون وقوته ، ووحدته . وكانت المشكلة التى يواجهها الصوفى هى أن يطهر النفس التى هى عضو داخلى للإدراك الروحى ، وأن يوسع أفقها وجها حتى تشمل أقصى ما يمكن أن تشمله ، فإذا تم لها ذلك رأت بقوة البصر الواضحة المجردة من الجسم معالم الكونية ، والخلد ، والالوهية ؛ ثم عادت ، وكأنها عادت من نبي طويل المدى ، إلى الوحدة مع الله الذى افرقت منه حين ولدت عقاباً لها . ألم يعد المسيح ذوى القلوب الطاهرة أن يروا الله ؟

ولهذا ظهر الصوفيون في كل عصر ، وفي كل دين ، وفي كل أرض ، وامتلات بهم المسيحية اليونانية رغم ما خلفه اليونان من تراث عقلي ؛ وكان القديس أوغسطين ينبوع التصوف الذى نهل منه الغرب ، وكانت اعترافاته بمثابة عودة الروح من الكائنات المخلوقة إلى الله . وقلم استطاع إنسان أن يطول تحدّثه إلى الذات العلية كما طال تحدّث أوغسطين إليها . وقد ناصر القديس أنسلم السياسى والقديس برنار المنظم ، ذلك الاتصال الصوفى ليقاوما به النزعة العقلية التى كان يقول بها روسلن Roscelin وأبلار . ولما أخرج وليم الشمبوى Wiliam of Champeaux من باريس بقوة منطق أبلار أنشأ فى إحدى ضواحيها (١١٠٨) دير القديس فكتور St. Victor الأوغسطينى ليكون مدرسة للاهوت ؛ وتجاهل خليفته هيو Hugh ورتشرد Richard خطر الفلسفة الناشئة الداهم ، فلم يقيم قواعد الدين على الحجّة والبرهان ، بل أقامها على الإحساس الصوفى بالحضرة الإلهية . فقد كان هيو (المتوفى عام ١١٤١) يرى فى كل صورة من صور الخلق رمزاً فلسفياً ، وكان رتشرد (المتوفى عام ١١٧٣) يرفض المنطق والعلم ، ويؤثر « القلب » على « الرأس » على طريقة بيسكال ، ويصف بمنطق العالم القدير السمو الصوفى للروح إلى مقام الذات العلية .

وأحالت عواطف إيطاليا القوية هذه النزعة الصوفية ثورة متأججة . وحدث أن تأقت نفس يواقيم الفلورائى Joachim of Flora — أو جيوفنى دى يواقيمى دى فيورى Giovanni dei Joacchimi di Fiori — أحد نبلاء كلابريا Calabria إلى رؤية فلسطين ، وتأثر بما شاهده فى طريقه من بوّس الناس ، فصرف حاشيته ، وواصل سيره كما يسير الحاج الدليل . وتقول إحدى القصص إنه قضى فى سنة من السنين الصوم الكبير كله على جبل طابور ، وأن حالة عظيمة تبدت له فى يوم عيد القيامة ، وملأته نوراً إلهياً فهم به لساعته كل ما جاء فى الكتاب المقدس ، وكل ما فى المستقبل والماضى . فلما عاد إلى كلابريا أصبح راهباً وقسا مسترسياً ،

وتأقت نفسه إلى الزهد والتششف ، وآوى إلى صومعة . والتف حوله عدد من الأتباع والمريدين ، وألف منهم طائفة جديدة من رهبان فلورا . وصدق سلسين الثالث Calistine III على ما وضعه لهم من دستور للفقير والصلاة . وبعث إلى إنوسنت فى عام ١٢٠٠ بطائفة من مؤلفاته قال إنه كتبها بوحي من الله ، ولكنه رغم هذا يضعها بين يدى البابا ليحفظها ويبدى رأيه فيها . ثم مات بعد سنتين من ذلك الوقت .

وكان أساس كتابته هو النظرية الأوغسطينية - التى كانت تلقى قبولا عظيما لدى جميع المتمسكين بالدين القويم - القائلة بأن هناك توافقا رمزيا بين الحوادث الواردة فى العهد القديم وفى تاريخ العالم المسيحى من مولد المسيح إلى قيام مملكة السماء على الأرض . وقسم يواقيم تاريخ البشر ثلاث مراحل : كانت أولها تحت حكم الله الأب وانتهت بمولد المسيح ، والثانية يحكمها الابن وتستمر وفقاً للحساب السرى ١٢٦٠ سنة ، والثالثة تحت حكم الروح القدس ، ويسبقها عهد من الاضطراب ، والحرب ، والفقير ، وفساد الكنيسة ، ويؤذن بحلولها قيام طائفة جديدة من الرهبان تطهر الكنيسة وتحقق طوبى عالمية من السلام والعدالة والسعادة (٨٦) .

وصدق آلاف من المسيحيين ، ومنهم رجال ذوو مناصب عالية فى الكنيسة ، ما قاله يواقيم عن الوحي الذى أوحى إليه ، وأخذوا يتطلعون والأمل يغمر قلوبهم إلى الميلاد الثانى فى عام ١٢٦٠ . وبعثت تعاليم يواقيم الشجاعة فى قلوب الفرنسيسيين الروحيين الذين كانوا يوقنون بأنهم هم الطائفة الجديدة ، ولما أن أعلنت الكنيسة أنهم خارجون على القانون واصلوا دعوتهم بما أذاعوه من الكتابات التى تحمل اسمه . وظهرت فى عام ١٢٥٤ مجموعة من أهم مؤلفات يواقيم بعنوان الانجيل الخالد وعليه تعليق يقول : إن بابا من البابوات ملوثا ببيع المناصب الكهنوتية سيكون

خاتم العهد الثانى ، وإن الحاجة إلى العشاء الربانى وإلى القساوسة تنتهى فى العهد الثالث حين يسود الحب العالمى . وحرمت الكنيسة قراءة هذا الكتاب ، وحكم على راهب فرنسيه يدعى جراردو دا بورجا Gherards da Borga ظن أنه هو مؤلفه بالسجن مدى الحياة ؛ ولكن الكتاب ظل يتداول سرا ، وكان له أثر بالغ فى التفكير الصوفى وفى تفكير الطوائف الضالة فى إيطاليا وفرنسا من أيام فرانسس إلى أيام دانتي - الذى جعل ليو اقيم مكاناً فى الجنة .

وتأججت حول بروصة فى عام ١٢٥٩ سورة جنونية من الندم والتوبة من الذنوب واكتسحت شمالى إيطاليا ؛ ولعل الباعث عليها كان هو التحمس الشديد فى ترقب حلول مملكة السماء . وأخذ آلاف من القادمين من مختلف الطبقات والأعمار يسرون فى مواكب غير منتظمة وليس عليهم من الثياب إلا ما يستر حقوبهم ، ييكون ويرجون الله الرحمة ، ويضربون أنفسهم بسياط من الجلد . وانضم إلى هذه المواكب اللصوص والمرابون وردوا ما كسبوا من المال الحرام ، متأثرين بعدوى الندم ، فكانوا يركعون أمام أقارب ضحاياهم ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ؛ وأطلق سراح المسجونين ، وطلب إلى المنفيين أن يعودوا إلى أوطانهم ، وزالت العداوات بين الناس وصفت القلوب . وسرت هذه الحركة من ألمانيا إلى بوهيميا ، وخيل إلى الناس وقتنا ما أن إيماننا جديداً صوفياً سيغمر أوروبا بأجمعها متجاهلاً الكنيسة . ولكن فطرة الإنسان ما لبثت أن استعادت قوتها ، فتأججت نار العداوة بين الناس مرة أخرى ، وخبت نار تلك السورة الجنونية ، سورة الجلد بالسياط ، واختفت فى الأعماق النفسية التى خرجت منها (٨٧) .

وفى فلاندرز سارت حركة التصوف سراً هادئاً متصلاً . ذلك أن قسا من لبيج يدعى لامبير له بيج Lambert le Beuge (أى المتهمة) أنشأ على ضفاف نهر الموز Meuse فى عام ١١٨٤ بيتاً للنساء اللاتى يردن أن يعشن معاً فى

جماعات صغيرة نصف شيوعية ، دون أن يقسمن أيمان الرهبنة ، ويعلن أنفسهن ينسج الصوف وعمل الخمرات . وأنشئت للرجال طائفة أخرى من سيوت الله ماثلة لهذا البيت ، وأطلق الرجال على أنفسهم اسم (البيجارد Beghard) أى الرجال المتهمين وعلى النساء اسم البجوين (أى المتهمات) . وكانت هذه الجماعات تندد بالكنيسة ، كما يندد بها الولدنيون ، لافتنائها الأملاك ، وسلوكوا هم أنفسهم سبيل الفقر الاختيارى . وظهرت فى أجزبرج عام ١٢٦٢ شعبة أخرى هى شيوعية إخوان الروح الحر وثبتت أصولها فى المدن القائمة على ضفاف نهر الرين . وكانت كلتا الحركتين تدعى أنها تتلقى الوحي الصوفى الذى يعفيا من سيطرة الكهنوت ، بل يعفيا فوق ذلك من سيطرة الدولة والقانون الأخلاقى (٨٨) . وتضافرت الدولة والكنيسة على قمع الحركتين ، فاندفعتا إلى العمل فى الخفاء ، وكانتا تظهران للعمل جهره عدة مرار بأسماء جديدة ، وكانتا من أسباب نشأة شيعة المنكرين للتعميد وغيرها من الشيع المتطرفة التى ظهرت فى أيام الإصلاح الدينى ومنبعثوا روح الحماسة فى هذه الشيع .

وصارت ألمانيا أرض التصوف المحبوبة فى بلاد الغرب ، فقها عاشت هلدجارد البنجنية Hildegard of Bingen (١٠٩٩ — ١١٧٩) « سييلة الرين » the Sibyl of the Rhine كل حياتها البالغة اثنتين وثمانين عاما ، عدا عامين اثنتين ، راهبة بندكتية ، واختتمتها رئيسة دير للنساء على روبرتسبرج Rupertsburg . وكانت مزيجا غير مألوف من حسن الإدارة والروى الخيالية ، تقية ومتطرفة ، شاعرة وعالمة ، طيبية وقديسة ، وكانت تراسل البابوات والملوك ، وتكتب إليهم دائما بنعمة صاحبة السلطان الملهم ، فى لغة لاتينية رصينة قوية لغة الرجال . وقد نشرت عدة كتب فى الروى الدينية (Scivias) ادعت فيها معاونة الذات العلية ، وكان رجال الدين يغضبون حين يستمعون إليها لأن حديثها الملهم كان نقداً لاذعا لثراء الكنيسة وفسادها . قالت هلدجارد بعبارات تفيض بالآمال الخالدة .

إن للعدالة الإلهية ساعتها المحدودة ... وإن أحكام الله لتوشك أن تنفذ ؛
ومستنهار الإمبراطورية والبابوية معاً بعد أن ترديا في هوة الإلحاد ...
ولكن أمة جديدة ستقوم على أنقاضهما .. وستضم الوثنيين ، واليهود ،
وعبياد الدنيا ، والكفرة جميعاً ، وسيسود العالم ربيعُ الدهر والسلام بعد
مولده الجديد ، ويعود الملائكة وهم واقفون إلى السكنى بين الآدميين^(٨٩) .
وبعد مائة عام من ذلك الوقت أثارت إصابات الثورنجنائية (١٢٠٧ -
١٢٣١) بلاد المجر بحياتها القصيرة التي قضتها زاهدة متبثلة . وإصابات
هذه ابنة الملك اندرو Andrew وقد تزوجت وهي في الثالثة عشرة من
عمرها بأمر ألماني ، وكانت أمّاً في الرابعة عشرة ، وأرملة في سن العشرين .
ونهب أخوزوجها مالها وطردها في فقر مدقع ؛ فلجأت إلى حياة الورع
والتجوال ، ووهبت حياتها للفقراء ، وكانت تؤوى النساء المصابات بالجذام ،
وتغسل جروحهن . وكانت هي الأخرى تترأى لها رؤى سماوية ،
ولكنها لم تكن تذيعها ، ولم تدع لنفسها أية قوى خارقة ولما التقت
بكنراد الماربرجي Conrad of Marburge عضو محاكم التحقيق الشرس
افتتنت افتتاناً وببلا بقسوته في إخلاصه للدين ، فأضحت جاريته
المطبعة ، يضربها إذا حادت قيد شعرة عما يعتقد أنه هو الصلاح والتقى ،
فكانت تخضع له خضوع الأذلاء ، وتفرض على نفسها ضرباً شديداً من
التشفي عجلت منيتها ولما تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها^(٩٠) . وبلغ من
اشتهارها بالتقوى أن من كان يسير في جنازتها من أتباعها المخلصين الذين كادت
تذهب النشوة بعقولهم قصوا شعر رأسها ، وقطعوا أذنها ، وحامتي ثدييها ليتخذوها
مخلفات مقدسة^(٩١) . ودخلت إصابات أخرى الدير النسائي البندكتي في شنو
Schonau القرية من بنجن وهي في الثانية عشر من عمرها (١١٤١) ،

وعاشت فيه حتى توفيت في عام ١١٦٣ . وكان ضعفها الجسمي ، وإسرافها في زهداها يسببان لها نوبات من الإغماء ، تنلقى فيها إلهاماً من مختلف الأولياء المتوفين ، كلهم تقويماً من المعادين للكنيسة . ومما قاله لها ملكها الحارس « إن كرامة الله قد ذهبت ، وإن رئيس الكنيسة لمريض ، وإن أعضاءها لأموات ... أى ملوك الأرض ! إن ظلمكم الصارخ قد ارتفع دويه حتى وصل إلىّ أنا نفسى » (٩٢) .

وعلت موحة التصوف في أواخر ذلك العهد في ألمانيا ، وكان من متصوفها مستر إكهارت Meister Eckhart الذى وُلد حوالى عام ١٢٦٠ ، والذى نضجت آراؤه الصوفية في ١٣٢٦ ، والذى حوكم وتوفى في عام ١٣٢٧ . وواصل تلميذاه سوسو Suso وتولر Tauler دعوته إلى وحدة الوجود الصوفية ، وكانت هذه التقاليد ، تقاليد التقوى غير الكنسية ، أحد البنايع التى قاضت منها حركة الإصلاح الدينى .

وكانت الكنيسة في العادة تحمل هؤلاء المتصوفين وتقبلهم في كنفها . نعم إنها لم تكن تسمح بأن يخرج أحد خروجاً خطيراً عن قواعدها الرسمية ، أو يجيز الفردية الفوضوية التى تدعو إليها بعض الشيع الدينية ، ولكنها كانت ترضى عن قول الصوفية إنهم يتصلون اتصالاً مباشراً بالله عز وجل ، وتستمتع في غير غضب إلى تنديد الأولياء بأخطائها الآدمية . وكان كثيرون من رجال الدين ، ومهم ذوو المناصب العالية في الكنيسة ، يعطفون على ناقدتهم ، ويعترفون بما في الكنيسة من عيوب ، ويتمنون أن لو استطاعوا هم أيضاً أن يتخلوا عن الأدوات والأعمال التى يضطلعون بها في الشئون السياسية الدنيوية وما فيها من أدران تلوثهم ، ويستمتعوا بما في الأديرة من طمأنينة وسلام ، يطعمون من تقوى

الشعب ، ويحميهم سلطان الكنيسة . ولعل هؤلاء الصابرين من رجال الكنيسة هم الذين ثبتوا قواعد الدين المسيحي بين زعازع الإلهام الجنوني التي كانت تهدد العقول في المصور الوسطى بأشد الأخطار من حين إلى حين . وكلما أمعنا في دراسة أقوال متصوفة القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لاح لنا أن الاستمسك بأصول الدين القويم كثيراً ما كان هو الواقي من انتشار الخرافات المعديّة ، وأن الكنيسة من إحدى النواحي عقيدة — كما كانت الدولة قوة — أخرجت من الفوضى نظاماً ليحافظ على سلامة عقول الناس .

الفصل السابع

البابا المنكود

لما ارتقى جريجورى الثانى عرش البابوية فى عام ١٢٧١ كانت الكنيسة مرة أخرى فى عنفوان قوتها . ولم يكن جريجورى بابا فحسب ، بل كان إلى هذا مسيحياً متمسكاً بأداب المسيحية : كان رجل سلام ومحبة ، ينشد العدالة لا النصر . وكان يأمل أن يسترد فلسطين بجهد واحد جامع ، فأقنع البندقية ، وجنوى ، وبولونيا بأن تضع حداً للحروب القائمة بينها ، وعمل على إن يختار رودلف هابسبرج Rudolf of Hapsburg إمبراطوراً ، ولكنه خفف بلطفه ورقته غضب المهزومين من المطالبين بالعرش ، ووفق بين طائفتى الجلف Guelf والجيلين Ghibelline فى فلورنس وسينا المنقسمتين على نفسيهما ، وقال لمؤيديه من الجلف « إن أعداءكم جيلينيون ولكنهم مع ذلك رجال ، ومواطنون ، ومسيحيون » (٩٣) . ودعا أحرار الكنيسة الى مجلس يعقد فى ليون (١٢٧٤) ؛ وجاءه فى عام ١٥٧٠ زعماء الكنيسة وأرسلت كل دولة عظمى ممثلاً لها ، وبعث إمبراطور الروم برؤساء الكنيسة اليونانية ليؤكد من جديد خضوعها إلى الكرسي البابوى فى رومة وأنشد رجال الدين اللاتين واليونان معاً نشيد الفرح والغبطة . ودُعِى الأساقفة أن يتقدموا بما فى الكنيسة من عيوب تحتاج إلى الإصلاح ، فلبوا الدعوة فى صراحة منقطعة النظير (٩٤) ، وسنت القوانين التى أريد بها تخفيف حدة هذه الشرور . واتحدت أوربا كلها اتحاداً رائعاً لتقوم بمجهود موحد ضد المسلمين . ولكن جريجورى مات وهو عائد إلى رومة (١٢٧٦) وشغلت السياسة الإيطالية خلفاءه فلم يستطيعوا تنفيذ ما وضعه من خطط .

ومع هذا فإنه لما اختير بنيفاس الثامن بابا فى عام ١٢٩٤ كانت البابوية

لا تزال أقوى الحكومات الأوروبية ، وأحسنها تنظيماً ، وخيرها إدارة ، وأنماها موارد . وكان من سوء حظ الكنيسة ، في هذا الوقت العصيب الذى أوشك أن ينجتّم به قرن من القوة والتقدم ، أن جلس على أقوى العروش فى العالم المسيحى رجل كان له من فساد الخلق ، والخطرة الشخصية ، والحرص على السلطان حرصاً خالياً من الكياسة ، بقدر ما كان له من حب الكنيسة ، وإخلاص فى المقصد . ولم يكن هذا الرجل خلواً من الفضائل الفاتنة : فقد كان محباً للعلوم ، يضارع إنوسنت الثالث فى تجاربه القانونية ، وثقافته الواسعة ؛ أنشأ جامعة رومة ، وأعاد مكتبة الفاتيكان ووسع نطاقها ، وعين جيتو Giorro وأرنلفو دى كبيو Arnolfo di Cambio فى مناصب عالية ، وساعد بما له على إنشاء واجهة كنيسة أرفيتو Orviero الرائعة المدهشة .

وكان قد مهد السبيل لتسليمه عرش البابوية بأن أقنع سلسلتين الخامس Celestine V الورع العاجز أن ينزل عن العرش بعد أن جلس عليه خمسة أشهر — وكان هذا عملاً لم يسبق له مثيل من قبل . وأحاط ببنيفاس من بادئ الأمر بالبغض منذ البداية . وأراد أن يحبط كل ما عساه أن يدبر من خطط لإعادة سلسلتين ، فأمر بأن يحجز هذا الشيخ البالغ من السن ثمانين عاماً فى رومة ؛ ولما فر سلسلتين ، قبض عليه ، ثم فر مرة ثانية ، وقضى عدة أسابيع يحول فى أنحاء أبوليا ، حتى وصل إلى البحر الأدريائى ، وحاول أن يعبره إلى دمياط ، ولكن القارب الذى كان يركبه تحطم به ، وقذفه البحر إلى إيطاليا وجيء به أمام بنيفاس ، وحكم عليه البابا بالسجن فى حجرة ضيقة فى فرنتينو Ferentino ، ومات بها بعد عشرة شهور من بداية سجنه (١٢٩٦) (٩٥) .

وكان مما زاد طبع البابا الجديد حدة أن أصيب بسلسلة متتابعة الحلقات من الهزائم الدبلوماسية والانتصارات الكثيرة الأكلاف . فقد حاول أن يثنى فرديريك صاحب أرغونة عن قبول عرش صقلية ، ولما أصر فرديريك على قبوله

حرمه بنيفاس ، وأصدر قرار التحريم على الجزيرة (١٢٩٦) . ولم يبال الملك ولا الشعب بهذا العقاب^(٩٦) ، واضطر بنيفاس في آخر الأمر أن يعترف بفردريك . وأعد العدة لحرب صليبية بأن أمر البندقية وجنوى بعقد هدنة ، ولكنهما رفضتا توسطه في الصلح وواصلتا الحرب ثلاث سنين أخرى ، ولما عجز عن أن يقيم في فلورنس نظاماً يوافق مصالحه أصدر قراراً بحرمان المدينة ، ودعا شارل صاحب قالوا أن يدخل إيطاليا ويهدئها (١٣٠٠) . ولم يفلح شارل إلا في كسب حقد الفلورنسيين عليه وعلى البابا .

وأراد بنيفاس أن يبسط راية السلم في ولاياته البابوية فحاول أن يفرض النزاع القائم بين أعضاء أسرة كولنا Colonna القوية ؛ ولكن پيترو Pietro وجاكوپو Jacopo ، وكلاهما كردينال ، رفضاً عروضه ففصلهما ، وحرهما من الدين (١٢٩٧) ، فما كان من الكردينالين المتمردين إلا أن علقا على أبواب الكنائس الرومانية ، ووضعاً على مذبح القديس بطرس ، منشوراً يطلبان فيه إلى البابا أن يدعو مجلساً كنسياً عاماً . وكرر بنيفاس قرار الحرمان ، وضم فيه إليهما خمسة آخرين من الخارجين عليه ، وأمر بمصادرة أملاكهما ، وغزا أملاك أسرة كولنا بالجيوش البابوية ، واستولى على حصونها ، ودك أبنية فلسطينا Palestina ، وأمر بنثر الملح فوق خرباتها . واستسلم العصاة ، وعفا عنهم ، ثم ثاروا مرة أخرى وهزمهم جيوش البابا للمرة الثانية ، وفروا من الولايات البابوية ، وأخذوا يدبرون خطط الانتقام .

وبينا كان بنيفاس يلاقى هذه المحن في إيطاليا إذ واجهته على حين غفلة أزمة شديدة في فرنسا . فقد اعتزم فليب الرابع أن يوحد مملكته ، فاستولى على ولاية غسقونية الإنجليزية ؛ وأعلن إدورد الأول عليه الحرب (١٢٩٤) ؛ وأراد كلا الملكين أن يجمع المال الذى يستعين به على قتال عدوه ، فقررا أن يفرضا الضرائب على أملاك الكنيسة ورجالها . وكان البابوات قد أذنوا بفرض هذه الضرائب للاستعانة بها في الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يأذنوا بها قط لإنفاقها

فى حرب زمنية خالصة . كذلك كان رجال الدين الفرنسيون قد اعترفوا بأن من واجبهم أن يشتركوا بالمال فى الدفاع عن الدولة التى تحمى أملاكهم ، ولكنهم كانوا يخشون أنه إذا أطلق حق الدولة فى فرض الضرائب من كل قيد ، أصبح ذلك قوة فى يدها تستخدمه للهدم . وكان فليب قد أضعف من قبل مكانة رجال الدين فى فرنسا ؛ فقد أخرجهم من المحاكم الإقطاعية والملكية ، ومن مناصبهم القديمة فى الإدارة الحكومية وفى مجلس الملك . وأزعج هذا الاتجاه الرهبان النسترسيين فنعوا عن فليب خمس إيرادهم الذى طلبه ليستعين به فى حرب لإنجلترا ، وبعث رئيسُ الجماعة يستنجد بالبابا . وكان لابيد لبنيافاس أن يسير بحذر لأن فرنسا كانت من زمن بعيد أقوى عماد للبابوية فى كفاحها مع ألمانيا والإمبراطورية ، ولكنه أحس بأن الأساس الاقتصادى لسلطان الكنيسة وحريتها لن يلبث أن ينهار إذا ما انتزع منها إيرادها بفرض ضرائب من قبل الدولة على أملاك الكنيسة دون موافقة البابا . ولهذا أصدر فى شهر فبراير من عام ١٢٩٦ مرسوماً بابوياً يعد من أشهر ما أصدره البابوات من مراسيم فى التاريخ الكنسى كله ، وسمى هذا المرسوم بالكلمتين الأولين منه Clericis laicos ، وكانت جملة الأولى اعترافاً غير حكيم ، وكانت نغمته تذكر قارئه بصواعق جريجورى السابع :

يقول الأقدمون إن العلمانيين شديداً العداء لرجال الدين ؛ ونجاربنا لا تترك مجالاً للشك فى صدق هذا القول فى الوقت الحاضر . . . وإنا لنقرر بعد استشارة إخواننا ، وبمقتضى سلطتنا الرسولية أنه إذا أدى أحد من رجال الدين . . . إلى إنسان من العلمانيين . . . أى جزء من إيراده أو أملاكه . . . بغير إذن من البابا ، عرض نفسه للحرمان من الدين . . . ونقرر أيضاً أن كل إنسان أياً كانت سلطته أو مرتبته يطلب هذه الضرائب أو يتسلمها ، أو يغتصب أملاك الكنائس أو رجال الدين ، أو يتسبب فى اغتصابها . . . يتعرض بذلك للحرمان (٩٧) .

أما فيليب فكان قوى الاعتقاد بأن ما للكنيسة في فرنسا من ثروة عظيمة يجب أن تتحمل نصيبها في نفقات الدولة ، ولهذا عارض مرسوم البابا بأن حرم تصدير الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والطعام ، وبأن حرم التجار أو المبعوثين الأجانب البقاء في فرنسا . وحالت هذه الإجراءات دون وصول المال إلى البابوية من أهم مصادر إيراداتها ، وأخرجت من فرنسا عمال البابا الذين كانوا يجمعون المال لحرب صليبية في الشرق . ولهذا نكص بنيفاس في مرسومه *ineffabilis Amor* (سبتمبر عام ١٢٩٦) ، ووافق على تبرع رجال الدين بالمال مختارين في سبيل الدفاع الضروري عن الدولة ، واعترف بحق الملك في أن يقرر هو هذه الضرورة . وألغى فيليب أوامره الانتقامية ، وارتضى هو وإدورد أن يكون بنيفاس - لا بوصفه بابا ، بل بوصفه شخصاً عادياً - حكماً في النزاع القائم بينهما . وحكم بنيفاس لصالح فيليب في معظم أوجه النزاع ، وخضعت إنجلترا لحكمه إلى حين ، واستمتع المحاربون الثلاثة بفترة قصيرة من السلم .

وقرر بنيفاس أن تكون سنة ١٣٠٠ سنة عيد ، ولعله أراد بذلك أن يعلأ الخزانة البابوية ، بعد أن نقصت إيراداتها من إنجلترا وفرنسا ، أو لعله أراد أن يجمع المال اللازم لحرب يستعيد بها صقلية بوصفها إقطاعية بابوية . ولحرب أخرى يوسع بها الولايات البابوية حتى تشمل تسكانيا (٩٨) . ونجح في هذه الخطة نجاحاً تاماً ، فلم تشهد رومة من قبل جموعاً كالتى شهدتها في ذلك الوقت . وفرضت حينئذ ، ولعلها فرضت للمرة الأولى ، قواعد المرور للإشراف على حركات الناس (٩٩) . وأحسن بنيفاس ومساعدوه إدارة شئون المدينة فجلبوا إليها الطعام موفوراً وبيع فيها بأثمان معتدلة تحت إشراف البابا ورجاله . وكان من المزايا التى استمتع بها البابا أن الأموال الكثيرة التى جمعت بهذه الطريقة لم تكن مخصصة لغرض بالذات ، بل كان فى وسعه أن يستخدمها كما يشاء . وبلغ بنيفاس وقتئذ ذروة مجده رغم ما ناله من أنصاف الانتصارات وما أحاق به من الهزائم المنكرة

لكن المنفيين من آل كولنا كانوا في هذا الوقت عينه يسلون فليب
بقصص عن شره البابا وظلمه ، وضلالاته الشخصية الخفية . ثم حدث
نزاع بين أعوان فليب وبرنارد سيسر Bernard Saisser المندوب البابوى .
وقبض على المندوب لاتهامه بأنه يخرض على الفتنة ، وقدم للمحكمة
الملكية ، وأدين ، ووضع تحت حراسة رئيس أساقفة نربونة (١٣٠١) .
وارتاع بنيفاس للسرية التى حوكم بها مندوبه ، فطلب أن يطلق سراح
سيسر على الفور ، وأمر رجال الدين الفرنسيين أن يمتنعوا عن تسليم
الإيرادات الكنسية للدولة ، ثم طلب إلى فليب فى مرسومه المسمى
« *Ausculat filii* » (ديسمبر سنة ١٣٠١) أن يستمع فى خشوع
إلى خليفة المسيح بوصفه الملك الروحى على جميع ملوك الأرض ؛ واحتج
على محاكمة رجل من رجال الدين أمام محكمة مدنية ، وعلى الاستمرار فى
استخدام أموال الكنيسة فى الأغراض غير الدينية ، وأعلن أنه سيدعو
الأساقفة ورؤساء الأديرة فى فرنسا ليتخذوا الإجراءات « الكفيلة بالمحافظة
على حريات الكنيسة وبإصلاح المملكة وتقويم الملك » (١٠٠) . وحينما عرض
المرسوم على فليب ، اختطفه كونت أرتوا Artois من يدى رسول البابا
وألقاه فى النار ، وصودرت نسخة منه كانت معدة لأن ينشرها رجال
الدين الفرنسيون . وثارت ثائرة الطرفين حين نشرت وثيقتان زائفتان قيل
إن إحداهما صادرة من بنيفاس إلى فليب تطلب إليه أن يطيعه فى كل الشئون
حتى الزمنية منها ، والأخرى من فليب إلى بنيفاس تُبَلِّغ « حماقتك العظيمة
أننا لانخضع لإنسان ما فى الشئون الزمنية » وسرعان ما ساد الاعتقاد بأن
هاتين الوثيقتين المزورتين صحيحتان (١٠١) .

وفى اليوم الحادى عشر من فبراير سنة ١٣٠٢ حرق مرسوم « *Ausculat filii* »
يا ولوى » رسميا فى باريس فى حضرة الملك وجمهور كبير . وأراد فليب أن يستبق
المجلس الكنسى الذى يريد بنيفاس عقده فدعا الطبقات الثلاث فى مملكته

إلى الاجتماع في باريس في شهر إبريل . وكتبت كل طبقة بمفردها من طبقات الأمة الثلاث - الأشراف ، ورجال الدين ، والعامّة - في هذا المجلس ، مجلس الطبقات ، الأول من نوعه في تاريخ فرنسا ، كتبت كل طبقة إلى رومة تدافع عن الملك وعن سلطته الزمنية ، وحضر نحو أربعة وخمسين من المطارنة الفرنسيين مجلس رومة الذي عقد في شهر أكتوبر من عام ١٣٠٢ على الرغم من حظر فليب ومصادرة أملاكهم . وأصدر هذا المجلس القرار المسمى Unamsanctum الذي حدد فيه مطالب البابوية تحديداً صريحاً صراحة تلفت الأنظار . وجاء في هذا المرسوم أنه لا توجد إلا كنيسة واحدة لا نجاة لأحد في خارجها ، وأن ليس للمسيح إلا جسد واحد له رأس واحد لا رأسان ، وأن هذا الرأس هو المسيح ومثله البابا الروماني ، وأن هناك سيفين أي قوتين القوة الروحية والقوة الزمنية ؛ الأول تحمله الكنيسة ، والثاني يحمله الملك نائباً عن الكنيسة ، ولكنه يحمله تبعاً لإرادة القس ويأذن منه . والسلطة الروحية فوق السلطة الزمنية ، ومن حقها أن ترشدها إلى أسنى غاياتها ، وأن تحاكمها إذا ارتكبت إثماً . واختتم المرسوم بالعبارة الآتية : « ونعلن ، ونحدد ، وننطق بأن من الضروري للنجاة أن يخضع الناس جميعاً للرئيس الديني الروماني » (١٠٢) .

وكان رد فليب أن دعا جمعيتين إلى الانعقاد (في شهرى مارس ويونية من عام ١٣٠٣) وأن أصدرت الجمعيتان وثيقة اتهم فيها بنيفاس رسمياً بأنه ظالم ، وساحر ، وكافر (١٠٣) ، وطلبت أن يخلعه مجلس عام للكنيسة . وبعث الملك ولیم نوجارت William Nogaret كبير رجال القانون عنده إلى رومة ليبلغ البابا ما يطلبه الملك من دعوة مجلس عام . وكان البابا وقتئذ في القصر البابوي بأناني Anagni فأعلن أن البابا وحده هو الذي يحق له أن يدعو مجلساً عاماً ، وأعدّ مرسوماً يحرم فيه فليب ويصب اللعنة على فرنسا . وقبل أن يصدره سار ولیم نوجارت وسيارا كولنا Siarra Colonna على رأس ألفين من الجنود المرتزقة

واقترحوا القصر ، وقدموا إلى البابا رسالة فيليب ، وطلبوا إليه أن يوقعها (٧ سبتمبر سنة ١٣٠٣) ، فرفض بنيفاس هذا الطلب . وتقول رواية « موثوق بصحتها أعظم الثقة »^(١٠٤) إن سياراً لطم الحبر الأعظم على وجهه وأنه كاد يقتله لولا تدخل نوجات . وكان بنيفاس وقتئذ في الخامسة والسبعين من عمره ، ضعيف الجسم ، ولكنه ظل يتحدى خصومه . وبقي ثلاثة أيام سجيناً في قصره والجنود المرتزقون ينيبونه . ولكن أهل أناني يؤيدهم أربعائة فارس من عشيرة أرسيني Orsini فرقوا الجنود المرتزقين وأعادوا إلى البابا حريته . ويلوح أن سيجانيه لم يقدموا له طعاماً مدى الثلاثة الأيام السابقة على تحريره ، لأنه وهو واقف في السوق سأل : « إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لي صدقة من النبيذ والخبز ، فأني أمنحها بركة الله وبركتي » . وقاده فرسان الأرسيني إلى رومة وإلى الفاتيكان ، وهناك انتابته حمى شديدة مات منها بعد أيام قليلة (في الحادي عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٠٣) .

وكرم خليفته بندكت الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) نوجارت ، وسيارا كولنا ، وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رآهم يقتحمون القصر في أناني . ومات بندكت بعد شهر من ذلك الوقت في بروجيا ، وربما كان أحد الجبلين الإيطاليين قد دس له السم^(١٠٥) . ووافق فليب على أن يؤيد برتراند ده جو Bertrand de Got رئيس أساقفة بوردو للجلوس على كرسي البابوية إذا نهج سياسة المصالحة ، وعفا عن حرموا من الدين لهجومهم على بنيفاس ، وسمح بأن تجبي من رجال الدين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة في المائة مدة خمس سنين ، وأن يعيد أفراد أسرة كولنا إلى مناصبهم ويرد إليهم أملاكهم . وأن يشهر بذكرى بنيفاس^(١٠٦) . ونسنا نعرف إلى أي حد وافق برتراند على هذه المطالبات : وكل ما نعلمه أنه اختير بابا ، وتسمى باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥) . وأنذر الكرادلة بأنه إن يكون آمناً على حياته في رومة ، فنقل

كلمنت كرسى البابوية إلى أفنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون ، في خارج الحد الشرقى لفرنسا وعلى بعد قليل منه (١٣٠٩) وانتقل إليها بعد تردد قليل ، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن وصله اقترح مريح من فليب . وهكذا بدأ « الأسر البابل » للبابوات الذى دام ثمانية وستين عاماً واستسلام البابوية لفرنسا ، بعد أن حررت نفسها من ألمانيا .

وأصبح كلمنت ، رغم إرادته الضعيفة ، أداة ذليلة في يد فليب الذى لاحد لمطامعه ؛ فغفر للملك ذنوبه ، وأعاد رجال كولنا إلى مناصبهم ، وسحب موسوم Clercis laicoa وأجاز نهب أموال فرسان المعبد ، ووافق أخيراً (١٣١٠) على محاكمة بنيفاس بعد موته على أيدي مجمع كنسى عقد في جروسو Groseau القريبة من أفنيون . وشهد ستة من رجال الدين في التحقيق المبدئى الذى أجرى أمام البابا وأموريه أنهم سمعوا بنيفاس يشير قبل سنة من توليه منصبه الدينى إلى أن كل القوانين التى يفترض الناس أنها من عند الله قد اخترعها بعضهم لكى يلزموا العامة بأن يسلكوا مسلكاً حسناً لخوفهم من الجحيم ، وإلى أن من « البلاهة » أن نعتقد أن الله واحد وثلاثة في آن واحد ، أو أن عذراء قد ولدت طفلاً ، أو أن الله قد صار إنساناً ، أو أن الخبز يمكن أن يصبح جسم المسيح ، أو أن هناك حياة أخرى مستقبلية . « هذا ما أؤمن به وما أعتقد ، كما يؤمن به ويعتقده كل إنسان متعلم . أما السوقه فيعتقدون غير هذا ، وعلينا أن نتكلم كما يتكلم السوقه ، وأن نفكر ونعتقد كما تعتقد القلة وتفكر » . ونقل هؤلاء الستة عن بنيفاس هذه الأقوال ، وأعاد هذه الشهادة ثلاثة منهم بعد أن سئلوا فيما بعد . ونقل رئيس دير القديس جيلز St. Giles القائم في سان جمينو San Gemino عن بنيفاس حين كان الكردينال جيتانى Gaetani أنه أنكر بعث الجسم والروح ، وأيد هذه الشهادة عدد آخر من رجال الدين . ونقل أحد رجال الدين عن بنيفاس أنه قال عن القربان المقدس « إنه ليس إلا فطيرة » . واتهم بنيفاس

رجال كانوا قبل ذلك من أفراد بيته بأنه كانت له كثير من الصلات الجنسية الآثمة ، الطبيعية منها وغير الطبيعية ، واتهم غيرهم هذا المتشكك المزعوم بأنه حاول الاتصال السحري بـ « قوى الظلام » (١٠٧) .

وأقنع كلمنت فليب قبل بدء المحاكمة الفعلية أن يترك مسألة إجرام بنيفاس إلى مجلس فيينا العام الذي سيعقد فيما بعد . فلما عقد هذا المجلس (١٣١١) مثل أمامه كرادلة وشهدوا بأن البابا المتوفى كان مستمسكا بالدين القويم وبمكارم الأخلاق ، وألقى فارسان بقفازيهما متحديين ومؤيدين براءته عن طريق الاقتتال . لكن أحداً لم يقبل هذا التحدى وأعلن المجلس انتهاء المحاكمة .

الفصل الثامن

عودة على بدء

تكشف الأدلة التي قدمت ضد بنيفاس ، صادقة كانت أو كاذبة ، عن تيار التشكك الذي كان يجري في الخفاء على عصر الإيمان . وكذلك تدل الصفة - المادية أو السياسية - التي وجهت إلى بنيفاس في أناني بمعنى من معانيها على بداية « العصر الحديث » : فقد كانت انتصاراً للقومية على ما فوق القومية ، والدولة على الكنيسة ، ولقوة السيف على سحر الكلام . ذلك أن كفاح الكنيسة ضد آل هوهنستوفن وإخفاق الحروب الصليبية قد أضعفنا من قوتها ، في الوقت الذي زاد فيه انهيار الإمبراطورية من قوة إنجلترا وفرنسا ، كما أثرت فرنسا باستيلائها على لانجويديك بمساعدة الكنيسة . ولربما كانت مناصرة الشعب لفليب الرابع على بنيفاس الثامن دليلاً على غضب هذا الشعب من غلو محاكم التحقيق والحملة الصليبية الألبجنسية ؛ فقد قيل إن محاكم التحقيق حرقت بعض آباء نوجارت (١٠٨) ، ولم يكن بنيفاس يدرك ، وهو يتورط في هذه المنازعات الكثيرة ، أن أسلحة البابوية قد تثلمت من الإفراط في استخدامها ؛ ثم إن الصناعة والتجارة قد أنشأتا طبقة من الناس أقل تقوى من طبقة الزراعة ، وأن الحياة والتفكير قد نزعاً نزعاً زمنية غير دينية ، وأخذت الطبقات العلمانية تدرك أهميتها ، وقبل أن تمضي سبعون سنة كان الدولة قد طوت الكنيسة تحت جناحها .

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على المسيحية اللاتينية ، كان أهم ما ينطبع في ذهننا منها هو ما بين شعوبها المختلفة من وحدة نسبية في العقيدة الدينية ، وانتشار سلطان الكنيسة الرومانية الواسع ورجالها في كل مكان انتشاراً أكسب أوروبا

الغربية - أوروبا غير الصقلية ، وغير البيزنطية - وحدة في العقل والأخلاق لم ير لها قط مثيل بعد ذلك الوقت . ولسنا نعرف في التاريخ كله نظاما في غير هذه الرقعة من الأرض كان له مثل هذا الأثر العظيم في مثل هذا العدد من الناس ولمثل هذا الزمن الطويل . فقد دام سلطان الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على أملاكهما الواسعة من أيام پمبي الى أيام أليريك Alaric أى أربعائة وثمانين عاما ؛ ودامت إمبراطورية المغول والإمبراطورية البريطانية نحو مائة عام ؛ أما الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فقد ظلت صاحبة السلطة العليا في أوروبا من موت شارلمان (٨١٤) إلى موت بنيفاس الثامن (١٣٠٣) أى ٤٨٩ عاماً . ويبدو أن تنظيمها وإدارتها لم يبلغا من الكفاية ما بلغاه في الإمبراطورية الرومانية ؛ كذلك لم يوث رجالها من القدرة والثقافة مثل ما أوتى الرجال الذين حكموا الولايات والمدن للقياصرة ؛ ولكن الكنيسة ورثت خليطاً من الهمج المسلوبي العقول ، وكان عليها أن تبذل الجهود المضنية لتشق لها طريقاً تعود به إلى بسط النظام ونشر التعليم . ولقد كان رجالها ، رغم هذه الظروف ، خير الرجال تعلماً في ذلك العصر ، وكانوا هم الذين قدموا للناس في أوروبا الغربية التعليم الوحيد المستطاع في خلال القرون الخمسة التي كان لها فيها السيادة والسلطان . وكانت محاكمها تقدم للناس أعدل ضروب العدالة في أيامها . فكانت المحكمة البابوية ، المرتشية تارة والنزيهة تارة أخرى ، إلى حد ما ، محكمة عالمية تحكم في فض المنازعات الدولية ، وتضييق نطاق الحروب . ولسنا ننكر أن هذه المحكمة كانت على الدوام مسرفة في نزعها الإيطالية ، ولكن عقول الإيطاليين كانت في تلك القرون أحسن العقول تديرباً ، وكان في وسع أى إنسان أن يرقى إلى عضوية تلك المحكمة من أية طبقة ، ومن أية أمة في العالم المسيحي اللاتيني .

ولقد كان من الخير أن يكون فوق دول أوروبا وملوكها ، رغم أساليب الخداع التي تلجأ إليها عادة السلطة البشرية الجماعية ، سلطة عليا تستطيع محاسبة

هذه الدول وأولئك الملوك ، وتخفف من حدة منازعاتها ومنازعاتهم . وإذا كان لابد من قيام دولة عالمية ، فهل ثمة مقر لها يبدو أليق من عرش القديس بطرس ، يستطيع الناس مهما يكن من ضيقه أن يتطلعوا منه بعين قاريّة ، من ورائها أحقاب طوال ؟ وهل ثمة قرارات أكثر قبولا عند الناس في سلام ، وأيسر تنفيذاً ، من قرارات حبر من الأحبار يجله جميع سكان أوروبا الغربية ويرون أنه خليفة الله في أرضه ؟ وحسبنا دليلاً على ما كان لقرارات هذه السلطة من قوة أنه لما خرج لويس التاسع إلى الحرب الصليبية في عام ١٢٤٨ ، اشتد هنرى الثالث ملك إنجلترا في مطالبه من فرنسا واستعد لغزوها . فأنذر البابا إنوسنت الرابع لإنجلترا بالحرمان إذا أصر هنرى على مطالبه ، ونكص هنرى على عقيبه . ويقول هيوم المتشكك إن سلطان الكنيسة كان ملجأ حصينا من عسف الملوك وظلمهم^(١٠٩) ، ولو أن الكنيسة اقتصرَت في استخدام سلطانها على الأغراض الروحية والخلقية ، ولم تستخدمه قط لتحقيق الأغراض المادية ، لحققت المثل الأعلى الذى كان يرتجيه جريجورى السابع - ولجعلت سلطانها الأخلاقى يعلو على قوى الدول المادية . وكاد حلم جريجورى هذا يتحقق حين ضم إربان الثانى شتات العالم المسيحى لقتال الأتراك ؛ فلما أن أطلق إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، واسكندر الرابع ، وبنيفاس الثامن اسم الحروب الصليبية المقدسة على حروبهم ضد الألبجنسيين ، وفردريك الثانى وآل كولنا ، فلما فعلوا هذا تحطم المثل الأعلى العظيم فى أيدي البابوات الملطخة بدماء المسيحيين .

وكانت الكنيسة إذا لم يهددها خطر تصطنع التسامح الكثير مع أصحاب الآراء المخالفة ، بل وآراء الضالين ، وسوف نجد ما لم تكن نتوقه من الحرية الفكرية بين فلاسفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بل سوف نجد هذه الحرية بين أساتذة الجامعات المرخصة من قبل الكنيسة ، والخاضعة لإشرافها ؛ وكل ما كانت تطلبه أن يكون نقاشهم مقصوراً على المتعلمين ، ومفهوماً منهم .

وحدهم ، وألا يتخذ صورة الدعوة الثورية للناس بأن يذبذبا عقيدتهم وكنيستهم^(١١٠) . ويقول كاتب هو أكثر نقاد الكنيسة المحدثين نشاطا ، إن « الكنيسة إذ تضم السكان أجمعين ، تضم كذلك كل صنف من أصناف العقول ، من أكثر العقول تخريفا إلى أكثرها لا أدريه ، وإن كثيراً من العناصر التي لم تكن مستمكة بالدين الرسمي ، كانت تعمل تحت ستار الامتثال الرسمي بحرية أوسع مما يظن الناس عادة^(١١١) .

وجملة القول أن الصورة التي نرسمها في أذهاننا للكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى هي أنها منظمة معقدة التركيب ، تبذل كل ما في وسعها ، رغم ما يتصف به أبنائها وزعمائها من عيوب كامنة في فطرة الآدميين ، لإرساء قواعد النظام الأخلاقي والاجتماعي ، ونشر العقيدة الدينية التي تسمو بالناس وتواسيهم وسط حطام حضارة قديمة ، وعواطف ناثرة ، لمجتمع يجتاز دور النقاها .

لقد كانت أوروبا حين وحدتها كنيسة القرن السادس أشبه ببضاعة متناثرة بعد غرق سفينة بضاعة من الهمج المتنقلين ، وكانت خليطاً من الألسنة والعقائد ، وفوضى من الشرائع غير المسطورة التي لا يحصيها العد . ولكن الكنيسة وهبتها قانوناً أخلاقياً تؤيده سلطة فوق سلطة البشر ، تبلغ من القوة ما يكفي لقمع الغرائز غير الاجتماعية الكامنة في نفوس ذوي العنف من الناس ، وهبتها كذلك أديرة يلجأ إليها الرجال ، والنساء ، وتأوى المخطوطات القديمة ، وحكمتها بمحاكم كنسية ، وربتها في المدارس والجامعات ، وذلك قيادة ملوك الأرض لتحمل التبعات الأخلاقية وواجبات السلام ، وخلعت على حياة أبنائها بهجة الشعر ، والتمثيل ، والغناء ، وأوحت إليهم أن يقيموا أجل ما في التاريخ كله من أعمال فنية . ولما عجزت عن إقامة مدينة فاضلة تسودها المساواة بين رجال مختلفي الكفايات ، نظمت الصدقات والضيافات ، وحث الضعفاء إلى حد ما من الأقوياء . وكانت بلاريب أعظم قوة تعمل لنشر لواء الحضارة في تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى .

الكتاب الثلاثون

الأخلاق والآداب في العالم المسيحي

٧٠٠ - ١٣٠٠

البُصْلُ الأول

القانون الأخلاقي المسيحي

كان لابد للإنسان في مرحلة سكنى الغاب أو في مرحلة الصيد أن يكون شرهاً - حريصاً في بحثه عن الطعام ، نهماً في ابتلاعه - لأنه إذا جاءه الطعام مرة لا يدري متى يأتيه مرة أخرى . وكان لابد له أن يكون شديد الحساسية الشهوانية ، وكثيراً ما يطلق لهذه الشهوات العنان ، فلا يتقيد بزواج لأن ارتفاع نسبة الوفيات تحتم ارتفاع نسبة المواليد ، فكل امرأة يجب أن تصير أماً كلما كان ذلك مستطاعاً ، ولا بد أن تكون وظيفة الذكر حامية على الدوام . ولا بد له أن يكون مشاكساً دائماً الاستعداد للقتال من أجل طعامه ورفيقته .

لقد كانت الرذائل في وقت ما فضائل لا غنى عنها للمحافظة على البقاء ، فلما وجد الإنسان أن أحسن سبيل إلى البقاء - بقاء الفرد وبقاء النوع - هي سبيل التنظيم الاجتماعي ، وسع نطاق عصبة الصيد ، فجعلها هيئة من النظام الاجتماعي لابد فيها من كبح جماح الغرائز التي كانت عظيمة النفع في مرحلة الصيد عند كل خطوة يخطوها الإنسان ، حتى يستطيع بذلك قيام المجتمع . فليست كل حضارة إلا توازناً وتجاذباً بين غرائز الإنسان ساكن الغابة وقيود

القانون الأخلاقى ؛ فإذا وجدت الغرائز دون القانون الأخلاقى قضى على الحضارة ، وإذا وجدت القيود دون الغرائز قضى على الحياة ، فالمشكلة التى تواجهها الأخلاق هى أن تنظم القيود بحيث تحمى الحضارة دون أن توهن الحياة .

وكانت بعض الغرائز ، وأكثر ما تكون غرائز اجتماعية ، هى صاحبة السبق فى تهدئة العنف البشرى ، والاختلاط الجنىسى الطليق ، والشره ؛ وكانت هى أساساً حيويّاً للحضارة . فقد خلّقت الحب الأبوى ، فى الحيوان والإنسان ، نظام الأسرة الاجتماعى الفطرى ، وما فيها من تأديب تعليمى ، ومساعدة متبادلة ؛ ونقلت السلطة الأبوية ، وهى مزيج من ألم الحب ومتعة الاستبداد ، قانون السلوك الاجتماعى المنقذ للحياة إلى الطفل صاحب النزعة الفردية . وأحاطت القوة المنظمة التى يمارسها الزعيم ، أو الشريف ، أم تمارسها المدينة أو الدولة ، أحاطت هذه القوة وداجت إلى حد كبير قوة الأفراد غير المنظمة . وأخضع حب الاستحسان النفس البشرية إلى إرادة الجماعة ؛ وهدت العادة والمحاكاة من حين إلى حين المراهق والمراهقة إلى السبل التى ارتضاها الناس بعد تجاربهم وأخطائهم . وأرهب القانون الغرائز بشبح العقاب ، وذلّل الضمير الشاب بطائفة لا حصر لها من الموانع والمحرمات .

واعتقدت الكنيسة أن هذه المنابع الطبيعية أو الزمنية للأخلاق لا تكفى وحدها للسيطرة على الدوافع التى تحفظ الحياة فى الغابة ، بل تقضى على النظام فى المجتمع ، وقالت إن هذه الدوافع أقوى من أن تكبحها أية سلطة لا تكون لها فى كل مكان وفى وقت واحد قوة مانعة رهيبة . ولهذا فإن القانون الأخلاقى شديد الوقع على الجسم لا بد له أن يكون مخنوماً بنخات قوة غير بشرية إذا أريد أن يطيعه الناس ، ولا بد له أن يكون مؤيداً بقوة إلهية وذا مكانة فوق المكانة الآدمية تحترمها النفس فى غياب كل سلطة ، وفى أثناء لحظات الحياة وخباياها الخفية . إن السلطة الأبوية نفسها ، وهى عماد كل نظام أخلاقى واجتماعى ، لتنهال فى النزاع

القائم ضد الغرائز البدائية إلا إذا كان لها دعامة من العقيدة الدينية تُغرس في قلب الطفل . فإذا أريد خدمة المجتمع ونجاته ، فلا بد له من دين يقاوم الغرائز الملحة بأوامر ليست من عند البشر ولا تقبل قطنزاعاً ، بل هي أوامر من عند الله نفسه ، محددة واضحة لا تقبل جدلاً . وإذا كان الإنسان شديد الإثم والشراسة فإن هذه الوصايا الإلهية يجب ألا يؤيدها الثناء والشرف اللذان يمنحهما الناس من يطيعونها ، أو الخزي والعقاب اللذان يلحقان بمن يخرج عليها ، بل يجب أن يؤيدها ، فضلاً عن هذا ، الأمل في نعيم السماء تناله الفضيلة التي لا تلقى جزاءها في هذه الدنيا ، وخوف الجحيم التي يتردى فيها الآثمون الذين لا يلقون على ظهر الأرض عقاباً . إن هذه الوصايا يجب ألا تأتي من عند موسى بل من عند الله .

وكانت عقيدة الخطيئة الأولى في اللاهوت المسيحي هي التي مثلت بها النظرية القائلة إن الغرائز البدائية تجعل الإنسان غير صالح للحضارة . وكانت هذه النظرية ، كما كانت فكرة « كارما » في الديانة الهندية محاولة قصد بها ما يحل بالناس من آلام هم في الظاهر غير خليقين بها ؛ وهذا التفسير هو أن « الصالحين يقاسون الآلام في هذه الحياة لأن أسلافهم ارتكبوا الإثم ؛ وتقول النظرية المسيحية إن الجنس البشري على بكرة أبيه قد لوثته خطيئة آدم وحواء ؛ ويقول جراتيان Gratian في كتابه Decretum « القرار » (حوالى عام ١١٥٠) الذي اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءاً من تعاليمها : « كل آدمي وُلد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى ، معرضاً للعقوب والموت ، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه » (١) لا ينجبه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذي كفر عن آثامه (ولا ينقذ الإنسان من العنف ، والشهوة ، والشره ، وينجيه هو والمجتمع الذي يعيش فيه من الهلاك إلا المثل الذي ضربه المسيح الشهيد في الوداعة ودمائه الخلق) . وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة ، مضافة إلى الكوارث الطبيعية التي لم تستطع العقول فهمها إلا على أنها عقاب عن الخطايا ، بعثت هذه

الدعوة في الكثيرين من الناس في العصور الوسطى شعوراً بأنهم مفطورون على الدنس ، والانحطاط ، والإجرام ، وهو الشعور الذي غلب على كثير من أديهم قبل عام ١٢٠٠ . ثم أخذ ذلك الشعور بالخطيئة والخوف من الجحيم يتناقص حتى جاء عهد الإصلاح الديني ، وظهر بعدئذ بقوة ورهبة جديدين بين المتطهرين المتزمين .

وتحدث جريجورى الأول ومن جاء بعده من علماء الدين عن سبع خطايا - الكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، والشره ، والكسل ، تقابلها في رأيهم السبع الفضائل الرئيسية : أربع منها « فطرية » أو وثنية امتدحها فيثاغورس وأفلاطون - الحكمة ، والشجاعة ، والعدالة ، والاعتدال ؛ وثلاث فضائل « دينية » - الإيمان ، والأمل ، والإحسان . ولكن المسيحية لم تؤمن قط بالفضائل الوثنية وإن ارتضتها ؛ وكانت تفضل الإيمان عن العلم ، والصبر عن الشجاعة ، والحب والرحمة عن العدالة ، والتعفف والطهر عن الاعتدال . ورفعت من شأن الاتضاع ، ووصفت الكبرياء (وهو من أبرز صفات رجل أرسطو المثالي) بأنه أشنع الذنوب الشنيعة . وكانت المسيحية تتحدث أحياناً عن حقوق الإنسان ، ولكن أكثر ما كانت تؤكده هو واجبات الإنسان - واجباته نحو نفسه ، ونحو بني جنسه ، ونحو كنيسته وربه . ولم تكن الكنيسة تدعو إلى الاقتداء بالمسيح الرقيق ، الوادع ، الرحيم ، لأنها كانت تخشى أن تجعل الرجال مخنثين . والحق أن رجال المسيحية اللاتينية في العصور الوسطى كانوا أكثر رجولة من ورثتهم وخلفائهم في هذه الأيام ، لأنهم كانوا يواجهون من الصعاب أكثر مما يواجهه هؤلاء . ذلك أن علماء الدين والفلاسفة ، كالرجال والدول ، يتصفون بما يتصفون به ، لأنهم في زمانهم ومكانهم لم يكن لهم مما كانوا عليه بد .

الفصل الثانى

الآداب قبل الزواج

تُرى إلى أى حد كانت آداب الناس فى العصور الوسطى تمثل أو تحقق المبادئ والنظريات الأخلاقية فى تلك العصور ؟ فلننظر أولاً إلى الصورة التى كانت عليها تلك العصور دون أن يكون لدينا رأى سابق نريد إثباته .

لقد كانت أولى الحادثات التى تمت بصلة إلى الأخلاق فى الحياة المسيحية هى التعميد : به كان الطفل يندمج جديداً فى المجتمع وفى الكنيسة ، ويخضع - أو يخضع عنه من يعمدونه - إلى قوانينهما . وفى هذه الحفل يتلقى كل طفل « اسماً مسيحياً » - ويكون هذا الاسم فى العادة اسم أحد القديسين المسيحيين . أما الأسماء التى تضاف بعد هذا الاسم فكانت مختلطة الأصول : ويمكن الرجوع بها خلال أجيال متعددة إلى القرابة ، أو المهنة ، أو المكان ، أو إلى شىء من معارف الجسم أو معالم الخلق ، بل يمكن الرجوع بها أحياناً إلى شىء من الطقوس الكنسية : ومن أمثلة هذه الأسماء مسلى ولكنز دوتر Cicely Wilkinsdoughter وجيمس اسمث James Smith ، ومرجريت فرى ومن Margaret Ferrywoman وماثيو باريس Matthew Paris ، وأجنيس ردهد Agnes Redhead ، وجون مريمان John Merriman ، وروبرت لثانى Robert Litany ، وروبرت بنديسيت Robert Benedicite أو بندكت Benedict .

وكان جريجورى الأكبر ، كما كان روسو ، يبحث الأمهات على أن يرضعن أطفالهن^(٢) ؛ وكانت معظم النساء الفقيرات يفعلن هذا ، أما نساء الطبقات العليا

فكانت الكثيرة الغالبة منهم لا تفعلنه^(٤) . وكان الأطفال محبوبين ، كما هم محبوبين الآن ؟ ولكنهم كانوا يضربون أكثر مما يضربون في هذه الأيام ، وكانوا كثيرى العدد بالرغم من كثرة من يموتون منهم في سن الطفولة وسن المراهقة . وكان بعضهم يؤدب البعض لاجتماعهم في مكان واحد ، وقد تحضروا بسبب خوفهم من ارتكاب الذنوب . وتعلموا من أقاربهم ورفاقهم في اللعب كثيراً من فنون القطر أو المدينة ، وتقدموا تقدماً سريعاً في معارفهم ونخبهم . وفي ذلك يقول تومس من أهل سيلانو Celano في القرن الثالث عشر : « لا يكاد الأولاد ينطقون حتى يتعلموا الخبث ، وكلما تقدموا في السن زادوا سوءاً على سوء حتى يصبحوا مسيحيين بالاسم لا أكثر »^(٥) . ولكن الذين يكتبون في الأخلاق مؤرخون غير صادقين ؛ فقد كان الأولاد يبلغون سن العمل وهم في الثانية عشرة من عمرهم ويبلغون سن الرشد القانوني في السادسة عشرة .

وكانت مبادئ الأخلاق المسيحية تتبع مع المراهقين سياسة الصمت بإزاء الأمور الجنسية : فقد كان النضج المالى أى القدرة على كفالة الأسرة يجرى بعد النضج الجنسي أى القدرة على الخلف ؛ وكان الاعتقاد السائد أن التربية الجنسية قد تزيد آلام العفة في تلك الفترة من العمر ؛ وكانت الكنيسة تتطلب العفة قبل الزواج لتساعد بذلك على الاحتفاظ بالوفاء بعده وعلى النظام الاجتماعى والصحة العامة . ولكن الشباب في العصور الوسطى كان في أكبر الظن قد ذاق أنواعاً من الصلات الجنسية قبيل بلوغه السادسة عشرة من عمره . فقد عاد اللواط إلى الظهور في أثناء الحروب الصليبية ، وفي أثرتيار الآراء الشرقية^(*) ، وعزلة الرهبان والراهبات^(٦) . وكانت المسيحية قد أفلحت في مهاجمة هذا الداء في العصور القديمة المتأخرة . وقد كتب هنرى رئيس دير كليرفو عن فرنسا في عام

(*) كثيراً ما تظهر هذه العادة اللعينة في الحروب ، وقد وجدت في الغرب والشرق على السواء ، وإذا رجع القارئ إن الفصل الخامس باليونان من هذه السلسلة رأى ما قاله المؤلف عنها عند أولئك القوم . (المترجم)

١١٧٧ يقول : « إن سدوم (*) القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها » (٧) وأتهم فليب الجميل رهبان المعبد بانتشار الأوطا بينهم . وفي كتب التوبة الدينية التي تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكر لضروب الفحش من بينها البهيمية ، وكانت طائفة كثيرة التنوع عن البهائم موضع صلات جنسية بالآدميين (٨) . وكانت الصلات الجنسية من هذا النوع إذا كشفت عوقب الطرفان المشتركان فيها بالإعدام ؛ وفي سجلات البرلمان الإنجليزي ذكر لطائفة من الكلاب ، والمعز ، والبقر ، والحنازير ، والإوز ، حرقت حية هي ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين . كذلك كثرت مضاجعة المحارم في تلك الأيام .

ويبدو أن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وفي خارج نطاق الزواج ، كانت منتشرة انشارها في أى وقت بين أقدم الأزمنة والقرن الثاني عشر ، ذلك أن غريزة الإنسان المختلطة كانت تتعدى الحدود التي تقيمها للشرائع الزمنية والكنسية ، وكانت بعض النساء يعتقدن أن ورعهن في آخر الأسبوع يكفر عن مرجهن وبطنهن . وكان الاغتصاب شائعاً (٩) رغم ما يتعرض له المغتصب من أشد ضروب العقاب ، وكان الفرسان الذين يخدمون النساء أو الفتيات الكريزمات المولد نظير قبلة أولسة من أيديهن يسلون أنفسهم بخادعات هؤلاء السيدات والفتيات ، ومن أولئك السيدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلا إذا هيأن بأنفسهن هذه التسلية (١٠) كان مما يأسف له فارس لاتور لاندري La Tour Landry انتشار الفسق بين بعض الشبان من أبناء الأشراف ؛ وإذا أخذنا بأقواله فإن بعض رجال الطبقة التي ينتمى إليها كانوا يفسقون في الكنائس بل « على المذبح » نفسه ؛ وهو يحدثنا عن « ملكتين استمتعتا بهجنين الآثمة وبلذتهن داخل الكنيسة في أثناء الصلاة المقدسة في يوم خميس الصعود

أثناء الصيام»^(١١) . ويصف وليم المالمزبرى William of Molmsbury أشراف النورمان بأنهم منهمكون في البطنة والدعارة « وأهم يتبادلون العاشقات بعضهم مع بعض»^(١٢) خشية أن يضعف الوفاء حدة الشهوة . وكان الأطفال غير الشرعيين منشرين في جميع أنحاء العالم المسيحي ، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص ، وكان أولاد الزنا أبطال عدد من هذه القصص فمنهم كوشولان Cuchulain ، وآرثر Arthur ، وجاوين Gawain ورولان Roland ، ووليم الفاتح ، وكثيرون من الفرسان المذكورين في تواريخ فرواسار Froissart .

وتمشى العهر مع مطالب ذلك الوقت ؛ فقد كان بعض النساء المذاهبات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق ، كما يقول الأسقف بنيفاس ، يبيع أجسادهن في المدن القائمة في طريقهن^(١٣) . وكان كل جيش يتعقبه جيش آخر من العاهرات لا يقل خطراً عن جيش أعدائه . ويحدثنا ألبرت من أهل إيكس Aix فيقول إن « الصليبيين كان بين صفوفهم جمع حاشد من النساء في ثياب الرجال ، يسافرن معهم دون أن يميزن عنهم ، ويغتنمن الفرصة التي تتاح لهن مع الرجال»^(١٤) . ويقول المؤرخ العربى عماد الدين إنه في أثناء حصار عكا حضرت ثلثمائة من الفرنسيات الحسان ليروحن عن الجنود الفرنسيين . . . لأن هؤلاء أبوا أن يخرجوا للقتال إذا حرموا لذة النساء ، فلما رأى جنود المسلمين هذا طلبوا أن يهيا لهم ما هيى هؤلاء^(١٥) . ويقول جرانفيل إن الأشراف الذين كانوا مع القديس لويس في حربه الصليبية « أقاموا مواخيرهم حول خيمة الملك»^(١٦) . وكان طلبة الجامعات ، وبخاصة في باريس ، ممن استبدت بهم الحاجة إلى هذا الترفيه أو رغبوا في محاكاة غيرهم فيه ، ولهذا أنشأت الفتيات مراكز لسد هذه الحاجة^(١٧) .

وأباحت بعض المدن — أمثال طونوز (طلوشه) ، وأقنيون ، ومنبلييه ، ونورمبرج — هذه الدعارة قانوناً ، ووضعها تحت إشراف البلديات بحجة أنه بغير

هذا الدنس لا تستطيع النساء الصالحات أن يخرجن إلى الشوارع وهن آمنت
على أنفسهن^(١٨) . وكتب القديس أوغسطين يقول : « إذا منعت العاهرات
والمواخير ، اضطربت الدنيا من شدة الشبق »^(١٩) ، ووافقه على ذلك
القديس تومس أكويناس^(٢٠) . وكان في لندن في القرن الثاني عشر صف
من « المواخير » بالقرب من جسر لندن . وقد أجاز أسقف ونشستر في بادئ
الأمر قيامها ، ثم صدق البرلمان على قيامها فيما بعد^(٢١) . وقد حرم القانون
الذى أصدره البرلمان عام ١١٦١ على صاحبات بيوت الدعارة أن يأوين
فيها نساء يعانين آلام « الضعف الخطر من الاحتراق » - وهذا أول
ما عرف من التشريع ضد انتشار الأمراض السرية . وقرر لويس التاسع
في عام ١٢٥٤ نفي جميع العاهرات من فرنسا ، ونفذ هذا القرار فعلا ،
ولكن الدعارة السرية لم تلبث أن حلت محل التجارة العلنية ، حتى شكا
أهل الطبقات الوسطى من أنه يكاد يكون من المستحيل حماية الفضيلة
لدى زوجاتهم ونسائهم من إلحاح الجنود والطلاب . وعم انتقاد هذا
القرار في آخر الأمر حتى ألغى في عام ١٢٥٦ . وحدد المرسوم الجديد
الأماكن التى تستطيع فيها العاهرات أن يسكن ويمارسن مهنتهن في باريس ،
وحدد أيضاً ملابسهن وزينتهن ، وأخضعهن لرقابة رئيس من رؤساء
الشرطة يسمى ملك القوادين أو المتسولين أو الأفاكين roi de ribauds^(٢٢) .
ونصح لويس التاسع وهو يحتضر ولده أن يعيد المرسوم الذى قضى بنفى
العاهرات ، ونفذ فليب وصيته ، وكانت النتيجة هى النتيجة السابقة نفسها ،
وبقى القانون مدوناً في سجل الشرائع الفرنسية ولكنه لم ينفذ^(٢٣) . وكان
في رومة ، كما يقول الأسقف دوران الثانى المندى Bishop Durand
II of Mende (١٣١١) ، مواخير بالقرب من الفاتيكان ، وقد أجاز
رجال البابا إقامتها نظراً ما يتقاضون من الأجور^(٢٤) . وكانت الكنيسة تظهر
العطف على العاهرات ، وأقامت ملاجئ للتألمات من النساء ، ووزعت على
الفقيرات الصدقات التى كانت تتلقاها من العاشقات التائبات^(٢٥) .

الفصل الثالث

الزواج

كان الشباب في عصر الإيمان قصير الأجل ، وكان الزواج يحدث فيه مبكرا ، وكان في وسع الطفل وهو في السابعة من عمره أن يوافق على خطبته ، وكان هذا التعاقد يتم في بعض الأحيان ليسهل به انتقال الملكية أوحايتها . ولقد تزوجت جراس صليبي، Grace de Saleby في الرابعة من عمرها بشريف عظيم يستطيع حماية ضيعتها الغنية ، ثم مات هذا الشريف ميتة سريعة فتزوجت وهي في السادسة من عمرها بشريف آخر ، وزوجت وهي في الثالثة عشرة بشريف ثالث (٢٧) . وكان يستطيع حل هذا الرباط في أى وقت من الأوقات قبل سن البلوغ ، وكان يفترض أن تكون هذه السن هي الثانية عشرة للبنات ، والرابعة عشرة للولد (٢٨) . وكانت الكنيسة ترى أن رضى الوالدين أو الأوصياء غير ضرورى للزواج الصحيح إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وتحرم زواج البنات قبل الخامسة عشرة ؛ ولكنها كانت تسمح بكثير من الاستثناءات ، لأن حقوق الملكية في هذه المسألة كانت تغطي على نزوات الحب ، ولم يكن الزواج إلا حادثا من حوادث الأعمال المالية . وكان العريس يقدم لوالدى الفتاة هدايا أو مالا ، ويعطيها « هدية الصباح » ويضمن لها حق بائنة في مزرعته . وكان هذا الحق في إنجلترا هو أن يكون للأرملة استحقاق مدى الحياة . في ثلث ما يتركه الرجل من الأرض . وكانت أسرة الزوجة تقدم الهدايا للزوج ، وتخصص لها بائنة تتكون من الثياب ، والأثاث الثمين ، والآنية والأثاث ، والأموال في بعض الأحيان . وكانت الخطبة عبارة عن تبادل عهود أو موافيق ، وكان العرس نفسه ميثاقا (واسمه

الإنجليزي Wedding مشتق من اللفظ الإنجليسكوني Weddian ومعناه الوعد) وكان القرين spouse هو الشخص الذى أجاب responded «إلى أريد» .

وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدان الزواج صحيحاً إذا تم بناء على تبادل عهد شفوى بين الطرفين ولو لم يصحبه أى احتفال قانونى أو كنسى (٢٩) . وكانت الكنيسة تريد أن تحمى النساء بذلك من أن يهجرهن من يغوينهن ، وتفضل هذا الاتحاد عن الفسق أو التسرى ؛ ولكنها كانت بعد القرن الثانى عشر تنكر شرعية الزواج الذى يتم دون مصادقة الكنيسة ، وأخذت بعد مجلس ترنت (١٥٦٣) تتطلب حضور قس فى هذا التعاقد . وكان القانون الزمنى يوجب بتنظيم الكنيسة لشئون الزواج ؛ فكان براكتن Bracton (المتوفى عام ١٢٦٨) يرى أن لابد من إقامة احتفال دينى لكى يصبح الزواج صحيحاً . ورفعت الكنيسة شأن الزواج إلى مقام القداسة ؛ وجعلته ميثاقاً مقدساً بين الرجل والمرأة والله ؛ ثم بسطت سلطانها القانونى تدريجاً على كل خطوة من خطوات الزواج ، من واجبات فراش الزوجية إلى وضية الزوج الأخيرة قبل الوفاة . وذكر قانونها ثبثاً طويلاً من «موانع الزواج» ؛ فكان يجب أن يكون كلا الطرفين غير مقيد برباط زواج سابق ، أو بنذر أنذره أن يظل بغير زواج ، وكان الزواج بمن لم يعمد محرماً ؛ غير أنه وجدت مع ذلك حالات من الزواج بين المسيحيين واليهود (٣٠) . وكان الزواج بين الأرقاء بعضهم وبعض ، وبين الأرقاء والأحرار ، المستمسين بالدين الصحيح والضالين ، وحتى بين المؤمنين والمحرمين ، كان الزواج بين هؤلاء يعد صحيحاً (٣١) . ويجب ألا يكون بين الطرفين صلة تصل إلى الدرجة الرابعة من القرابة - أى أنه يجب ألا يكون لهما جد مشترك فى خلال أربعة أجيال ؛ وفى هذه المسألة كانت الكنيسة ترفض القانون الرومانى وتقبل القانون البدائى قانون الزواج من خارج العشيرة خشية أن يؤدى الزواج بين الأقارب الأدينين إلى الانحطاط الناشئ من التناسل داخل دائرة الأسرة ؛ ولعلها كانت تعمل بذلك على منع تركيز الثروة

نتيجة للروابط الأسرية الضيقة . وكان من الصعب تجنب هذا الزواج الداخلي في القرى الريفية ؛ فكان لابد للكنيسة أن تتغاضى عنه ، كما كانت تتغاضى عن كثير من الثغرات الأخرى بين الحقيقة والقانون .

ويجىء بعد حفلة الزواج موكب العرس - بموسيقاه المدوية وثيابه الحريرية الفاخرة - يسير من الكنيسة إلى منزل العريس ، وتعبه الحفلات في هذا البيت طول النهار كله ونصف الليل . ولا يصبح الزواج صحيحاً حتى يتم اتصال الزوجين . وكان منع الحمل محرماً ، ويرى أكويناس أنه جريمة لا تزيد عنها شناعة إلا جريمة القتل العمد^(٣٢) ، بيد أن وسائل مختلفة بعضها آلية ، وبعضها كيميائية وبعضها سحرية ، كانت تستخدم لهذا المنع ، وكان أكثر ما يعتمد عليه هو وقف الجماع^(٣٣) . وكانت العقاقير المجهضة ، أو المؤدية إلى العقم ، أو إلى العجز الجنسي ، أو إلى الشبق ، تباع مع الباعة المتنقلين . وكانت العقوبات التي وضعها ربانس مورش *Rabanus Maurus* للتكفير عن الآثام تقضى على « من تخلط منى زوجها بطعامها حتى تحسن قبول حبه ، بالندم على فعلتها ثلاثة أعوام »^(٣٤) . وكان وأد الأطفال نادراً ، وقد أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات في القرن السادس وما بعده ملاجئاً للقطاء في عدة مدن ؛ ودعا مجلس عقد في رون *Rouen* في القرن الثامن النساء اللاتي ولدن أطفالاً في السر أن يودعنهم عند باب الكنيسة ، وأعلنت أنها ستكفلهن ؛ وكان أوائل الأيتام يربون ليكونوا أرقاء أرض يعملون في أملاك الكنيسة . وقرر قانون أصدره شارلمان أن الأطفال الذين يعرضون للجو في الحلاء يصبحون عبيداً لمن يتخذوهم ويربونهم . وأنشأ راهب من منبلييه حوالي عام ١١٩٠ جماعة إخوان الروح القدس التي تخصصت في حماية اليتامى وتعليمهم .

وكان عقاب الزنا قاسياً ، مثال ذلك أن أقل ما كان يحكم به القانون السكسونى على الزوجة التى تخون زوجها هو جدد أنفها وصلم أذنها ، وأجاز لزوجها أن يقتلها . ولكن الزنا كان منتشرارغم هذه العقوبات الشديدة وأمثالها^(٣٥) ؛ وكان أقل ما يكون انتشاراً بين الطبقات الوسطى ، وأكثر ما يكون بين الأشراف . فكان سادة الإقطاع يغفون رقيقات الأرض ولا يحكم عليهم إلا بغرامة قليلة : فن « وطفى » بنتاً « من غير شكرها » أى رغم إرادتها — أدى للمحكمة ثلاثة شلنات^(٣٦) : ويقول فريمان Freeman إن القرن الحادى عشر « كان عصراً فاسقاً » ، وكان يعجب من وفاء وليم الفاتح الظاهرى لزوجته^(٣٧) وهو وفاء لا يستطيع أن يعزو مثله لأبيه ؛ ويقول تومس ريت Thomas Wright الأريب إن « مجتمع العصور الوسطى كان مجتمعاً فاسد الأخلاق فاجراً »^(٣٨) .

وكانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب الزنا ، أو الارتداد عن الدين ، أو القسوة الشديدة ، وكان هذا الانفصال يسمى *divortium* ولكن معناه لم يكن إبطال الزواج ؛ أما هذا الإبطال فلم يكن يمنح إلا إذا ثبت أن الزواج قد خالف أحد الموانع الشرعية التى نص عليها قانون الكنيسة . ويبعد أن تكون هذه الموانع قد ضوعف عددها عن قصد لكى يستعين على الطلاق من يستطيعون أداء الرسوم والنفقات الضخمة التى يتطلبها إبطال الزواج ، بل إن الكنيسة كانت تستخدم هذه الموانع استخداماً حكماً مرناً فى الظروف الاستثنائية التى يرجى أن يودى الطلاق فيها إلى وجود وارث إلى ملك لم ينجب أبناء ، أو يكون من ورائه فائدة أخرى للسلم أو السياسة . وكان القانون الألمانى يجيز الطلاق فى حالة الزنا ، بل كان يجيزه فى بعض الأحيان إذا اتفق عليه الطرفان^(٣٩) : وكان

الملوك يفضلون قانون أسلافهم على قانون الكنيسة الصارم ؛ وكان سادة الإقطاع وسيداته يعودون إلى القوانين القديمة فيطلق بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة ؛ ولم تبلغ الكنيسة في سلطانها واستمساكها بمقتضيات الذمة والضمير درجة من القوة تمكنها من تنفيذ قراراتها إلا بعد أن رفض إنوسنت الثالث أن يوافق على طلب الطلاق الذي تقدم به إليه فليب أغسطس ملك فرنسا القوي ؛

الفصل الرابع

النساء

كانت نظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة ؛ فقد تغالت بعض قوانين الكنيسة في إخضاعها ؛ لكن كثيراً من مبادئ المسيحية وشعائرها رفعت من مكانتها . وكانت المرأة في تلك القرون لاتزال في نظر القساوسة وعلماء الدين كما كانت تبدو لكريستوم - « شراً لا بد منه ، وإغواء طبيعياً ، وكارثة مرغوباً فيها ، وخطراً منزلياً ، وفتنة مهلكة ، وشراً عليه طلاء »^(١٠) . وكانت لاتزال حواء مجسدة في كل مكان ، حواء التي خسر بسببها الجنس البشري جنات عدن ، وأداة الشيطان المحبة التي يقود بها الرجال إلى الجحيم . وكان تومس أكويناس ، وهو في العادة رسول الرحمة ، يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان ، فيزها من بعض النواحي منزلة أقل من منزلة الرقيق :

إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها ، الجسمية والعقلية معاً^(١١)... والرجل مبدأ المرأة ومنهاها ، كما أن الله مبدأ كل شيء ومنهاها^(١٢) ... وقد فرض الخضوع على المرأة عملاً بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك^(١٣) . . . ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم^(١٤) .

وأوجب قانون الكنيسة على الزوج حماية زوجته ، كما أوجب على الزوجة طاعة زوجها . وقد خلق الله الرجل لا المرأة ، في صورته هو . ويعقب العالم بالقانون الكنسي على ذلك بقوله : « ويتضح من هذا أن الزوجة يجب أن تكون خاضعة لزوجها ، بل يجب أن تكون له أقرب ما تكون إلى الخادمة »^(١٥) . على أن في هذه الفقرات نغمة الرغبات المرجوة لا الحقائق الواقعة . غير أن الكنيسة

كانت تحم على الرجل ألا يتزوج بأكثر من واحدة ، وتصر على أن يكون القانون الأخلاقى ذا مستوى واحد للرجال والنساء على سواء ، وتكرم المرأة بعبادة مريم ، وتدافع عن حق المرأة فى وراثة الممتلكات .

وكان القانون المدنى أشد عداء للمرأة من القانون الكنسى . فقد كان كلا القانونين يحيز ضرب الزوجة^(٤٦) ، ولما أن أمرت « قوانين بوفيه وعاداتها فى القرن الثالث عشر » الرجل ألا يضرب زوجته « إلا لسبب »^(٤٧) كان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام . وكان القانون المدنى ينص على ألا تُسمع للنساء كلمة فى المحكمة « لضعفهن »^(٤٨) ، ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يفرضه على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها^(٤٩) . وقد حرم القانون النساء ، حتى أرقاهن مولداً ، من أن يُمثّلن ضياعهن فى برلمان إنجلترا أو فى الجمعية العامة للطبقات بفرنسا . وكان الزواج يعطى الزوج الحق الكامل فى الانتفاع بكل ما لزوجته من متاع وقت الزواج والتصرف فى ريعه^(٥٠) . ولم يكن يرخص للمرأة أن تكون طيبة .

وكان فى حياتها الاقتصادية من التنوع بقدر ما كان فى حياة الرجل ، فكانت تتعلم وتباشر فنون البيت العجيبة المجهدة : تصنع الخبز والفطائر المتنوعة ، وتطهو اللحم ، وتصنع الصابون والشمع ، والزبد والخبز ، وتعصر الجعة ، وتستخرج الأدوية البيتية من الأعشاب ، وتغزل الصوف وتنسجه ، وتنسج الأقمشة التيلية من الكتان ، وتخيّط الملابس لأسرتها ، والسجف والملاءات ، وأغطية الأسرة ، والأنسجة التى تزين بها الجدران . وكان عليها أن تزين بيتها وتحفظ به نظيفاً إلى الحد الذى يسمح به من فيه من الرجال ، وأن تربي الأطفال . وكانت فى خارج الكوخ الزراعى تشترك بقوة وجلد فى أعمال المزرعة : تبذر ، وتزرع ، وتحصد ، وتطعم الفراخ الصغار ، وتحلب البقر ، وتجز الأغنام ، وتساعد على إصلاح البيت ونقشه وبنائه . وإذا كانت من سكان المدن ، كانت وهى فى

البيت أو في الحانوت ، تقوم بغزل ما يلزم لنقابات المنسوجات الطائفية من غزل ونسيج . ولقد كانت شركة من « نساء الحرير » أول ما أنشأ في إنجلترا فنون غزل الحرير وثنيه ونسجه^(٥١) . وكان عدد النساء في معظم نقابات الحرف الإنجليزية مساوياً لعدد الرجال ، ويرجع معظم السبب في هذا إلى أن الصناعات كان يسمح لهم أن يستخدموا زوجاتهم وبناتهم ، ويسجلوا أسماءهن في النقابات . وكانت بعض النقابات الطائفية المخصصة للصائغيات من النساء تتألف من النساء وحدهن ، وكان في باريس في آخر القرن الثالث عشر خمس عشرة نقابة طائفية من هذا النوع^(٥٢) . على أن النساء قلما كن رئيسات في نقابات الحرف المكونة من الذكور والإناث ، وكن يتقاضين أجوراً أقل من أجور الرجال نظير الأعمال المتساوية . وكانت نساء الطبقات الوسطى يعرضن بملابسهن ثروة أزواجهن ، ويقمن بدور مشير في الأعياد الدينية والحفلات الاجتماعية التي تقام في البلدة . وقد ارتفعت نساء الأشراف الإقطاعيين ، باشتراكهن في تحمل التبعات مع أزواجهن ، وتقبلهن في ظرف وتمتع ما يقدمه الفرسان وشعراء الفروسية الغزلون من مراسم التبجيل والفرام ، ارتفعت أولئك النسوة إلى منزلة اجتماعية قلما ارتفعت إليها النساء من قبل .

وقد وجدت المرأة في العصور الوسطى بفضل مفاتها ، كما تجد عادة ، رغم أوامر الدين والقانون ، وسائل للتحرر من نتائج عجزها ؛ ولهذا فإن آداب ذلك العصر ملأى بأخبار النساء اللاتي حكمن رجالهن^(٥٣) . ولقد كانت المرأة من وجوه كثيرة متفوقة على الرجل معترفاً لها بهذا التفوق ، فكانت في أسر الأشراف تتعلم شيئاً من الأدب ، والنم ، والتهذيب ، بينما كان زوجها غير المتعلم يكدح ويحارب ؛ وكان في وسعها أن تظهر بكل ما لصاحبات الندوات الأدبية في القرن الثامن عشر من رشاقة ، وتتصنع الإغماء كما تصنع البطلة في روايات ريتشاردسون Richardson . وكانت في الوقت نفسه تنافس الرجل في حريته البدنية في القول والفعل ، وتبادل

ولياه قصص المغامرات ، وكثيراً ما كانت هي البادئة في الغرام دون حياء^(٥٤) . وأيا كانت الطبقة التي تنتمي إليها فقد كانت تنقل بكامل حريتها ، وقبلها كان معها محرم . وكانت تزحم الأسواق وتسيطر على الاحتفالات ، وتصاحب الرجال في الحج ، وتشارك في الحروب الصليبية ؛ ولم يكن شأنها فيها للتسلية فحسب ، بل كانت في بعض الأوقات جندياً في عدة الحرب الكاملة . وكان الرهبان الخوارج يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بأن منزلتها دون منزلة الرجال ؛ ولكن الفرسان كانوا يقتلون لنيل رضاها والشعراء يقرءون بأنهم عبيد لها . وكان الرجال يتحدثون عنها بوصفها خادماً مطيعاً ، ويحلمون بها على أنها إلهة معبودة . وكانوا يصلون لمريم العذراء ولكنهم يقنعون إذا حصلوا على إليانور الأكتانية Eleanor of Aquitaine .

ولم تكن إليانور هذه إلا واحدة من عشرات النساء العظيمات في العصور الوسطى - أمثال جلا بلاسيديا Galla Placidia ، وثيودورا ، وإيرينه Irene ، وأنا كينا Anna Commena ، وماتلده كونتة تسكانيا ، وماتلده مالكة إنجلترا ، وبلانش النبرية Blanche of Navarre ، وبلانش القشتالية ، وهلواز Héloïse ... وكان جد إليانور ولیم العاشر الأكتاني ، أميراً وشاعراً ونصيراً للشعراء الغزلين وزعماً لهم . وكان يفد إلى بلاطه في بوردو أحسن الفكهين والظرفاء وذوو الشهامة في جنوبي فرنسا الغربي ؛ وقد تربت إليانور في هذا البلاط لتكون ملكة الحياة والآداب جميعاً . واتصفت بكل ما كان في هذا الجو المشمس الحر من ثقافة وأخلاق : قوة في الجسم ، ورشاقة في الحركة ، وقوة في العاطفة الخلقية والجسمية ، وحرية في العقل والآداب والحديث ، وخيال شعري ، وروح مشرقة ، وهيام لا حده بالحب ، والحرب ، والملاذات كلها ، يكاد يصل إلى الموت . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها (١١٣٧) عرض عليها ملك فرنسا أن يتزوجها ، لأنه كان يتوق إلى ضم دوقيتها أكتين ،

وثرها العظيم بوردو إلى تاجه وموارده المالية . ولم تكن تعرف أن لويس السابع بليد ورع ، منهمك أشد الانهماك في شئون الدولة . فانتقلت إليه بمرحها ، وجمالها ، وتحررها من مقتضيات الضمير ، فلم يعجبه إسرافها ، ولم يهتم بالشعراء الذين تبعوها إلى باريس ليجزوها على رعايتها إياهم بالمدائح والقوافي .

وكانت شديدة الشوق إلى المغامرات ، فاعتزمت أن تصحب زوجها إلى فلسطين في الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧) ، ولبست هي ووصيفاتها ملابس الرجال والخلل العسكرية ، وبعثن بمغازلهن في ازدراء إلى الفرسان القاعدين في أوطانهم ، وركبن في مقدمة الجيش يلوحن بالأعلام الزاهية ومن ورائهن الشعراء الغزلون^(٥٥) . وأهملها الملك أو لامها ، فسمحت لنفسها في أنطاكية وغيرها من الأماكن ببعض مغامرات الحب ، فأشيع مرة أنها تحب عمها ريمند الپنتييري Raymond of Pontiers ، ومرة أخرى أنها تحب عبداً مسلماً جيلاً ، وقال النمامون الجهلاء مرة ثالثة إنها تحب صلاح الدين التقي الورع نفسه^(٥٦) . وصبر لويس على هذا العبث ، وعلى لسانها السليط ، ولكن القديس برنار شهر بها في العالم . وظنت أن الملك سيطلقها ، فقاضته في عام ١١٥٢ تطلب الطلاق منه بحجة أن نسبهما متصل في الدرجة السادسة . وابتسمت الكنيسة ساخرة من هذه الحجة ، ولكنها منحت الطلاق ، وعادت إلى انور إلى بوردو ، واستعادت حقها في ملك أكتين ، وفيها التفت حولها طائفة كبيرة من الخاطبين ، اختارت منهم هنرى پلانتاجنت Henry Plantagenet ولي عهد إنجلترا ؛ وبعد سنتين من ذلك الوقت أصبح هنرى الثانى ، وعادت إلى انور ملكة مرة أخرى (١١٥٤) - « ملكة إنجلترا بغضب الله » على حد قولها .

وجاءت إلى إنجلترا بأذواق الجنوب ، وظلت فيها ، كما كانت في فرنسا ، المشترعة العليا للشعراء القصّاصين والغزلين ، ونصيرتهم ، ومعبودتهم . وكانت وقتئذ قد بلغت السن التي تمكّنتها من أن تكون وفية ، ولم يجد هنرى مايشينها .

ولكن الآية انعكست ؛ فقد كان هنرى أصغر منها بإحدى عشرة سنة ولم يكن ينقص عنها فى حدة المزاج وقوة العاطفة ؛ وسرعان ما أخذ يشبع حبه بين نساء البلاط . واستشاطت إليانور غضباً واكتوى قلبها بنار الغيرة ، وهى التى كانت من قبل تحتقر الرجل الغيور . ولما أنزلها هنرى عن عرشها هربت من إنجلترا ، تريد أن تحمى بأكتين ؛ فأمر بتعقبها ، وقبض عليها ، وزجت فى السجن ؛ وظلت ستة عشر عاماً يذبل غصنها فيه وإن لم يقل ذلك من قوة إرادتها . وأثار الشعراء الغزلون عواطف أوربا على الملك ، واثمر به أبناؤه ، بإيعاز منها ، لخلعه ، ولكنه ظل يقاومهم ويحاربهم إلى يوم مماته (١١٨٩) . وخلف رتشرد قلب الأسد أباه ، وأخرج أمه من السجن ، وعيّن نائبه للملك إنجلترا حين خرج لقتال صلاح الدين فى الحرب الصليبية ، ولما أصبح ابنها جون ملكاً ، آوت إلى دير فى فرنسا ، حيث ماتت « من الحزن ، وضعف العقل » فى الثانية والسبعين من عمرها . لقد كانت إليانور « زوجة فاسدة ، وأمّاً فاسدة ، وملكة فاسدة » (٥٧) ؛ ولكن منذ الذى يفكر فيها على أنها من جنس خاضع ذليل ؟

الفصل الخامس

الأخلاق العامة

ما فتئت الشرائع والحكم الأخلاقية في كل عصر من العصور تقاوم ما درج عليه الآدميون من غش وخيانة . ولم يكن الناس في العصور الوسطى الطيب منهم والخبث أكثر أو أقل من غيرهم في هذه الناحية ، فكانوا يكذبون على أبنائهم وأزواجهم ، وطوائفهم ، وأعدائهم ، وأصدقائهم ، وحكوماتهم ، وربهم . وكان الرجل في العصور الوسطى مولعاً أشد الولع بتزوير الوثائق ، يزور الأناجيل غير الصحيحة ، ولعله لم يقصد في يوم من الأيام أن تؤخذ على أنها أكثر من قصص طريفة ؛ يزور الأوامر البابوية ليتخذها سلاحاً في السياسة الدينية ؛ وكان الرهبان الأوفياء يزورون العهود ليكسبوا بها منحةً لأديرتهم من الملوك^(٥٨) . ولقد زور لافرانك رئيس أساقفة كانتربري ، كما تقول المحكمة البابوية ، عهداً ثبت به قدم كرسية الديني^(٥٩) ؛ وزور المدرسون عهوداً يخلعون بها على بعض الكليات في كيمبردج أقدمية زائفة ، وكثيراً ما أفسدت « الأكاذيب التقيية » النصوص ، واخترعت ألف معجزة تعظم بها أصحابها . وكانت الرشوة منتشرة في التعليم ، والتجارة ، والحرب ، والدين ، والحكومة ، والقانون^(٦٠) ؛ وكان تلاميذ المدارس يرسلون الفطائر لمتحنيهم^(٦١) ، ورجال الحكم يقدمون الرشا ليعينوا في المناصب العامة ، ويجمعون من أصدقائهم ما يلزمهم من المال^(٦٢) . وكان من المستطاع تقديم الرشا للشهود لكي يقسموا أي قسم يراد منهم ، كما كان المتقاضون يقدمون الهدايا إلى المحلفين والقضاة^(٦٣) ؛ وقد اضطر لإدورد ملك إنجلترا أن يفصل معظم قضاته ووزرائه في عام ١٢٨٩ لأنهم مرتشون^(٦٤)

وكانت القوانين تتطلب أن يقسم الناس الإيمان في كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا يقسمون على الكتب أو الخلفات المقدسة ؛ وكان يطلب إليهم في بعض الأحيان أن يقسموا بالألا يقتضوا القسم الذي يوشكون أن يقسموه (٦٥) ؛ ومع هذا فإن الحث بالإيمان قد كثر إلى حد جعل الناس يلجئون إلى تحكيم القتال رجاء أن يظهر الله أى الجانبين أكثر كذباً من الجانب الآخر (٦٦) .

وكثيراً ما كان أرباب الحرف في العصور الوسطى يخدعون المشترين ببيعهم بضائع قديمة بالية ، أو منقوصة الطول ، أو يختالون عليهم ببيعهم سلعاً غير المرغوب فيها . وكان بعض الحبازين يسرقون أجزاء صغيرة من العجين أمام أعين ملائهم ، ويستخدمون لذلك الغرض باباً سرياً في وعاء العجين ؛ وكانت أقشة رخيصة توضع سرّاً في مكان أقشة غالية دفع ثمنها وتعهد البائعون بتوريدها ؛ وكان الجلد الرخيص « يزين » لكي يبدو شبيهاً بأحسن أنواع الجلود (٦٧) ، وكانت الحجارة تنحاً في أكياس الدريس والصوف التي تباع بالوزن (٦٨) ؛ واتهم الذين يعشون اللحوم في نوروتش Norwich بأنهم « يشتررون الخنازير المصابة بالحصبة ، ويصنعون منها وزماً وفطائر مضرّة بالصحة » (٦٩) . ويصف برثلد الرجنسبرجي Berthold of Regenesburg (حوالي ١٢٢٠) مختلف أنواع الغش التي تستخدم في الحرف المتباينة ، والحيل التي يحتال بها التجار في الأسواق على أهل الريف (٧٠) . وكان الكتاب والوعاظ ينددون بالجرى وراء الثروة ، ولكن حكمة ألمانية من حكم العصور الوسطى تقول : « إن كل الأشياء تطيع المال » ؛ وكان بعض الأخلاقيين في تلك العصور يرون أن حب الكسب أقوى من الغريزة الجنسية (٧١) . ولسنا ننكر أن شرف الفروسية كثيراً ما كان من الحقائق الواقعة نظام الإقطاع ، ولكن يبدو أن القرن الثالث عشر لم يكن يقل ولعاً بالمادة عن أى عهد آخر من عهود التاريخ . تلك كلها أمثلة من الاحتيال والخداع جمعتهما من أزمنة طويلة ومساحات واسعة ؛ وهى بلا ريب من الوقائع

الشاذة رغم كثرة عددها ؛ وليس من حقنا أن نستخلص منها نتيجة أكثر من أن الناس في عصر الإيمان لم يكونوا خيراً منهم في عصرنا هذا عصر الشك ، ومن أن القانون والأخلاق قلما أفلحا في الاحتفاظ بالنظام العام ضد ماركب من نزعة فردية في طبيعة الناس الذين لم يقصد بهم بفطرتهم أن يكونوا مواطنين خاضعين للقانون .

وكانت معظم الدول تعاقب على جريمة السرقة الخطيرة بالإعدام ، كما كانت الكنيسة تحكم على مرتكبي السطو بالحرمان من الدين ؛ ومع هذا فإن السرقة بأنواعها - من النشل في الطرق إلى الأشراف النهابين على ضفاف الرين - كانت من الجرائم الواسعة الانتشار . وكان مرتزقة الجنود الجياع ، والمجرمون الفارون والفرسان المفلسون ، يجعلون الطرق غير آمنة ؛ وكانت شوارع المدن تشهد في ظلام الليل كثيراً من الشجار ، والسرقة ، والاعتصاب ، والاعتقال^(٧٢) . وتدل سجلات أسباب الوفاة في « إنجلترا الطروب » في القرن الثالث عشر على « نسبة في الاعتقال إذا حدثت في هذه الأيام عُدّت من الفضائح »^(٧٣) . ويكاد الاعتقال يبلغ ضعف عدد حالات الموت بسبب الحوادث المفاجئة ، وقلما كان يقبض على المجرمين . وكانت الكنيسة تجاهد وهي صابرة للقضاء على حروب الإقطاع ، ولكن ما ناله من نصر متواضع في هذه الناحية كان سببه أنها حولت الناس وخصامهم إلى الحروب الصليبية ، التي كانت من إحدى النواحي حروباً استعمارية تبغى الفتح والمكاسب التجارية ؛ فلما اشتبك المسيحيون في الحرب لم يكونوا أكثر رضا بالهزائم أو أكثر وفاء بالعهود والمعاهدات من المحاربين المتمين إلى الأديان والعهود الأخرى .

ويبدو أن القسوة والوحشية كانتا في العصور الوسطى أكثر منهما في أية حضارة قبل حضارتنا نحن . ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا عن بربريتهم بمجرد أن صاروا مسيحيين . وكان رجال الأشراف ونسائهم يصفعون خدمهم ويصفع

بعضهم بعضاً ؛ كما كان القانون الجنائي قاسياً قسوة وحشية ، ولكنه عجز مع ذلك عن قمع الوحشية والجريمة . فكثيراً ما كان التعذيب بالعذراء ، ويخفنة الزيت الملتب ، وبعمود الإحراق ، وحرق الأحياء ، وسلخ جلودهم ، وتمزيق أطرافهم بشدها إلى الحيوانات ، كثيراً ما كانت هذه الوسائل الوحشية تستخدم في العقاب . وكان القانون الأنجليسكسوني يعاقب الجارية السارقة بإرغام ثمانين جارية على أن تؤدي كل واحدة منهن غرامة ، وأن تأتي بثلاث حزم من الوقود وأن تحرق السارقة حية (٧٥) . ويقول سلمبيني Salimbene الراهب الإيطالي في تاريخه الإخباري ، وكان معاصراً للحروب التي شبت ناراها في إيطاليا الوسطى في القرن الثالث عشر ، إن المسجونين كانوا يعاملون بوحشية لو أننا سمعنا بها في شبابنا لما صدقناها :

فقد كانوا يربطون رموس بعض الرجال بحبل ومخلة ، ويشدون الحل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها ، وتسقطها على خدودهم ؛ ومنهم من كانوا يربطونهم بإبهام يدهم اليمنى أو اليسرى وحدها ، تحمل ثقلهم كله بعد أن يرفعوا عن الأرض ، ومنهم من كانوا يعذبون بصنوف من العذاب أشنع من هذه وأشد منها رهبة أخجل من ذكرها ؛ وآخرون ... كانوا يجلسون وأيديهم مشدودة خلف ظهورهم ، ويضعون تحت أقدامهم أوعية مملوءة بالفحم الملتب ... أو يربطون أيديهم بأرجلهم حول حفرة (كما يربط الحمل وهو ينقل إلى القصاب) ويثقلونهم معلقين على هذا النحو طول النهار من غير ما طعام ولا شراب ؛ أو كانوا يحكون قصبات أرجلهم بقطعة خشنة من الخشب حتى يظهر عظم الساق عارياً من اللحم ، وهو عمل تكفي رؤيته وحدها لأن تبعث الأسى والألم في النفوس (٧٦) . وكان رجل العصور الوسطى يتحمل الألم بشجاعة ، ولعله كان أقل إحساساً به مما يبدو على رجال أوروبا الغربية في هذه الأيام . وكان الرجال والنساء من جميع الطبقات شهيوانيين إلى حد بعيد ؛ وكانت أعيادهم ولائم شراب ، وميسر .

ورقص ، وانطلاق في العلاقات الجنسية ؛ وكانت فكاهاتهم صريحة في بدءاتها صراحة لاتكاد تماثلها فيها فكاهات هذه الأيام (٧٧) ؛ وكانت أحاديثهم أكثر من أحاديث هذه الأيام حرية وأوسع منها مجالا (٧٨) ؛ وقبلما كان رجل في فرنسا يفتح فاه من غير أن يذكر الشيطان ، على حد قول جوانفيل (٧٩) . وكان الناس في العصور الوسطى أقدر على سماع الفحش منا ، ولم يكونوا يبرمون من الإصغاء إلى أفحش الأقوال التي وردت في مقالات ربله Rabelais ؛ وحسبنا أن نذكر أن الرهابات في كتب تشوسر كن يستمعن دون حياء إلى الأقدار الواردة في قصة ملر Miller's Tale ؛ وفي أخبار سلميني الصالح أجزاء تبلغ من البذاءة والفحش درجة تعز على الترجمة (٨٠) . وكانت الحانات كثيرة العدد ، وكان منها ما يقدم « فطائر » بالجمعة على طراز هذه الأيام (٨١) . ولقد حاولت الكنيسة أن تغلق الحانات في أيام الآحاد ، ولكنها لم تلتق إلا قدراً ضئيلاً من النجاح . وكان من حق جميع الطبقات أن تسكر في بعض الأوقات ، وقد وجد زائر لمدينة لوبك Lübeck نساء من طبقة الأشراف في حجرة الخمر يدمن الشراب من تحت أقنعتهم (٨٢) . وكان في كولوني جمعية يلتقى أعضاؤها لشرب النبيذ مجتمعين وقد اتخذت شعاراً لها : « اشرب وأنت مرح » ولكنها كانت تفرض على أعضائها قواعد صارمة من الاعتدال في السلوك والأدب في الحديث .

وكان رجل العصور الوسطى كغيره من الرجال مزيحاً بشريا كاملاً من الشهوانية والغرام، والذلة، والأنانية ، والقسوة ، والرقعة، والصلاح ، والشره ؛ فقد كان أولئك الرجال والنساء ، الذين يشربون ويسبون بكل ما فيهم من قوة، رحماء رحمة تمس شغاف القلوب، يخرجون آلاف الصدقات . وكانت القطط والكلاب وقتئذ كما هي الآن حيوانات مدللة ، وكانت الكلاب تدرب على قيادة المكفوفين (٨٥) ؛ وقد نمت في قلوب الفرسان عاطفة الحب لخيولهم، وصقور صيدهم ، وكلابهم . وبلغ تنظيم الصدقات مستوى رفيعاً جديداً في القرنين الثاني

عشر والثالث عشر ، فكان الأفراد ، وكانت النقابات الطائفية ،
والحكومات ، والكنيسة تشترك كلها في تخفيف آلام المنكوبين . وكان
إخراج الصدقات واجبا عاما يؤديه الجميع ، فالذين يرجون دخول الجنة
يوصون بالأموال للصدقات ، والرجال الأغنياء يتبرعون بمهور البنات
الفقيرات ، ويطعمون العشرات من الفقراء في كل يوم ، والمئات منهم
في الأعياد الكبرى . وكان الطعام يوزع عند كثير من أبواب بيوت
الأشراف ثلاث مرات في الأسبوع على كل من يطلبه^(٨٦) . وكانت كل
سيدة عظيمة ، إلا القليل النادر منهم ، تحس أن واجبا الاجتماعى ، إن لم يكن
واجبا الأخلاق ، أن تشترك في تدبير شئون الصدقات ؛ ولقد دعا روجر
بيكن في القرن الثالث عشر إلى أن تنشئ الدولة رصيذاً للإنتفاق منه على
للفقراء ، والمرضى ، والطاعنين في السن^(٨٧) ، ولكن القسط الأكبر من هذا
العمل ترك تدبيره إلى الكنيسة ؛ فقد كانت الكنيسة من إحدى نواحيها
مُنظَّمة للصدقات تشمل القارة بأسرها ؛ وكان جريجورى الأكبر ،
وشارلمان ، وغيرهم يحتمون أن يخصص ربع العشور التى تجبها كل أبرشية
لمعونة الفقراء والعجزة^(٨٨) ؛ وقد نفذ هذا إلى حين ، ولكن استيلاء الرؤساء
من رجال الدين والعلمانيين على إيرادات الأبرشيات ، أدخل بإدارتها
لمواردها في القرن الثانى عشر ، وتحمل عبء هذه الصدقات أكثر من ذى
قبل الأساقفة ، والرهبان ، والراهبات والبابوات . وكانت الراهبات
كلهن ، إلا عددا قليلا من الخاطئات ، يهبن أنفسهن للتعليم ، والتمريض ،
وأعمال البر ؛ وإن أعمالهن المطردة الاتساع في هذه النواحي لتعد من أنصع
الأعمال وأعظمها تقوية للعزائم في تاريخ العصور الوسطى وتاريخ هذه الأيام .
وكانت الأديرة التى تستمد مواردها من الهبات والصدقات ، وإيراد الأملاك
الكنسية ، تطعم الفقراء ، وتعنى بالمرضى ، وتفتدى الأسرى ؛ وكان آلاف
من الرهبان يعلمون الشبان ، ويعنون بالأبتمام ، ويعملون في المستشفيات ؛
وكان دير كلوفى العظيم يكفر عما له من ثراء واسع بالتصدق بالكثير من أمواله ؛

وكان البابوات يبذلون كل ما في وسعهم لمساعدة فقراء رومة ، وواصلوا بطريقتهم الخاصة النظام الإمبراطوري القديم نظام توزيع الطعام على الأهلين . ولكن التسول كان كثيراً بالرغم من هذا البر كله ؛ فقد كانت المستشفيات وبيوت الإحسان تحاول إطعام كل من يقصدها وإيواءهم ؛ وسرعان ما أحاط أبوابها العُرج ، والمقعّدون ، والمقطوعو السيقان ، والمكفوفون ، والأفاقون ذوو الثياب البالية الذين ينتقلون من « مستشفى إلى مستشفى ويجوسون خلالها يتصيدون لقيات الخبز وقطع اللحم » (٨٩) . وقد اتسع نطاق التسول في العالم المسيحي في العصور الوسطى وزاد المتسولون إصراراً على مهنتهم ، وبلغ هذا الاتساع والإصرار حداً لا نظير له في أفقر الأراضي في الشرق الأقصى .

الفصل السادس

ملابس العصور الوسطى

تُرى أى صنف من الناس كان سكان أوروبا فى العصور الوسطى ؟
ليس فى وسعنا أن نقسمهم عناصر ، فقد كانوا جميعاً من « العنصر الأبيض »
إذا استثنينا منهم العبيد الزنوج ، ولكنهم كانوا مع هذا خليطاً متنوعاً من
الخلق لا يستطيع أحد تصنيفهم . كان منهم يونان بيزنطية وهلاس ؛
والإيطاليون أنصاف اليونان سكان إيطاليا الجنوبية ، وسكان صقلية اليونان
— المغاربة — اليهود ؛ وكان منهم أهل إيطاليا الرومان ، والأمبريون ،
والتسكان ، واللمبارد ، والجنويون ، والبنادقة ؛ وقد بلغ من تباين هؤلاء
أن كانت كل طائفة منهم تنم عن أصلها يثابها ، وشعر رأسها ، ولسانها ؛
وكان منهم البربر ، والعرب ، واليهود ، ومسيحيو أسبانيا ، وكان منهم
الفرنسيون الغسقونيون ، والبرغنديون ، والباريسيون ، والنورمان ؛ ومنهم
أهل الأراضي الوطيفة القلمنكيون ، والوالون Walloons ، والهولنديون ؛
ومنهم أهل إنجلترا الكلت ، والإنجليز ، والسكسون ، والدنمركيون والسلالات
النورمانية ؛ وكلت ويلز ، وأيرلندة ، واسكتلندة ، والترويجيون ،
والسويديون ، والدنمركيون ؛ ومنهم مئات القبائل الألمانية ؛ والفنلنديون ،
والمجر والبلغار ؛ وصقالبة بولندة ، وبوهيميا ؛ والدول البلطية ، والبلقان ،
والروسيا . وقصارى القول أن أوروبا قد تجمع فيها خليط من الدماء
والأجناس . والأنوف ، واللحي ، والثياب ، لا ينطبق على تباينه العظيم
أى وصف من الأوصاف .

وكان الجنس الألماني قد أصبحت له الغلبة فى الطبقات العليا فى جميع بلاد
أوروبا الغربية ما عدا جنوبي إيطاليا وأسبانيا ، وذلك بسبب الهجرات والفتوح

التي لا يحصى عديدها . وقد بلغ الإعجاب بشعر الجنس الأشقر وعيونه مبلغا
اضطر القديس برنار أن يجاهد طوال موعظة كاملة لكي يوفق بين هذا
الإعجاب وبين العبارة الواردة في نشيد الإنشاد القائلة : إلى أسود ولكن
جميل ؛ وكان الفارس المثالي طويلا ، أشقر ، ملتحيًا ؛ كما كانت المرأة
المثالية في الملاحم والروايات نجيحة ممشوقة القوام ، رشيقة ، زرقاء العينين ،
ذات شعر طويل أشقر أو ذهبي . وقد حل محل شعر الفرنجة الطويل عند
الطبقات العليا في القرن التاسع رموس مقصوصة الشعر من الخلف ، وليس
عليها من الشعر إلا غطاء في أعلاها ؛ واختفت اللحي بين الطبقات العليا من
الأوربيين في القرن الثاني عشر ؛ غير أن الذكور من الزراع ظلوا يطيلون
لحاهم القذرة وشعر رؤسهم إلى حد اضطروا معه أحياناً إلى جمعه في
جدائل (٩٠) . وكان أهل إنجلترا على اختلاف طبقاتها يطيلون شعر رؤسهم ،
وكان المتأنقون الفناجرة في القرن الثالث عشر يصبغون شعرهم ويلوونه
بمكاوٍ من الحديد ، ويربطونه بالأشرطة (٩١) . وكانت النساء المتزوجات
في هذا القرن وذاك البلد يربطن شعرهن بشبكة من الخيوط الذهبية ،
بينما كان الغلمان من الطبقات العليا يرسلونه على ظهورهم ، وكانت لهم في
بعض الأحيان بالإضافة إلى هذا ، جديلتان تنوسان على صدورهم منحدرتان
فوق أكتافهم (٩٢) .

وكان أهل أوروبا الغربية في العصور الوسطى أكثر وأجمل ثياباً مما كانوا قبل
ذلك الوقت أو بعده ؛ وكثيراً ما كان الرجال يفوقون النساء في زينة الثياب وبهجة
ألوانها . وكانت الجبة والعباءة الرومانيتان الفضفاضتان في القرن الخامس عشر
تحاربان حرباً خاسرة مع السراويل القصيرة والمناطق التي كان الغاليون يلبسونها
ويتمنطقون بها ؛ فقد كان جو الشمال الحار وأعماله الحربية يتطلبان ثياباً أضيق
وأتمك مما أوحى به دفء الجنوب وما فيه من راحة ؛ ولما انتقل مركز القوة
إلى شمال جبال الألب أعقب ذلك الانتقال ثورة في الثياب . فكان الرجل
العادي يلبس سروالا طويلا ضيقا يعلوه قباء ، أو قميص نصفي ، مصنوعان من

الجلد أو القماش المتين ، ويعاق في منطقته سكيناً ، وكيساً ، ومفاتيح ، وعدد الصانع إن كان من الصانع ؛ وكان يرسل فوق كتفيه لفافة أو حرملة ، ويضع على رأسه قلنسوة أو قبعة من الصوف ، أو اللباد أو الجلد ؛ ويغطي رجله بجوربين طويلين ، وينتعل حذاءين عاليين من الجلد ينحنيان إلى أعلى عند أصابع القدمين ، كيلا يتمزقا من الاصطدام . وازداد طول الجورب قرب أواخر العصور الوسطى حتى بلغ أعلى الفخذ ، وتطور منه السروال غير المريح الذي استبدله الرجل الحديث بقميص الشعر ثوب القديسين في العصور الوسطى ، كأن هذا السروال كفارة غير منقطعة عن ذنوبه الماضية . وكانت أجزاء الثياب كلها تقريباً من الصوف إلا القليل منها المصنوع من الجلد المدبوغ وغير المدبوغ الذي كان يلبسه الفلاحون أو الصائدون ؛ وكانت كلها تقريباً تغزل وتنسج وتفصل وتخاط في البيت ؛ ولكن الأغنياء كان لهم خياطون خاصون يسمون في إنجلترا « المقصات » ، واستغنى قبل القرن التاسع عشر عن الأزارار التي كانت تستعمل من حين إلى حين في العهد القديم ، ثم عادت إلى الظهور لتكون زينة لا ينتفع بها في شيء ؛ ومن هنا جاءت عبارة « لا يساوى زرا Not worth a button » الإنجليزية^(٩٣) . ونشأت في ألمانيا في القرن الثاني عشر بين الرجال والنساء على السواء عادة لبس جلباب ذي حزام فوق الحلة الألمانية الضيقة .

وكان الأغنياء يزينون هذه الأثواب الأساسية بمائة من الوسائل التي تفتق عنها خيالهم . فكانت حواشيها وأطرافها اللاصقة للعتق تسوى بالفراء ؛ وحل الحرير ، أو الأطلس ، أو المخمل محل التيل أو الصوف حيث يسمح بذلك الجو ؛ وغطى الرأس بقلنسوة من المخمل ، وانتشلت أحذية من القماش الملون تنطبق كل الانطباق على شكل القدمين . وكانت أجمل الفراء تستورد من روسيا ؛ وأحسنها كلها الفراء الثمينة المتخذة من جلد القاقم الأبيض ؛ وكان يحدث أن يرهن الأشراف أراضهم ليبتا عوا جلد قاقم لزوجاتهم . وكان الأغنياء يلبسون سراويل

تحتية من التيل الأبيض الرفيع ، وجورباً طويلاً ملوناً في أغلب الأحيان ، ومصنوعاً عادة من الصوف ، وفي بعض الأحيان من الحرير ؛ وقيصاً من التيل الأبيض ، ذا طوق فاخر ووردن جميل ؛ وكان يلبس فوق هذا كله مثزراً ، ومن فوقها كلها في الجو البارد أو المطير عباءة ، أو حرملة ، يمكن أن تمتد حتى تغطي الرأس . وكانت بعض القلائس ذات قبة مستوية مربعة ؛ وقد اصطنع هذه القلائس المعروفة باسم « الألواح الملائم mortiers » الحامون والأطباء في أواخر العصور الوسطى ، وبقيت الآن في أثواب كبار رجال الكليات الجامعية . وكان المتأثقون في الثياب يلبسون قفازين في كل الجواء و« يكنسون الأرض المتربة بأذيال مآزرهم وجلايبهم الطويلة » كما يقول الراهب أردركس فيتالس Ardericus Vitalis شاكياً متحسراً^(٩٤) .

ولم يكن الرجال يزينون بالخلي أجسامهم وحدها ، بل كانوا يزينون بها أيضاً ثيابهم - قلانسهم ، ومآزرهم ، وأحذيتهم . وكانت بعض الأردية تطرز عليها باللؤلؤ نصوص مقدسة أو عبارات بديئة^(٩٥) ؛ وأخرى تزين أطرافها بمخرمات منسوجة من خيوط الذهب أو الفضة ؛ ومنهم من كان يلبس ثياباً من خيوط الذهب . وكان على الملوك أن يميزوا أنفسهم بزينة أكثر من هذه كلها ؛ فكان إدورد المعترف يلبس مثزراً مزركشاً بالذهب من صنع زوجته المهذبة إدجيثا Edgitha ، وكان شارل الجسور Charles the Bold صاحب برغندي يلبس مثزراً فخماً مطعماً بالحجارة الكريمة ومثقلاً بها يقدر ثمنه بمائتي ألف دوق (نحو ١٠٠٠ر٠٨٢ دولار) . وكان الناس كلهم عدا الفقراء منهم يتختمون ، وكان لكل إنسان ذى شأن ولو ضئيل خاتم منقوش عليه رمزه الخاص ، وكانت أية علامة بهذا الخاتم تقبل على أنها توقيع هو نفسه .

وكانت الملابس تعدّ دليلاً على منزلة الإنسان وأثرائه ، وكانت كل طبقة تحتاج إذا قلدت أثوابها الطبقة التي دونها ، وقد سنت القوانين المالية - كما حدث

في فرنسا في سنتي ١١٤٩ و ١٣٠٦ - لتنظم ما يتفق عليه الناس على ملابسهم حسب ثروتهم وطبقاتهم . وكانت حاشية السيد العظيم ، أو جماعة الفرسان التابعين له ، تلبس في المناسبات والأعمال الرسمية أثواباً يهديها هو إلى أفرادها مصبوغة باللون المحبب له أو الذي يميزه عن غيره ؛ وكانت هذه الحلل الخاصة تسمى بالفرنسية *livrée* (وبالإنجليزية *livery*) (ومعناها الموزعة) لأن السيد الكبير كان يوزعها (*deliver*) مرتين في العام . على أن الأثواب الجيدة في العصور الوسطى كانت تعمل لتبقى مدى الحياة ، ومنها ما كان يعنى أصحابه بالنص على من توول إليه في وصيته .

وكانت نساء الطبقات العليا يلبسن قيصاً طويلاً من التيل ، ومن فوقه جلباب أو مئزر ذو حواش من القراء يصل إلى القدمين ويعلوه قيص نصفي يبقى منفرج الطرفين إذا لم يكن في الدار غرباء ، ولكنه يربط طرفاه إذا جاء البيت زوار ؛ وذلك لأن جميع النساء المتأنقات يتقن إلى أن يظهرن نحيلات القوام . وقد يتمنطقن بمناطق مرصعة بالجواهر ، ويمسكن بكيس من الحرير ، ويلبسن بأيديهن قفازاً من جلد الشاهوا . وكثيراً ما كن يضعن الأزهار في شعرهن ، أو يربطنه بخيوط من الحرير ذات الجواهر . وكانت بعض السيدات يثرن غضب رجال الدين ، وغضب أزواجهن بلا ريب ، بأن يلبسن قبعات طويلة مخروطية مزدانة بقرنين ؛ وقد جاء على النساء حين من الدهر كانت فيه المرأة غير ذات القرنين هدفاً لسخرية الساخرين^(٩٦) . وأصبحت الكعاب العالية في أواخر العصور الوسطى هي الطراز المحبب ؛ وكان الناقدون الأخلاقيون يشكون من أن النساء كثيراً ما يرفعن أطراف أثوابهن بوصة أو بوصتين ليظهرن أرساغهن وأحذيتهم الظرفية ؛ أما سيقان النساء فلم يكن يبصرها إلا الأخصاء ، وكانت روثها غالية الثمن . وقد ندد دانتي بنساء فلورنس لظهورهن علناً في ثياب « تكشف عن صدورهن وأندائهن »^(٩٧) . وكانت ثياب النساء في حفلات

البرجاس موضعاً للتعليقات المثيرة من رجال الدين ؛ وقد وضع الكرادلة قوانين يحددون بها طول أثواب النساء ؛ ولما أمر رجال الدين أن تلبس النساء النقاب حرصاً على أخلاقهن « جعلن هذا النقاب يصنع من الموصلين الرقيق والحرير المشغول بالذهب ، فظهرن فيه أجمل عشرات المرات مما كن بغيره ، واستلفتن عيون النظارة وأغرينهم بالفساد أكثر من ذي قبل » (٩٨) ؛ وكان جويو البروفنسى Guyot of Provins يشكو من أن النساء يستغلن المساحيق على وجوههن بكثرة لم يبق معها من هذه المساحيق شيء تلوّن به الصور والتماثيل في الكنائس ، وأنذرهن بقوله لهن حين يلبسن الشّعر المستعار ، أو يضعن الكمادات أو مسحوق القول ولبن الخيل على وجوههن لتجميلها ، إنما يصفن بذلك مئات السنين لمقامهن في الأعراف (٩٩) . وقد عتّف برثلد الرجنسبرجى Berthold of Regenesburg حوالى ١٢٢٠ النساء بفصاحة ما كان أضيّعها :

أيّها النساء ، إنكن ذوات حنان عظيم ، وإنكن لأسرع في الذهاب إلى الكنيسة من الرجال . . . ومنكن من سينجون لولا شرك واحد تقعن فيه : . . . ذلك أنكن تردن أن تنلن إعجاب الرجال فتصرفن جهودكن كلها في زينة ثيابكن . . . والكثيرات منكن يؤدين للخياطة أجراً لا يقل عن ثمن الثوب نفسه ؛ فالثوب يجب أن يكون له وقايتان على الكتفين ، ويجب أن يثنى وتكون له أهداب حول أطرافه كلها ؛ وأنن لا تكتفين بإظهار فخركن في عُرّى أزراركن نفسها ، بل إنكن فوق هذا ترسلن أقدامكن إلى الجحيم بما تحملنها من أنواع العذاب الخاصة بها . . . وأنن تشغلن أنفسكن ببراقعكن ! وتحولنها تارة إلى هذه الناحية وتارة أخرى إلى تلك ، وتطرزنها في مواضع مختلفة بحبوط الذهب ، وتصرفن فيها كل جهودكن ، فتقضى إحداكن ستة أشهر كاملة في صنع نقاب واحد ، وهو عمل آثم لا تبتغى به أكثر من أن يثنى الرجال على ثيابها فيقولون : « زبّاه ! ما أجمله ! هل وُجد من قبل ثوب يضارعه في الجمال ؟ » . أما هن

فيقلن : « أيها الأخ برثلد ، إنا لا نفعل هذا إلا إكراما للرجل الصالح ، حتى تقل نظراته إلى غيرنا من النساء » . لا ، ياسيدتي ، صدقي ، لو أن رجلك الصالح صالح بحق ، لفضل أن يستمع إلى حديثك الطاهر عن النظر إلى زينتك الخارجية . . . إن في وسعكم أيها الرجال أن تقضوا على هذا ، وتكافحوه بقوة ، بالقول الحسن أولا ، فإذا أصررن على عنادهن ، فأقدموا بشجاعة . . . وانزعوه من فوق رموسهن ، ولو اقتلعت معه أربع شعرات أو عشر ، وألقوه في النار ! ولا تفعلوا هذا مرتين أو أربع مرات فحسب ، وسترون أنهم سرعان ما يرجعون عن غيبن^(١٠٠) .

وكانت النساء في بعض الأحيان يتأثرن بهذا الوعظ ، وحدث قبل أيام سفنرولا Savonarola بمائتي عام أن ألقين براقعهن وحليهن في النار^(١٠١) . ولكن أمثال هذه الثوبة كانت لحسن الحظ نادرة وقصيرة الأجل .

الفصل السابع

في المنزل

لم يكن منزل العصور الوسطى مريحاً كثيراً ؛ فقد كانت نوافذه قليلة ،
وقلما كان بها ألواح زجاجية ؛ وكانت المصاريع الخشبية تغلقها لمنع البرد
ووهج الشمس . وكان موقد يدفئ المنزل أو أكثر من موقد ، وكانت التيارات
الهوائية تدخله من مئذنت الثقوب التي في الجدران ، وتجعل المقاعد ذات
الظهور العالية نعمة كبرى . وكان من عادة سكانها أن يلبسوا في الشتاء
قبعات وفراء مدفنة في داخل المنزل نفسه . وكان الأثاث قليلا ولكنه جيد
الصنع ، والكراسي أيضاً قليلة ، وكانت في العادة غير ذات ظهور ، ولكنها
كانت في بعض الأحيان منحورة حفرأ جميلا ، ومنقوشاً عليها شارات أصحابها
المميزة ، ومطعمة بالحجارة الكريمة . وكانت معظم المقاعد تحفر في أبنية
الجدران أو تبنى فوق صناديق في مظلات البساتين . وكانت الطنافس نادرة
الاستعمال قبل القرن الثالث عشر ، ولكن إيطاليا وأسبانيا كانتا تستعملانها ؛
ولما انتقلت إليانور القشتالية إلى إنجلترا في عام ١٢٥٤ للزواج من إدوارد
الأول غطى خدمها أرض جناحها في وستمنستر بطنافس كما يفعل أهل أسبانيا -
ومن ثم انتشرت هذه العادة في إنجلترا . أما أرض البيوت العادية فكانت
تنثر عليها الأعشاب أو القش ، فكانت بعض البيوت لهذا السبب كريهة
الرائحة إلى حد يابى معه قس الأبرشية أن يزورها . وكانت أنسجة مزركشة
تغطي بعض الجدران ، لتزينها وتمنع عنها تيارات الهواء ، ولتقسم بهو
المنزل الكبير إلى حجرات صغيرة . وظلت بيوت إيطاليا وپروفانس
تحتفظ بذكريات الترف الروماني ، فكانت لذلك أوفر راحة وأكثر مراعاة

لشروط الصحة من بيوت شمال أوروبا . وكانت بيوت الطبقات الوسطى في ألمانيا تحصل على ما يلزمها من الماء من مضخات مركبة على آبار توصل الماء إلى المطبخ (١٠٣) . .

ولم تكن النظافة في العصور الوسطى من الإيمان ؛ وكانت المسيحية الأولى قد نددت بالحمات وقالت إنها بوئر للفساد والفسق ، وكان تحقيرها للجسم بوجه عام مما جعلها تهمل العناية بقواعد الصحة . ولم يكن استعمال المندبل على الطريقة الحديثة معروفاً في ذلك الوقت (١٠٣) ؛ وكانت النظافة تتبع الثروة وتختلف باختلاف دخل الأفراد ؛ فكان السيد الإقطاعي ، ورجل الطبقة الوسطى المثري ، يستحمان مرات معقولة في أحواض خشبية كبيرة ، ولما انتشر الثراء في القرن الثاني عشر انتشرت معه نظافة الجسم ؛ وكانت مدن كثيرة في ألمانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا في القرن الثالث عشر تحتوى حمامات ؛ ويقول أحد الكتاب إن أهل باريس كانوا يستحمون في عام ١٢٩٢ أكثر مما يستحمون في القرن العشرين (١٠٤) ، وكان من نتائج الحروب الصليبية إدخال حمامات البخار العامة من بلاد الإسلام إلى أوروبا (١٠٥) ، وكانت الكنيسة تعارض وجود الحمامات العامة بحجة أنها تفسد الأخلاق ؛ وكان لهذه المخاوف ما يبررها في كثير من تلك الحمامات ؛ وكان في بعض البلدان حمامات معدنية عامة .

وكان بالأديرة ، وقصور سادة الإقطاع ، وبيوت الأغنياء ، مراحيض تفرغ محتوياتها في بالوعات ، ولكن سكان معظم البيوت كانوا يقضون حاجتهم في مراحيض خارج البيت ، وكان المرحاض الخارجي الواحد في كثير من الحالات يفي بحاجة اثني عشر منزلاً (١٠٦) . وكانت الأنابيب التي تنقل الفضلات من ضروب الإصلاح التي أدخلت إلى إنجلترا في عهد إدورد الأول (١٢٧١ - ١٣٠٧) وكانت أوعية حجلات النوم في بيوت باريس في القرن الثالث عشر تفرغ من النوافذ في شوارع المدينة ، ولا يصحب هذا العمل إلا تحذير للمارة :

احذروا الماء ! Gar l'eau - وظلت هذه الحوادث المفاجئة السيئة يتكرر ذكرها في المسالى إلى أيام مولير . وكانت المراحيض العامة ترفاً نادر الوجود ؛ وقد وجد بعضها في سان چميناو San Gimignano عام ١٢٥٥ ، ولكن فلورنس لم يكن فيها وقتئذ شيء منها^(١٠٧) ، فكان الناس يقضون حاجتهم في فناء المنزل ، وعلى درج السلم ، وفي الشرفات ؛ وكان ذلك يحدث في قصر اللوفر نفسه . وقد صدر مرسوم بعد وباء ١٥٣١ يحتم على أصحاب البيوت في باريس أن ينشئوا مرحاضاً في كل بيت ، ولكن هذا الأمر كثيراً ما كان يخالف^(١٠٨) .

وكان أفراد الطبقات العليا والوسطى يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، لأنهم كانوا يتناولون معظم الطعام بأصابعهم ؛ ولم تكن هناك إلا وجبتان منتظمتان في اليوم ، إحداها في الساعة العاشرة صباحاً ، والأخرى في الرابعة مساء ؛ غير أن كلتا الوجبتين قد تدوم عدة ساعات ؛ وكان موعد الوجبة في البيوت الكبيرة يعلن بالنفخ في بوق الصيد . وقد تكون مائدة الطعام ألواحاً خشنة تقام على قوائم من الخشب ، وقد تكون أحياناً خواناً عظيماً متين الصنع من الخشب الثمين المحفور حفرأ يدعو إلى الإعجاب ، وكان من حولها مقاعد أو دكك ، والدكة تسمى بالفرنسية banc ومنها اشتق لفظ banquet للوليمة . وكانت في بعض البيوت الفرنسية آلات عجبية ترفع مائدة كاملة الإعداد من طبقة سفلى أو تنزلها من طبقة عليا ، ثم تنزلها من فورها حين يفرغ الجالسون من تناول الطعام^(١٠٨) ، وكان الخدم يحملون أباريق الماء لكل طاعم يغسل فيها يديه ويجففهما في قطائل يأخذها أولئك الخدم ، ولم تكن هذه القطائل تستخدم في القرن الثالث عشر ، ولكن الطاعمين كانوا يجففون أيديهم في غطاء المائدة^(١١٠) . وكان الطاعمون يجلسون أزواجاً ، كل زوج مكون من رجل وامرأة ، وكان كل اثنين يأكلان عادة من صفحة واحدة ، ويشربان من كوب واحد^(١١١) . وكان كل فرد يعطى ملعقة ؛ وكانت الشوك معروفة في القرن الثالث عشر ، ولكنها قلما كانت تقدم

للطاعمين ؛ وكان الآكل يستخدم سكينه الخاصة . وكانت الأكواب ، وأطباقها ،
والصحاف تصنع عادة من الخشب (١١٢) ، ولكن سادة الإقطاع والأغنياء من
الطبقة الوسطى كانت لهم صحاف من الخزف أو من مزيج القصدير والرصاص ،
ومنهم من كان يضع على المائدة أدوات من الفضة ، بل إنها كانت تتخللها
آنية من الذهب في بعض الأحيان (١١٣) . وقد تضاف إلى هذه الآنية صحاف
من الزجاج ، وصفحة أخرى كبيرة من الفضة في صورة سفينة ، تحتوي
أنواعا من التوابل ، وسكين صاحب الدار وملعقته . وكان كل اثنين من
الآكلين يعطيان قطعة كبيرة من الخبز ، مستوية ، ومستديرة ، وسميكة .
يضع عليها كل واحد اللحم والخبز يأخذها بأصابعه من الصحيفة العامة التي
يدار بها عليه . وكان الطاعم يأكل هذه القطعة بعد نهاية الطعام أو تعطى إلى
الكلاب والمقطط التي يغص بها المكان ، أو ترسل إلى الفقراء من الجيران .
وكانت الوجبة العظيمة تختتم بالتوابل والحلوى ، ثم بالنيذ .

وكان الطعام موفورا ، أو متنوعا ، وحسن الإعداد ، إلا أن انعدام
وسائل التبريد سرعان ما كان يفسد اللحم ، ويعلى من شأن التوابل التي
يستطاع بها حفظه أو إخفاء تلفه ؛ وكانت بعض هذه التوابل تستورد
من بلاد الشرق ولكن غلو ثمنها كان يجعل الناس يزرعون غيرها في
حدائق البيوت - ومن هذه البقدونس ، والخردل ، والقصعين ،
واليانسون ، والثوم ، والشبث . . . وكانت كتب الطهو كثيرة ومعقدة ؛
وكان الطاهي في المنزل العظيم رجلا عظيم الشأن يحمل على كتفيه كرامة البيت
وسمعه . وكانت لديه طائفة كبيرة من الأوعية النحاسية ، وآنية الغلي ؛
والقُدُور ؛ وكان يفخر بما يقدمه من الأصناف التي تسر العين وتلذذ الفم .
وكان اللحم ، والدجاج ، والبيض رخيصا (١١٤) ، وإن كان ثمنها مع ذلك
يضطر الفقراء إلى الاقتصاد على الخضبر وهم كارهون (١١٥) . وكان الفلاحون
يطعمون الخبز الأسمر الخشن المصنوع من دقيق الشعير ، والشوفان ،

أو الشيلم كاملاً ، يخبز في البيت ؛ أما سكان المدن فكانوا يفضلون الخبز الأبيض - يصنعه الخبازون - يظهرون بذلك علوهم عن أهل الريف . ولم تكن هناك بطاطس ، أو بن ، أو شاي ؛ ولكن اللحوم والخضر التي تؤكل الآن في أوروبا - ومنها ثعابين الماء ، والضفادع ، وحيوانات القواقع البحرية - كانت كلها تقريباً مما يطعمه رجل العصور الوسطى^(١١٦) . وقبل أن يحل عهد شارلمان كان الأوروبيون قد أتموا ، أو كادوا يتمون ، أقلمة الفواكه وأنواع النقل الآسيوية ؛ غير أن البرتقال كان لا يزال نادراً في القرن الثالث عشر في شمال جبال الألب والبرانس . وكان أكثر اللحوم انتشاراً هو لحم الخنزير ؛ فقد كانت الخنازير تقتات بالفضلات التي تلقى في الشوارع ، ثم يأكل الناس الخنازير . وكان من الاعتقادات الشائعة أن لحم الخنزير يسبب الإصابة بالجدام ، ولكن هذا الاعتقاد لم يقلل من رغبة الناس فيه ، وكان الوزم والقصيد^(*) من الأطعمة المحببة في العصور الوسطى ؛ وكان المضيف من العطاء يضع على المائدة في بعض الأحيان خنزيراً كاملاً ، ويقطعه أمام ضيوفه ؛ وكان هذا يعد من الأطعمة الشبيهة التي لا تقل في ذلك عن لحوم الحجل ، والسمان ، والدج ، والطاووس ، والكركي . وكان السمك من الأطعمة الأساسية ، والرنكة من الأطعمة التي يعتمد عليها الجنود ، والبحارة ، والفقراء ؛ أما منتجات الألبان فكان استعمالها أقل منه في هذه الأيام ، ولكن جبْن برى Brie أشهر منذ ذلك الوقت البعيد^(١١٧) . ولم تكن أنواع السلطة قد عرفت ، وكانت الحلوى نادرة . وكان السكر لا يزال يستورد من الخارج ، ولم يكن قد حل بعد محل عسل النحل في التحلية ؛ وكانت الحلوى بعد الطعام هي الفاكهة والنقل ، وكانت الفطائر لا حصر لأنواعها ؛ يشكّلها الخبازون هي والكعك باللفظ ما يتصوره الخيال من أشكال ولا يلومهم على هذا أحد رجلاً كان أو امرأة^(١١٨) . وقد يبدو من الأمور الغريبة التي

(*) دم يوضع في مبي ويشوى . (المترجم)

لا يصدقها العقل أنهم لم يكونوا يدخنون بعد الطعام ، وكان الرجال والنساء يستبدلون بهذا شرب الخمر .

وإذ كان الماء غير المغلى مما لا تؤمن عاقبته فقد كانت جميع الطبقات تجد في البجعة والنبىذ بديلا منه ، ولهذا كان من الأسماء النادرة اسما Drinkwater و Boileau « اشرب الماء » وفي هذا دليل على عدم الميل إلى شربه . وكان من أنواع الخمر التفاح والكثيرى ، وكانا من المسكرات الرخيصة التى يتناولها الفلاحون . وكان السُّكَّر من الرذائل المحببة للرجال والنساء فى العصور الوسطى ، وكانت الحانات يخطئها الحصر ، والبجعة رخيصة الثمن ، فكانت هى شراب الفقراء المعتاد يتناولونه فى جميع الأوقات حتى فى الفطور . وكان يسمح للأديرة والمستشفيات القائمة شمال جبال الألب بجبالون من البجعة لكل شخص فى اليوم^(١١٩) . وكان لكثير من الأديرة ، والقصور ، وبيوت الأغنياء ، معاصرها الخاصة ، لأن البجعة فى البلاد الشمالية كانت من ضرورات الحياة لا يزيد عليها فى ذلك إلا الخبز . وكان الأغنياء فى كل الأمم ، وجميع الطبقات فى أوروبا اللاتينية ، يفضلون عليها النبىذ ؛ وكانت فرنسا تعصر أشهر أنواعه ، وتتغنى بمدحها فى مراثى الأغاني الشعبية . وكان الفلاحون فى وقت قطف الكروم يعملون أكثر مما يعملون فى سائر أيام العام ، وكان رؤساء الأديرة الصالحون يجزونهم على جدهم بإجازة من القواعد الأخلاقية : وتحتوى أغنية كان يتغنى بها نزلاء دير القديس بطرس فى الغابة السوداء بعض عبارات رقيقة :

فإذا وضع الفلاحون العنب ، جىء بهم إلى الدبر وقدم لهم اللحم والشراب بكثرة ؛ ووضعت هناك خاوية كبيرة ، وملئت بالنبىذ . . . ليشرب منها كل واحد منهم . . . فإذا لعب الشراب برءوسهم وضربوا الخازن أو الطاهى ، لم يؤدوا غرامة من أجل هذا العمل ، وظلوا يشربون حتى لا يستطيع كل اثنين منهم أن يحملا الثالث إلى العربة^(١٢٠) .

وكان رب البيت عادة يسلي المدعوين بعد الوئمة بضروب من الشعوذة ،
والشقلة ، والغناء ، والتهريج . وكان لبعض سادة الإقطاع طائفة خاصة
بهم من هؤلاء المسلمين ؛ وكان لبعض الأغنياء مازحون في وسعهم أن
يوجهوا وقاحتهم المرحية وفكاهاتهم البذيئة دون أن يخشوا عقاباً أو
تأنيباً . وإذا أراد المدعوون أن يقوموا هم بتسلية أنفسهم كان في وسعهم
أن يرووا القصص ، أو يستمعوا إلى الموسيقى أو يعزفوها ، أو يرقصوا ،
أو يتغازلوا ، أو يلعبوا الررد ، والشطرنج ، الألعاب الداخلية الأخرى ؛
وحتى الأشراف أصحاب الألقاب من الرجال والنساء كانوا يتراهنون
ويلعبون الغميضاء . ولم تكن ألعاب الورق قد عرفت بعد ، وقد حرمت
القوانين الفرنسية الصادرة في عام ١٢٥٦ و ١٢٩١ صنع الررد أو لعبه ،
ولكن لعب الميسر بالررد كان واسع الانتشار رغم هذا التحريم ، وكان
رجال الأخلاق يتحدثون عن ثروات فقدت ونفوس ضلت نتيجة للعب
الميسر . ولم يكن هذا اللعب محرماً على الدوام بمقتضى القانون ؛ وكانت
سينا Siena تبي له أمكنة في الميدان العام (١٢١) ؛ وقد حرم بأمر من مجلس
عقد في باريس (١٢١٣) وبمرسوم أصدره لويس التاسع (١٢٥٤) ؛
ولكن أحداً لم يكن يهتم بهذا التحريم : وأضحى هذه اللعبة من ضروب
التسلية التى ينهمك فيها الأشراف ويقضون فيها أوقاناً طوالاً ، وهى التى
اشتق منها اسم خازن بيت مال الملك exchequer من المنضدة أو لوحة
الشطرنج المختلفة الألوان Chequered table أو Chessboard التى كان إيراد
الدولة يعد عليها (١٢٢) . وقد ذهل أهل فلورنس في أيام دانتى من لاعب
مسلم كان يلعب على ثلاث لوحات مختلفة في وقت واحد مع أمهر لاعبي
المدينة ؛ فقد كان ينظر بعينه إلى إحدى اللوحات ، ويحتفظ بوضع
اللوحتين الآخرين في عقله ، وقد كسب لعبتين وتعادل مع اللاعب الثالث (١٢٣) .
وكانت لعبة الداما معروفة في فرنسا وإنجلترا ، وتسمى فى الأولى dames
وفى الثانية draughts .

وكان الواعظون من رجال الدين يحرمون الرقص ، ولكن الناس كلهم تقريبا كانوا يمارسونه إلا من وهبوا أنفسهم للدين . وكان تومس أكويناس ذو النزعة المعتدلة يبيع الرقص في حفلات العرس ، أو في الاحتفال بقدم صديق من خارج البلاد أو بنصر قومي ؛ وقد بلغ من أمر هذا القديس الطيب القلب أن قال : إن الرقص إذا كان في حدود الأدب رياضة بدنية مفيدة للصحة^(١٢٤) ؛ وأظهر ألبرتس مجنس مثل هذا التسامح ، ولكن رجال الأخلاق في العصور الوسطى كانوا بوجه عام يعترضون على الرقص ويعلمونه من اختراع الشيطان^(١٢٥) ؛ ولم تكن الكنيسة ترضى عنه ، لأنها تراه مغريا بالفساد^(١٢٦) ؛ ولقد بذل شباب العصور الوسطى الجريء كل ما في وسعه لتبرير مخاوفها^(١٢٧) . وكان الفرنسيون والألمان بنوع خاص مولعين بالرقص ، وابتدعوا كثيرا من ضروبه الشعبية ؛ يمارسونها في مواسم السنة الزراعية ، أو في الاحتفال بالنصر ، أو لتقوية روح الشعب المعنوية إذا ألمت به كارثة أو انتشر بينه وباء . ويصف أحد الكتاب رقص البنات في الحقول بقوله : إنه أبهج ملذات الربيع ، وإذا ما احتفل بمنح لقب فارس لأحد الشبان اجتمع كل الفرسان المجاورون له بعدتهم الحربية كاملة ، وقاموا بضروب من الألعاب على ظهور الخيل أو راجلين ، والعامية من حولهم يرقصون على نغمات الموسيقى العسكرية . وكان الناس أحيانا يسرفون في الرقص حتى يصبح وباء : فقد حدث في عام ١٢٣٧ أن فرقة من الأطفال الألمان ظلت ترقص على طول الطريق من إرفورت Erfurt إلى أرنستادت Arnstadt ؛ حتى مات كثيرون منهم في الطريق ، وظل بعض من نجائهم يعانون مرض الرقص St Yttus'Dance^(*) أو غيره من الاضطرابات العصبية الأخرى طول حياتهم^(١٢٨) .

وكان معظم الرقص يدور أثناء النهار وفي الهواء الطلق ؛ ذلك بأن البيوت لم تكن جيدة الإضاءة بالليل — فقد كانت تنار بمصابيح مرتكزة أو معلقة ذات

(*) اضطراب عصبى مصحوب بتشنجات متقطعة . (المترجم)

فتائل وبها زيت ، أو بمشعل من شحم الضأن ؛ وإذ كان الشحم والزيت كلاهما غالبا فقد كان العمل والقراءة قليلين بعد غروب الشمس . ولهذا كان الضيوف يتفرقون بعد الظلام بزمن قليل ، ويأوى أصحاب البيت إلى حجراتهم الخاصة . وقلمما كانت حجرة النوم كافية ، وكان يحدث أحيانا أن يجد الإنسان فراش نوم إضافي في بهو المسكن أو في حجرة الاستقبال . وكان الفقراء ينامون مستريحين على فرش من القش ، والأغنياء ينامون متعبين على وسائد معطرة ، وحشيات من الريش . وكانت فرش العطاء تغطى بكلة تقيهم البعوض ويستعان على تعليقها بكراسى . ولم يكن ثمة ما يمنع نوم عدد من الأفراد ذكورا كانوا أو إناثا صغارا أو كبارا في حجرة واحدة . وكان الناس من جميع الطبقات في إنجلترا أو فرنسا ينامون عشرة (١٢٩) .

الفصل الثامن

المجتمع والألعاب

لقد كانت الغلظة التي تتصف بها آداب العصور الوسطى بوجه عام بخففها بعض ما في التأديب والمجاملات الإقطاعية من ظرف . فقد كان الرجال إذا التقوا يسلم بعضهم على بعض باليد ، كأن هذا عهد منهم بالمسألة وعدم الاستعداد لاستلال السيف . وكانت ألقاب الشرف لا حصر لها وكانت متفاوتة المنزلة تبلغ المائة عدا ؛ وكان من العادات الظرفية أن يخاطب كل كبير بلقبه واسمه الأول أو اسم ضيعته . وقد سن قانون للآداب يتبعه أفراد المجتمع الراقى في الظروف المختلفة - في البيت ، وفي أثناء الرقص ، وفي الشوارع ، وفي ألعاب البرجاس ، وفي بلاط الملك ، وكان على السيدات أن يتعلمن كيف يمشين ، ويحيين ، ويركبن الخيل ، ويلعبن ، ويحملن الصقور برشاقة على معاصمهن ... ؛ وكانت هذه الآداب كلها وأخرى مثلها للرجال تؤولف ما يعرف باسم آداب البهوط Courtoisie . وقد نشرت في القرن الثالث عشر إرشادات كثيرة الآداب اللياقة (١٣٠) .

وكان المسافر ينتظر المجاملات والضيافة من أبناء طبقته . فكان المسافرون يستضيفون أثناء سفرهم في أديرة الرجال إن كانوا ذكوراً والمسافرات يستضيفن في أديرة النساء ، على سبيل الصدقة إن كانوا فقراء أو نظير أجور أو هبات إن كانوا أغنياء . وقد أنشأ الرهبان منذ القرن الثامن مضاييف عند ممرات جبال الألب ، وكان لبعض الأديرة بيوت كبرى للضيوف تتسع لثلثمائة من المسافرين ، وبها اصطبلات لحيولهم (١٣١) . على أن معظم المسافرين كانوا ينزلون في « نُزُل » أنشئت على الطريق ؛ وكانت رخيصة الأجور ، وفي استطاعته الرجل أن يجد فيها مومساً بأجر

معتدل إذا حافظ على كيس نقوده من السرقة . وكان الكثيرون يتحدون
أخطار السفر - لما يجدونه في الطريق من أسباب الراحة السائلة الذكر -
ومن هؤلاء التجار ، وأصحاب المصارف ، والقساوسة ، والدبلوماسيون ،
والحجاج ، وطلاب العلم ، والرهبان ، والسائحون ، والأفاقون . وكانت
طرق العصور الوسطى ، على ما فيها من متاعب وأخطار غير مشجعة على
الأسفار ، غاصة بالكثيرين من الناس ذوى التشوف والآمال الذين يظنون
أنهم سيكون أسعد حالاً إذا بدلوا مكانهم .

وكانت الفروق بين الطبقات شديدة في الأسفار كما هي في التسلية
والألعاب . ولكن الخاصة والسوقة كانوا يختلطون من حين إلى حين : إذا
عقد الملك جمعية عامة من أتباعه الإقطاعيين ، ووزع الطعام على المجتمعين ،
وإذا قام فرسان الأشراف بحركات عسكرية ، وإذا دخل أمير أو أميرة ،
أو مالك أو ملكة إحدى المدن كامل العدة في موكب فخم واصطف الناس
على جانبي الطريق العام ليمتعوا أنظارهم بموكبه ، وإذا أقيم برجاس أو عقدت
محاكمة بالافتتال وسمح للجمهور بحضورهما . وكانت المشاهد المنظمة جزءاً
أساسياً من الحياة في العصور الوسطى ؛ فقد كانت المواكب الدينية ،
والاستعراضات العسكرية ، والاحتفالات التي تقيمها نقابات الحرف ، تملأ
الشوارع بالأعلام ، والمشاعل ، وصور القديسين من الشمع ، والتجار
السهان ، والفرسان المتبخترين ، والفرق الموسيقية العسكرية ، وكان الماجنون
المتنقلون يمثلون مسرحيات قصيرة في القرية أو ميدان المدينة ؛ والمغنون
الجائلون يغنون ويلعبون ؛ ويقصون قصص الغرام ، والمشعوذون والقفازون
يعرضون ألعابهم ، والرجال والنساء يمشون أو يرقصون على حبال مشدودة ،
فوق هاويات بحيقة خطيرة ؛ وكنت ترى أحياناً رجلين معصوبى العيون
يمارس كلاهما بعض الحيل على زميله ؛ أو كان يؤتى بطائفة من الوحوش
إلى البلدة حيث تعرض حيوانات غريبة ورجال عجيبون ، وحيث يقتل
حيوان مع حيوان حتى يقتل أحدهما :

وكان الصيد رياضة ملكية يعتمد إليها الأشراف ولا تقل شأنًا عندهم عن المثاقفة . وكانت قوانين الصيد تحدد مواسمه بفترات قليلة في العام ، وكانت للأشراف أملاك يصيدون فيها ويُعَدُّ الاعتداء عليها سرقة بحكم القانون . وكانت غابات أوروبا لا تزال مسكنًا لوحوش لم تعترف بعد بفوز الإنسان في حربه من أجل الاستيلاء على الكوكب الذى تعيش فيه ؛ وحسبنا أن نذكر أن مدينة باريس مثلاً قد هاجمتها الذئاب عدة مرار في العصور الوسطى . وكان الصائد من ناحية ما يعمل للاحتفاظ بسيادة الآدمى المزعزعة على هذه الأرض ، كما كان يعمل من ناحية أخرى لزيادة موارد الطعام ؛ ولم يكن أقل من هذين العاملين شأنًا أنه كان يُعَدُّ نفسه للحرب التى لا مفر منها بتقوية جسمه وروحه وتعويدهما ملاقاتة الأخطار ، والقتال ، وسفك الدماء . وكان في الوقت عينه يجعل من عمله هذا مهرجانًا . فكانت القرون العظيمة المصنوعة من العاج والمطعمة أحيانًا بالذهب تدعو النساء ، والرجال ، والكلاب : النساء يجلسن في رشاقة على الجياد المتبخرة وأرجلهن على جانب واحد من السروج ؛ والرجال في حلل زاهية وعدة حربية متباينة — القوس والسهم ، والبلطة الصغيرة ؛ والحرية ، والسكين ؛ وكلاب الصيد على اختلاف أنواعها تجذب مقاودها . وإذا ما أدى الطراد إلى عبور حقول الفلاحين ، كان من حق السيد وأتباعه ، وضيوفه أن يعبروا هذه الحقول مهما يكن التلف الذى يصيب البذور والمحاصيل ، ولم يكن يشكو من الفلاحين إلا المتهورون الذين لا يحسبون للعواقب حساباً^(١٣٢) . وقد نظم الفلاحون الفرنسيون الصيد فجعلوا له قواعد ، وسموه الطراد ، ووضعوا له مراسم وآداباً معقدة .

وكانت السيدات يشتركن بنوع خاص في أكثر ضروب الصيد أرسقراطية — وهو الصيد بالبزاة ، فقد كان في جميع الضياع الكبرى أقفاص تحوى أنواعاً كثيرة من الطيور ، أغلاها ثمنًا هي البزاة . وكان البازي يعلم الجلوس على معصم السيد أو السيدة في أى وقت ؛ وكانت بعض السيدات المتأنقات يحتفظن بها ومن

يستمنع إلى الصلاة في الكنائس . وقد ألف الإمبراطور فردريك الثاني كتاباً ممتازاً في الصيد بالبنزة بلغت عدد صفحاته ٥٨٩ صفحة ، وكان هو الذي جاء إلى أوروبا من بلاد الإسلام بعادة السيطرة على أعصاب البازي وتشوؤه بتغطية رأسه بغطاء من الجلد . وكانت أنواع مختلفة من البنزة تدرب على الطيران العالي ، ومهاجمة أنواع مختلفة من الطيور ، وقتلها أو جرحها ، ثم العودة إلى معصم الصائد ، حيث يقربها ويقدم لها قطعة من اللحم جزاء لها على صنعها فتسمح له بأن يضع رجلها في شرك حتى يبصر فريسة أخرى . ويكاد يكون البازي الحسن التدريب أحسن ما يهدى للشريف أو الملك ، وقد افتدى أحد أدواق برغندية ولدأ له بأن أرسل اثني عشر صقراً أبيض لأسرة السلطان بايزيد . وكان منصب حافظ البنزة الأكبر في فرنسا من أعلى المناصب وأكبرها مرتباً في المملكة .

وكانت كثيراً من الألعاب الأخرى تخفف عن الناس حر الشمس وبرد الشتاء ، وتحول عواطف الشباب ونشاطه إلى ضروب من المهارة الحيوية . فقد كان كل صبي تقريباً يتعلم السباحة ، وكان الناس كلهم في شمالي أوروبا يتعلمون الانزلاق على الثلج ، وكان سباق الخيل من الألعاب المحبوبة الواسعة الانتشار وبخاصة في إيطاليا ؛ وكانت كل الطبقات تمارس الرمي بالقوس والسهام ؛ ولكن طبقات العمال وحدها هي التي كانت تجد فسحة من الوقت لصيد السمك ؛ وكانت في العصور الوسطى ضروب مختلفة من ألعاب الكرة ، ولعبة الكرة والصولجان hockey ، ورمي القرص quoits ، والمصارعة والملاكمة ، والتنس Tennis ، وكرة القدم ... وقد نشأت لعبة التنس في فرنسا ، ولعل منشأها هناك من أصل إسلامي ؛ ويلوح أن اسمها مشتق من لفظ Tenezi الفرنسي أي « اللعب » - وهو اللفظ الذي كان اللاعب يعلن به بدايه لعبه (١٣٣) . وقد انتشرت هذه اللعبة في فرنسا وإنجلترا انتشاراً بلغ منه أن كانت تلعب أحياناً أمام جماهير كبيرة في دور التمثيل أو الهواة الطلق (١٣٤) . وكان الأيرلنديون يلعبون لعبة الكرة والصولجان

منذ القرن الثاني الميلادي ، ويصف مؤرخ بيزنطي من رجال القرن الثاني عشر وصفاً حياً ممتعاً مباراة في الجحفة (البولو) استخدمت فيها مضارب ذات أوتار من الحبال شبيهة بلعبة لاكرس Lacrosse الكندية^(١٣٥) . ويقول أحد مؤرخي العصور الوسطى الإخباريين^(*) وهو مروع وجل إن كرة القدم « لعبة بغیضة يدفع فيها الشبان كرة ضخمة ، لا يقذفها في الهواء ، بل يضربها بالقدم »^(١٣٦) . ويبدو أن هذه اللعبة جاءت من بلاد الصين إلى إيطاليا^(١٣٧) وإنجلترا حيث انتشرت في القرن الثالث عشر انتشاراً واسعاً ، وقد بلغ من عنفها أن حرمها إدورد الثاني لأنها تؤدي إلى تعكير السلم . (١٣١٤) .

وكان الناس وقتئذ أكثر ميلاً إلى التألف والاشتراك في الحياة مما هم الآن وكانت أنواع النشاط الجماعية تهز المشاعر في أديرة الرجال والنساء ، وفي الجامعات ، والقرى ، ومراكز نقابات الحرف . وكانت الحياة بهجة مريحة في أيام الآحاد والأعياد بنوع خاص ؛ ففي تلك الأيام كان الفلاحون ، والتجار ، وكبار الملاك يلبسون أحسن ما عندهم من الثياب ، ويطيلون الصلاة أكثر من المعتاد ، ويشربون أكثر مما يستطيعون^(١٣٨) وكان الإنجليز إذا حل أول يوم من شهر مايو يقيمون عمود هذا اليوم ، ويضيئون المشاعل ، ويرقصون حولها ، وكأنهم يعيدون وهم نصف واعين ذكريات أعياد الخصب الوثنية . وكانت كثير من البلدان والقصور في أيام عيد الميلاد تعين « سيداً لسوء الحكم » ينظم للجواهر ضروب التسلية والمناظر . وكان المهرجون يلبسون الأقنعة ، واللحي المستعارة ، والأثواب المضحكة ، ويسبرون في الطرقات يمثلون مسرحيات ، أو ألعاباً ، أو ينشدون أغاني عيد الميلاد ؛ وكانت البيوت والكنايس تزدان بشراة الراعي والبلاب « وبكل ما هو أخضر في هذا الفصل من السنة »^(١٣٩) . وكانت هناك

(*) المؤرخون الإخباريون هم الذين يكتفون في تواريتهم بإيراد الحوادث وتواريتهم

Chronicles مع وصف لما يشاهدونه في بعض الأحيان أمثال الجبرق . (المترجم) .

أعياد للفصول الزراعية ، وللانتصارات القومية أو المحلية ، وللقديسين ، ولثقافات الحرف ، وقلما كان يوجد في تلك الأيام رجل لا يملأ معدته بالشراب . وكان لإنجلترا المرحاة أسواق تنساب فيها الأموال وتجري فيها اللعبة جريانا سريعا ولكنه ليس بالجبان ؛ وكانت الكنيسة في القرن الثالث عشر تندد بهذه الاحتفالات ، ولكنها هي نفسها اتخذتها أعياداً لها في القرن الخامس عشر (١٤٠) .

وقد كيفت بعض الأعياد حفلات الكنيسة فجعلتها جدية في قالب هزلي ، صحابة تختلف من الفكاهة الساخرة إلى الهجاء الشائن المقلع ، وكانت مدينتا بوفيه Beauvais ، وسان Sans ، وغيرها من البلدان الفرنسية تحتفل في اليوم الرابع عشر من شهر يناير بعيد الحمار fête a l'âne : فتركب فتاة جميلة حمارا ، ويخيل إلينا أنها تمثل بهذه الطريقة مريم أم المسيح أثناء فرارها إلى مصر ، ثم يقاد الحمار إلى كنيسة ، وينحني ويثنى ركبته اليمنى احتراماً وعبادة ، ويوضع بجانب المذبح ؛ ويستمتع إلى قداس وترانيم يتغنى فيها بمدحيه ، فإذا انتهت الصلاة نهق القس والمصلون ثلاث مرات تكريماً لهذا الحيوان الذي أنجى أم المسيح من هيرودس وحمل عيسى إلى أورشليم (١٤١) . وكانت أكثر من عشر مدائن في فرنسا تحتفل في كل عام - ويكون ذلك عادة في يوم عيد الختان - بعيد البلهاء fête de fous . وكان يسمح في هذا اليوم للطبقة الدنيا من القساوسة أن تثار لخضوعها إلى كبار القسيسين والأساقفة طول العام بالسيطرة على الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية ؛ وكانوا يلبسون في ذلك اليوم ملابس النساء أو الملابس الكهنوتية مقلوبة ، ويختارون واحدا منهم ليكون أسقف البلهاء episcopus fatuorum ، ثم ينشدون أناشيد بذithe ، ويأكلون الوزم على المذبح ، ويلعبون الزرد عند أسفله ، ويحرقون أحذية قديمة في المبخرة ، ويلقون مواعظ مرحة (١٤٢) . وكانت

كثير من البلدان في إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تختار من أهلها أسقف صبيان episcopus puerorum ، لرأس زملاءه في تقليد فكه للحفلات الكهنوتية^(١٤٣) . وكان رجال الدين المحليون يسمون لهذه المهازل الشعبية ويتسامحون فيها ، وظلت الكنائس وقتاً طويلاً تغض النظر عنها ، ولكنها حين رأتها تنزع إلى الإسراف في التحقير والبذاءة اضطرت إلى مقاومتها حتى اختفت آخر الأمر في القرن السادس عشر (*) .

وكانت الكنيسة بوجه عام متساهلة لينة الجانب إزاء فكاهاات عصر الإيمان الوقحة ، وذلك لعلمها أن الناس لا بد لهم أن يتحللوا بين الفينة والفينة من القواعد الأخلاقية ، وأن تفك القيود التي تعد في الأوقات العادية ضرورة للمجتمع المتمددين . ولقد يغضب بعض أشداء المتزمطين أمثال القديس يوحنا كريستوم St. John Chrysostom وينادون : « أتضحكون وقد صلب المسيح ؟ » ولكن « الفطائر ، والجة لم تنقطع ، والنبذ ظل يجرى ساخناً في الأفواه ، وكان القديس برنار يرتاب في المرح والجمال ، ولكن معظم رجال الدين كانوا في القرن الثالث عشر أكولين ، يستمتعون باللحم والشراب ، ولا يرون في هذا ما يؤنبهم عليه ضميرهم ، ولا يغضبون إذا سمعوا فكاهاة حلوة أو رأوا ساقاً جميلة ؛ ذلك أن عصر الإيمان لم يكن عصر جد وكآبة ، بل كان عصراً مليئاً بالحيوية والمرح الشديد ، وال عاطفة الرقيقة ، والسرور الساذج من نعم الأرض . ولقد كتب طالب مفكر على ظهر كتاب المفردات اللغوية أمنية له يتمناها لنا جميعاً :

(*) بيد أن أسقف غلمان لا يزال ينتخب في كل عام في أدلستون Addlestone من أعمال سري Surrey بإنجلترا .

وإني لأرغب أن تكون الأيام كلها إبريل ومايو ، وأن يجدد كل شهر جميع الفواكه مرة بعد مرة ، وأن تنبت في كل يوم أزهار الزنبق ، والمنثور ، والبنفسج ، والورد في كل مكان يطرقه الإنسان ، وأن تظل أشجار الغابات مورقة ، والمروج خضراء ، وأن ينال كل محب محبوبته ، وأن يحب كلاهما الآخر حباً صادقاً أكيداً يمتلئ به قلبه ، وأن يستمتع كل إنسان بما يحب من اللذة وأن يمتلئ القلب مرحاً وغبطة (١٤٥) .

الفصل التاسع

الأخلاق والدين

ترى هل تؤيد الصورة العامة لأوروبا في العصور الوسطى الاعتقاد بأن الدين يبعث على مكارم الأخلاق ؟ .

إلى الصورة التى تنطبع فى أذهاننا بوجه عام لتوحى بأن الثغرة الفاصلة بين نظرية الخلق الطيب وحقيقته فى العصور الوسطى أوسع منها فى أى عصر آخر من عصور الحضارة . ذلك أن العالم المسيحى فى تلك العصور لم يكن يقل عنه فى عصرنا اللادينى الحاضر امتلاء بالشهوات الجنسية ، والعنف ، وإدمان الخمر ، والقسوة ، والفظاظة ، والدنس ، والشره ، والسطو ، والخيانة ، والتزوير . ويلوح أنه يفوق عصرنا الحاضر فى استعباد الأفراد ، ولكنه لم يكن يضارعه فى الاستعباد الاقتصادى للأقاليم المستعمرة أو الدول المغلوبة . وقد فاقنا فى إذلال النساء ، ولكنه لا يكاد يضارعنا فى عدم الاحتشام ، وفى الفسق ، والزنا ، وفى الحروب الضروس ، وفى كثرة من يقتلون فيها . وإذا وازنا بين مسيحية العصور الوسطى والإمبراطورية الرومانية من نيرفا إلى أورليوس ، حكمنا أن هذه المسيحية قد رجعت بالناس إلى الوراء من الناحية الأخلاقية ؛ غير أن كثيراً من أجزاء الإمبراطورية كانت فى عهد نيرفا قد استمتعت بقرون كثيرة من الحضارة ، على حين أن العصور الوسطى تمثل فى معظم مداها كفاحاً بين المبادئ الأخلاقية المسيحية والهمجية القوية التى كانت تحمل إلى حد كبير المبادئ الأخلاقية لدين لم تهتم هى بتلقى تعاليمه . ولقد كان يسع البرابرة أن يسموا بعض رذائلهم فضائل تستلزمها أحوال زمانهم ؛ فعنفهم تطرف فى الشجاعة ،

وشهوائيتهم زيادة فى الصحة الحيوانية ، وخشونتهم وصراحتهم فى الحديث ، وعدم حياتهم إذا تحدثوا عن الأشياء الفطرية ليست شراً من الخفر المصطنع الذى ينطوى عليه شبابنا .

ولقد يكون من الأمور السهلة أن ندين مسيحية العصور الوسطى بالاعتماد على أقوال من كتبوا فى الأخلاق من أبنائها . فلقد كان القديس فرانسس يندب سوء أحوال القرن الثالث عشر ويصفه بأنه « زمان الخبث والظلم للذين لا حد لها^(١٤٦) » ؛ وكان إنوسنت الثالث ، والقديس بوناقتورا ، وفنسنت البوفيزى ، ودانتى يرون أن أخلاق ذلك « القرن العجيب » هى الفظاظة التى لا أمل فى إصلاحها ، وقال الأسقف جروسستسى Grosseteste ، وهو من أكثر أحبار ذلك العصر حصافة ، للبابا « إن الكاثوليك فى جملتهم أحلاف الشيطان »^(١٤٧) . وحكم روجر بيكن (١٢١٤ ؟ - ١٢٤٩) على العصر الذى يعيش فيه حكماً متطرفاً كعادته فقال :

لم يوجد قط ، ما يماثله فى الجهل . . . لأن فيه من الرذائل ، ما لا مثيل له فى أى عصر سابق . . . فيه الفساد الذى لا حد له . . . والعهر . . . والنهم . . . ومع هذا فإن لدينا التعميد ولدينا وحي المسيح . . . الذين لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بهما حق الإيمان أو يحلوهما حق الإجلال . . . وإلا لما سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا فى هذا الفساد كله . . . ولهذا فإن كثيرين من العقلاء يعتقدون أن أوان المسيح الدجال قد آن ، وأن نهاية العالم قد اقتربت^(١٤٨) .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه العبارات وأمثالها إنما هى مغالاة ضرورية يعتمد عليها المصلحون ، وأن فى وسع الإنسان أن يجد أمثالها فى كل عصر من العصور .

ويبدو أن أثر خوف الجحيم فى رفع المستوى الخلقى كان أقل من أثر الرأى العام أو القانون فى أيامنا هذه أو فى ذلك الوقت ؛ ولكن جديراً بنا أن نذكر أن

المسيحية هي التي خلقت الرأى العام فى تلك الأيام ، وأنها هي التي أوجدت القانون إلى حد ما ؛ وأكبر الظن أنه لولا القانون الأخلاقى الذى خلقته المسيحية ، وما كان له من أثر ملطف ، لكانت الفوضى التي أوجدتها خمسة قرون من الغزو ، والحرب ، والتدمير والتخريب أشد مما كانت . ولقد يكون الباعث الذى حملنا على اختيار الأمثلة التي ذكرناها فى هذا الفصل هو التحيز غير المقصود ، فإن لم يكن فإن أحسن ما توصف به أنها جزئية غير وافية ؛ ذلك أن الإحصاءات معدومة وإن وجدت فهي غير موثوق بها ، ومن شأن التاريخ أن يسقط من حسابه على الدوام الرجل العادى . وما من شك فى أنه كان فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى آلاف من السذج الأخيار أمثال أم الأخ سلمبين Salimbene التي يصفها بأنها : « سيدة متواضعة تقية مخلصه ، تكثر من الصوم ، ويسرها أن توزع الصدقات على الفقراء » (١٤٩) ؛ ولكن كم مرة نعثر فى صفحات التاريخ على مثيلات هذه السيدة ؟

ولقد كانت للمسيحية فى الأخلاق آثار رجعية وآثار تقدمية معاً . فلقد كان من الطبيعى أن تضمحل الفضائل الذهنية فى عصر الإيمان ؛ وحلت الغيرة والحاسة ، والإعجاب بالصلاح والطهارة ، والتقوى غير المستندة إلى الضمير ، فى بعض الأحيان ، حلت هذه محل الذمة العقلية (النزاهة فى النظر إلى الحقائق) والبحث عن الحقيقة . وبدا للناس أن « الأكاذيب التقية » الممثلة فى تبديل النصوص ، وتزوير الوثائق آثام عرضية بسيطة يتجاوز عنها . وتأثرت الفضائل المدنية بقصر الاهتمام على الحياة الآخرة ، وتأثرت أكثر من هذا بانحلال الدولة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن حب الوطن ، مهما يكن حبا محليا ، لم ينعدم من قلوب الرجال والنساء الذين شادوا هذه الكنائس الكبرى الكثيرة ، وبعض الأبهاء العظيمة فى المدن . ولعل النفاق ، الذى هو من مستلزمات الحضارة ، قد زاد فى العصور الوسطى ، إذا نظرنا إليه فى ضوء نزعة القدماء الدنيوية الصريحة ،

أو الوحشية الجماعية السافرة التي نشاهدها في هذه الأيام .

على أن هذه الرذائل وغيرها تقابلها كثير من الفضائل . فلقد كافحت المسيحية ببسالة وإصرار سبل الممجية القوى الجارف ؛ وبذلت جهوداً جبارة لتقليل الحروب والمنازعات ، والالتجاء إلى القتال والتحكيم الإلهي في المحاكمات ؛ وأطالت فترات الهدنة والسلام ؛ وسمت بعض السمو بعنف الإقطاع ومنازعاته فجعلتهما وفاء وفروسية ؛ وقاومت القتال في المجتلدات ، ومنعت استرقاق المسجونين ، وحرمت اتخاذ المسيحيين عبيداً ، وافتدت عدداً لا حصر له من الأسرى ، وعملت على تحرير أرقاء الأرض أكثر مما عملت على استخدامهم في أراضيها ، وغرست في النفوس احتراماً جديداً للحياة والأعمال البشرية ، وحرمت وأد الأطفال ، وقللت من الإجهاض ، وخففت أنواع العقاب التي كان يفرضها القانون الروماني وقانون القبائل المتبريرة ؛ ولم تقبل مطلقاً أن يكون مستوى الأخلاق عند النساء مختلفاً عنه عند الرجال ؛ ووسعت مجال الصدقات وأعمالها ، ووهبت الناس طمأنينة عقلية وسط ألغاز العالم المحيرة للعقول ، وإن كانت بعملها هذا قد ثبطت البحوث العلمية والفلسفية . وآخر ما نذكره لها أنها علمت الناس أن الوطنية إذا لم يقاومها ولاء أسمى منها تصبح أداة للشره والنهم الجماعيين . وقد فرضت على جميع المدن والدول الصغرى الأوربية المتنافسة قانوناً أخلاقياً واحداً ، وحافظت عليه ؛ واستطاعت أوربا بهديها ، وبشيء من التضحية التي لا بد منها ببعض حريتها ، أن تستمتع مدى قرن من الزمان بالمبادئ الأخلاقية الدَّولية التي تتمناها وتكافح من أجلها في هذه الأيام — نغني بها أن يكون لها قانون يخرج الدول من قانون الغابة ، ويوفر على الناس جهودهم لينفقوها في معارك السلام وانتصاراته .

الباب الحادى والثلاثون

بعث الفنون

١٠٩٥ - ١٣٠٠

الفصل الأول

يقظة حاسة الجمال

ترى لأمى سبب بلغت أوروبا الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر درجة عليا فى الفنون تضارع ما بلغت أئينة فى عصر بركلز ورومة فى عهد أغسطس ؟

الحق أن لهذه النهضة الفنية أسباباً كثيرة . لقد صدت أوروبا غارات أهل الشمال وغارات العرب ؛ ولقد بعث الحروب الصليبية فى نفوس أهلها نشاطاً مبدعاً قوياً ، وجاءت إلى أوروبا بألف فكرة وفن من الشرق البيزنطى والإسلامى . ونشأت من إعادة فتح البحر المتوسط وفتح المحيط الأطلنطى لتجارة الأمم المسيحية ، ومن الأمن والتنظيم اللذين استمتعت بهما التجارة المنقولة فى أنهار فرنسا وألمانيا ، والبحار الشمالية ، واتساع نطاق الصناعة والشئون المالية ، نقول نشأت من هذا كله ثروة لم تعرفها أوروبا منذ أيام قسطنطين ، وقامت فيها طبقات جديدة فى مقدور كل منها أن تساعد الفن بالمال ، ومدن غنية ذات حكم ذاتى تعمل كل منها جاهدة لكى تشيد كنيسة كبرى أجمل من آخر كنيسة فيها . وكانت خزائن رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، والبابوات تفيض بالمال الذى يأتها من العشور وعطايا التجار ، رهبات النبلاء والملوك . وكانت حركة تحطيم الصور

قد قضى عليها ، ولم يعد الفن يومم كما كان يومم من قبل بأنه عودة إلى عبادة الأصنام ، ووجدت فيه الكنيسة ، التي كانت من قبل نخشاه ، وسيلة نافعة تغرس بها عقائدها ومثلها العليا في نفوس غير الجهلاء ، وتبث فيها ذلك الورع الذى جعلها ترفع الأبراج إلى السماء كأنها أدعية وأوراد صاعدة إلى عرش الله . يضاف إلى هذا أن دين مريم الحديد ، المنبعث من قلوب الناس من تلقاء نفسه ، قد أفرغ ما ينطوى عليه من حب وثقة في معابد فخمة يستطيع آلاف من أبنائها أن يجتمعوا فيها دفعة واحدة يقدمون لها فروض الولاء ويطلبون إليها العون . لقد اجتمعت هذه المؤثرات وأخرى كثيرة لتغمر نصف قارة من الأرض بسيل جارف من الفن لم يسبق له مثيل .

وكانت الفنون قد بقيت في أماكن متفرقة لم تقض عليها أعمال البرابرة المخربة ، ولم يمح معالمها ما طرأ على البلديات من ضعف وانحلال ، فالمهارات القديمة التي اشتهر بها أهل الإمبراطورية الشرقية لم تضع قط ، وكانت بلاد الشرق اليونانية وإيطاليا البيزنطية هي البلاد التي دخلت منها كثرة الفنانين والموضوعات الفنية في حياة الغرب الذى بعث من جديد . ولقد أدخل شارلمان في خدمته فنانين يونان فروا من وجه محطى الصور البيزنطيين ، وهذا هو الذى جعل فن آخن يقرن الرقة والزعة الصوفية البيزنطية بالصلابة والزعة الدنيوية الألمانية . وبدأ رهبان دير كلوني الفنانون في القرن العاشر عهداً جديداً في فن العمارة الغربية وزينتها ، وكان أول ما فعلوه أن نقلوا النماذج البيزنطية . وكان معلوم مدرسة فن الأديرة التي أقامها في منى كسينو Mante Cassino الرئيس دزدريوس Abbot Desederius (١٠٧٢) من اليونان يسرون على الأساليب البيزنطية ؛ ولما أراد هونوريوس الثالث (١٢١٨) أن يزين جدران سان بولو بالنقوش الجدارية بعث بطلب صناع نقوش الفسيفساء من البندقية ، وكان الذين جاءوا متشبعين بالتقاليد البيزنطية . وكان من المستطاع وجود جاليات من الفنانين البيزنطيين في كثير من

المدن الغربية ؛ وكان طرازهم في التصوير هو الذى شكل طراز دوتشيو Duccio وسبايو Cimabue وطراز جيتو Giotto نفسه في بداية عهده . وجاءت الموضوعات البيزنطية أو الشرقية — كالتقوش المركبة من خوص النخل أو ما يشبهه ، وأوراق الأقتنا(*) ، والحيوانات التى فى داخل الرصائع — جاءت هذه الموضوعات إلى بلاد الغرب على المنسوجات ، وعلى العاج ، وعلى الخطوط المزخرفة ، وعاشت مئات السنين فى طراز التقوش الرومانى . وعادت أشكال العمارة السورية ، والأناضولية ، والفارسية — العقد ، والقبة ، والواجهة المحوطة بالأبراج ، والعمود المركب الجامع لعدة طرز مختلفة ، والشبابيك المجتمعة مثنى أو ثلاثاً تحت قوس يربطها — عادت هذه الأشكال إلى الظهور فى عمارة الغرب . ألا إن التاريخ لا يعرف الطفرات ولا شىء قط يضع .

وكما أن تطور الحياة يتطلب الاختلاف كما يتطلب الوراثة ، وكما أن تطور المجتمع يحتاج إلى التجديد التجريبى وإلى العادة التى تعمل على الاستقرار ، كذلك لم يكن تطور الفن فى أوروبا الغربية يتضمن استمرار التقاليد القديمة فى المهارات والأشكال ، والحافظ الناشئ من المُثُل البيزنطية الإسلامية ، بل كان يتضمن بالإضافة إلى هذا عودة الفنان مرة بعد المرة من المدرسة الفنية التى ينتمى إليها إلى الطبيعة ، ومن الأفكار إلى الأشياء ، ومن الماضى إلى الحاضر ، ومن تقليد النماذج إلى التعبير عن الذات . لقد كان من خصائص الفن البيزنطى القتام المقبض والسكون ، ومن خصائص النقش الغربى الرشاقة الهشة النسائية ، وليس فى مقدور هذه الصفات أن تمثل ما فى الغرب وقتئذ من رجولة حيوية ، وما عاد إليه من نزعة همجية ، ونشاط قوى . وكانت الأمم الخارجة من العصور المظلمة إلى ضياء القرن الثالث عشر تفضل رشاقة نساء جيتو النبيلة عن صور ثيودور الجامدة

(*) ويسمى أيضاً شوكه البخل أو شوك اليهود أو الكنكر وهو نبات شوكى اتخذ رسوم أوراقه فى الزينة المعمارية . (المترجم)

المنقوشة في الفسيفساء البيزنطية ؛ وتسخر من خوف الساميين من الصور والتماثيل ؛ ولهذا حولت الزخارف المحضة إلى صور الملاك الباسم التي تشاهد في كنيسة ريمس الكبرى ، وإلى صورة العذراء الذهبية في أمين Amiens ؛ وهكذا غلبت بهجة الحياة خوف الموت في الفن القوطي .

وكان الرهبان هم الذين حافظوا على الأساليب الفنية في الفن الروماني ، واليوناني ، والشرقي ، ونشروها ، كما حافظوا على الآداب اليونانية والرومانية القديمة . ذلك أن الأديرة لحرصها على أن تستقل بذاتها دربت النازلين فيها على فنون الزخرفة كما دربهم على الحرف العملية . فقد كانت كنيسة الدير تتطلب مذبحاً ، وأثاثاً للمحراب ، وكأساً للقربان ، وصندوقاً وعلباً لحفظ الخلفات ، وأضرحة ، وكتباً للصلاة ، ومائلات ؛ وقد تتطلب نقوشاً من الفسيفساء ، وصوراً على الجدران ، وتماثيل وصوراً تبعث التقى في القلوب ، وكان الرهبان يصنعون معظم هذا بأيديهم ؛ بل لأنهم هم الذين يخططون الدير ويبنونه ، كما فعل البندكتيون بدير مونتى كسينو الذي لا يزال قائماً إلى اليوم شاهداً على ما بذلوه في بنائه من جهود . وكانت في معظم الأديرة مصانع واسعة ؛ مثال ذلك أن برنارد تيرون Bernard de Tiron أنشأ بيتاً دينياً جمع فيه على ما يقولون « صناعات الخشب والحديد ، ونحاتين ، وصائغين ، ونقاشين ، وبنائين ... وغيرهم من العمال الحاذقين جميع الأعمال الدقيقة » (١) . ولقد كانت المخطوطات المزخرفة التي كتبت في العصور كلها تقريباً من عمل الرهبان ، وكانت أرق المنسوجات من صنع أيدي الرهبان ، والراهبات ، وكان المهندسون المعماريون الذين شادوا الكنائس على الطراز الروماني في عهدها الأول رهباناً (٢) ، وأمد دير كلوني غرب أوروبا في القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر بالمهندسين المعماريين وبكثير من المصورين والمثالين (٣) ، وكان دير القديس دنيس في القرن الثالث عشر مركزاً جم النشاط لمختلف الفنون ، بل إن أديرة السترسين نفسها ، وهي التي أوصدت أبوابها دون أعمال الزخرفة في

أيام برنار اليقظ ، سرعان ما استسلمت لمغريات الأشكال وبهجة الألوان ،
وشرعت تبني أديرة لا تقل في زينتها عن دير كلوني أو دير القديس دنيس ،
وإذ كانت الكنائس الإنجليزية الكبرى في العادة كنائس أديرة ، فإن
رجال الدين النظاميين أو الرهبان ظلوا إلى آخر القرن الثالث عشر أصحاب
السيطرة على عمارة الكنائس في إنجلترا .

لكن الدير ، مهما بلغ من صلاحيته لأن يكون مدرسة وملجأ
للروح ، مقضى عليه بسبب عزله أن يكون مستودعا للتقاليد لا مسرحا
للتجارب الحية ، فهو أصلح للحفظ منه للابتكار ؛ ولم نجد حياة العصور
الوسطى التعبير الخصب الغزير في أشكال لم تمل التكرار ، وصلت بالفن
القوطي إلى درجة الكمال ، لم نجد تلك الحياة هذا التعبير إلا بعد أن
أمدت المطالب الواسعة لذوى الثراء من غير رجال الدين الفنون الدنيوية
بحاجتها من الغذاء . ثم تجمع العلمانيون المتخصصون المحررون في إيطاليا
أولا ، ثم تجمعت كثرتهم في فرنسا وقتلهم في إنجلترا ، في نقابات
الحرف ، وانتزعوا الفنون من أيدي معلمى الأديرة وصناعها ، وشادوا هم
الكنائس الكبرى .

الفصل الثانى

زينة الحياة

ومع هذا فإن راهباً هو الذى كتب أكمل وأوضح موجز فى فنون العصور الوسطى وحرفها ، ذلك هو ثيوفيلس Theophilus — حبيب الله — الراهب فى دير هلمرزشوزن Helmershausen القريب من پادربورن Paderborn والذى كتب حوالى عام ١١٩٠ موجزاً فى مختلف الفنون يقول فيه :

ثيوفيلس ، القس الوضع . . . يوجه كلماته إلى كل من يرغب فى أن ينفض عنه كل غبار الكسل وشروء الروح . . . بالعمل اليدوى النافع ، وبالتفكير السار فيما هو جديد . . . (هنا يجد الناس) كل ما عند بلاد اليونان من ألوان ومركبات مختلفة ، وكل ما عرفته تسكانيا من فنون الميناء . . . وكل ما تستطيع بلاد العرب أن تعرضه من الأعمال التى تتطلب الليونة ، والصبر ، والنقش ، والحفر ، وكل المزهريات الكثيرة والجواهر المحفورة ، والعاج الذى تزينه إيطاليا بالذهب ، وكل ما تقومه إيطاليا من أنواع الشبايك المختلفة الغالية ، وكل ما يثنى عليه الناس من أعمال الذهب ، أو الفضة ، أو النحاس ، أو الحديد ، أو العمل الدقيق فى الخشب أو الحجر ، فها نحن أولاء فى هذه الفقرة نشهد ناحية أخرى من نواحي عصر الإيمان ، نشهد رجالاً ونساء ، ونشهد بنوع خاص رهباناً وراهبات ، يعملون لإشباع الرغبة الغريزية فى التعبير ، ويجعلون متعة فى التناسب ، والتناسق ، والأشكال ، ويحرصون على أن يجعلوا النافع جميلاً . ولقد كانت أهم ما تحتويه المناظر التى صوّرت فى العصور الوسطى صوراً للرجال والنساء وهم يعملون ، وإن غلبت عليها

الزعة الدينية ، وكان الغرض الأول والأساسى الذى يهدف إليه فهم هو تجميل أعمالهم ، وأجسامهم ، وبيوتهم . وكان آلاف من صناع الخشب يستخدمون السكين ، والمثقب ، والأزميل المقعر ، والمنحوت ، ومواد الصقل ، لحفر النضد ، والكراسى ، والمقاعد ، والصناديق ، والعلب ، والخزائن ، وأعمدة الدرج ، والوزرات ، والأسرة ، والأصونة ، وخزانات الطعام والشراب ، والصور والتماثيل المقدسة ، وأجزاء المذابح الكنسية ، وأماكن المرنمين . . . وتزيينها بما لا يحصى من أنواع الأشكال والموضوعات ، بارزة وغير بارزة ، وكثيراً ما كانوا يصفون عليها الفكاهات الخبيثة التى لاتعرف القوارق بين ما هو مقدس وما هو دنس . وفى وسعنا أن نجد على الخناجر أشكالاً للبهلاء ، والنهمين ، والثرثارين ، والحيوانات والطيور الغريبة ذات الرؤوس الآدمية . وكان ناحتو الخشب من أهل الهندية يصنعون فى بعض الأحيان براويز أجمل من الصور التى فى داخلها وأعظم منها قيمة ، وفى القرن الثانى عشر بدأ الألمان فى صناعة حفر الخشب العجيبة التى أضحت من الفنون الكبرى فى القرن السادس عشر (*) .

ولم يكن الذين يعملون فى المعادن أقل شأنًا من العاملين فى الخشب . فقد كانوا يصنعون الحديد المشغول الرشيق للنوافذ ، والأفنية ، والأبواب الخارجية ، والمفصلات قوية تمتد فى عرض الأبواب الضخمة ذات أشكال نباتية متنوعة (كالتى نشاهدها فى كنيسة نتردام Notre Dame فى باريس) ، وكان ما يصنع منه لمقاعد المرنمين فى الكنائس الكبرى « صلباً كالحديد » ورقيقاً كالخمرات . وكان الحديد ، أو البرنز ، أو النحاس يصهر أو يطرق لتصنع منه أجمل المزهريات ، والقدر ، والأباريق ، والمائلات ، والمباخر ، والعلب ، والمصابيح ، وكانت صفائح البرنز تغطى كثيراً من أبواب الكنائس . وكان صناع الأسلحة يحبون أن

(*) انظر سورة « الصَّلب » الباقية من القرن الثانى عشر فى متحف هليستادت أو تمثال جيمس الأصغر James the Less الباقى من القرن الثالث عشر والمحفوظ بالمتحف الفنى فى نيويورك .

يضيفوا شيئاً من الزينة على السيوف وأغمادها ، والحدود ، والتروس والدروع ؛ وحسبنا شاهداً على مقدرة صناع المعادن الألمان الثريا البرنزية الضخمة التي أهداها فردريك الثاني لكنيسة آخن الكبرى ، وعلى مقدرة أمثالهم الإنجليز المائلة البرنزية الضخمة (المصنوعة حوالى ١١٠٠) المنقولة من جلوسستر Gloucester والمحفوطة فى متحف فكتوريا وألبرت Victoria and Albert Museum ؛ وإن ولع صناع العصور الوسطى بأن يجعلوا من أبسط الأدوات تحفاً فنية ليتجلى فى مزاييج الأبواب ، وأقفالها ومفاتيحها ؛ وحتى دوارات الهواء نفسها قد عنوا بزخرفتها بالنقوش الجميلة التي لا تستطاع رؤيتها إلى بالمرقب .

وازدهرت فنون المعادن النفيسة والأحجار الكريمة وسط مظاهر الفاقة العامة ، فقد كان للملوك المروءة صيغ من الذهب ، وقد جمع شارلمان فى آخن كنزاً من المصنوعات الذهبية . وكانت الكنيسة تحس ، ومن حقها أن تغفر لها هذا الإحساس ، أنه إذا كان الذهب والفضة يزينان موائد الأشراف وأصحاب المصارف ، فإن من الواجب أن يسخر أيضاً لخدمة ملك الملوك . ولهذا صنعت بعض المذابح من الفضة المنقوشة ، وبعضها من الذهب المنقوش ، كما نشاهد فى كنيسة القديس أمبروز St. Ambrose بميلان وفى كنيسة پستويا Pistoia وبازل . وكان الذهب هو المعدن الذى تصنع منه عادة الحقة التي يوضع فيها الخبز المقدس ، ويصنع منه الوعاء الذى يعرض فيه على المؤمنين ليعظموه ، والكأس التي تحتوى النبيذ المقدس ، والعلب التي تحفظ فيها الخلفات المقدسة . ولقد كانت هذه الآنية فى كثير من الأحيان أجمل صنعا من أعلى الكؤوس التي تهدي للفائزين فى المباريات فى هذه الأيام . وكان الصياغ فى أسبانيا يصنعون الخيام البديعة التي يحمل فيها الخبز المقدس أثناء سير موكبه فى الشوارع . وفى باريس استخدم الصائغ بنار Bonnard (١٢١٢) ١٥٤٤ أوقية من الفضة وستين أوقية من الذهب ليصنع منها ضريحاً لعظام القديس جنيفييف Genevieve . وحسبنا دليلاً على

اتساع مجال فنون الصباغة الفصول التسعة والسبعون التي خص بها ثيوفيلس هذا الفن في كتابه . فيها نجد أن كل صانع في العصور الوسطى كان ينتظر منه أن يكون هو وقليني Cellini سواء - يصهر ، وينحت ، وبطل بالميناء ، ويركب الجواهر ، ويطعم . وكان في باريس في القرن الثالث عشر نقابة قوية للصباغ وتجار الجواهر ، وذاعت منذ ذلك الحين شهرة قاطعي الجواهر الباريسيين في عمل الجواهر الصناعية^(٥) . وكانت الاختام التي يصمم بها الأغنياء الشمع الموضوع على رسائلهم أو مظاريفها تصمم وتحفر بعناية فائقة ؛ وكان لكل رئيس ديني خاتم رسمي ، وكان كل رجل ظريف أو متظرف يتباهى بخاتم ، إن لم يتباه بأكثر من خاتم ، في يده . ألا إن الذين يقدمون لبنى الإنسان أسباب غرورهم قلما يعدمون قوتهم . وكانت النقوش البارزة الصغيرة على المواد الثمينة شائعة بين الأغنياء . وكان هنرى الثالث ملك إنجلترا نقش من هذا النوع قدرت قيمته بمائتي جنيه (٤٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ، وجاء بولدين الثاني بنقش أعظم من هذا قيمة من القسطنطينية ليضعه في سنت شابل Sainte Chapelle بباريس . وكان العاج يحفر بأعظم عناية ويبدل في حفره جهد كبير طوال العصور الوسطى ، وتصنع منه أمشاط ، وعلب ، ومقابض ، وقرون للشرب ، وتمائيل مقدسة ، وجلود للكتب ، ومحافظ لأوراق الكتابة مزدوجة الثنايا أو مثلثها ، وعصى ، وصالج الأساقفة ، وعلب وأضرحة ... وفي متحف اللوفر مجموعة من الأدوات العاجية من مخلفات القرن الثالث عشر تقرب من الكمال قربا يثير الدهشة ، وتمثل النزول عن الصليب . وقد غلب الخيال وغلبت الفكاهة على التقي في أواخر هذا القرن ، فظهرت في بعض الأحيان نقوش دقيقة لمناظر غاية في الدقة في بعض الأحيان على علب المرايا وصناديق الزينة المعدة للنساء اللاتي لا يستطعن أن يعكفن على التقي في جميع الأوقات .

وكان العاج إحدى المواد التي استخدمت للتطعيم ، وهو الذي يسميه الإيطاليون intarsia (وهي كلمة مشتقة من اللفظ اللاتيني interserere ومعناه يدخل أو يحشر) ويسميه الفرنسيون تلييساً Marquetry (من Marquer أى يعلم) . وكان الخشب نفسه يطعم به غيره من أنواع الخشب : كأن يحفر رسم في قطعة من الخشب ثم تدخل فيها قطع من خشب آخر وتضغط وتغرى في مواضع الحفر . وكان من أدق الفنون في العصور الوسطى عمل الميناء السوداء (النيلو Niello من اللفظ اللاتيني Nigellus أى أسود) — فكان السطح المعدني يحفر ويطعم بعجينة سوداء مكونة من مسحوق الفضة ، والنحاس ، والكبريت ، والرصاص ؛ فإذا جفت العجينة بُرد سطحها حتى تلمع الفضة التي في المزيج . وقد اصطنع فنجويرا Finiguerra من هذا الفن في القرن الخامس عشر صناعة النقش على ألواح النحاس .

وقامت صناعة الخزف مرة أخرى من صناعة الفخار حينما أيقظ الصليبيون العائدون من الشرق أوروبا من العصور المظلمة . وجاءت صناعة الميناء ذات الخزوف إلى بلاد الغرب من بيزنطية في القرن الثامن . ولدينا من القرن الثاني عشر لوحة مصورة تمثل يوم الحساب (*) ، حفرت فيها الأجزاء المحصورة بين خطوط الشكل المرسوم على أرضية من النحاس ثم ملئ الفراغ بعجينة الميناء . وكانت مدينة ليوج Limoge الفرنسية تصنع الآنية المطعمة بالميناء منذ القرن الثالث ، فلما كان القرن الثاني عشر أصبحت هي المركز الرئيسي في غربي أوروبا لصناعة الميناء ذات الخزوف والميناء المصبوبة فوق النحاس . وكان الفخرايون المسلمون في أسبانيا المسيحية في القرن الثالث عشر يغطون الآنية بطبقة لامعة من القصدير لا يتغذى فيها الضوء ، أو من الميناء ، ويتخذونها قاعدة

(*) وهي الآن في متحف فيكتوريا وألبرت .

للزخارف المصورة ؛ وفي القرن الخامس عشر استورد التجار الإيطاليون هذه الآنية من أسبانيا في سفن مملوكة لأهل جزيرة ميورقة وسموا هذه الآنية ميوليقة ، فاستبدلوا بحرف *r* حرف *l* على طريقتهم في الترخيم .

وعاد فن الزجاج ، الذي كاد يبلغ حد الكمال في رومة القديمة ، إلى مدينة البندقية من مصر وبيزنطية ؛ فنحن نسمع منذ عام ١٠٢٤ لا بعد عن اثني عشر مصنعا في تلك المدينة ، بلغ من تنوع منتجاتها أن بسطت الحكومة حمايتها على هذه الصناعة . واقترحت أن يطلق على صانعي الزجاج اسم « السادة » . وفي عام ١٢٧٨ نقل صناع الزجاج إلى حي خاص في جزيرة مورانو *Murano* ليكونوا هناك آمنين من جهة ، وللاحتفاظ بسرية الصناعة من جهة أخرى . وسنت قوانين صارمة تحرم على صناع الزجاج الانتقال إلى خارج الجزيرة أو الكشف عما في هذه الصناعة من أسرار خفية . وظل البنادقة أربعة قرون يسيطرون من هذه البقعة الأرضية الضيقة على فن الزجاج وصناعته في العالم الغربي ، وارتقى فنا طلاء الزجاج بالمينا وتذهيبه ؛ وكانت أليقوديه فينيزيا *Olivo de Venezia* تصنع منسوجات من الزجاج ؛ كما كانت مورانو تخرج مقادير كبيرة من الفسيفساء والحرز ، والقنينات ، والآكواب ، وأدوات المائدة ، المصنوعة كلها من الزجاج ، بل كانت تخرج مرايا زجاجية أخذت في القرن الثالث عشر تحل محل المرايا المصنوعة من الصلب المصقول . وكانت فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا تصنع هي الأخرى زجاجاً في هذه الفترة ذاتها ، ولكنه كان يستخدم كله تقريباً في الأغراض الصناعية ، ما عدا الزجاج الملون البراق الذي كان يستخدم في الكنائس الكبرى .

وكانت النساء على الدوام يُغمط فضلهن في تاريخ الفن فلا يتلن ما هن خليقات به من التقدير . إن الزينة الشخصية والمنزلية من العناصر الجليلة الشأن في فن الحياة ، ولقد هيات أعمال النساء في تصميم الأزياء ، وزينتها الداخلية ،

وزخرفها ، ونسجها ، والتصوير عليها ، هيات أعمالهن في هذا أكثر مما هيات معظم الفنون من أسباب المتعة غير المحسة التي نستمدّها من وجود الأشياء الجميلة الصامتة معنا أو بالقرب منا . وكان للمنسوجات الرقيقة المغزولة بحذق وعناية ذات المنظر الجميل والملمس اللطيف قيمة عالية في عصر الإيمان ؛ فقد كانت تغطي مذابح الكنائس ، ومخلفات الأولياء ، والآنية المقدسة ، ويرتديها القساوسة ، وأفراد الطبقة الراقية في المجتمع رجالا كانوا أو نساء . وكانت هذه المنسوجات نفسها تلف في ورق ناعم لطيف رقيق ، اشتق اسمه من اسمها فسمى « ورق النسيج » واستطاعت فرنسا و إنجلترا في القرن الثالث عشر أن تنزلا القسطنطينية عن عرشها بوصفها أكبر منتج للتطريز الفنى ؛ فنحن نسمع في عام ١٢٥٨ عن نقابات المطرزين في باريس ؛ ويحدثنا ماثيو باريس Matthew Paris تحت عنوان سنة ١٢٤٦ أن البابا إنوسنت الرابع ذهل حين رأى الأحبار الإنجليز الذين زاروا رومة يرتدون ملابس مطرزة بالذهب وأمر أن تصنع مثل هذه الزخارف الإنجليزية الفخمة لحرامله وحلله التي يلبسها في أوقات القداس . وكانت بعض ملابس رجال الدين مثقلة بالجواهر ، وخيوط الذهب ، واللوحات المصورة المصنوعة من الميناء إلى حد يصعب عليهم معه المشى وهم يرتدونها^(٦) ؛ ولقد اشترى ثرى أمريكى ثوباً كهنوتياً يعرف باسم حبريه أسكولى Cope of Ascoli^(*) بستين ألف دولار . وكان أشهر ثوب مطرز في العصور الوسطى هو « ثوب شارلمان الدلاشى » وكان . الاعتقاد السائد أنه صنع في دلاشيا ، ولكن يغلب على الظن أنه صنع في القسطنطينية في القرن الثاني عشر ، وهو الآن من أئمن التحف في كنوز الفاتيكان .

(*) ولما عرف أنها مسروقة أعادها إلى الحكومة الإيطالية ، واكتفى بدلالة جزاء له على أمانته .

وحلت السجف أو الأقمشة المطرزة التي تزين بها الجدران محل الصور الملونة في فرنسا وإنجلترا ، وبخاصة في الأبنية العامة . وكان يحتفظ بعرضها كاملة لأيام الأعياد ، فكانت في تلك الأيام تعلق تحت العقود بين أعمدة الكنائس ، وفي الشوارع ، وعلى القوارب في المراكب ؛ وكانت تنسج عادة من الصوف أو الجريد بأيدي « المتعبدات » أي الوصيفات اللاتي يخدمن قصور سادة الإقطاع تحت إشراف أمينة القصر . وكان عدد كبير منها تنسجه الراهبات ، وبعضه ينسجه الرهبان . ولم تكن المنسوجات التي تردان بها الجدران تطاول الصور الدقيقة الملونة في جمالها ؛ وكان يقصد بها أن ترى عن بعد ، وكان يضحى فيها بدقة الخطوط والظلال في سبيل وضوح الصورة ولألاء اللون وثباته . وكان يقصد بها تخليد ذكرى حادثة تاريخية أو قصة خيالية ذائعة الصيت ، أو تفريغ هم من في داخل البيوت بتمثيل المناظر الطبيعية ، أو الأزهار ، أو البحر . وقد ورد ذكرها في فرنسا منذ القرن العاشر ، ولكن أقدم نموذج لها باق إلى اليوم لا يكاد يرجع عهده إلى ما قبل القرن الرابع عشر . وكانت فلورنس في إيطاليا ، وشنشيليا في أسبانيا وبواتيه ، وأراس ، وليل في فرنسا ، تتزعم مدائن الغرب في فن أقمشة الجدران والطنافس . هذا وليست أقمشة بايو Bayeux الذائعة الصيت في العالم كله من نوع هذه الأقمشة إذا أردنا الدقة في التعبير ، لأن النقوش التي عليها مطرزة على سطحها وليست جزءاً من النسيج . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى كنيسة بايو التي ظلت تحتفظ بها زمناً طويلاً ؛ وتعزوها الرواية المتواترة إلى مائدة زوجة وليم الفاتح وإلى السيدات اللاتي كن في بلاط ملوك النورمان ؛ ولكن العلماء الذين لا يبالون بغضاب كرائم العقائل يفضلون أن يعزوها إلى صناع غير معروفين ، وإلى عصر أحدث من عصر وليم (٨) . وهذه الزينات تُنافس المؤرخين الإخباريين في كونها مصدر أم من مصادر الفتح النورماندى . فقد نقش على قطعة من نسيج التيل الأسمر ، عرضها تسع عشرة بوصة وطولها إحدى وسبعون ياردة ،

ستون منظرأ تصور على التوالى الاستعداد إلى الغزو ، وسفائن النورمان تشق القناة الإنجليزية بجآجئها العالية المصورة ، ومعركة هيستنج الوحشية ، وهارولد Harold يتلقى الطعنة ويموت ، وهزيمة الجنود الأنجليسكسون وتبدد شملهم ، وانتصار القوة المباركة . وهذه الأغطية أمثلة من أعمال التطريز الناطقة بالصبر الطويل ، ولكنها ليست من أجمل ما صنع من نوعها . وقد اتخذها نابليون فى عام ١٨٠٣ وسيلة يثير بها الفرنسيين إلى غزو إنجلترا^(٩) ، ولكنه نسى أن يستعين على هذا الغزو ببركة الآلهة .

الفصل الثالث

التصوير

١ - الفسيفساء

اتخذ فن التصوير في عصر الإيمان ثلاثة أشكال رئيسية : الفسيفساء ،
والتحلية الصغيرة للكتب ، والصور الجدارية ، والزجاج الملون .

فأما فن الفسيفساء فكان وقتئذ في عهد الشيشوخة ، ولكنه كان في
خلال الألفية عام التي مرت عليه قد أثمر كثيراً من الدقة ؛ فقد كان صانعوه ،
إذا أرادوا عمل الأرضية الذهبية التي يحبونها حباً جماً ، يلقون ورقة رقيقة من
الذهب حول مكعبات من الفضة ، ويغطون هذه الورقة بغشاء رقيق من
الزجاج لينعوا تلوث الذهب وقتامه ، ثم يضعون المكعبات المذهبة في سطوح
غير مستوية بعض الشيء لينعوا بذلك بريق السطوح . وكان الضوء ينعكس
من هذه المكعبات في زوايا مختلفة وبذلك يكسب القطعة كلها نسيجاً حياً .

وأكبر الظن أن فنانيين بيزنطيين هم الذين غطوا القباء الشرقي في إحدى
الكنائس القديمة في ترشلو Torcello — وهي جزيرة صغيرة قريبة من
البندقية — وجدارها الشرقي بنقوش من الفسيفساء تعد من أروع ما خلفته
العصور الوسطى^(١٠) . وتمتد أعمال الفسيفساء في كنيسة القديس مرقس على مدى
سبعة قرون ، وتمثل أنماطها تلك القرون السبعة ؛ فقد أمر الدوج دمنيكوسلفو
Domenico Selvo بعمل أولى نقوش الفسيفساء الداخلية في عام ١٠٧١ ؛ ويظن
أنه استخدم في هذا العمل فنانيين بيزنطيين ؛ كذلك تمت فسيفساء عام ١١٥٣
تحت إشراف فنانيين بيزنطيين ؛ ولم يكن للفنانين الإيطاليين الشأن الأكبر في

تزيين كنيسة القديس مرقس بالفسيفساء قبل عام ١٤٥٠ ؛ وإن الرسم الفسيفسائي المنقوش في القبة الوسطى في القرن الثاني عشر ، والذي يمثل صعود المسيح هو أسمى ما بلغه هذا الفن ، ويقرب منه في روعته النقش الفسيفسائي الذي يمثل يوسف والموجود في قبة البهو . ولقد ظل النقش الفسيفسائي الرخامى الموجود في طوار الكنيسة مدى سبعة عشر عاماً يقاوم خطى بنى الإنسان .

وفي الطرف الآخر من إيطاليا اتحد الفنانون اليونان والمسلمون في صنع آيات النقش الفسيفسائي في صقلية النورمانية - في الكابلا پلاتينا Capella Palatina وفي كنيسة مرترانا Martorana بمدينة پالرم Palermo ، وفي دير منريال Monreale وكنيسة كفالو Cefalu (١١٤٨) . وربما كانت حروب البابوية التي شبت نارها في القرن الثالث عشر قد عاقت تقدم الفن في رومة ؛ ولكن نقوشاً فسيفسائية متألفة صنعت في ذلك القرن لتزدان بها كنائس سانتا ماريا مجيورى Santa Matia Maggiore ؛ وسانتا ماريا في ترستيفرى Trastevere والقديس يوحنا في لاتران « والقديس بولس خارج الجدران » . وكان فنان إيطالى هو الذى وضع تصميم النقش الفسيفسائي لكنيسة التعميد في فلورنس ، ولكن هذا النقش لا يبلغ من الروعة ما بلغته أعمال الفنانين اليونان في البندقية أو صقلية . وكان لدير سوجر في سانت دنيس (١١٥٠) أرضية فسيفسائية فخمة احتفظ ببعض أجزائها في متحف كلونى ؛ وإن طوار دير وستمنستر (حوالى عام ١٢٨٨) لمزيج من الظلال الفسيفسائية يثير الدهشة والإعجاب . غير أن فن الفسيفساء لم يزدهر قط في شمال جبال الألب ، فلقد طغى عليه في تلك البلاد الزجاج الملون كما طغت عليه في إيطاليا نفسها حتى كادت تخرجه منها الصور الجدارية حين أقبل على هذا الفن دتشيو Duccio وسيمابيو Cimabue ، وچيتو .

٢ - نقوش المخطوطات

ظل تزين المخطوطات بالرسوم والنقوش الصغيرة بالفضة المذابة والذهب المذاب ، وبالمداد الملون ، فناً محبوباً يوائم تقوى الأديرة وجوها الهادئ . وقد بلغ هذا الفن ذروته في بلاد الغرب في خلال القرن الثالث عشر ، شأنه في هذا شأن كثير من أوجه النشاط في العصور الوسطى ، ولم يبلغ بعدئذ في وقت من الأوقات ما بلغه في خلال ذلك القرن من دقة وابتكار وكثرة ، فقد حلت في ذلك العهد محل الصور والكسى الجامدة ، والألوان الخضراء والحمراء القاسية التي كانت سائدة في القرن الحادى عشر ، حلت محلها بالتدرج أشكال رشيقة رقيقة في ألوان جمّة العدد ، على أرضية زرقاء أو ذهبية ؛ وغلبت صور الغنراء على هذه النقوش ، كما أخذت من ذلك الوقت تكثر في الكنائس الكبرى .

ولقد ألفت كتب كثيرة في العصور المظلمة ، وتضاعف قيمة ما بقى منها لأنها كانت في نصها وفنها خطاً رفيعاً من خيوط الحضارة إذا صح هذا التعبير^(١١) . وكان الناس في تلك الأيام يعتزون بكتب الترانيم ، وبالأناجيل ، والتراتيل ، وكتب القداس ، وكتب الصلوات ، وأدعية الساعات ، ويحسبونها الأدوات الحية التي تنقل إليهم الوحي الإلهى ، ولم يكونوا يرون أن أى مجهود يبذل في تزيينها الزينة اللائقة بها أكثر مما تستحق . فكان الواحد منهم يبذل يوماً كاملاً في كتابة الحرف الأول من كلمة ، وأسبوعاً كاملاً في كتابة عنوان صفحة ، ولا يرى في هذا خروجاً على المعقول ، وقد حدث في عام ٩٨٦ أن أقسم هارتركر Hartker أحد رهبان القديس جول Gall أن يظل ما بقى من حياته الدنيوية داخل جليدان أربعة ، ولعله كان يتوقع انتهاء العالم في ذلك القرن . وظل في صومعته الصغيرة حتى مات بعد خمسة عشر عاماً من دخولها ، وفيها زين بالصور والنقوش تراتيل

القربى مول^(١٢) .

وكان فن المنظور وعمل القوالب وقتئذ أقل شأنًا مما كانا عليه أيام ازدهارهما في عصر الكارولنجيين ، فقد كان أصحاب النقوش الصغيرة يعنون بعمق اللون وبهائه ، وازدحام الصور وحيويتها ، أكثر من عنايتهم بأن ينجذعوا الناظر حتى يظن أن ما أمامه فضاء ذو ثلاثة أبعاد . وكانت أكثر موضوعاته تؤخذ من الكتاب المقدس ، أو من الأناجيل غير القانونية ، أو من أفايصص القديسين ، ولكن صوراً للنبات والحيوان كانت تستخدم أحياناً في تلك الزينة ، وكان يسر صاحبها أن يصور نباتات وحيوانات خيالية كما يصور نباتات وحيوانات حقيقية . وكانت القواعد الكنسية المفروضة على الموضوعات وطريقة معالجتها في الكتب المقدسة نفسها أقل دقة وتحديدًا في الغرب منها في الشرق ؛ وكان يسمح للمصور أن ينتقل ويلهو حراً في مجاله الضيق . وكانت رعوس بشرية مركبة على أجسام حيوانات ، ورعوس حيوانات على أجسام بشرية ، وكان قرد في زى راهب ، وقرد يخبر في وقار كوقار الطبيب قنينة ملاءى بالبول ، وموسيقى^١ يطرب سامعيه بحك فكى حمار — كانت هذه هي الموضوعات التي ازدان بها كتاب صلوات ساعات العذراء^(١٣) . ونشأت نصوص غير هذه مقدسة ودنسة ، واتخذت لها مكاناً في مناظر الصيد ، أو البرجاس ، أو الحرب ؛ وكان من الصور التي اشتمل عليها كتاب ترانيم من القرن الثالث عشر صورة تمثل داخل مصرف إيطالي ، ذلك أن العالم الدنيوى ، وقد استفاق من رهبة الأبدية ، أخذ يغزو أرباض الحياة الدينية .

وكانت الأديرة الإنجليزية موفورة الإنتاج في هذا الفن السلمى ، فقد أخرجت مدرسة أنجيليا الشرقية كتب مزامير واسعة الشهرة : منها كتاب محفوظ في مكتبة بركسل ، وآخر (« الأورمبسى Ormsby ») في أكسفورد ، وثالث (القديس أومر Omer) في المتحف البريطانى . ولكن خير ما أنتجه هذا الفن كان في فرنسا ؛ فقد بدأت كتب التراتيل التي زيتت للويس التاسع طرازاً من النقوش الجامعة المركزة ، وتنقسم إلى مدليات داخل إطارات ، نُقلت

(١٧ - ج ٥ - مجلد ٤)

بلا ريب عن زجاج الكنائس الملون . واشتركت الأراضي الوطيدة في هذه الحركة ، فبلغ رهبان لياج وغنت في فن تزيين الكتب بعض ما بلغه فن النحت في أميين Amiens وريمس Reims من الشعور الحماسي والرشاقة الفياضة ؛ وأخرجت أسبانيا أعظم آية مفردة من آيات هذا الفن في القرن الثالث عشر في كتاب ترانيم للعدراء هو تسابيح (ألفونسو العاشر) الملك الحكيم (حوالى عام ١٢٨٠) . وإن نقوشه الصغيرة البالغ عددها ١٢٢٦ نقشاً لتشهد بما كان يبذل في كتب العصور الوسطى من كد وإخلاص . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الكتب كانت كتب خط كما كانت كتب تصوير ، وكان الفنان الواحد في بعض الأحيان ينسخ أو يؤلف النصوص ويكتبها ، ثم يرسم النقوش بيده . وإن الإنسان ليردد ، إذا أراد أن يحكم على كثير من الكتب ، أيهما أجمل زينتها أو نصها . ألا إننا قد خسرنا بالطباعة الشيء الكثير .

٣ - النقوش الجدارية

من العسير علينا أن نقول إلى أى حد أثرت زخارف الكتب من حيث موضوعها وأشكالها في نقوش الجدران واللوحات المصورة ، والصور المقدسة ، ونقوش الخزف ، والنحت البارز ، والزجاج الملون ، وإلى أى حد أثرت هذه في زخارف الكتب . لقد كان بين هذه الفنون تبادل كثير في موضوعاتها وأنماطها ، وتفاعل مستمر ، وكان الفنان الواحد بعض الأحيان يمارسها جميعاً ؛ وإننا لننظم الفن والفنان معاً إذا ما فصلنا أحد هذه الفنون عن بقيتها فصلاً تاماً ، أو فصلنا الفنون عن الحياة القائمة في أيامها ؛ ذلك أن الحقيقة أكثر ارتباطاً في أجزائها من توارينها ؛ وإذا ما جزأ المؤرخ عناصر الحضارة التي يجري تيارها مجتمعاً في مجرى واحد ، فإنما يفعل ذلك لسهولة البحث والإيضاح لا غير . وليس من حقنا أن نفصل الفنان عن الثقافة المعقدة التي ربهت وعلمته ، وأمدته بالتقاليد والموضوعات -

وأثنت عليه أو عذبت ، واستخدمته ، ودفتته ، ونسبت اسمه أكثر مما ذكرته .

وكانت العصور الوسطى تقاوم الفردية ، وتعدّها من العقوق المفلس ، وتأمر العبقري أن يغمر نفسه في أعمال زمانه ويجرى حوادثه . وكانت الكنيسة ، والدولة ، والمدينة المستقلة ، ونقابة الحرف في عرف ذلك الوقت هي الحقائق الخالدة ؛ وكانت هي الفنانين أنفسهم ، ولم يكن الأفراد إلا أيدي الجماعة ، وإذا ما قامت الكنيسة الكبرى على قواعدها كان جسمها وروحها يمثلان جميع ما قدسه واستنفده تصميمها ، وبنائها ، وتزيينها من أجسام وأرواح . ومن أجل هذا ابتلع التاريخ جميع أسماء الرجال الذين نقشوا جدران عماثر العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر ، ولم يبق من هذه الأسماء إلا القليل ، وكادت الحروب ، والثورات ، والرطوبة التي توالى مدى الدهور . تبتلع أعمالهم . ترى هل كان في أساليب ناقشي الجدران عيوب ؟ لقد كانوا يستخدمون أساليب المظلمات وأدهنة الجدران القديمة ، فيضعون الألوان على الجدران قبل أن يجف بياضها ، أو يرسمون على الجدران الجافة بألوان يجعلونها لزجة بما يدخلونه فيها من المواد الغروية . وكانوا يقصدون بكلتا الوسيلتين أن يخلدوا ما يرسمون ، إما بنفاذ الألوان في الجدران أو بتماسكها ؛ ومع هذا كله كانت الألوان تتطاير على مر السنين ، ولذلك لم يبق لدينا إلا القليل من الرسوم الجدارية التي عملت قبل القرن الرابع عشر (*) . ويصف ثيوفيلس (١١٩٠) طريقة تحضير الألوان الزيتية ، ولكن هذه الصناعة لم تبلغ كثيراً من الرقي قبل عهد النهضة .

ويلوح أن تقاليد النقش الروماني القديم على الجدران قد قضت عليها غارات القبائل المتبربرة وما أعقبها من فقر دائم عدة قرون . ولما أن بُعث فن النقش الجداري الإيطالي ، لم يسترشد باعثوه بالتقاليد القديمة ، بل استرشدوا بأساليب

(*) لهذا يدهش الإنسان من براعة المصريين الأقدمين لأنه يرى الألوان على بعض آثارهم وكأنها قد خرجت ترواً من تحت أيديهم . (المترجم)

بزنطية النصف اليونانية والنصف الشرقية ؛ ولما لنجد في أوائل القرن الثالث عشر مصورين يونان يعملون في إيطاليا — ثيوفانيس في البندقية ، وأبلونيوس في فلورنس وملورمس Melormus في سينا . . . وتحمل أقدم لوحات الفن الإيطالي الموقع عليها من راسمها في ذلك العهد أسماء يونانية ، وقد جاء هؤلاء الرجال معهم بموضوعات وأنماط بزنطية — بصور رمزية ، دينية — صوفية ، وهم لا يدعون قط أنهم يمثلون مواقف أو مناظر طبيعية .

ولما زاد الثراء وارتقى الذوق تدريجاً في إيطاليا خلال القرن الثالث عشر ، واجتذبت الهبات العالية التي كان يعطاها الفنانون رجالاً من ذوى المواهب العالية ، شرع المصورون الإيطاليون — جيونتا بيزانو Giunta Pisano في پيزا ، ولابو Lapo في بستويا ، وجيدو Guido في سينا ، وبيتر وكفليني Pietro Cavallini في أسيسى ورومة ؛ شرع هؤلاء المصورون يهجرون الطريقة البزنطية الخيالية الحاملة ، وينفثون في رسومهم اللون الإيطالي والعاطفة الإيطالية . ولهذا نقش جيدو (١٢٧١) في كنيسة سان دمنيكو في سينا صورة للعدراء بزت بصورة « وجهها الصافي الحلو »^(١) أشكال الرسوم البزنطية الضعيفة التي لا حياة فيها ، والتي كانت سائدة في ذلك العصر وتكاد هذه الصورة تكون بداية عصر النهضة الإيطالية .

وبعد جيل من ذلك الوقت دفع دنشيو دى بيوننسنا Duccio di Bouninsegna (١٢٧٣ — ١٣١٩) مدينة سينا في سورة مدنية جمالية بصورة « الجلالة » Maesta التي تمثل العدراء فوق عرشها . وتفصيل ذلك أن المواطنين ذوى الثراء قرروا أن الأم المقدسة ، ملكتهم الإقطاعية ، يجب أن ترسم صورتها في حجم رائع بيد أعظم فنان يعثرون عليه في أى مكان ، وسرهم أن يختاروا لهذا الغرض دنشيو ابن بلدتهم ، ووعدوه بأن يقدموا له الذهب ، ووفروا له الطعام والوقت ، وراقبوا كل خطوة بخطوها في عمله . ولما أتم الصورة بعد ثلاث سنين

(١٣١١) وأضاف إليها ذلك التوقيع المؤثر : « أى أم الإله المقدسة ، هبى سينا السلام ودتشيوا الحياة لأنه صورك فى هذه الصورة » — حملت الصورة (وكان طولها أربع عشرة قدماً وعرضها سبع أقدام) إلى الكنيسة يحف بها موكب من الأساقفة ، والقساوسة ، والرهبان ، والموظفين ، ونصف سكان المدينة ، وسط دوى الأبواق ودق النواقيس ، وكانت الصورة لا تزال نصف بيزنطية فى طرازها ، تهدف إلى التعبير الدينى لا التصوير الواقعى ، فقد كان أنف العذراء أطول وأكثر اعتدالاً مما يجب أن يكون ، وكانت عيناها أكثر قتامة ، ولكن الصور المحيطة بها كانت ذات رشاقة وصفات أخلاقية واضحة ، وكانت المناظر المأخوذة من حياة مريم والمسيح ، والمرسومة على منصات المذابح والأبراج ذات فتنة جديدة وجلية . وجملة القول أن هذه الصورة كانت أعظم ما صور قبل جيتو Giotto (*) .

وكان جيوفنى سيمابو Giovanui Cimabue (١٢٤٠ ؟ — ١٣٠٢) قد بدأ وقتئذ فى فلورنس أسرة من المصورين قُدِّر لها أن تسيطر على الفن الإيطالى ما لا يكاد يقل عن ثلاثة قرون . وقد ولد جيوفنى لأسرة شريفة ، وما من شك فى أنه قد أحزنها حين هجر القانون إلى الفن ؛ وكان ذا روح عالية متكبرة ، لا يتردد فى أن يطرح وراء ظهره أية صورة يجد فيها هو أو غيره من الناس عيباً ما . ومع أن مدرسته الفنية ، كمدرسة دتشيو ، فرع من المدرسة الإيطالية — البيزنطية ، فإنه قد أفرغ كل كبريائه وكل نشاطه ، فى فنه ؛ وأثمرت جهوده هذه ثمرة أوفت على الثورة ؛ وقد عمل هو ، أكثر مما عمل دتشيو الذى يعلو عليه فى مكانته الفنية ، على إبطال الطراز البيزنطى وشق طريق للرقى الجديد . فثنى ورق الخطوط الجامدة التى كان يرسمها أسلافه ، وكسا الروح الحما ، ووهب اللحم دماً ودفناً ، والآلهة والقديسين حناناً آدمياً ، واستخدم فى تصويره الألوان الزاهية

(*) والصورة الرئيسية محفوظة الآن فى « الأپرا » أى متحف كنيسة سينا .

الحمراء ، والقرنفلية ، والزرقاء ، فنفت في صوره حياة ولألاء لم تعرفهما
إيطالية العصور الوسطى قبل أيامه ، على أننا مضطرون إلى قبول كل
ما ذكرناه عنه مستندين إلى شهادة معاصريه ؛ لأن الصور التي تعزى له
ليس فيها صورة واحدة موثوق بأنها من صنع يده ، وأكبر الظن أن صورة
العذراء والطفل مع الملائكة المرسومة بالطلاء المائي لمصلى روشلاي Rucellai
في كنيسة سانتا ماريا نوفلا Santa Maria Novella بمدينة فلورنس ،
أكبر الظن أن هذه الصورة من صنع دتشيو^(١٥) . وتعزو رواية يشك فيها
بعضهم ، ولكنها في أغلب الظن صادقة ، إلى سمابيو صورة العذراء والطفل
بين أربعة ملائكة الموجودة في كنيسة سان فرانسسكو السفلى في أسيسى .
وهذا المظلم الضخم الذي يُرجع المؤرخون تاريخه عادة إلى عام ١٢٥٦
والذي أعيد في القرن التاسع عشر ، هو أولى الآيات الفنية الباقية حتى الآن
من روائع فن التصوير الإيطالي . وصورة القديس فرانسس التي فيه واقعية
إلى حد يشهد بجرأة راسمها — فهي تمثل رجلاً روعته رؤية المسيح إلى حد
هزل معه جسمه ؛ وصورة الملائكة الأربعة هي بداية التألف بين الموضوعات
الدينية والجمال النسوى .

وعُيِّن سمابيو في آخر سنّ حياته كبير أساتذة الفسيفساء في كنيسة بيزا ؛
وفها ، كما يقولون ، وضع لقبا الكنيسة تصميم فسيفساء المسيح في المجد بين
العذراء والقديس يوحنا . ويروى فساري Vassari قصة لطيفة يقول فيها إن
سمابيو وجد في يوم من الأيام غلاماً من الرعاة في العاشرة من عمره يسمى
چيتو دى بندوني Giotto di Bondone ، يرسم بقطعة من الفحم صورة تحمل
على أردواز ، فأخذه إلى فلورنس وجعله تلميذاً له^(١٦) . وليس ثمة شك
في أن چيتو عمل في مرسم سمابيو ، وأنه شغل منزل أستاذه بعد موته .
وهكذا بدأت أعظم أسرة من المصورين في تاريخ الفن .

٤ - الزواج الملون

سبقت إيطاليا شمالي أوروبا بمائة عام كاملة في النقوش الجدارية والفسيفساء ، وتأخرت عن تلك البلاد مائة عام في العمارة والزجاج الملون . وكان فن تلوين الزجاج معروفاً عند الأقدمين ، ولكن أكثر ما عرف منه كان في صورة الفسيفساء الزجاجية ؛ فقد ملأ جريجورى التورى Gregory of Tours (٥٣٨ ؟ - ٥٩٣) نوافذ كنيسة القديس مارتن بزجاج « مختلف الألوان » ؛ وتحدث بولس المنظم (*) Paul the Silentiary عن جمال ضوء الشمس حين يمر خلال الشبايك المختلفة الألوان في كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية . ومبلغ علمنا أنه لم تبدل في هذه الحالات أية محاولة لرسم صور بالزجاج الملون ، لكن أدليبرو Adalbero أسقف مدينة ريمس زين كنيسه حوالى عام ٩٨٠ بشبايك « تحتوى تواريخ » (١٧) ، وتحتوى أخبار القديس بنينيس St. Benignus على وصف « شباك مصور قديم جداً » يمثل القديس باسكاسيوس St. Paschasius ، في كنيسة بديجون (١٨) . لقد كان هذا زجاجاً مؤرخاً ؛ ولكن يبدو أن اللون هنا قد وضع على الزجاج ولم يصهر فيه . ولما أن قلل فن العمارة القوطية من الثقل الذى تتحمله الجدران وهياً بذلك مكاناً للنوافذ الواسعة ، سمح الضوء الكثير الذى يدخل الكنيسة بهذه الوسيلة - أو بالأحرى تطلب هذا الضوء - تلوين ألواح الزجاج ، وبهذا وجدت الحوافز القوية الكثيرة عن وسيلة لتلوين الزجاج تلويئاً أبقي على الزمن من الوسيلة القديمة .

والراجع أن الزجاج ذا الألوان المصهورة قد تفرع من الزجاج المطلى بالمينا . ويصف ثيوفيلس في عام ١١٩٠ هذه الصباغة الفنية بالحديدة فيقول إن « رسماً » أو تصميمياً يوضع على منضدة ويقسم أقساماً صغيرة ، ويميز كل منها برمز للون

(*) المنظم هنا بمعنى الذى يحفظ النظام فى الاجتماع . (المترجم)

المرغوب فيه . ثم تقطع قطع من الزجاج قلما يزيد طولها أو عرضها على بوصة واحدة بقدر مساحة الرسم . وتلون كل قطعة من الزجاج باللون المطلوب وذلك بصبغة مكونة من مسحوق الزجاج المخلوط بأكاسيد معدنية مختلفة - الكوبلت للون الأزرق ، والنحاس للون الأحمر أو الأخضر ، والمنجنيز للأرجواني . . . ثم يحرق الزجاج المطلى بعدئذ لتنصهر الأكاسيد والطلاء في الزجاج ، وتوضع الأجزاء بعد تبريدها على التصميم ، وتلحم بعضها ببعض بقطع رفيعة من الرصاص . وإذا نظر الإنسان لشباك مصنوع من هذا الزجاج الفسيفسائي فإن العين لا تكاد تلاحظ قطع الرصاص ، بل تحسب أجزائه سطحاً ملوناً متصلاً . وكان أكبر ما يهتم به الفنان في هذه الحال هو اللون ، وكان هدفه هو مزج الألوان ؛ ولم يبحث في عمله عن الواقعية ، ولم يعن بالمنظور ؛ وكان يظهر الأشياء المرسومة في صورته بأغرب الألوان - ففيها جمالة خضر ، وآساد قرنفلية ؛ وفرسان زرق الوجوه^(١٩) . ولكنه حصل على النتيجة التي يبتغيها : حصل على صورة متألثة مخلدة اللون ، وعلى تخفيف الضوء الداخل في الكنيسة وتلوينه ، وعلى تعليم العابدين والسمو بنفوسهم .

وكانت الشبايك - حتى « الورود » العظيمة منها - تقسم في معظم الأحوال إلى لوحات مصورة ، ورصائع ، ودوائر ، ومعينات ، ومربعات ، وذلك لكي يمثل الشباك الواحد عدة مناظر في سيرة أو موضوع ما . فكان أنبياء العهد القديم يصورون أمام نظائرهم في العهد الجديد أو أمام نبوءاتهم التي تحققت فيه . وكان العهد الجديد تضاف إليه أجزاء من الأناجيل غير القانونية ، وقد كان ما تحويه هذه الأناجيل الأخيرة من الأقاصيص ذات الخيال الجميل عزيزاً على عقل العصور الوسطى محبباً له . وكانت القصص المأخوذة من حياة القديسين أكثر في النوافذ من الحوادث المستقاة من الكتاب المقدس ؛ مثال ذلك أن مغامرات القديس يوستاس St. Eustace كانت تروى على شبايك تشارتر ،

وعلى شباييك سان Sens ، وأوكسير Auxerre ولمان Le Mans ،
وتور . وقلما كانت حوادث التاريخ غير الديني تظهر على الزجاج الملون .

ولم يمض نصف قرن على ظهور أول مثل للزجاج الملون في فرنسا
حتى وصل إلى درجة الكمال في تشارتر ، وكانت شباييك تلك الكنيسة
الكبرى نماذج ينسج على منوالها أو أهدافا يسعى لبلوغها في سان Sens ،
وليون Leon ، وبورج Bourges ، ورون . ومن هنا انتقل الفن إلى
إنجلترا ، وأوحى إلى صناع زجاج كنتربرى ولنكلن ، وقد نصت معاهدة
عقدت بين فرنسا وإنجلترا على أن يسمح لأحد المصورين على الزجاج عند
لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) بأن يأتي إلى إنجلترا^(٢٠) . وفي القرن
الثالث عشر كبرت الأجزاء التي يتكون منها لوح الزجاج وفقد اللون
بعض ما كان في الأعمال الأولى من دقة واهتزاز ، وحلت في أواخر ذلك
القرن الزخارف المكونة من خطوط خارجية رفيعة حمراء أو زقاء اللون
على قاعدة من لون واحد رمادي محل الألوان المتناسقة في الكنائس
العظمى ، وكان لفواصل الشباييك نفسها ، وقد أخذت أشكالها تزداد
تعقيداً على مر الأيام ، شأن أكبر في الصورة ؛ ومع أن الزخارف السالفة
الذكر أضحت على مر الزمان فنا جميلاً ، فإن مهارة المصور على الزجاج
أخذت تضعف تدريجاً . ذلك أن روعة الزجاج الملون جاءت مع الكنائس
القوطية الكبرى ، فلما زال مجد القوط ، زالت معه نشوة الألوان .

الفصل الرابع

النحت

لقد دُمِّر الكثير من أعمال النحت لأن البرابرة نهبوه على أثر انتصارهم في غزواتهم ، ولأن المسيحية الناشئة حسبته من قبيل عبادة الأوثان الدينية ؛ ولكن قليلا منه نجا من هذا الدمار وبخاصة في فرنسا ، فأثار خيال البربرية بعد أن روضت ، والثقافة المسيحية بعد أن نضجت . واحتفظت الدولة الرومانية الشرقية في هذا الفن ، كما احتفظت في غيره من الفنون ، بالناذج والمهارات القديمة ، وأضافت إليها أساليب العرف والتصوف الأسوية ، وعادت فوزعت على الغرب البنور التي جاءت إليها قبل من رومة ، وانتقل النحاتون اليونان إلى ألمانيا بعد أن تزوجت ثيودورا من أتو الثاني (٩٧٢) ؛ وانتقلوا كذلك إلى البندقية ، ورافنا ، ورومة ، وناپلى ، وصقلية ، ولعلمهم انتقلوا أيضا إلى برشلونة ومرسيليا ؛ وليس بعيد أن يكون المثالون الذين كانوا يعملون عند فردريك الثاني قد أخذوا فہم عن هؤلاء الرجال وعن الفنانين المسلمين الخاضعين لسلطانه ؛ ولما أثرت البربرية كان في وسعها أن تجمع بين الهمجية والجمال ؛ ولما أثرت المسيحية ، سخرت النحت كما سخرت غيره من الفنون لخدمة عقائدها وشعائرها الدينية ، وكانت هذه في آخر الأمر هي الطريقة التي نمت بها الفنون الكبرى في مصر ، وآسية ، وبلاد اليونان ، ورومة ؛ ذلك بأن الفن العظيم ولید الإيمان المنتصر .

ولم يكن النحت يفكر فيه على أنه فن مستقل بذاته ، بل كان يعد مرحلة من فن شامل ، لہس له اسم في لغة من اللغات — ذلك هو زخرفة العبادة ،

وشأنه في هذا شأن الصور الجدارية ، والفسيفساء والزجاج الملون . فكانت مهمة المثال الأولى هي تجميل بيت الله بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت مهمته الثانية هي صنع الصور والتماثيل الدينية لبت روح التقى في البيت ؛ فإذا بقي بعد ذلك وقت ومال كان في وسعه أن ينحت تماثيل لأشخاص دنيويين ، أو يزين أشياء لا تمت بصلة إلى الدين . وكانت المادة المفضلة في النحت الخاص بالكنيسة هي التي تتسم بالبقاء كالحجر ، والرخام ، والمرمر ، والبرنز ؛ أما التماثيل فكانت الكنيسة تفضل أن تصنعها من الخشب ، ذلك بأن هذه التماثيل يستطيع حملها من غير مشقة المسيحيون السائرون في المواكب الدينية . وكانت التماثيل تلون كما كان يحدث في الفن الديني القديم ، وكانت في أكثر الأحيان واقعية أكثر منها مثالية ، تهدف إلى أن يشعر العابد بالنظر إلى صورة القديس أنه بين يديه ؛ وقد بلغ من نجاح المثاليين في بلوغ هذه الغاية أن كان المسيحي ، كما كان العابد في الأديان القديمة ، ينتظر أن يصنع التمثال نفسه المعجزات ، وقلما كان يخامره الشك إذا سمع أن ذراع المسيح المصنوعة من المرمر قد تحركت لتبارك إنساناً ، أو أن ثدى عذراء من الخشب قد در اللبن .

وخليق بكل من يدرس فن النحت في العصور الوسطى أن يستشعر الندم حين يبدأ هذه الدراسة . ذلك أن قسماً كبيراً من آثاره دمرها المتطهرون المتعصبون في إنجلترا ، وكان البرلمان في بعض الأحيان هو الأمر بهذا التدمير ، كما دمر الكثير من هذه الآثار في فرنسا أثناء الإرهاب الذي تعرض له الفن أيام الثورة . وكان ذلك العمل الرجعي في إنجلترا موجهاً إلى مابدا لمخطمى الصور الجدد أنه زخرفة وثنية للأضرحة المسيحية ؛ أما في فرنسا فكان يهدف إلى مهاجمة قبور الأشراف المكروهين وما لديهم من مجموعات فنية ودمى . ولهذا نجد في جميع أنحاء البلدين تماثيل بلا رعوس ، وأنوفاً مكسورة ، وتوايت مهشمة ، ونقوشاً بارزة ، وطنفاً ، وتيجان عمد محطمة . ذلك أن ثورة جاحمة من الحقد الدفين

الذى ظل يغلى زمناً طويلاً في الصدور على الاستبداد الكنسى والإقطاعى قد انفجر مرجلها آخر الأمر في صورة تخريب شيطانى لهذه الآثار — وكان الزمن وأتباعه من العناصر الخوية قد أجمعت أمرها في ثورة من التدمير ، فاكتمست ظاهر التماثيل ، وأذابت الحجارة ، ومحت النقوش ، وشنت على أعمال الإنسان حرباً باردة صامتة ، لم تتخلها قط هدنة ؛ وشن الإنسان نفسه على هذه الآثار ألف حرب سعى فيها إلى النصر بالتنافس في التدمير ، فكان من أثر ذلك أننا لا نعرف النحت في العصور الوسطى إلا من حطامه .

وإذا ما نظرنا بـ عناصره المتناثرة في المتاحف ، أضفنا إلى الأذى سوء الفهم . ذلك أن الفن الذى تمثله هذه العناصر لم يكن يقصد به أن ينظر إليه متفرقاً على هذه الصورة ، فقد كان في أصله جزءاً لا يتجزأ من موضوع دينى ، وكان صرحاً معمارياً كاملاً ، ولهذا فإن ما قد يبدو لنا فجاً قبيحاً وهو بمفرده ، قد يكون موافقاً أحسن موافقة لما يحيط به من الحجارة . لقد كان التمثال القائم في الكنيسة الكبرى عنصراً في مجموعة ، موضوعاً في المكان اللائق به ، وكأنه يستطيل ليطاول علو الكنيسة الشامخ : فقد كانت الساقان متلاصقتين ، والذراعان ملتصقتين بالجسم ؛ وكان تمثال القديس في بعض الأحيان يدق ويمتد حتى يصل إلى أعلى قائمة كتف الباب . وكان المثال يهدف في أحيان قليلة إلى تقوية الأثر الأفقى للرأس في نفس المشاهد ؛ فكان يجعل التماثيل المقامة فوق الأبواب بدنية مفلطحة ، كالتي نشاهدها فوق مدخل تشارتر ؛ أو كان رجلٌ أو حيوان يحشر في تاج عمود كما كان يحشر الإله اليونانى . قوصرة الباب أو الشباك ، وبهذا انصهر فن النحت القوطى فأصبح جزءاً لا يتجزأ من فن العمارة الذى يزينه .

وكان خضوع النحت للعمارة في طرازها وهدفها المدف الذى يمتاز به فن القرن الثانى عشر بنوع خاص . ثم شهد القرن الثالث عشر ثورة جامحة من

جانب المثال فخرج وقتئذ من النزعة الشكلية إلى الواقعية ، ومن الصلاح إلى الفكاهة والهجاء وتذوق الحياة الأرضية . فبينما نرى تماثيل القرن الثاني عشر الموجودة في تشارتر مكتبة جامدة ، إذ نرى تماثيل القرن الثالث عشر في ريمس وقد فاجأها المثال أثناء حديثها الطبيعي أو عملها التلقائي . فعارفها فردية ، وفي وضعها رشاقة ملحوظة ؛ وإن كثيراً من هذه التماثيل القائمة في كنائس تشارتر وريمس لتشبه الفلاحين الملتحين الذين لا تزال نلتقي بهم في القرى الفرنسية ، وتمثال الراعي الذي يدق نفسه بالنار والقائم فوق باب أمين Amiens الغربي قد يكون له نظير في حقل بنورمندي أو جسيه Gaspé في هذه الأيام . وليس في التاريخ كله نحت يضارع النقوش القوطية الكنسية في واقعيتها الغربية . ففي رون نجد تمثال فيلسوف مفكر له رأس خنزير محشوراً في أزهار من ذوات الورقات الأربع ، وطبيعياً نصفه آدمى والنصف الآخر إوزة ، يدرس أنبوبة أخرى مليئة بالبول ، ومعلم موسيقى نصفه آدمى ونصفه ديك يلقي درساً على عضو غنطروس ، ورجلاً أحاله ساحر كلباً ، وظلت قدماء تلبسان حذاءيه^(٢١) . وهناك صورة صغيرة مضحكة جاثمة تحت التماثيل في تشارتر ، وأمين ، وريمس . وفي كنيسة استرسبرج تاج عمود أعيد إلى وضعه الأول منذ قليل يمثل دفن رينارد الثعلب Reynard the Fox : يحمل نعشه خنزير وجدى ، ويحمل الصايب ذئب ، وينير الطريق أرنبٌ بشمعة ، ويرش دب الماء المقدس ، وينشد القداس - وعل ، وبتلو حمار صلاة الجنازة من كتاب مستند إلى رأس قطة^(٢٢) . وفي كنيسة بشرلي Beverley ثعلب على رأسه قلنسوة راهب يرتقى منبراً ويعظ طائفة من الإوز التقية المنديبة^(٢٣) .

وتمثل الكنائس فيها تمثله حدائق حيوانات من الحجارة ، تكاد تجمع كل ما عرفه الإنسان من الحيوان ، وإن كثيراً من الحيوانات التي لم تمر إلا بمخيلة رجال العصور الوسطى لتجدها مكاناً في هذه المجموعات الضخمة التي لا تحصى

عديدها . فنى ليون Leon ستة عشر ثوراً نخور فوق أبراج الكنيسة الكبرى ، ويقولون لنا إنها تمثل الوحوش القوية التى ظلت السنين الطوال تنقل جلاميد الحجارة من المحاجر إلى الكنيسة القائمة على رأس التل . وتقول إحدى القصص الظريفة : إن ثوراً كان فى يوم من الأيام يصعد بمشقة فوق التل فوق على الأرض من فرط الإعياء ، وظل الحمل متزاناً اتزاناً مزعزعاً على منحدر التل حتى ظهر ثور بمعجزة من المعجزات ، وانزلق تحت عدة الثور الملقى على الأرض ، وجر العربى إلى قمة التل ، ثم اختفى فى الهواء السماوى الإعجازى^(٢٤) . وإنا لنبتسم ساخرين من هذه القصص الخيالية ، ونعود إلى قراءة قصصنا التى تحدثنا عن الجرائم وعن العلاقات الجنسية .

واتسعت الكنائس أيضاً لخدائق النبات ، وهل ثمة بعد العذراء والملائكة ، والقديسين ، زينة لبيت الله أحسن من النباتات ، والفاكهة ، وأزهار الريف الفرنسى ، أو الإنجليزى ، أو الألمانى ؟ ولقد بقيت الزخارف النباتية القديمة — التى تمثل أوراق الكنكر والكرم — فى فن العمارة الرومنسية (٨٠٠ — ١٢٠٠) ؛ ثم حلت محل هذه الزخارف الشكلية العرفية فى الفن القوطى طائفة تدهش الإنسان لكثرتها من النباتات المحلية ، منقوشة على قواعد الأعمدة وتيجانها ، والأجزاء الشبه المثثة التى بين العقود ، والعقود نفسها ؛ وفى الطنف ، والعمد نفسها ، والمنابر ، ومقاعد المرنمين ، وقوائم الأبواب ، والمصاطب ... وليست هذه الأشكال مما حدده العرف ، بل هى فى كثير من الأحيان أنواع فردية ، محبوبة فى البيئة التى صورتها ، وبعث فيها المؤلف الحياة . وتراها فى بعض الأحيان زينات مركبة من نباتات مختلفة جمعت بعضها إلى بعض ؛ وذلك أيضاً مما ابتدعه الخيال القوطى ، ولكنها مع ذلك ظلت تُشعِر الناظر إليها بأنها من صنع الطبيعة . ترى هناك الأشجار ، والغصون ، والعساليج ، والأوراق ، والبراعم ، والأزهار ، والفاكهة ، والسرخس ، والشقيق الأصفر ، والطلح ، والكرسون المائى ، وعود الريح ، وأشجار الورد ،

والشليك ، والحسك ، والقصعين ، والبقدونس ، والسريس ، والكرتب ،
والكرفس ، تساقط من مستودع الكنيسة الذى لا ينضب معينه ، لقد كان
المثال ثملاً بهجة الربيع ، فهدت يده الإزميل فى الحجر . وليس الربيع
وحده هو الذى تمثله هذه النباتات والأزهار المنحوتة ، بل إن جميع فصول
السنة ممثلة فيها ؛ وهى فوق هذا تطالعك بكل ما فى أعمال البذر ، والحصاد ،
وعصر الخمر ، من كدح ومتعة ، وليس فى تاريخ النحت كله ما هو
أجل فى نوعه من « تاج عصر العنب » فى كنيسة ريمس الكبرى (٢٥) .

ولكن هذا العالم كله — عالم النبات والزهر ، والحيوان والطير — كان
فى المرتبة الثانية إذا قيس إلى الموضوع الرئيسى فى فن النحت أثناء العصور
الوسطى — وهو حياة الإنسان وموته . ففى تشارتر ، ولاعون ، وليون
Lyons ، وأكسير ، وبورج نقوش أولية تروى قصة الخلق . وفى لاعون
يعد الخالق على أصابعه مابقى له من الأيام حتى يتم عمله ، وتراه فى مناظر
متأخرة عن هذا المنظر ، وقد أجهده كدحه فى خلق الكون ، متكئاً على
عصاه ، وجالساً ليسترخ ، ونائماً . ذلك إله يسع كل فلاح ساذج أن
يفهمه . وثمة نقوش بارزة فى كنائس أخرى تصور أشهر العام وما اختص
به كل شهر منها من عمل وبهجة ؛ وتبين نقوش غير هذه وتلك مختلف
أعمال الإنسان فتصور الفلاحين فى الحقل أو عند معصرة الخمر ؛ وترى
بعضهم يقودون الخيل أو الثيران وهى تشق الأرض أو تجر العربات ؛ ومنهم
من يجز الضأن ، أو يحلب البقر . وهناك طحانون ، ونجارون ، وحالون ، وتجار ،
وفنانون وطلاب علم ، بل إن هناك أيضاً فيلسوفاً أو فيلسوفين . ويصور المثال
المعنويات المجردة عن طريق الأمثلة : فدونارتس Donartus يمثل النحو ،
وشيشرون الخطابة ، وأرسطو الجدل ، وبطليموس الفلك . وتجلس الفلسفة قدامها
فى السحب ، وفى يمينها كتاب ، وفى يسرها صولجان ، فهى ملكة العلوم . وثمة
نقوش ترمز إلى الإيمان وعبادة الأوثان ، والأمل والياس ، والصدقات والبخل ،

والعفة ، والدعارة ، والسلام ، والشقاق ؛ وفي لاءون نقش على باب عال
يصور معركة بين الفضائل والرذائل ؛ وعلى الواجهة الغربية من كنيسة
نوتردام في باريس صورة امرأة رشيقة معصوبة العينين تمثل المعبد ، وأمامها
امرأة أجمل منها في ثياب ملكية وعليها سماء من اعتادت الأمر والتهى وتمثل
الكنيسة بوصفها عروس المسيح . أما المسيح نفسه فيبدو تارة رحيمًا وتارة
أخرى رهيباً ؛ وتمثله بعض الصور وأمه تنزله من الصليب ؛ أو يقوم من
القبر وبالقرب منه رسم رمزي يمثل أسداً يعيد الحياة بأنفاسه إلى أشباله ؛
أو يقضى في رهبة بين الأحياء والأموات . وترى صور يوم الحساب في
كل مكان منحوتة أو مرسومة ملونة في الكنائس ؛ ذلك أنه لم يكن يسمح
للإنسان أن ينساها ؛ وهنا أيضاً لم يكن يستطيع الاعتماد إلا على شفيع واحد
لغفران الذنوب ، ذلك هو مريم العذراء التي تبدو لهذا السبب في الصور
المنحوتة ، كما تبدو في الأوراد ، صاحبة المكان الأول ، ومنبع الرحمة
اللانهاية ، التي لا تسمح لابنها أن يفسر تفسيراً حرفياً تلك الكلمات القائلة
إن الكثيرين يُدْعَوْنَ والقليلين يُخْتَارُونَ .

إن في فن النحت القوطي لعمقاً في الشعور ، وتنوعاً ونشاطاً في الحياة ،
وتعاطفاً مع أشكال عالم النبات والحيوان جميعاً ، وإن فيه لركة ، وظرفاً ،
ورشاقة ؛ فهو معجزة من الحجارة لا تكشف عن اللحم بل عن الروح ؛
وهذه كلها تحركنا وتشبعنا بعد أن فقدت روعة أجسام التماثيل اليونانية
بعض ما كان لها من جاذبية . ولعل سبب ضياعها هو أننا بلغنا سن الشيخوخة .
وتبدو الآلهة الثقيلة القائمة في قوصرة البارثونون إذا وضعت إلى جانب
الصور الحية التي أخرجها إيمان العصور الوسطى باردة . ولسنا ننكر
أن النحت القوطي معيب من الناحية الفنية ، فليس فيه ما يضارع كمال
إفريز البارثونون ، أو جمال آلهة بركستليز وإلاهاته الشهبانية ، أو سيدات
نقش السلام وشيوخه في رومة ؛ وما من شك في أن صور أولئك الشبان
ذوي الوسامة ، وصور أفرديتي اللينة العريكة ، كانت تمثل في وقت ما

متعة الحب والحياة السليمة . ولكن آراءنا الدينية المبتسرة ، إذ تذكر ما فيها من جمال وتغفل عما فيها من رهبة ، تعود بنا المرة بعد المرة إلى الكنائس الكبرى وترجّح كفة الإله الجميل المصور في أمين والملوك الباسم المصور في ريمس ، وعذراء شارتر .

وكان المثال في العصور الوسطى كلما زادت مهارته في فنه قوى أمله في تحرره من فن العمارة وفي أن يعمل فيه أعمالا توائم الذوق الدينى المتزايد عند الأمراء والأحبار ، والأشراف ، والطبقة الرأسمالية المتوسطة . ففى إنجلترا كان نحاتو الرخام فى پربك Purbeck يستخدمون النوع الممتاز الذى يقطعونه من نتوء دورسسترشير Dorestershire ، واشتهر فى القرن الثالث عشر بالعمد والتيجان الجاهزة ، وبالدمى المضطجعة التى ينحتونها على توابيت الأموات الأغنياء - وصب وليم تورل William Torel وهو صائغ من أهل لندن حوالى عام ١٢٩٢ تمثالين من البرنز لهنرى الثالث وإليانور القشتالية زوجة ولده ليوضعا فى قبرهما الرخامين فى دير وستمنستر ؛ ويبلغ هذان التمثالان من الجمال والدقة ما تبلغه أية تحفة برنزية فى ذلك العصر . واجتمعت فى ذلك الوقت مدارس للنحت عظيمة الشأن فى لياج ، وهلسدهايم Hildesheim ونومبرج Naumburg . ونحت مثال غير معروف حوالى عام ١٢٤٠ التمثالين القويين البسيطين - ذوى الأثواب الفخمة - لهنرى الأسد ولبوته القائمين فى كنيسة برنزويك Brunswick . وترعت فرنسا أوربا بأجمعها فى جمال تماثيلها الرومنسية (فى القرن الثانى عشر) والقوطية (فى القرن الثالث عشر) ولكن معظم هذه التماثيل قائمة فى كنائسها الكبرى ، ولهذا فإن خير مكان تدرس فيه هو هذه الكنائس .

ولم يكن النحت فى إيطاليا وثيق الصلة بالعمارة ، ولا بالمدن ذات الحكومات المستقلة ، ولا بنقابات الحرف كما كان فى فرنسا ؛ ولهذا فلما فى القرن الثالث عشر (١٨ - ج ٥ - مجلد ٤)

نجد فنانين منفردين تسيطر شخصياتهم على أعمالهم وتحلّد أسماؤهم . من هؤلاء نيقولو پيزانو Niccolo Pisano الذى اجتمعت له عدة مؤثرات مختلفة انصهرت كلها فخرجت منها شخصية مركبة فذة . فقد ولد هذا الفنان فى أبوليا عام ١٢٢٥ ، واستمتع فيها بالجو الحافز الذى يحيط بحكم فردريك الثانى ؛ ويبدو أنه درس فيها بقايا الفن الإيطلالى القديم وآثاره المعادة^(٣) . ثم انتقل إلى پيزا وورث فيها التقاليد الرومنسية ، وسمع بالطراز القوطى الذى بلغ وقتئذ ذروة مجده فى فرنسا . ولما أن نحت منبراً لمكان التعميد فى پيزا اتخذ له نموذجاً تابوتاً فى عهد هديران . وقد تأثر أشد التأثير بالخطوط القوية الرشيقة التى تمتاز بها الأشكال القديمة ؛ ولهذا فإن معظم الأشكال التى فى منبره ذات ملامح وثياب رومانية وإن كانت أقواسه رومانية وقوطية ؛ فوجه مريم الذى نراه فى لوحة المخاض وثيابها هما بعينهما وجه امرأة رومانية وثيابها ، ونرى فى إحدى الزوايا صورة لشخص رياضى عار شاهدة على الروح اليونانية القديمة التى كان يتأثر بها هذا الفنان . ودبت الغيرة من هذه التحفة فى قلب سينا (١٢٦٥) فاستخدمت نقولو وابنه جيوفانى ، وتلميذه أرنلفو دى كيبو Arnolfo di Cambio فى صنع منبر أجمل من هذه لكنيسة ، وحالفهم التوفيق فى هذه المهمة . ويقوم المنبر الحديد المصنوع من الرخام الأبيض على عمد ذات تيجان تمثل أوراق النبات ، وتتكرر فيه الموضوعات التى فى منبر پيزا مع لوحة مزدحة تمثل الصلب . وهنا يتغلب التأثير القوطى على التأثير الرومانى القديم ، ولكن المزاج القديم يظهر فيما يسبغه الفنان على الصور النسائية التى تتوج الأعمدة من صخرة لاهفاء فيها . وكأنما أراد نقولو أن يؤكد عواطفه الرومانية القديمة فنحت فوق قبر القديس دمنيك الناسك فى بولونيا صوراً كاملة الرجولة على الطراز الوثنى مليئة بهجة الحياة . وانضم فى عام ١٢٧١ إلى ابنه وأرنلفو لينحتوا الواجهة الرخامية التى لاتزال حتى اليوم قائمة فى ميدان پروجيا العام . ومات بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وهو لا يزال إلى

حد ما في سن الشباب ، ولكنه مهد في أثناء حياته السبيل إلى دنانيلو Donatello وإلى بعث فن النحت القديم في عصر النهضة .

وكان ابنه جيوفاني پيزانو (حوالى ١٢٤٠ إلى حوالى ١٣٢٠) يضارعه فيما تعرض له من تأثير متعدد النواحي ، ولكنه يفوقه في مهارته الفنية . وقد عهدت إليه پيزا ببناء مقبرة تليق بالرجال الذين كانوا في ذلك الوقت يقتسمون البحر المتوسط الغربى مع جنوى . وجيء بالتراب المقدس للميدان المقدس Compo Santo من جبل كلفارى . وأقام الفنان حول مستطيل كلئ عقوداً رشيقة امتزج فيها الطرازان الرومنى والقوطى . وجيئت بروائع النحت لتزيين البوائك ، وظل الميدان المقدس قائماً يخلد ذكرى جيوفاني پيزانو حتى حطمت الحرب العالمية الثانية نصف عقوده وتركته أنقاضاً مهملة (*) .

ولما منى الپيزيون بالهزيمة على أيدي الجنوين (١٢٨٤) لم يعد في مقدورهم أن يمدوا جيوفاني بما يحتاجه من المال ، فانتقل إلى سينا . ونحت في عام ١٢٩٠ بعض النقوش البارزة لمواجهة كنيسة أرفيتو Orvieto الغربية غير المألوفة . ثم عاد فانتقل شمالاً إلى پستونيا Pistonia ونحت لكنيسة سائتة أندريا Santa Andrea منبراً صوره أقل اكتمالاً في رجولتها من صور منبر والده في پيزا ، ولكنه يفوق منبر أبيه في رشاقتة وفي اتفاقه مع الطبيعة ، والحق أن هذا المنبر هو أجمل ما أخرجه فن النحت القوطى في إيطاليا .

وظل أرنلفو دى كيبو (١٢٣٢ - ١٣٠٠) ثالث هؤلاء الثلاثة الدائمي الصيت يمارس عمله على الطراز القوطى برعاية البابوات ، وكانت لمعظمهم روابط سابقة بفرنسا . فقد اشترك وهو في أرفيتو في قطع واجهة كنيسها ، وصنع تابوتاً جميلاً للكردينال ده براى Cardinal de Braye . وكان شبيهاً بفنانى النهضة في

(*) والعمل يجرى الآن في إعادة الميدان المقدس إلى ما كان عليه .

تعدد مهاراتهم ؛ وبهذه المهارات المتعددة صمم ، وشرع ينفذ ، ثلاثة من الأعمال المجيدة التي تفخر بها فلورنس : كنيسة سانت ماريا دل فيوري Santa Maria del Fiori ، وكنيسة سانتا كروس Santa Croce (الصليب المقدس) والبلازو فتشيو Piazza Vecchio (قصر فتشيو)

ولكننا حين نتحدث عن أرنلفو وعن هذه الأعمال ننقل بالقارئ من النحت إلى العمارة . فقد عادت كل الفنون وقتئذ إلى الحياة وإلى الصحة ؛ ولم ترجع المهارات القديمة إلى سابق عهدها وكفى ، بل أخذت تغامر في اتجاهات وصياغات فنية جديدة تكاد لكثرتها تبلغ حد التهور ؛ وتآلفت الفنون وتوحدت ، كما لم تتآلف أو تتوحد من قبل ولا من بعد ، في المغامرة الواحدة وفي الرجل الواحد . وكان كل شيء قد أعد لتلك الدرجة الرفيعة التي بلغها فن العصور الوسطى ، فتجتمع الفنون كلها وتتعاون أكمل تعاون وأعظمه ، ويطلق اسم فنها الجامع على طراز ذلك العصر وفنه .

الباب الثاني والثلاثون

ازدهار الفن القوطى

١٠٩٥ - ١٣٠٠

الفضل الأول

الكتدرائيات (*)

نرى لم شادت أوروبا هذا العدد الجم من الكنائس فى الثلاثة القرون التى أعقبت عام ١٠٠٠ بعد الميلاد ؟ وأية حاجة دعت إلى أن تنشأ فى أوروبا التى لا يكاد سكانها فى ذلك الوقت يصلون إلى خمس سكانها الحاليين معابد قلما تمتلئ لسعتها بالمصلين فى أكثر الأيام قدسية ؟ وكيف استطاعت حضارة زراعية أن تنشئ بمواردها تلك الصروح الكثيرة النفقة التى تكاد الحضارة الصناعية تعجز عن الاحتفاظ بها ؟

لقد كان السكان قليلين ، ولكنهم كانوا مؤمنين ؛ وكانوا فقراء ، ولكنهم كانوا يبذلون بسخاء عظيم . ويقول سوجر رئيس دير القديس دنيس إن العابدين فى أيام الأعياد ، وفى الكنائس التى يؤمها الحجاج ، كانوا من الكثرة بحيث « تضطر النساء إلى الجرى إلى المذبح متخذات من رعوس الرجال طوارا »^(١) ، ولسنا ننكر أن الرئيس العظيم كان يجمع المال لبناء تلك الآية الفنية ، وأنه

(*) الكتدرائية هى الكنيسة الرئيسية فى الأسقفية وفيها يكون مقر الأسقف أو عرشه . (المترجم)

خليق لهذا السبب بأن تغفر له بعض مغالاته . ولكن أسبابا كثيرة كانت تدعو إلى بناء الكنائس بهذه الكثرة وتلك السعة : لقد كان من المرغوب فيه أن يجتمع سكان بعض المدن مثل فلورنس ، وبيزا ، وتشارتر ، ويورك ، في صرح واحد في بعض المناسبات . كذلك كان لا بد أن تتسع كنيسة الدير المزدهم للرهبان والراهبات ولغير رجال الدين . وكان لا بد من أن تحفظ الخلفات المقدسة في أضرحة خاصة تتسع أيضا للصفوة من العابدين ، وكانت الحاجة تدعو إلى وجود بناء مقدس رحب تقام فيه الطقوس الكبيرة ، وإلى مذابح جانبية في الأديرة والكتدرايات التي ينتظر أن يتلو قساوستها الكثيرون القداس في كل يوم ؛ وكان الاعتقاد السائد أن مذبحا أو مصلى يخصص لكل قديس محبوب قد يدعو إلى إجابة طلبات من يتوسلون إليه ؛ وكان لا بد أن يبنى لمريم « مصلى نسائية » إذا لم تكن الكنيسة كلها ملكا لها .

أما نفقات هذه الصروح فقد كان معظمها يؤخذ مما يجمع من الأموال في كرسى الأبرشية ؛ وكان الأساقفة فضلا عن هذا يطلبون العطايا من الملوك والنبلاء ، والمدن ذات الحكم الذاتي ، والتقابات الطائفية والأبرشيات ، والأفراد . وكانت المنافسة الطيبة تثار بين المدن التي أضحت الكتدرائية فيها رمزا لثرائها وسلطانها ، تتحدى بهما غيرها من المدن ؛ وكان المتبرعون يوعدون بأن تغفر لهم ذنوبهم ، كما كانت الخلفات المقدسة يطاف بها في الأبرشية لتحفز الناس إلى العطاء ، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يحرض الناس على البذل والسخاء بمعجزة من المعجزات (٢) . وكان التنافس في بذل المال للبناء شديدا ؛ وكان الأساقفة يعارضون في جمع المال من أبرشياتهم لإقامة منشآت في غيرها ، ولكن أساقفة من أجزاء أخرى ، ومن بلاد أجنبية في بعض الأحيان ، كانوا يمدون بالمعونة مشروعات في غير بلادهم كما حدث في مدينة تشارتر . ولسنا ننكر أن بعض هذه الطبقات كانت تقرب أحيانا من الإلزام ، ولكنها قلما تصل إلى قوة

الموثرات التي تعبا لتمويل الحروب الحديثة من الأموال العامة . وقد استغذت هيئات القساوسة في الكنتدراتيات الفرنسية أموالها الخاصة ، وكادت تفلس من أجل ذلك الكنيسة الفرنسية في خلال سورة البناء القوطية . ولم يكن الناس أنفسهم يشعرون وهم يتبرعون بالمال بأنهم يُستغلون ، وقلما كانوا يحسون بفقد القليل الذي يبذله كل فرد منهم ، لأن هذا القليل كان يرد إليهم فيما يعود عليهم من عزة جماعية وعمل جليل عظيم ، وفيما يكون لهم من بيت للعبادة ، ومكان رحب يجتمعون فيه ، ومدرسة يتعلم فيها أبنائهم ، ومدرسة للفنون والحرف تتلقاها فيها نقاباتهم الطائفية ؛ وكانت في نظرهم كتاباً مقدساً من الحجارة يقرءون في تماثيله وصوره بعين بصيرتهم قصة إيمانهم . وقصارى القول أن بيت الله كان أيضاً بيت الشعب .

ومن هم الذين خططوا الكنتدراتيات ؟ إذا كانت العبارة هي فن تخطيط البناء وتجميله ، وتوجيه القائمين بتشيدته فإن علينا أن نرفض — في حالة الفن القوطي — الرأي القديم القائل إن القسيسين أو الرهبان هم مهندسو هذه للصروح . لقد كانت مهمتهم هي أن يصوغوا حاجتهم ، وأن يتقدموا بفكرة عامة عن البناء المطلوب ، ويحصلوا على مكان يقيمونه فيه ، ويجمعوا ما يلزمه من المال . وقد جرت عادة رجال الدين وبخاصة رهبان دير كلوني قبل عام ١٠٥٠ أن يصمموا البناء ، ويضعوا خطته ، ويشرفوا على بنائه . أما الكنتدراتيات الكبرى — كلها بعد عام ١٠٥٠ — فقد كان لا بد فيها من استخدام مهندسين محترفين ، كانوا كلهم — إلا قلة منهم لا تذكر — من غير الرهبان أو القسيسين . ولم يكن المهندس المعماري يلقب بهذا اللقب قبل عام ١٥٦٣ ، بل كان يسمى في العصور الوسطى « رئيس البنائين » وأحياناً رئيس المشيدين ، وتدلنا هذه التسمية على منشئه . فقد كان يبدأ حياته بناء يعمل بيده في البناء الذي يشرف عليه . فلما استهل القرن الثالث عشر وعظم الثراء ، فشيدت بفضله الصروح الكبيرة ، وزاد

التخصص ، لم يبق « رئيس البنائين » رجلاً يشترك بنفسه في العمل البدوى ، بل أصبح رجلاً يضع الخطط ويعرض المناقصات ، ويقبل المشارطات ، ويخطط الأرض ، ويضع الرسوم ، ويحصل على المواد ، ويؤجر العمال والفنانين ، ويؤدى إليهم أجورهم ، ويشرف على أعمال البناء من البداية إلى النهاية . وإنا لنعرف أسماء الكثيرين من هؤلاء المهندسين الذين عاشوا بعد عام ١٠٥٠ ، نعرف أسماء ١٣٧ من المهندسين القوط في أسبانية العصور الوسطى بله غيرها من البلاد . ومن هؤلاء من كانوا ينقشون أسماءهم على ما يشيدونه من الأبنية ، ومنهم قلة ألفت كتباً في مهنتها . وقد ترك فلارده هنكور Villard de Honnecourt (حوالى عام ١٢٥٠) سجلاً من المذكرات والرسوم التخطيطية المعمارية توضح ما قام به من الأسفار وهو يمارس مهنته من ليون وريمس إلى لوزان وبلاد المجر .

ولم يكن للفنانين الذين يقومون بأعمال أقل درجة من البناء - أى الذين يحفرون الصور ، والنقوش ، أو يدهنون النوافذ والجدران ، أو يزينون المذبح أو مكان المرتلين - لم يكن لهؤلاء الفنانين اسم خاص يمتازون به من الصناعات ؛ لقد كان الفنان رئيس صناعات ، وكانت كل صناعة تحاول أن تكون فناً . وكانت معظم الأعمال توزع بمقتضى عقود ومشارطات على النقابات الطائفية التى ينتمى إليها الصناعات والفنانون على السواء . أما العمل الذى لا يحتاج إلى مهارة فكان يقوم به أرقاء الأرض أو عمال متنقلون مأجورون ؛ وإذا ما طلب العمل الإسراع جندت الحكومة رجلاً - وصناعاً ماهرين إذا لزم الأمر - لإنجازه^(٣) . وكانت ساعات العمل تدوم فى الشتاء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، وفى الصيف من بعد مطلع الشمس إلى قبيل الغروب ، مع السماح للعمال بوقت يتناولون فيه وجبة الغداء . وكان المهندسون الإنجليز يتقاضون فى عام ١٢٧٥ اثني عشر بنساً فى اليوم (١٢ سنتاً أمريكياً) تضاف إليها أجور الانتقال وهدايا فى بعض الأحيان .

وكان تخطيط أرض الكتدرائية في جوهره هو تخطيط الباسلقا الرومانية : فهو صحن مستطيل ينتهى بمحراب وقبا ، ويرتفع فوق طرقتين وبينهما إلى سقف قائم على جدران وعمد . وطراً على هذه الباسلقا البسيطة تطور معقد ولكنه فائن خلاب ، فأضحى هي الكتدرائية الرومنسية أولاً والقوطية فيما بعد ، فقطع الصحن والطرقتين صحنٌ عَرَضِيٌّ يجعل التصميم في شكل صليب لاتيني . وأخذت مساحة أرض الكتدرائية تزداد بفضل المنافسة أو الحماسة الدينية ، حتى أضحى مساحة كنيسة نوتردام في باريس ٦٣٠٠٠ قدم مربعة ، ومساحة كنيسة تشارتر أو ريمس ٦٥ ألفاً ، وكنيسة أمين ٧٠ ألفاً ، وكولوني ٩٠ ألفاً والقديس بطرس ١٠٠ ألف . وكانت الكنيسة المسيحية تبنى بحيث يكاد رأسها أو محرابها يكون على الدوام متجهاً نحو الشرق - أى نحو بيت المقدس .

ومن أجل هذا كان المدخل الرئيسى في الواجهة الغربية التى تستقبل زخرفتها الخاصة ضوء الشمس الغاربة . وكان كل مدخل في الكتدرائيات العظيمة يتألف من باكية ذات « تجويفات داخلية » : أى أن أبعد العقود من الداخل يعلوه عقد أكبر منه يمتد إلى الخارج ، من فوقه هو أيضاً عقد يعلوه عقد ثالث أكبر من الثانى ، ويتكرر هذا الوضع حتى تبلغ العقود فى بعض الأحيان ثمانى طبقات يتكون منها كلها غلاف قابل للاتساع . وهناك « طبقات ثانوية » شبيهة بها تزيد جمال عقود الصحن وأكتاف الشبايك . ويتسع كل رباط حجرى من العقد المعمارى لثمانى أو غيرها من الزخارف المنحوتة ، وبذلك يصبح مدخل الكتدرائية ، وبخاصة في الواجهة الغربية ، وكأنه فصل شامل واف فى كتاب القصص المسيحى الحجرى .

ومما زاد روعة الواجهة الغربية ومهابتها أن أقيم حولها من الجانبين برجان ؛ ذلك أن الأبراج قديمة قدم السجلات التاريخية ؛ ولم تكن تستخدم فى الطرازين الرومنسى والقوطى مكاناً للأجراس فحسب ، بل كانت تستخدم فوق ذلك

لتحمل ضغط الواجهة الجنوبي ؛ وضغط طوب الأجنحة ؛ وكان في المباني النورمندية والإنجليزية برج ثالث ذو نوافذ كثيرة ، إذا لم يكن جزؤه الأكبر مفتوحاً عند قاعدته ، وكان هذا البرج بمثابة « فانوس » ينفذ منه الضوء الطبيعي إلى وسط الكنيسة . وقد أراد المهندسون القوط المولعون بالأوضاع الرأسية أن يضيفوا برجاً رفيعاً مستدق الطرف لكل واحد من هذين البرجين ، غير أنهم لم يسعفهم المال ، أو المهارة الفنية ، أو الحماسة ؛ وسقطت بعض هذه الأبراج المستدقة كما حدث في بوفيه ؛ ولم تقم في كتدرائيات نوتردام ، أو أمين ، أو ريمس أبراج من هذا النوع ، ولم يُبنَ في تشارتر إلا برجان من الثلاثة الأبراج المستدقة التي كان في النية إقامتها ، كما لم يُبنَ في لاؤن إلا واحد من خمسة ، وقد دمر هذا البرج المستدق في أثناء الثورة الفرنسية . وكان برج الجرس يشرف على المدن الإيطالية ، كما كان البرج المستدق يشرف على براري البلاد الأوربية والشمالية . وكانت هذه الأبراج في تلك الجهات الشمالية منفصلة عادة عن بناء الكنيسة ، تشبه من هذه الناحية برج *Pisa* المائل ، أو برج *جيتو* في فلورنس . ولعل من شادوها قد تأثروا بالمآذن الإسلامية ، ثم عادوا فنشروا هذا الطراز في فلسطين وسوريا ، وأصبحت هي أبراج الأجراس في المدن الشمالية .

وإذ كانت العمدة التي على جانبي الطريقة الوسطى في داخل الكنيسة تعتمد عليها عقود تنحني حتى تلتقي في قبة السقف ، فإن هذه الطريقة تبدو للناظر كأنها هيكل المركب من الداخل في وضع مقلوب ، ومن هذا الوضع اشتق اسمها *nave* (*) . وكان طولها يتقص تأثيره في نفس الناظر إليه أحياناً ، وبخاصة في إنجلترا ، بإضافة شباك من الرخام أو الحديد المشغول منحوت أو مصبوب نحاً أو صباً جميلاً يعترض الصحن ليقى المحراب من تطفل العلمانيين أثناء الصلاة .

(*) الاسم الإنجليزي *nave* الذي يطلق على صحن الكنيسة أي جزئها الأوسط المام مشتق من كلمة *net* الفرنسية المأخوذة من كلمة *navis* اللاتينية ومعناها السفينة . (المترجم)

وكان في المحراب مقاعد للمرنمين كلها تحف فنية على الدوام ، ومنبران ، ومقاعد للقساوسة الذين يصلون بالناس ، والمذبح الرئيسى الذى يحتوى في أغلب الأحيان على ستار خفى مزخرف . ومن حول المحراب ممشى دائرى يصل صحن الكنيسة بقباها ، ويسمح للمواكب بأن تطوف بالبناء كله . وكانت بعض الكنائس تنشئ تحت المذبح قبواً تحفظ فيه مخلفات القديس الشفيح ، أو عظام الأموات الممتازين ، وكأنها بذلك تذكرنا بحجرات الدفن في مقابر الرومان .

وكانت المشكلة الكبرى في العمارة الرومنية أو القوطية هي طريقة ارتكاز السقف . لقد كانت الكنائس الأولى المقامة على الطراز الرومنى ذات سقف خشبية مصنوعة في العادة من خشب البلوط الجيد الجفاف ، وإذا ما أحسنت تهوية هذا الخشب ومنعت عنه الرطوبة فإنه يبقى إلى ما شاء الله ، وشاهد ذلك أن الطريقة الجنوبية المستعرضة في كتدرائية ونشستر لا تزال محتفظة بسقفها الخشبي المصنوع في القرن الثانى عشر . وأكبر عيب في هذه السقف هو تعرضها لخطر الحريق ، فإذا ما شبت النار فيها كان من الصعب الوصول إليها لإطفائها . ولهذا فإنه لم يستهل القرن الثانى عشر حتى كانت الكنائس الكبرى كلها تقريباً قد بنيت سقفاً . وكان ثقل هذه السقف هو الذى وجه تطور العمارة الأوربية في العصور الوسطى ؛ فكان لابد من أن يتركز قسم كبير من هذا الثقل على العمد المقامة على جانبي الصحن ؛ وإذن فقد كان لابد من تقوية هذه العمد أو مضاعفة عددها ، وقد تحقق هذا الغرض بضم عدد من العمد في مجموعة أو إحلال دعائم ضخمة من البناء محل هذه العمد . وكانت مجموعة العمد أو الدعامة الضخمة يعلوها تاج ، وربما كانت لها أيضاً عصابة يتسع بها سطحها لتحمل ما يعلوها من ثقل . وكانت مروحة من العقود تقوم فوق كل مجموعة من العمد أو الدعامة : منها عقد مستعرض في الصحن يمتد إلى الدعامة المواجهه ، وعقد مستعرض آخر يمر فوق الطريقة إلى دعامة في الجدار ، وعقدان طوليان يمتدان إلى الدعامتين التاليتين

الخلفية منهما والأمامية ، وعقدان ممتدان على طولى القطرين ويصلان بين إحدى الدعامات ودعامتين مقابلتين لها فى عرض الصحن ؛ وقد يكون هناك عقدان آخران ممتدان إلى دعامتين مقابلتين يعلوان فوق عرض الممشى . وقد جرت العادة أن يكون لكل عقد ركيزته الخاصة فوق عصابة الدعامات أو تاجها . وكان يحدث أحياناً ما هو خير من هذا فيكون مستطيل كل عقد فى خط غير منقطع حتى يصل إلى الأرض ليكون طائفة من العمدة المتجمعة أو الدعامات المركبة . وكان الأثر الذى ينتج من هذه العمدة والدعامات الرأسية من أجل خصائص الطرازين الرومنسى والقوطى . وكان كل مربع من الدعامات القائمة فى الصحن أو الطرقات يكون فرجة ترتفع منها العقود مشنية اثناء رشيّةاً نحو الداخل ليتكون منها قسم من القبة . وكان هذا السقف يغطى من الخارج بسطح هرمى من الخشب تشره وتقيه طبقة من الاردوز أو القرميد .

وكانت قبة السقف أعظم ما أنتجته عمارة العصور الوسطى . وقد سمح مبدأ العمود بإيجاد فضاء يغطى أوسع رقعة من السطح الذى يبسر وجوده السقف الخشبي أو العوارض المرتكزة على العمدة . وبهذا أصبح من المستطاع توسيع عرض الصحن حتى يوائم طوله الكبير ؛ فلما زاد هذا العرض تطلب ذلك زيادة ارتفاعه حتى يتناسب الارتفاع مع سعته ؛ ويبسر هذا ارتفاع المستوى الذى تقوم فوقه الدعامات أو الجدران ؛ وهذه الاستطالة الجديدة فى العمدة زادت هى الأخرى من علو الكتدرائية . وزاد تناسق أجزاء القبة لما أنشئت فى حافاتها « ضلوع » من الآجر أو الحجارة تمتد من زوايا تقاطع العقود . وأدت هذه الضلوع هى الأخرى إلى تحسينات كبرى فى البناء والطراز . فقد عرف البناءون كيف يبدأون القبة بإنشاء ضلع بعد ضلع فوق إطار خشبي يسهل تحريكه ونقله ؛ ثم ملأوا المثلثات التى بين كل ضلعين بالبناء الخفيف مثلاً بعد مثلث ، وجعلوا هذه الشبكة الرقيقة من البناء مقعرة ؛ وبهذا نقل الجزء الأكبر من ثقله إلى الضلوع

نفسها ، وجعلت هذه الضلوع قوية حتى يلقي الضغط السفلى على نقط معينة —
هى دعامات الصحن أو الجدار . ولقد أضحت القبة ذات الأضلاع والعقود
المتقاطعة من أهم ما يمتاز به عمارة العصور الوسطى فى أعلى درجاتها .
وعولجت مشكلة ارتكاز البناء العلوى فوق هذا يجعل صحن الكنيسة
أعلى من طرفاتها ؛ وبهذا كان سقف الطرقة ، هو والجدار الخارجى ،
بمثابة دعامة لقبة الصحن ؛ وإذا ما بنيت فوق الطرقة نفسها قبة ، فإن
عقودها المضلعة تلقى نصف ثقلها إلى الداخل لتقاوم بذلك الضغط الخارجى
للقبة الوسطى عند أضعف نقط فى دعامات الصحن . يضاف إلى هذا أن
جزء الصحن الذى يعلو عن سقف الطرقات يصبح فى الوقت نفسه بمثابة
طابق أعلى ترتفع نوافذه فوق مستوى البناء المجاور له ، فتكون بذلك غير
محبوبة وتضئ صحن الكنيسة . وكانت الطرقات نفسها تقسم عادة إلى
طابقين أو ثلاثة أطباق تكون أعلاها شرفة ، وتسمى التى أسفل منها ذات
الأبواب الثلاثة لأن المسافات التى بين العقود والتى تواجه بها الصحن كانت
تقسم عادة إلى « ثلاثة أبواب » بعمودين يقومان فيها . وكان ينتظر من
النساء فى الكنائس الشرقية أن يصلين فى ذلك المكان وأن يركن الصحن
كله للرجال .

وهكذا قامت الكتدرائية مرحلة فى إثر مرحلة خلال عشرة أعوام
أو عشرين عاما أو مائة عام ، تتجدى قوة الجاذبية لتمجد الله سبحانه ؛ فإذا
تمت وأصبحت معدة للصلاة دشنت باحتفال دينى فخم ، يجتمع فيه
كبار الأعيان وذوو المقام العالى ، والحجاج ، والنظارة ، وجميع أهل
المدينة ما عدا القرويين غير المتدينين . وتمضى عدة سنوات بعد ذلك
لتكملة ما يحتاج إليه من الإضافات فى الداخل والخارج وإضافة ألف
من الزخارف وضروب التحلية . ويظل الناس قروناً طوالاً يقرأون على
أبوابها ، ونوافذها ، وتيجان أعمدتها وجدرانها ما حفر أو صور عليها من
تاريخ دينهم وقصصه — يقرأون قصة خلق العالم ، وسقوط آدم ، ويوم

الحساب ، وسير الأنبياء والبطارقة وما تعرض له أولياء الله الصالحون من صنوف العذاب وما قاموا به من المعجزات ، والقصص ذات المغزى التي تدور حول عالم الحيوان ، وعقائد رجال الدين التحكيمية ، بل وآراء الفلاسفة التجريدية . كل هذه نجدها في الكنيسة تتكون منها موسوعة حجرية كبيرة في الدين المسيحي . وكان المسيحي الصالح يرجو حين يموت أن يدفن بالقرب من تلك الجدران التي تمتنع الشياطين عن الجولان حولها . ويأتي الناس جيلا بعد جيل للصلاة في الكتلرائية ، ويخرجون جيلا بعد جيل من الكنيسة إلى المقابر التي حولها . وتطل الكتلوائية الشهباء عليهم في غدوهم ورواحهم بهدوء الحجارة الساكنة حتى يجيء الموت الأعظم ، ويموت الدين نفسه ، فتستسلم هذه الجدران المقدسة إلى الدهر الذي لا يبقى على شيء ، أو حتى تهدم هذه الكتلرائية لتبنى من أنقاضها هياكل جديدة لآلهة جدد .

الفصل الثانى

الطراز الرومنسى القارى : ١٠٦٦ - ١٢٠٠

لو أننا قلنا إن هذا الوصف العام الذى وصفنا به بناء الكندرائية يصدق على جميع الكنائس فى العالم المسيحى اللاتينى لأخطأنا خطأ كبيراً فى شأن تنوع العمارة الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ذلك أن تأثير الفن البيزنطى قد بقى قائماً فى مدينة البندقية ؛ وقد أضيفت إلى كنيسة القديس بطرس زخارف بعد زخارف ، وأبراج بعد أبراج ، وغنائم تلو غنائم ، ولكنها كانت على الدوام على نمط مثيلاتها فى القسطنطينية ممزجة بأخرى من بغداد . وأكبر الظن أن طراز القباب البيزنطى ذا المثلثات التى بين العقود القائمة فوق قاعدة يونانية على شكل الصليب ، قد دخل فرنسا عن طريق جنوى أو مرسيليا ، وظهر فى كنيسة سانت إتيان St. Etienne وسانت فرونت St. Front فى برجويه Perigux وفى كندرائيتى كاهور Cahors وأنجوليم Angoulême . ولما أن اعتزمت البندقية إعادة بناء قصر الدوج وتوسيعه عمدت فى عام ١١٧٢ إلى خليط من الطرز المعمارية - الرومانية ، واللمباردية ، والبيزنطية ، والعربية - وجمعتها كلها فى آية من آيات الفن وصفها فيل هاردون Villehardouin فى عام ١٢٠٢ بأنها جدد غنية وجميلة ، ولا تزال حتى الآن أكبر مفاخر القناة الكبرى فى تلك المدينة .

وليس ثمة تعريف لأى طراز معمارى يسلم من الشواذ ، ذلك بأن أعمال الإنسان ، كأعمال الطبيعة نفسها ، تأبى التعميم ، وتلوح بفرديتها فى وجه كل قاعدة . فلنقل إذن إن العقد المستدير ، والجدران والدعامات السمكية ، والنوافذ الضيقة ، ومساند الجدران المتصلة بعضها ببعض أو انعدام هذه المساند ، والخطوط الأفقية فى الغالب ، لنقل إن هذه الصفات هى التى يمتاز بها الطراز الرومنسى ، (١٩ - ج ٥ - مجلد ٤)

ولكن مستعدين مع هذا إلى قبول بعض الانحراف عن هذا الوصف في هذا الطراز .

وقد طلبت پيزا بعد ما يقرب من قرن من إقامة كنيسة إلى ديوتيسلفي Diotisalvi أن يبنى مكاناً للتعמיד في عرض مربع من مربعات الكتدرائية (١١٥٢) . فصمم البناء على شكل دائرة وجعل ظاهر البناء من الرخام ، وشوّه بالبواكى الخالية من النقوش ، وأحاطه بالعمد ، وأقام فوقه قبة لولا أنه جعل أعلاها مخروطى الشكل لكنت كاملة . ثم أقام يونانو Bonanno من پيزا ووليم من إنزبروك Innsbruck البرج المائل ليكون برجاً للأجراس (١١٧٤) . وقد تكرر فيه طراز واجهة الكتدرائية — فهو سلسلة من البواكى الرومنسية بعضها فوق بعض وفي طبقته الثامنة علقت الأجراس . وهبط البرج في ناحيته الجنوبية بعد أن بنيت ثلاث طبقات فوق الأساس الذى لم يزد عمقه على عشر أقدام ؛ وأراد المهندس أن يعوض هذا الميل بأن أمال الطبقات الأخرى نحو الشمال . وينحرف البرج الآن عن الوضع العمودى ست عشرة قدماً ونصف قدم في ارتفاع ١٧٩ قدماً — وقد زاد هذا الانحراف قدماً واحدة بين عامى ١٨٢٨ و ١٩١٠ .

وجاءت الأنماط الرومنسية مع الرهبان الإيطاليين الذين هاجروا إلى فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، ولعل هؤلاء الرهبان هم الذين طبعوا معظم الأديرة الفرنسية بالطابع الرومنسى ، ولهذا فقد أصبح طراز الأديرة اسماً ثانياً لهذا الطراز في فرنسا . وقد شاد رهبان دير كلونى البندكتيون فيها ديراً فخماً (١٠٩٨ — ١١٣١) يحتوى على أربع طرقات جانبية وسبعة أبراج ، ونحتوا طائفة كبيرة من تماثيل الحيوانات أثار غضب القديس برنار وأنطقته بقوله :

ماذا تريدون أن تفعل هذه الوحوش السخيفة المضحكة في أروقة الدير تحت سمع الرهبان وبصرهم ؟ وما معنى وجود هذه القرودة النجسة ، وتلك

التينينات ، والقنطروسات ، والنمورة ، والآساد . . . وأولئك المقاتلين ،
ومناظر الصيد التي تغطي الجدران ؟ . . . وماذا تعمل تلك المخلوقات التي
نصفها وحوش ونصفها أناسي ؟ . . . إنا لنرى هنا عدة أجسام تحت
رأس واحد ، وعدة رؤوس فوق جسم واحد ، ونرى في مكان ما حيواناً
من ذوات الأربع له رأس ثعبان ، وفي مكان آخر سمكة لها رأس حيوان
من ذوات الأربع ؛ ونرى في مكان غيره جواداً من الأمام وماعزاً من
الخلف (٤) .

وقد دمر دير كلوني في أثناء اضطرابات الثورة الفرنسية ، ولكن أثره
المعماري انتشر في الألفين من الأديرة المنتسبة إليه . ولا يزال جنوبي فرنسا
غنياً بالكنائس الرومنسية ، فقد كانت التقاليد الرومانية فيها قوية في الفن
كما كانت قوية في النقوانين ، وظلت زمناً طويلاً تقاوم الطراز « البربري »
القوطي الذي أقبل عليها من الشمال . وإذا كان الرخام نادراً في فرنسا فقد
عوضت نقص البريق الخارجي بكثرة الصور المنحوتة ، وإن ما يمتاز به
المثاليل من قوة التعبير لما يثير الدهشة - ففيها يتبين الناظر العزم على نقل
الإحساس بدل نقل المنظر ؛ ولهذا فإن صورة القديس بطرس القائمة عند باب
دير مواساك Moissac (١١٥٠) بوجهها المعذب وساقها العنكبوتيتين لم تكن
تهدف بلا ريب إلى إبراز خطوط البناء بقدر ما كانت تهدف إلى التأثير في
خيال الناظر إليها وبث الرعب في قلبه . وتدل صور النبات الدقيقة اله واقعية
في تيجان أعمدة مواساك على أن المثاليين قد عمدوا عن قصد إلى تشويه ما يرسمون
من الصور . وخير ما يوجد من هذه الواجهات الرومنسية في فرنسا هو المدخل
الغربي لكنيسة القديس تروفيم St. Trophime في آرل (١١٥٢) ، المزججة
بصور الحيوانات والأولياء الصالحين .

وشادت أسبانيا ضريحاً رومنسياً فخماً في كنيسة ستياجوده كپستسيلا
(١٠٧٨ - ١٢١١) الذي يحتوي « باب المجد » Portico de Gloria فيها

أجمل نحت رومنى فى أوربا كلها . وشادت كوامبرا Coimbra ، اللى
أضحت بعد زمن وجيز مدينة البرتغال الجامعية ، كندرائية رومنية فى
القرن الثانى عشر ، ولكن الطراز الرومنى لم يبلغ ذروته إلا فى البلاد
الشمالية اللى هاجر إليها . لقد نبذته إيل ده فرانس Ile de France ولكن
نورمندية أحسنت استقباله ، لأن قوتها الحشنة كانت توائم أحسن مواءمة
شعباً كان من عهد قريب من بحارة الشمال المغيرين ، ولم يزل حتى ذلك
الوقت من القراصنة . ولهذا شاد رهبان جومييج Jumieges البندكتيون
وهى بلدة قريبة من رون — فى عام ١٠٤٨ ديراً اشتهر بأنه أكبر من أى دير
سواه شيد فى أوربا الغربية منذ أيام قسطنطين ، ذلك بأن العصور الوسطى
كانت تفخر أيضاً بضخامة مبانيها . وقد دمر هذا الدير نصف تدمير
على أيدي المتعصبين من رجال الثورة ، ولكن واجهته وأبراجه الباقية حتى
الآن تحتفظ بتصميمه الجريء القوى . والحق أن الفرع النورمنى من
الطراز الرومنى قد تكوّن فى ذلك المكان ، وكان يعتمد فى تأثيره على
الحجم وشكل البناء أكثر مما يعتمد على الزينة .

وأراد ولم الفاتح أن يكفر عن ذنبه بزواج ماتلدة أميرة فلندرز فقدم فى
عام ١٠٦٦ المال اللازم لبناء كنيسة سانت إتين فى كاثن Caen وهى المعروفة
بدير الرجال Abbays aux Homme ؛ وقدمت ماتلدة ، لهذا الغرض عينه
فيما نظن ، ما يلزم من المال لبناء كنيسة الثالوث La Trinité المعروفة بدير
النساء Abbys aux Dames ولما أريد إعادة بناء دير الرجال فى عام ١١٣٥
قسمت كل فرجة بين العمد فى صحن الكنيسة بعمود إضافى فى كل ناحية ،
وربط العمودان الحديدان بقوس مستعرضة ، وبهذا أضحت القبة الرباعية
قبة سداسية ، وهو شكل انتشر فى أوربا فى القرن الثانى عشر .

وانتقل الطراز الرومنى من فرنسا إلى فلاندرز وأنشئت على هذا الطراز
كندائية جميلة فى تورناى (١٠٦٦) ؛ ومن فلاندرز ، وفرنسا ، وإيطاليا انتقل

إلى ألمانيا . وكانت مدينة ميونخ قد بدأت كتدراثيتها في عام ١٠٠٩ ، وتريير Trier في عام ١٠١٦ واسپاير Speyer في ١٠٣٠ ، ثم أعيد بناء هذه الكنائس قبل عام ١٣٠٠ ، واحتفظ فيها حين إعادتها بالطراز المستدير ، وشادت كولوني في ذلك الوقت في كبتول Kapitول كنيسة القديسة مارية التي اشتهرت بحملها من الداخل وكنيسة القديسة مارية الشهيرة بأبراجها . وقد دمرت الكنيسة في الحرب العالمية الثانية . ولا تزال كتدراثية ورمز التي افتتحت في عام ١١٧١ وأعيد بناؤها في القرن التاسع عشر تشهد بعظمة فن نهر الرين الروماني . وكان لكل واحدة من هذه الكنائس قبا في كل طرف ، وقلما كان يعنى فيها بالواجهات ذات التماثيل المنحوتة ، بل كانت تزدان من الخارج بالعمد وتدعم بأبراج أخرى صغيرة رفيعة ذات أشكال مختلفة . وإن الناقد غير الألماني يمتدح هذه الأضرحة بالاعتدل المنبعث من نزعة الوطنية ، ولكن الألماني يرى فيها جمالا فاتنا يواهم كل المواءمة جمال بلاد الرين الجذاب .

الفصل الثالث

الطراز النورمندى فى إنجلترا : ١٠٦٦ - ١٢٠٠

لما جلس إدورد المعترف على العرش فى عام ١٠٤٢ جاء معه بكثير من الأصدقاء والأفكار من بلاد نورمنديّة التى قضى فيها أيام شبابه . وبدأ دير وستمنستر فى أيامه كنيسة نورمنديّة ذات عقود مستديرة وجدران ثقيلة ؛ وقد دفن هذا البناء تحت الدير القوطى الذى شيد فى عام ١٢٤٥ ؛ ولكنه كان بداية انقلاب معمارى خطير ؛ وكان الإسراع فى استبدال الأساقفة النورمندين بالسكسون والدمرقيين مما أكد غلبة الطراز النورمندى فى إنجلترا . ونفح ولیم الفاتح وخلفاؤه الأساقفة بكثير من الثروة المصادرة من الإنجليز الذين لم يقسروا فتح بلادهم حق التقدير وأضحت الكنائس أداة لتهدئة العقول ؛ وما لبث الأساقفة الإنجليز النورمنديون أن بلغوا من الثراء ما بلغه النبلاء الإنجليز النورمنديون ؛ وتضاعف عدد الكتدرايات والقصور ، وتحالفت بعضها مع بعض فى البلاد المفتوحة . وكتب فى ذلك ولیم المالمزبرى William of Malsbury يقول : « وأخذوا كلهم ينافس بعضهم بعضا فى إقامة العمائر الفخمة على الطراز النورمندى ؛ لأن النبلاء كانوا يشعرون بأن اليوم الذى يحتفلون فيه بعمل فخم عظيم يوم ضائع »^(٥) . والحق أن إنجلترا لم تشهد قط سورة جنونية فى البناء كالتى شهدتها فى ذلك الوقت .

وتفرعت العمارة النورمنديّة الإنجليزيّة من الطراز الرومنسى وكانت مغايرة له فى بعض أجزائه . فقد حذت حذو المثل الفرنسيّة فى ارتكاز السقف بعقود مستديرة على دعائم سميكّة وجدران ثقيلة — وإن كانت سقفها قد صنعت فى العادة

من الخشب . وإذا كانت القبة من الحجارة فقد كان سمك الجدران يتراوح بين ثمان أقدام وعشر . وكانت معظم الكنائس أشبه بالأديرة في أنها تقام في أماكن نائية لا في المدن . ولم يكن في الكنيسة إلا قليل من التماثيل الخارجية ، لأن القائمين عليها كانوا يخشون على هذه التماثيل من مناخ البلاد الرطب ، وحتى تيجان الأعمدة كانت تُنحت نحتاً بسيطاً غير دقيق ؛ والحق أن إنجلترا لم تبلغ في النحت ما بلغته بلاد القارة الأوروبية ؛ وإن لم تكن في تلك البلاد أبراج كثيرة تضارع الأبراج العظيمة التي تشرف على القصور النورمندية أو تحرس وجهات الكنائس النورمندية — أو ملتحق بالطرقات المغطاة فيها .

ولا يكاد يبقى إلى وقتنا هذا في إنجلترا كلها بناء كنسي رومنسي خالص . فقد ارتفعت في كثير من الكندرائيات العقود والقباب في القرن الثالث عشر ، ولم يبق فيها إلا الشكل الأساسي النورمندي ؛ وقد دمرت النار كندرائية كنتربري القديمة في عام ١٠٦٧ ، ثم أعاد لافرانك بناءها (١٠٧٠ — ١٠٧٧) على نمط دير الرجال الذي له في كائن ، ولم يبق من كنيسة لافرانك إلا قطع قليلة من البناء في المكان الذي سقط فيه بكت . ثم أقام الرئيسان إرنلف وكتراد سرداباً جديداً ومكاناً للمرنمين ، واحتفظا بالعقد المستدير ولكنهما نقلوا الضغط على نقط تقويها مساند خارجية . وكان الانتقال إلى الطراز القوطي قد بدأ قبل ذلك الوقت .

واختفت في عام ١٢٩١ كنيسة يورك التي شيدت في عام ١٠٧٥ على قواعد نورمندية ، وكان اختفاؤها تحت صرح قوطي ، وأعيد بناء كندرائية لكنن ، التي كانت في الأصل (١٠٧٥) نورمندية الطراز ، على الطراز القوطي ، وكان ذلك بعد أن دمرها زلزال عام ١١٨٥ ؛ ولكن الكنيسة النورمندية الأولى بقي منها البرجان الكبيران والأبواب الفخمة النحت ، ومنها يستبين الإنسان ما يمتاز به الطراز القديم من حلق وقوة . وفي ونشستر بقيت من الكندرائية القديمة التي

أقيمت بين عامي ١٠٨١ و ١١٠٣ طرقاتها المتقاطعة وسردابها . وهذه الكنيسة هي التي بناها الأسقف ولكلين Walkelin لاستقبال الوفود التي كانت تخرج إلى قبر القديس إسويثين(*) . وقد لجأ إسويثين إلى ابن عمه وليم الفاتح ليمده بالخشب اللازم لستف صحتها العظيم الاتساع ؛ وأجاز له وليم أن يأخذ من غابة همپاج Hempage كل ما يستطيع قطعه من الأشجار في ثلاثة أيام ، فما كان من أتباع ولكلين إلا أن قطعوا جميع أشجار الغابة ونقلوها في اثنتين وسبعين ساعة . ولما تم بناء الكتدرائية شهد تدشينها رؤساء الأديرة الإنجليزية وأساقفتها كلهم تقريبا ؛ وليس من العسير علينا أن نتصور ما أثاره هذا الصرح الضخم من منافسة قوية في البناء .

وفي وسعنا أن نتصور كذلك اتساع مجال التنافس في الأبنية النورمندية إذا لاحظنا أن دير سانت أولبنز بدي* في عام ١٠٧٥ ، وأن كتدرائية إيلي Ely بدئت في عام ١٠٨١ ، وروشستر في عام ١٨٠٣ ، وكنيسة وورستر في عام ١٠٨٤ ، وكنيسة القديس بولس القديمة في عام ١٠٨٧ ، وكنيسة جلوسستر في ١٠٨٩ ، ودرهام في ١٠٩٣ ، ونوروك في ١٠٩٦ وتشيشستر في ١١٠٠ ، وتوكسبري Tewkesbury في ١١٠٣ ، وإكستر في ١١١٢ ، وپتربورو Peterborough في ١١١٦ ، وكنيسة دير رمزي Romsey في ١١٢٠ ، ودير فونتن Fountains في ١١٤٠ ، وكنيسة القديس دافد بويلز في ١١٧٦ . وليست هذه الكنائس مجرد أسماء بل هي كلها آيات فنية ؛ وإنا لنستحي أن نخرج من هذه الكنائس ولما نقض فيها إلا بضع ساعات ، أو أن نفرغ من الكلام عليها في بعض السطور . وقد أعيد بناؤها أو بُدلت كلها ما عدا واحدة على الطراز القوطي ، ذلك أن كنيسة درهام لا تزال نورمندية

(*) وهو أسقف من أساقفة ونشستر عاش في القرن التاسع . وتقول إحدى القصص إن المطر قد أخر نقل جثته إلى الضريح الذي أعد له في عام ٩٧١ مدة أربعين يوما ؛ ومن ثم نشأ القول المأثور إن نزول المطر في يوم القديس إسويثين (١٥ يولييه) ينبغي باستمراره أربعين يوما .

في معظم أجزائها ، ولا تزال أعظم الصروح الرومنسية في أوروبا روعة .

ودرهام بلدة صغيرة من بلدان التعدين يبلغ عدد سكانها نحو عشرين ألفاً . ويقوم عند ثنية من ثنانيا نهر وير Wear نتوء صخري ، ويقوم على على هذا المرتفع ذى الموقع المنيع صرح الكتدرائية الضخم « نصفه كنيسة لله ونصفه الآخر حصن منيع لصيد غارات الاسكتلنديين »^(٦) . وقد أقام جماعة من رهبان جزيرة لندسفارن Lindisfarne فارين من المغيرين الدنمركيين كنيسة من الحجر في ذلك المكان عام ٩٩٥ ، ثم هُدم أسقفها الثاني ولم السانت كارليني of St. Carilef هذا البناء في عام ١٠٩٣ وشاد الصرح القائم مكانه إلى هذا اليوم بشجاعة نادرة الوجود وثروة لا يعرف مصدرها حتى اليوم . وظل العمل فيها قائماً حتى عام ١١٩٥ ، ولهذا فإن الكتدرائية تمثل آمال من شادوها وجهودهم مدى مائة عام كاملة . وصحن الكنيسة الشامخ نورمندی الطراز ، له صفان من البواكي ذات العقود المستديرة المرتكزة على تيجان غير منقوشة ودعامات ضخمة قوية . وقد أدخلت قبة درهام في إنجلترا فكرتين جديدتين غاية في الخطر : أولاهما أن ملتقى العقود والأقبية تخرج منه ضلوع ، وهذا يساعد على تركيز الضغط في مواضع خاصة ؛ والثانية أن العقود المستعرضة مستدقة الرؤوس على حين أن الأقطار مستديرة ؛ ولو أن العقود المستعرضة كانت مستديرة لما وصلت تيجانها إلى الارتفاع الذي بلغته الأقطار وهي أطول من العقود ، ولأصبحت قمة القبة خطأ مضطرباً غير متساو في الارتفاع . فلما رفعت تيجان العقود المستعرضة لتلتقي في شكل زاوية أمكن إيصالها إلى الارتفاع المطلوب . ويبدو أن هذه الحاجة المعمارية لا الاستجابة إلى حاسة الجمال هي منشأ أهم المظاهر البارزة في الطراز القوطي .

وأضاف الأسقف بدسي Pudsey في عام ١١٧٥ إلى الطرف الغربي من

(*) كندراثة درهام طنفا جيلا جذابا أطلق عليه لسبب لا نعرفه اسم الجبل والعقود القائمة في هذا المكان - الذى يحتوى قبر بيد الأب الموقر - مستديرة ، ولكن العمدة الرفيعة تقترب من الشكل القوطى . وقد تهدمت القبة القائمة فوق موضع المرنمين فى أوائل القرن الثالث عشر ، فلما أعيد بناؤها دعم المهندسون باكية الصحن بسنادات تربط الأجزاء العليا والوسطى من البناء بالسنادات الرأسية التى بالحدران الخارجية ، وتختفى تحت البواكى التى فى الصحن والطرقات . وأضيف إليها بين عامى ١٢٤٠ ، ١٢٨٠ ضريح ذو تسعة مذابح ليحتفظ فيه بمخلفات القديس كيث Cuthbett ، وكانت العقود التى فى هذا الضريح مستدقة وبذلك تم الانتقال إلى الطراز القوطى .

(*) لعل الذى أوحى بهذا الإسم هو الآية السابعة من الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس . (المترجم)

الفصل الرابع

نشوء العمارة القوطية وارتقاؤها

يمكن تعريف هندسة العمارة القوطية بأنها حصر ضغط البناء في أماكن خاصة ، وتوازن هذا الضغط ، وتوكيد الخطوط الرأسية ، والقباب المضلعة ، والأشكال المستدقة . وقد نشأ هذا الفن عن طريق حل المشاكل الآلية التي أوجدتها حاجة المباني الكنسية والأمانى الفنية . ذلك أن خوف احتراق البناء أدى إلى إقامة القباب من الحجارة والآجر ، وأن ازدياد ثقل السقف أوجب بناء الجدران السمكية والدعامات السمجة ، ووجود الضغط السفلى في كل مكان حدد سعة النوافذ ، وأن الجدران السمكية ظلت النوافذ الضيقة ، ولهذا أصبح داخل الكنيسة شديد الظلمة لا يتناسب مع جو البلاد الشمالية . وقد قلل اختراع القبة المضلعة ثقل السقف فأمكن بذلك إقامة العمود الرفيعة ، وحصر التوتر في أماكن محددة ؛ كما أن تركيز الضغط وتوازنه قد أكسب البناء استقراراً من غير زيادة في الثقل ؛ وحصر الارتكاز بطريق المساند قد سمح بوجود نوافذ طويلة في الجدران القليلة السمك ؛ وكانت النوافذ مجالا مغريا لممارسة فن الزجاج الملون الذي كان موجوداً في ذلك الوقت ، كما أن الإطارات الحجرية التي تعلو النوافذ المركبة قد شجعت على قيام الفن الجديد فن النقوش الغائرة أو الرسوم السطحية ، وجعلت عقود القباب مستدقة ليتمكن بها إيصال العقود ذات الأطوال المختلفة إلى تيجانها بارتفاع واحد لها جميعاً ، ثم جعلت العقود الأخرى وأشكال النوافذ مستدقة كذلك لتكون متناسقة مع عقود القبة . ولما تحسنت طرق احتمال الضغط على هذا النحو أمكن زيادة ارتفاع صحن الكنيسة ؛ وأبرزت الأبراج

الكبيرة ، وأبراج الأجراس الرفيعة ، والعقود المستدقة أهمية الخطوط الرأسية وأنتجت ما يمتاز به الطراز القوطى من علو شامخ ورشاقة تبعث البهجة فى النفوس . هذه الخصائص مجتمعة جعلت الكتدرائية القوطية أعظم ما أنتجته النفس البشرية وأجل ما عبرت به عن مشاعرها .

لكننا نعدو طورنا إذا ادعينا أن فى وسعنا أن نفرغ من وصف تطور العمارة فى فقرة من فصل ؛ ذلك أن بعض خطوات من هذا التطور جديرة بالبحث الهادى على مهل . مثال ذلك أن مشكلة التوفيق بين الرشاقة الرفيعة والصلابة المستقرة قد حلها العمارة القوطية أحسن مما حلها أى فن معمارى قبل وقتنا الحاضر ؛ ولسنا نعرف إلى متى يستطيع تحديدنا لقوة الجذب أن ينجو من قدرة الأرض على تسوية أعلاها بأسفلها . على أن المهندس القوطى لم يصب التوفيق والنجاح على الدوام ؛ فإن تكن كنيسة تشارتر لا تزال قائمة سليمة من الشروخ ، فإن موضع المرنمخين فى كتدرائية يوفيه تهدم بعد اثنى عشر عاما من بنائه ، ولقد كان أهم ما يمتاز به الطراز القوطى هو الأضلاع فى أجزاء البناء المختلفة : أضلاع العقود المستعرضة والممتدة على طول أقطارها ، والتي ترتفع من كل فرجة بين أعمدة صحن الكنيسة ، وتجتمع لتكون شبكة خفيفة رشيقة يمكن أن ترتكز عليها قبة رقيقة من البناء . وقد أضحت كل فرجة فى الصحن وحدة بنائية قائمة بذاتها تتحمل النقل والدفع الناشئين من العقود القائمة على دعاماتها ، واللذين تساعد على تحملهما ضغوط أخرى مقابلة لها تحدها الفرجات المقابلة لها فى طرقات البناء وضغوط المساند الخارجية المركبة على الجدران فى النقاط التى يبدأ منها كل عقد مستعرض .

والمساند استنباط قديم ، فقد كان لكثير من الكنائس التى شيدت قبل عهد القوط عمد مبنية تضاف إليها من خارجها عند النقاط التى يقع عليها ضغط خاص . على أن الدعامات المقوسة التى تصل جدران الأجزاء الداخلية والوسطى من البناء بالدعامات الرأسية للجدران الخارجية تنقل الدفع أو التوتر فوق فراغ

إلى مسند عند القاعدة وإلى الأرض . وقد كانت بعض الكتدرائيات النورمندية تستخدم في البواكى التى بين الصحن والطرق الحائية أنصاف عقود تدعم عقود الصحن ، غير أن هذه المساند الداخلية تصل جدار الصحن فى نقطة منخفضة لا تهب القوة للطبقة العليا المضينة التى يكون ضغط القبة عليها بالغ الشدة ، والتى يعرضها هذا الضغط إلى الانهيار . ولهذا فإن تقوية البناء فى هذه النقطة العالية كان يحتم إخراج المساند من مخابها ، وإقامتها فوق الأرض الصلبة والانتقال بها فى الفراغ فوق سقف المشى لتدعم بذلك جدار الطبقة العليا المضينة مباشرة . وكان أقدم ما عرف من استخدام هذا النوع من المساند فى كتدرائية نوايون Noyon حوالى عام ١١٥٠ (٧) ، ولم يختم ذلك القرن حتى أضحت من الاختراعات المحببة . على أنها لم تكن تخلو من أخطاء ذات خطورة : فقد كانت فى بعض الأحيان توحى إلى الناظر بأنها هيكل بنائى ، أو محالات أحملت لآزالتها ، أو مهرب لجأ إليه المصمم فيما بعد لأن بناءه هبط من وسطه ، وأن « للكتدرائية عكازات » كما يقول ميشليه Michelet . ولهذا نبذ عصر النهضة هذا الضرب من المساند ورآها حواجز قبيحة المنظر ، واخترع أساليب أخرى لحمل أثقال قبة القديس بطرس . لكن المهندس القوطى كان على غير هذا الرأى ؛ فقد كان يجب أن يعرض على الأنظار خطوط فنه وحيثه الآلية ؛ وقد أولع بالمساند ولعله ضاعف عددها من غير حاجة إلى هذا التضعيف ؛ وجعلها مساند مركبة حتى تدعم بذلك البناء فى نقطتين أو أكثر من نقطتين ، أو تدعم إحداها الأخرى ؛ ثم حمل الدعائم التى تعمل على استقرارها بما أضافه إليها من « الشماريخ » (*) . وأثبت أحيانا — فى ريمس — أن ملكا واحدا فى القليل يستطيع الوقوف على قمة الشمروخ .

وكان توزيع التوتر أعظم أهمية في العمارة القوطية من العقد المستدق ، ولكن هذا العقد أصبح هو السمة الخارجية الظاهرة للرشاقة الداخلية . وكان العقد المستدق هذا من الأشكال القديمة ، فهو يظهر في ديار بكر بتركيا مقاماً فوق عمدرومانية لا يعرف لها تاريخ ، وأقدم مثل له معروف التاريخ في قصر ابن وردان ببلاد الشام ، ويرجع تاريخه إلى عام ٥٦١^(٦) ، ويوجد هذا الشكل في قبة الصخرة في المسجد الأقصى بيت المقدس ، وهو من مباني القرن السابع ، كما يوجد في مقياس للنيل بمصر أنشئ في عام ٨٦١ ، وفي مسجد ابن طولون بالقاهرة الذي أنشئ في عام ٨٧٩ ، وكثيراً ما كان يقيمه الفرس ، والعرب ، والأقباط ، والمغاربة المسلمون قبل أن يبدأ ظهوره في أوروبا الغربية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر^(٧) . ولعله جاء إلى فرنسا الجنوبية من أسبانيا الإسلامية ، ولعله جاء به الحجاج العائدون من بلاد الشرق ؛ أو لعله نشأ في بلاد الغرب من تلقاء نفسه ليحل مشاكل آلية في تصميم العمارة . على أننا يجب أن نلاحظ أن مشكلة الوصول بعقود ذات أطوال مختلفة إلى تاج مستوي يمكن أن تحل من غير الالتجاء إلى العقد المستدق ، وذلك بتعليق النقطة التي يبدأ عندها من الدعامة أو الجدار في الداخل . وقد كان لهذه الطريقة أيضاً أثرها الجمالي لأنها تبرز الخطوط الرأسية ، ولهذا استخدمت على نطاق واسع ، وقلما كانت تتخذ بديلاً من العقد المستدق بل كانت كثيرة الاستعمال مع هذا العقد لتقويته ومساعدته على أداء وظيفته . وحل العقد المستدق مشكلة أخرى : ذلك أنه لما كانت الطرقات الجانبية أضيق من صحن الكنيسة فإن فرجة الطريقة كان يزيد طولها على عرضها ، ولهذا فإن تيجان عقودها المستعرضة تكون أقصر كثيراً من عقود قطريها ، إلا إذا كانت العقود المستعرضة مستدقة أو إذا رفعت النقطة التي تبدأ عندها هذه العقود من الداخل ارتفاعاً يحول بين تناسقها مع القطرين . وقد كان العقد المستدق حلاً لتلك العملية الصعبة عملية إقامة قبة من عقود ذات تاج

مستو على ممشى القبا ، حيث يكون الجدار الخارجى أطول من الجدار الداخلى ، وحيث تكون كل فرجة شبه منحرف لا يمكن تصميم قبتة تصميميا مقبولا بغير العقد المستدق . ومما يدل على أن هذا الشكل لم يستخدم فيها لرشاقتها فى أول الأمر كثرة المباني التى استخدم فيها لحل تلك المشكلات ، مع أن العقود المستديرة ظلت تستخدم فى النوافذ ومداخل الأبنية فى الوقت عينه . ثم انتصر العقد المستدق تدريجاً لارتفاعه العمودى ، وقد يكون للرغبة فى تناسق الشكل أثر فى هذا الانتصار . وإن التسعين عاماً من الكفاح المتواصل بين العقد المستدير والعقد المستدق - أى منذ ظهور العقد المستدق فى الكتدرائية الرومنسية بدرهام (١١٠٤) إلى البناء النهائى لكتدرائية تشارتر (١١٩٤) - لهى فترة الانتقال إلى هذا الطراز المعارى فى الهندسة القوطية الفرنسية .

وقد أوجد استخدام العقد المستدق فى النوافذ مشاكل جديدة ، وحلولا لها جديدة ، ومفاتيح جديدة ؛ فقد قضى نقل التوتر عن طريق الأضلاع من القبة ومن الدعائم إلى نقط خاصة فى البناء تدعمها سنادات ، قضى هذا على حاجته إلى الجدران السميكة . ذلك بأن المكان الذى بين كل نقطة ارتكاز والنقطة التى تليها ، لم يكن يتحمل إلا ضغطاً قليلاً نسبياً ، وإذن فقد كان من المستطاع جعل الجدار بين النقطتين رفيعاً ، بل إن من المستطاع إزالته . وكان ملء هذا الفراغ الكبير بلوح واحد من الزجاج غير مأمون العاقبة ، ولهذا قسم هذا إلى نافذتين مستدقتين (مقصدين) أو أكثر من نافذتين يعلوهما عقد من الحجارة . وبهذا أصبح الجدار الخارجى سلسلة من العقود أو البواكى شأنه فى ذلك شأن صحن الكنيسة . وقد كان « الدرع » البنائى ذو الأربع القمم المتروك بين الأطراف العليا للنوافذ المزدوجة والمستدقة وبين قمة العقد الحجرى المحيط بهذه النوافذ كان هذا الدرع فراغاً قبيح المنظر يتطلب الزخرف . وقد حقق المهندسون الفرنسيون حوالى عام ١١٧٠ هذا المطلب بلوحات من النقوش الخطية : فقد ثقبوا الدرع بحيث

يتكون فيه قضباناً حجرية أو فواصل ذات أشكال زخرفية - مستديرة ، أو مسننة أو منتفخة ؛ ثم ملأوا الفجوات والنوافذ بالزجاج الملون . وعمد المثالون في القرن الثالث عشر إلى قطع أجزاء مطردة الزيادة من الحجارة ، ووضعوا في الفتحات قضباناً حجرية صغيرة منحوتة على صورة أقذاح أو غيرها من الأشكال . وأخذت أشكال هذه الحلى التى على شكل العصى تزداد كل يوم تعقيداً ، ونشأت من هذا التعقيد طرز وعصور من العمارة القوطية أخذت أسماؤها من الخطوط الرئيسية في هذه الزخارف : كالعقد الرمحى ، والطرز الهندسى ، والمستدير الخطوط ، والعمودى ، والكثير الألوان . وأنتجت عمليات أخرى شبيهة بهذه العمليات وطبقت على سطوح الجدران فوق مداخل البناء ، أنتجت ما يسمى « بالنوافذ الوردية » ، كانت زخارفها الخطية سبباً في إطلاق لفظ « المشمع » على الطراز الذى بدأ في كنيسة نتردام عام ١٢٣٠ ، وبلغ درجة الكمال في كنيسة ريمس ، وسانت شابل Sainte Chapelle . وما من شيء يفوق جمال النوافذ « الوردية » . في الكتدرائيات القوطية سوى العقود العليا التى في القبة .

وانتقلت الزخارف الخطية ، بمعناها الواسع ، أى ثقب الحجارة بأشكال زخرفية من أى نوع كان ، من الجدران إلى غيرها من أجزاء الكتدرائية القوطية - إلى شमारبخ المساند ، وإلى السقف الهرمية التى فوق المداخل ، وإلى « بطنيات » العقود ، والأجزاء المثلثة المحصورة بين كل اثنين منها ، وإلى البواكى التى تعلو العقود بين الصحن والطرقات الجانبية ، وإلى ستائر المبد ، والمنبر والحظار الزخرفى الذى خلف المذبح ؛ ذلك أن المثال القوطى ، لابتهاجه بفنه ، قلما كان يمس سطحاً دون أن يزخرفه ؛ ولهذا كان يزحم واجهات المباني ، والطنف ، والأبراج ، بصور الرسل والشياطين ، والأولياء ، والناجين والملعونين . وصور ما يمليه عليه خياله تجاناً للعمد ، ورفارف للزينة ، وحليات من خشب أو حجارة ،

وعتبات للأبواب والنوافذ العليا ، وحليات شبكية ، وقوائم أكتاف الأبواب والنوافذ . وكان يمثل بالحجارة ضحكه مع الحيوانات العجيبة والمرعبة التي ابتدعها خياله لتكون ميازيب(*) تبعد المطر الذي يلوث المباني عن الجدران ، أو تجره إلى الأرض خلال المساند . ولم تجتمع في غير هذا الفن الثروة ، والمهارة ، والتقى ، والفكاهة العارمة ، لتوجد مثل هذه الكثرة من الزخارف التي تتكشف عنها الكندراثة القوطية . ولسنا ننكر أن هذه الزخارف كانت في بعض الأحيان مسرفة في كثرتها ، وأن الخطوط الزخرفية قد أسرف فيها هي الأخرى إسرافاً جعلها هشة ، وأن التماثيل وتيجان العمد كانت بلا ريب برآقة بطلائها الذي يحاه كرا الدهور . ولكن هذه هي سمات الحصوبة الحيوية التي تكاد تُغتفر معها كل الأخطاء . ولقد يلوح لنا ونحن نجول بين هذه الآجام والحدائق الحجرية أن الفن القوطي كان ، على الرغم من خطوطه وأبراجه الرفيعة الشاحخة ، فنا مغرماً بالأرض ، فنحن نستشف بين أولئك القديسين الذين ينادون بباطل الأباطيل ، وهول يوم الحساب القريب ، صورة فنان العصور الوسطى ، المعجب بمحذقه ، المبهج بقوته ، الساخر من اللاهوت والفلسفة ، الذي يستمتع بشرب كأس الحياة المترعة ذات الحب حتى الثمالة .

الفصل الخامس

الطراز القوطى الفرنسى (١١٣٣ - ١٣٠٠)

برى لم بدأ الانقلاب القوطى فى فرنسا وبلغ غايته فيها ؟
نقول أولاً إن الطراز القوطى لم يبدأ من لا شىء ، بل إن تقاليد تبلىح
المائة عدداً قد اجتمعت كلها لتمهّد له السبيل : الياسقا الرومانية ، والعقود ،
والقباى ، والطبقات العليا ذات النوافذ ، وموضوعات الزخرف البيزنطية ،
والعمد الستينى الأرمنى ، والسورى ، والفارسى ، والمصرى ، والعربى ؛
والقباى ذات الزوايا المتقاطعة ، والدعامات المنجمعة ، والأساليب الغربية ،
والنفوش العربية ؛ والقباى المضلعة ، وأبراج الواجهات ؛ والنزعة
الألمانية لما هو فكّه أو شاذ غريب . . ولكن لم اجتمعت هذه المؤثرات
كلها فى فرنسا ؟ لقد كان فى وسع إيطاليا التى امتازت بين بلدان غربى
أوربا براثها وتراثها أن تحمل لواء ازدهار الفن القوطى ، ولكنها كانت
سحيطة فى تراثها القديم . لقد كانت فرنسا ، بعد إيطاليا ، أغنى أمة الغرب
وأكثرها تقدماً فى القرن الثانى عشر ؛ وكانت هى التى قدمت للحروب
الصليبية أكثر الأموال والرجال ، والتى أفادت من حوافرها الثقافية ،
وكانت هى التى تزعمت أمة أوربا فى التعليم ، والآداب ، والفلسفة ، وكان
العالم يعترف بأن صناعاتها أمهر الصنائع فى الناحية الغربية من بيزنطية وقبل أن
يجلس على عرشها فليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣) ، كانت السلطة
الملكية قد انتصرت على نزعة التفكك الإقطاعية ؛ وكان رخاء فرنسا
وقوتها ، وحياتها العقلية قد أخذت تتجمع فى أملاك الملك الخاصة - وهى
الأملاك المعروفة بجزيرة فرنسا ، والتى يمكن تحديدها تحديداً غير دقيق بالإنقلم
الممتد عند مجرى السين الأوسط . وكانت فيها تجارة رابحة رائجة تنتقل فى أنهار

السين والواز Oise ، والمارن ، والأين Aisns ، وتحلف وراءها ثروة استحات حجارة فى الكتلراثيات التى شيدت فى باريس ، وسانت دنيس ، وسنليس Senlis ، ومانت Mantes ، ونوايون Noyen ، وسواسون Soissons ، ولاوون ، وأمين ، وريمس . وأخصب المال التربة التى نما فيها الفن .

وكانت أولى روائع طراز عهد الانتقال هى كنيسة دير سانت دنيس فى ضاحية باريس المسماة بهذا الاسم . وكانت هذه الآبة من عمل أكمل الشخصيات وأكثرها توفيقاً فى التاريخ الفرنسى . لقد كان سوجر (١٠٨١ - ١١٥١) رئيس أحد الأديرة البندكتية ، ونائب الملك فى فرنسا ، رجلاً حسن الذوق ، لم تمنعه بساطة عيشه أن يرى أنه ليس من الإثم أن يحب الأشياء الجميلة وأن يجمعها ليزخرف بها كنيسه . ولما أخذ عليه القديس برنار هذا الحب رد عليه بقوله : « إذا كانت الشرائع القديمة قد أمرت أن تستخدم الكؤوس الذهبية فى شرب القربان وتلكّى دماء الضأن . . . فإن أولى من هذا أن يخصص الذهب ، والحجارة الكريمة ، وأندر المعادن لصنع الآنية المعدة لتلقى دم سيدنا » (١٠) . وهو لهذا يحدثنا مزهواً عن جمال الذهب والفضة ، والجواهر وقطع الميناء ، والفسيفساء والنوافذ ذات الزجاج الملون ، والثياب والآنية الغالية ، التى جمعها أو صنعها لكنيسه ، وعما كلفته من مال . فى عام ١١٣٣ جمع الفنانين والصناع « من جميع البلاد » ليشيد ويزين بيتاً جديداً للقديس دنيس شميع فرنسا ، وليكون مقرأ لعظام الملوك الفرنسيين . وأقنع لويس السابع ملك فرنسا وحاشيته بتقديم المال اللازم لهذا البناء « فتمثلوا بنا » على حد قوله « وخلعوا الخواتم من أصابعهم » ليقدموا المال اللازم لمشروعه الكثير الأكلاف (١١) . وفى وسعنا أن نتصوره وهو يستيقظ فى الصباح الباكر ليشرّف على أعمال البناء ، من تقطيع الأشجار التى اختارها ليأخذ منها حاجته من الخشب ، إلى تركيب الزجاج الملون الذى اختار له موضوعاته وألف له نقوشه . ولما أن دشن هذا الصرح فى عام ١١٤٤

قام بهذه العملية عشرون مطرانا ، وشهد الحفل ملك فرنسا ، وملكها ، ومثات من الفرسان ، وحق لسوجر أن يشعر بأنه نال بهذا العمل تاجا أجل من تاج أى ملك من الملوك .

ولم يبق فى الصرح القائم فى هذه الأيام إلا أجزاء من كنيسته : وهى الواجهة الغربية ، وفرجتان فى الصحن ، والمصليات التى على جانب الطرقات ، وقبو الكنيسة . أما الجزء الأكبر من داخل الكنيسة فهو بناء معاد قام به بيير ده منترية Pierre de Montreux بين عامى ١٢٣١ ، ١٢٨١ . والقبوم الطراز الرومنسى ، أما الواجهة الغربية فتختلط فيها العقود المستديرة والمستدقة ، ومعظم تماثيلها المنحوتة من عهد سوجر ، وتشمل ما لا يقل عن مائة صورة ، كثير منها فردى الطابع ، وكلها تدور حول أحسن فكرة عن المسيح القاضى نشاهدها فى كل ما أنتجه فن العصور الوسطى .

وبعد اثنتى عشرة سنة من وفاة سوجر كرمه الأسقف موريس ده سلى Maurice de Sully بأن أدخل التحسين على ما تركه من قواعد ، وقامت كنيسة نتردام ده پارى Notre Dame de Paris على جزيرة فى نهر السين . وإن التواريخ المتصلة ببنائها لتوحى بضخامة العمل الذى استلزمه تشييدها ؛ فقد بنى موضع المرنمين والأجنحة التى على جانب الطرقات بين عامى ١١٦٣ و ١١٨٢ . وبنى الصحن من ١١٨٢ إلى ١١٩٦ ؛ وأقيمت الأجزاء التى بين الأعمدة والأبراج فيما بين ١٢١٨ و ١٢٢٣ ؛ وتم بناء الكندراثة كلها فى عام ١٢٣٥ . وكان يقصد فى تصميمها الأول أن تكون البوابة القائمة فوق العقود التى بين الصحن والطرقات على الطراز الرومنسى ، ولكن البناء كذا اتخذ عند إتمامه الطراز القوطى . والواجهة الغربية أكبر استواء مما تتطلبه الكندراثة القوطية ، ولكن سبب هذا أن الشاربخ التى كان فى النية إقامتها فوق الأبراج لم تبين قط ؛ ولعل هذا هو منشأ ما فى الواجهة من هيئة ذات بساطة وقوة جعلت العلماء الأفاذا

يضعونها في مصاف « أنبل ما أنتجته أفكار الإنسان من آراء في فن المعمار » (١٢) .
والشبابيك الوردية في كنيسة نتردام ده پارى آية في النقوش الخطية وجمال
التلوين ، ولكنها لم يكن يقصد بها أن توصف بالقول أو بالكتابة . والتماثيل
التي بها ، وإن عدا عليها الزمان أو أضرت بها الثورة ، تبرز أحسن
ما أنتجه الفن بين عصر قسطنطين وبناء كندراثة ريمس . وقد نحتت في
قلب المقص القائم فوق المدخل الرئيسى صور يوم الحساب بتوذة أعظم
مما نقش بها هذا الموضوع الذى نراه في كل مكان ؛ فصورة المسيح هنا
ذات جلال هادئ ؛ والممّلك الذى عن يمينه من أعظم الانتصارات التي
أحرزها فن النحت القوطى . وخير من هذا كله صورة عذراء العمود
La Vierge de trumeux القائمة فوق المدخل الشمالى : إن في هذه الصورة
لدقة في التنفيذ ، وفي ضقل السطح الخارجى ، وفي الثياب المنسجمة مع
الطبيعة ؛ ويسراً جديداً ورشاقة في أوضاع الوقوف ، وإلقاء ثقل الجسم
على إحدى القدمين ، وتحرره بذلك من الوضع العمودى المتصلب . ويكاد
فن النحت القوطى يعلن في هذه الصورة الجميلة استقلاله عن فن العمارة
وينتج آية خليقة بأن تنزع مما حولها ، وتقام بمفردها تعلن عن فوز هذا
الفن . وانتهى في كندواثة نتردام ده پارى طور الانتقال وحل عصر
الفن القوطى .

وتلقى قصة كندراثة تشارتر ضوءاً على ما كان عليه موضعها في العصور
الوسطى وعلى خصائص تلك العصور . فقد كانت تشارتر بلدة صغيرة في الجنوب
الغربى من باريس وعلى بعد خمسين ميلاً منها ، على أطراف الممتلكات الملكية .
وكانت سوقاً سهلاً بوس Beauce « هُرى فرنسا » . ولكن قبل إن العذراء نفسها
زارت هذا المكان ، واتخذها الصالحون من العرج ، والمكفوفين ، والمرضى ،
والثاكليين ، والناكلات ، مكاناً يحجون إليه ، ومنهم من شفى أو نزلت في
قلبه الطمأنينة عند ضريحها ، وبذلك أضحت تشارتر هي بعينها لورد Lourde .
يضاف إلى هذا أن أسقفها فلبر Fulbert ، وهو رجا جمع بين الطيبة ،

والذكاء ، والإيمان ، قد جعلها في القرن العاشر كعبة للتعليم العالي وأتّحونا لطائفة من أنبه الشخصيات ذكراً في الفلسفة المدرسية . ولما أن احترقت في عام ١٠٢٠ كاتدرائية فلير التي شيدت في القرن التاسع ، أخذ على عاتقه من فوره أن يعيد بناءها ، وطال عمره حتى شاهد تمام هذا البناء . ولما دمرته النار للمرة الثانية في عام ١١٣٤ ، جعل الأسقف ثيودريك إقامة كاتدرائية جديدة بمثابة حرب صليبية حقّة ، فبعث في قلوب الناس من التحمس لإنجاز هذا العمل ما جعلهم يغدقون عليه من المال والجهد ما وصفه شاهد عيان هو هيمون Haimon رئيس أحد الأديرة النورمندية في عام ١١٤٤ بقوله :

رأيت الملوك ، والأمراء ، وذوى القوة والسلطان من رجال العالم المزهوين بألقاب الشرف وبالثراء ، والرجال والنساء من أبناء الأسرة الشريفة ، رأيت هؤلاء يطوقون أعناقهم المتنفخة المنبثة بالعظمة والكبرياء بالأرسان ، ويشدون أنفسهم إلى العربات يجرونها كما تجرها الدواب ، وهي محملة بالنيذ ، والحبوب ، والزيت ، والجير ، والحجارة ، وكتل الخشب وما إليها من الأشياء اللازمة لحياة الناس أو لبناء الكنائس ... يضاف إلى هذا أنا نشاهد تلك المعجزة تقع في الوقت الذي يجرون فيه العربات : وهي أن ألفاً من الرجال والنساء ... يشدون أحياناً إلى جبال العربات ... ومع ذلك فلأنهم يتقدمون وهم صامتون لا يسمع لهم صوت ولا همس ... فإذا وقفوا في الطريق لا تسمع منهم ألفاظاً إلا اعترافاً بخطاياهم ... وضراعة ودعاء طاهراً ... ويعظمهم القسيسون ويدعونهم إلى السلام ، وتسبى السبخام والأحقاد من الصدور وتزول أسباب الفرقة والانقسام ، وينزل الدائنون عن ديونهم وتعود الوحدة إلى الصفوف (١٣) .

ولم تكند كاتدرائية الأسقف ثيودريك تم (١١٨٠) حتى شبت فيها النار في عام ١١٩٤ فدمرت الصحن وهدمت قبته وجدرانها ، ولم يبق من الكنيسة إلا القبو السفلى والواجهة الغربية ببرجها وشمروخها متفرقة منغزلة . ويقال إن

كل بيت في البلدة قد دمر في هذا الحريق المروع الذي لا تزال آثاره باقية تشاهد حتى اليوم في بقايا الكندرائية . وفقد الأهليون شجاعتهم إلى حين وفقدوا بنقدها إيمانهم بالعدراء ، وأرادوا أن يغادروا المدينة ؛ ولكن مليور Melior الرسول البابوى الذى لا تلبث له قناة قال إن الله قد أصابهم بهذه الكارثة عقاباً لهم على ذنوبهم ، وأمرهم أن يعيدوا بناء كنيسهم وبيوتهم ، وتبرع رجال الدين في الأسقفية بدخلهم كله تقريباً مدى ثلاث سنين ، وتناقل الناس أخبار معجزات جديدة لعدراء تشارتر ، وبُعث الإيمان في القلوب من جديد ، وأقبلت الجماعات مرة أخرى كما أقبلت في عام ١١٤٤ لتساعد العمال المأجورين على جر عربات النقل ووضع الحجارة في أماكنها ، وتبرعت بالمال كل كندرائية في أوربا^(١٤) ، ولم يحل عام ١٢٢٤ حتى كان الكدح والأمل قد أتما كندرائية التي جعلت تشارتر مرة أخرى مقصد الحجاج من جميع الأنحاء .

وكان التصميم الذى وضعه المهندس المجهول يقضى بالألا يقيم الأبراج على جناحي الواجهة الغربية وحدها ، بل أن يقيمها أيضاً على الأبواب التي عند ملتقى الطرقات المتعامدة على الصحن وعند القبا ، غير أنه لم يُبن من هذه الأبراج إلا برجان فوق واجهة الكنيسة . وارتفع برج الناقوس القديم (١١٤٥ - ١١٧٠) بشمروخه إلى علو ٣٥١ قدماً في الطرف الجنوبي من الواجهة ؛ وهذا البرج بسيط غير مزخرف يفضلته المهندسون المحترفون على غيره من الأبراج المزخرفة^(١٥) . أما البرج الشمالى - المعروف ببرج الجرس الحديد فقد أحرقت النار شمروخه الخشبي مرتين ؛ ثم أعاد جان له تكسيه Jean le Texier بناءه بالحجارة على الطراز القوطى الكثير الألوان المزدحم بالزخارف الدقيقة ؛ حتى حسبته فرجسون Fergusson « أجمل الشماريخ المنقوشة في القارة الأوروبية »^(١٦) ، ولكن المتفق عليه بوجه عام أن هذا الشمروخ الكثير الزخرف لا يتفق مع الوحدة التي تتطلبها الواجهة الكالحة المجردة من الزينة^(١٧) .

وتعتمد شهرة كنيسة تشارتر على ما تحويه من تماثيل منحوتة وزجاج ، فهنا القصر ، قصر العذراء ، تسكنه عشرة آلاف شخصية منحوتة أو مصورة - من رجال ، ونساء ، وأطفال ، وقديسين ، وشياطين ، وملائكة ، وأشخاص الثالوث . وفي مدخل الكنيسة وحده ألفا تمثال (١٨) ، تضاف إليها تماثيل أخرى مستندة إلى الأعمدة المقامة في داخل البناء ؛ وإن الزائرين الذين يصعدون إلى السقف على الدرج البالغ عددها ٣١٢ درجة لتعريضهم الدهشة حين تقع أعينهم على تماثيل منحوتة بعناية وبالحجم الطبيعي في ذلك المكان الذي لا يبصرها فيه إلا الطليعة المتشوف . وتقوم فوق الباب الأوسط صورة رائعة للمسيح ليست كغيرها من الصور التي نحت فيما بعد عابسة تحكم على الموتى ، بل يرى فيها جالسا في جلال هادئ بين طائفة كبيرة من الناس السعداء ، وقد مدت يده كأنه يبارك العباد الداخلين . ويتصل بالتجويف الداخلي لعقد الباب تسعة عشر تمثالا للأنبياء والملوك ، والملكات ، وهي نخيلة ، متصلة توائم بشكلها هذا عملها بوصفها عمد الكنيسة ؛ وكثير من هذه التماثيل غير متقنة وناقصة ، ولربما كانت تلفت أو بليت لقدم عهدها ، ولكن وجوه بعضها تطالع الناظر إليها بطابع فلسفي عميق ، وبراحة لطيفة ، أو برشاقة العذارى التي بلغت درجة الكمال في ريمس .

وواجهات الأجنحة والطرق الخانفية أجمل ما يوجد من نوعها في أوروبا . ولكل منها ثلاثة أبواب على جانبيها عمد وقوائم منحوتة نحتا جميلا تفصل كلا منها عن الأخرى ، وتكاد تغطيها تماثيل كل منها منفرد بملامح خاصة إلى حد جعل الناس يطلقون على عدد كبير منها أسماء من أهل تشارتر . وتجتمع تماثيل الباب الجنوبي البالغ عددها ٧٨٣ تمثالا حول المسيح الجالس على عرشه في يوم الحساب . وهنا توضع عذراء تشارتر في مركز أقل من مركز ولدها . ولكنها تعوض عن هذا ، كما عوضها ألبرتس ماجنس Albertus Magnus ، بالعلوم كلها وبالفلسفة ؛ وترى في خدمتها على هذا الباب الننون الحرة السبعة - الموسيقى ويمثلها

فيثاغورس ، والجدل ويمثله أرسطو ، والبلاغة ويمثلها شيشرون ، والهندسة ويمثلها إقليدس ، والحساب ويمثله نيقوماخوس ، والنحو ويمثله بريشيان Prician ، والفلك ويمثله بطليموس . وقد أمر القديس لويس أن يتم الباب الشمالى : « بسبب إخلاصه الشديد لكنيسة عذراء تشارتر ، ولنجاة روحه وأرواح آباءه » كما جاء بالنص في عهده الصادر عام ١٢٥٩ (١٩) . وحدث في عام ١٧٩٣ أن رفضت جمعية الثورة الفرنسية بأغلبية قليلة اقتراحا يقضى بتدمير التماثيل المقامة في كندرائية تشارتر باسم الفلسفة واسم الجمهورية ؛ وارتضت الفلسفة بعدئذ ألا تدمر هذه التماثيل واكتفت بتحطيم بعض أيديها (٢٠) . وهذا الباب الشمالى هو باب العذراء ، وهو يروى قصتها رواية ملوفا الحب والإجلال . والتماثيل الخمسة المقامة هنا تمثل فن النحت في نضوجه ، والثياب التى عليها لا تقل فى رشاقها ومواءمتها للطبيعة عن مثيلاتها فى أى نحت يونانى ، وصورة « الطهر » تمثل الأنوثة الفنية كأحسن ما يمثلها الفن الفرنسى ، فقها يسكسب الطهر الجمال قوة على قوته ؛ وليس فى تاريخ النحت كله ما هو أجمل من هذه الصورة ، وفى ذلك يقول هنرى آدمز Henry Adams : « وهذه التماثيل هى أحسن ما صوره الفن الفرنسى فى الرخام » (٢١) .

ولإذا ما دخل الإنسان الكنيسة انطبعت فى نفسه أمور أربعة تمتاز بعضها ببعض : الخطوط البسيطة الممثلة فى الصحن والقبّة ، التى لا تكاد تبلغ فى حجمها أو جمالها ما يبلغه صحن كنيسة أمين أو ونشستر ؛ وستار مكان المرنمين المزخرف الذى بدأه فى عام ١٥١٤ جان ده تكسييه المولع بكثرة الألوان ؛ وصورة المسيح الهادئة المقامة على عمود عند ملتقى الصحن بالطرقات الجانبية من جهة الجنوب ، التى تغمر المكان كله بلون هادئ وزجاج ملون منقطع النظر . ويرى الناظر فى نوافذ هذا المكان البالغ عددها ١٧٤ نافذة ٣٨٨٤ صورة مأخوذة من الأفاصيص أو التاريخ ، تختلف من الأساكفة إلى الملوك ، وتمثل فرنسا فى العصور

الوسطى ؛ يراها الناظر فى أبهى ما أخرجه الفن من ألوان - حمراء داكنة ، وزرقاء خفيفة ، وخضراء زمردية ، وزعفرانية ، وصفراء ، وبنية ، وبياض . وفيها ترى مجد تشارتر أكثر مما تراءى فى أى مكان سواه . وليس من حقنا أن نتطلب أن تكون الصور التى فى هذه النوافذ صوراً واقعية ؛ ذلك أنها مشوهة ، بل إنها لتبلغ حد السخف فى بعض الأحيان . فرأس آدم فى الحلية الوسطى التى تمثل طرده من الجنة معوج اعوجاجاً يؤلم النظر إليه ، وإن العابد ليصعب عليه إذا ما أبصر مفاتن حواء أن لا يميل إلى شهوته الجنسية . لقد كان هؤلاء الفنانون يظنون أن حسبهم أن تروى الصورة قصة ، بينما تمثل الصورة بألوانها ، التى يختلط بعضها ببعض ويفنى بعضها فى بعض فى عين الناظر ، جو الكتدرائية ، وما أجمل صورة نافذة « الابن المتلاف » ؛ وما أعظم الألوان والخطوط فى صورة « شجرة يسى » الرمزية (*) ؛ ولكن أجمل من هذه كلها صورة « عذراء النافذة الجميلة » . وتقول الرواية الماثورة إن هذه اللوحة البديعة أنقذت من النيران التى اندلعت فى الكنيسة عام ١١٩٤ .

وإذا وقف الإنسان عند تقاطع الطرقات الجانبية والصحن رأى نوافذ تشارتر الكبرى الوردية الشكل . وتمتد النافذة الوسطى فى الواجهة الرئيسية أربعين قدماً كاملة ، وتكاد تضارع فى اتساعها الصحن الذى تطل عليه ، ولقد وصفها بعضهم بأنها أجمل تحفة من الزجاج عرفها التاريخ (٢٣) .

وتغمر النافذة المعروفة باسم « وردة فرنسا » ملتقى الطرق بالصحن من جهته الشمالية بفيض من الضوء . وكان زجاج هذه النافذة قد أهدى إلى لويس التاسع وبلانش القشتالية ، ثم أهدياهما إلى العذراء ؛ ويواجهها فى الناحية المقابلة لها من الكنيسة « وردة دريه Dreux » القائمة عند تقاطع الطرقات بالصحن فى الواجهة الجنوبية وهى التى أهداها پير موكلير Pierre Mauclere من دريه عدو بلانش ،

والتي تضع ابن مريم مواجهاً « لأُم الإله » في نافذة بلانش . وثمة خمس وثلاثون وردة أصغر من هذه واثننا عشرة وريدة أصغر من هذه أيضاً ، وبها تم مجموعة زجاج تشارتر الدائري ؛ وإذا ما وقف صاحب النزعة الحديثة ، الذي تمنعه سرعته واضطراب أعصابه من أن يتطلب الكمال المحتاج إلى الصبر والهدوء ، أمام هذه المناظر ، أخذته الدهشة والحيرة من هذه الأعمال التي يجب أن تُعزى إلى ما يتصف به الشعب والجماعة ، والعصر ، والعقيدة الدينية ، من سمو في العاطفة وجد في العمل لا إلى عبقرية أفراد معدودين .

ولقد اخترنا كنيسة تشارتر لتمثيل العمارة القوطية الناضجة أو المتشعبة ، وليس من واجبنا أن نعهد إلى هذه الإطالة نفسها في الحديث عن كنائس ريمس ، وأميين ، وبوفيه . ولكن منذ الذي يستطيع أن يمر مسرعاً بالواجهة الغربية من كنيسة ريمس ؟ ولو أن الشماريخ الأصلية ظلت حتى الآن قائمة فوق الأبراج لكانت هذه الواجهة أعظم ما قام به الإنسان من أعمال ؛ وإنا لتدهشنا وحدة الطراز وأجزاء الكنيسة المختلفة وتناسقها في بناء أقامته ستة أجيال من الناس . فقد دمرت النار في عام ١٢١٠ الكاتدرائية التي أنعمها هنكار Hincmar في عام ٨٤٠ ؛ وبدت في يوم الذكرى الأولى لهذا الحريق كاتدرائية جديدة من تصميم ربرت دي كوسي Robert de Coucy وچان دوربيه Jean d'orbais تليق بأن يتوج فيها ملوك فرنسا . ودام العمل أربعين عاماً نفذ بعدها المال ، فوقف البناء (١٢٥١) ، ولم تتم الكنيسة العظيمة إلا في عام ١٤٢٧ . ودمرت النار في عام ١٤٨٠ شماريخ الأبراج ، واستخدمت أموال الكاتدرائية المدخرة في ترميم البناء الرئيسي ، أما الأبراج فلم يجدد بناؤها . ودمرت القنابل في الحرب العالمية الأولى عدداً من مساند الجدران وأحدثت فجوات كبيرة في السقف وفي القبة ، ودمرت النار السقف الخارجي وحطمت كثيراً من التماثيل ؛ ودمرت جماعات من المتعصبين عدداً آخر

من الصور ، وعدا الزمان على بعض الآخر فأبلاه ، ذلك أن التاريخ صراع بين الفن وعوادي الأيام .

وتمثل روائع النحت في كنيسة ريمس ، كما تمثل واجهتها ، أرقى ما وصل إليه الفن القوطي ؛ فبعضها عتيق فنج ولكن الموجود منها في المدخل الأوسط منتقطع النظير ؛ ولنا للتقى في عدة أماكن على أبواب الكنيسة ، وقم أبراجها المستطيلة ، وفي داخلها ، بتماثيل تكاد تضارع في صقلها ما نحت في عصر بركليز . ولسنا ننكر أن منها ما هو مفرط في الرشاقة كتمثال العذراء القائم على عمود المدخل الأوسط ، وأنها توحى إلى الناظر بضعف قوة القوط ، ولكن تمثال « عذراء التطهير » القائم عن يسار هذا المدخل نفسه ، وتمثال « عذراء زيارة الملاك » القائم عن يمينه ليعدان من حيث التفكير والتنفيذ من الأعمال الجليلة التي يعجز القلم واللسان عن وصفها . وأوسع من هذين التمثالين شهرة ، وإن لم تبلغ مبلغهما من الكمال ، تماثيل الملائكة الباسمة في مجموعة تماثيل البشارة القائمة في هذه الواجهة . ألا ما أعظم الفرق بين هذه الوجوه المستبشرة وبين تمثال القديس بولس القائم عند المدخل الشمالى ! وإن كان هذا التمثال من أقوى الصور التي تحت في الحجر .

وتفوق التماثيل المنحوتة في كتدرائية أمين تماثيل ريمس في رشاقها وصقلها ، ولكنها نقل عنها في جلال التفكير وعمق الإيحاء . فهنا نرى فوق الباب الغربى تمثال **الرب الجميل Beau Dieu** الذائع الصيت ، وهو تمثال تقيد صانعه بعض الشيء بالتقاليد ، وخلا بعض الشيء من الحياة ، وهما عيان يطالعا نانا بعد أن نشاهد تماثيل ريمس الحية الناطقة . وهنا أيضاً تمثال القديس فرمين **Firmin** وهو لا يمثله زاهداً فزعاً بل يمثله رجلاً هادئاً صلباً لم يشك في يوم من الأيام بأن الحق سوف ينتصر ؛ وهنا أيضاً عذراء تحتضن طفلها بين ذراعيها ، ويبدو عليها كل ماتتصف به الأمومة الصغيرة السن من استغراق في الحنان . وفي الباب الجنوبي

نرى الصغراء الذهبية تنبسم وهي ترقب طفلها يلعب بكرة ، وقد جعلها
المثال قليلا ، ولكنها أكثر رشاقة من أن تستحق ما وصفها به رسكن
Ruskin في غير كياسة بأنها « مدلاة بيكاردى » (soubrette of Picardy) .
وما ألد أن يرى الإنسان المثالين القوط يكتشفون الرجال والنساء ، بعد
أن ظلوا مائة عام في خدمة الأغراض الدينية ، وينحتون بعد هذا الكشف
متع الحياة على واجهات الكنائس . وغضت الكنيسة النظر عن هذا الكشف
بعد أن عرفت هي أيضاً كيف تستمتع بالحياة الدنيا ، ولكنها رأت من
الحكمة أن تصور منظر يوم الحساب على الواجهة الرئيسية .

وبنيت كندراية أمين فيما بين ١٢٢٠ و ١٢٨٨ ؛ وقام ببنائها سلسلة
متابعة من المهندسين : روبرت ده لوزارك Robert De Luzarches ،
وتومس ده كورمنت Thomas de Cormont وابنه رنيول Regnault .
ولم يتم بناء الأبراج إلا في عام ١٤٠٢ . وداخلها هو أكثر الصحن القوطية
نجاحا ؛ فهو يرتفع في قبة علوها ١٤٠ قدما ، ويخيل إلى الناظر أنها تجذب
الكنيسة إلى أعلى ، وليست تتحمل ثقلا . وترتبط بواكى الصحن ذات
الثلاث الطبقات جذوع متصلة ممتدة من الأرض إلى القبة فتجعل منها وحدة
فخمة ذات عظمة وجلال . وتعد القباب القائمة فوق القبا انتصاراً للتصميم
المتناسق على اختلال النظام الباعث على الحيرة والارتباك ؛ وإن المرء
ليذهل وتقف دقات قلبه حين تقع عيناه أول مرة على نوافذ الطابق الأعلى
وعلى ورود أمكنة تقاطع الطرقات والصحن وعلى الواجهة .

وفي كندراية يوفيه عدا هذا الولع القوطي بالقباب طوره وبلغ مصيره
المحتم وهو السقوط . ذلك أن فخامة كندراية أمين أثارت الغيرة في قلوب أهل
بوفيه ، فبدؤا البناء في عام ١٢٢٧ وأقسموا ليرفعن قبة كنيستهم أعلى من قبة
أمين ثلاث عشرة قدما . ووصلوا بموضع المرنين إلى الارتفاع المطلوب ، ولكنهم

ما كادوا يضعون سقفه حتى انهار ، واستفاق جيل آخر من هذه الكارثة فأعاد بناء موضع المرنمين إلى ارتفاعه السابق ولكنه انهار مرة أخرى في عام ١٢٨٤ . وأعيد البناء للمرة الثالثة وعلوا به هذه المرة إلى ارتفاع ١٥٧ قدماً فوق الأرض ؛ ولما نفذ ما عندهم من المال تركوا الكنيسة قرنين كاملين من غير جناحين أو صحن . ولما أفاقت فرنسا آخر الأمر من حرب المائة السنين في عام ١٥٠٠ ، بدئ الجناحان الضمخان ، ثم أقيم فوق ملتقى الجناحين برج فانوس بلغ ارتفاعه خمسمائة قدم ليعاو بذلك على شمروخ كنيسة القديس بطرس في رومة . وانهار هذا البرج أيضاً في عام ١٥٧٣ وانهار معه جزء كبير من الجناحين ومكان المرنمين . ثم قنع أهل بوفيه الأبطال آخر الأمر بحل وسط : فرموا موضع المرنمين وبلغوا به علوه غير الأمين ، ولكنهم لم يضيفوا إليه صحناً ، ولهذا فإن كتدرائية بوفيه كلها رأس بلا جسم ؛ فهي من خارجها واجهتان لجناحين جميلين قيمين ، وقبا تحيط به وتخفيه السنادات ؛ ومن داخلها موضع للمرنمين كالكهف يتلأأ بالزجاج الفخم الملون . ويقول أحد الأمثال الفرنسية القديمة إنه لو استطاع الإنسان أن يضم موضع المرنمين في كنيسة بوفيه إلى صحن كنيسة أمين ، وإلى واجهة ريمس وشارتر ، لو استطاع ذلك لكانت كتدرائية قوطية تبلغ حد الكمال .

وإذا ما عاد الناس بخيالهم في العصور المقبلة إلى ذلك القرن الثالث عشر فسوف تتملكهم الحيرة فلا يدرون من أين كان لأهل هذا القرن ذلك الثراء الذي أقاموا به على الأرض تلك الصروح الفخمة المحبذة . ذلك أنه ما من أحد يستطيع أن يعرف ما صنعتها فرنسا في ذلك الوقت — بالإضافة إلى جامعتها ، وشعرائها ، وفلاسفتها ، وحروبها الصليبية — إلا إذا وقف بنفسه أمام واحدة تلو واحدة من تلك الصروح القوطية الجريئة التي لاتعدو أن تكون هنا مجرد أسماء : نتردام ، وشارتر ، وريمس ، وأمين ، وبوفيه ، وبروج (١١٩٥-١٣٥٠)

ذات الصحن الرحب ، والطرقات الأربع ، والزجاج الذائع الـ
والملاك الجميل النحت ذى الميزان ؛ وجبل سانت ميشيل وديره العـ
(١٢٠٤ - ١٢٥٠) القائم فى حصن مشرف على صخرة فى وسط ماء البحر
بالقرب من نورمندية ؛ وكنتانس (١٢٠٨ - ١٣٢٨) وشمارينها النبيلة ؛
ورون (١٢٠١ - ١٥٠٠) وبابها الأمامى باب ناشرى الكتب ؛ وسانت
شابل فى باريس - « صندوق جواهر » الزجاج القوطى التى شادها
(١٢٤٥ - ١٢٤٨) ببيرده منترية لتكون ضريحاً متصلاً بقصر القديس
لويس يضم الخلفات التى ابتاعها ذلك الملك من بلاد الشرق . ومن الخير
أن نتذكر فى عصور الدمار أن فى مقدور الناس إذا شاءوا أن يبنوا كما
بنوا فى فرنسا يوماً من الأيام .

الفصل السادس

الطراز القوطى الإنجليزى (١١٧٥ - ١٢٨٠)

وزحف الطراز القوطى من تشارتر و « جزيرة فرنسا Ile de Franec » إلى الأقاليم الفرنسية . ثم عبر الحدود إلى إنجلترا ، وبلاد السويد ، وألمانيا ، وأسبانيا ، ثم انتقل أخيراً إلى إيطاليا . وكان المهندسون والصناع الفرنسيون يقبلون ما يكلفون به من أعمال في البلاد الأجنبية ، وكان الفن الحديد يسمى أينما حل العمل المولود في فرنسا opus Francigenum ؛ ورحبت به إنجلترا لأنها كانت في القرن الثامن عشر نصف فرنسية ، ولم تكن القناة الإنجليزية إلا نهراً بين ناحيتين من مملكة بريطانية تشمل نصف فرنسا ، وكانت رون العاصمة الثقافية لتلك المملكة . واستمد الفن القوطى أصله من نورماندية لا من إيل ده فرانس . واحتفظ بالضخامة النورماندية في إطار قوطى . وحدث الانتقال من الطراز الرومانسى إلى الطراز القوطى في فرنسا وإنجلترا في وقت واحد تقريباً ؛ ففي الوقت الذى كان العقد المستدق يستخدم في كنيسة القديس دنيس (١١٤٠) أخذ هذا الطراز يعود إلى الظهور في كتدرائيتي درهام وجلوسستر ، وفي دير الفوارات Fountains Abbey ، و(٢٤) Malmsbury . وكان هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢) يعجب بكل ما هو فرنسى ويحسد المجد المعماري الذى بلغته فرنسا في عهد القديس لويس . وفرض على رعاياه من الضرائب ما أفقرهم أيعيد بناء دير وستمنستر ، وليتفق على مدرسة الفنانين - البنائين ، والمثالين ، والمصورين ، والمزخرفين ، والصياغ - الذين جمعهم قرب بلاطه لينفذوا مشروعاته . وسنقصر وصفنا هنا على الطراز الأول من الطراز الذى تنقسم إليها العمارة القوطية الإنجليزية . وهى الطراز الإنجليزى المبكر (١١٧٥ - ١٢٨٠) ،

والطراز المنقوش (١٢٨٠ - ١٣٨٠) ، والطراز العمودي (١٣٨٠ - ١٤٥٠) . وقد اتخذ هذا الفن من النوافذ والعقود الإنجليزية له اسماً آخر فسمى « بالريشة » (*) . وكانت الواجهات والأبواب في هذا الطراز أبسط من مثيلاتها في فرنسا ، وإن كانت كنيسة لنكلن وروشستر قد حوت بعض التماثيل المنحوتة ، وحوّت منها كنيسة ولز Wells أكثر من هاتين الكنيستين ؛ ولكن هذه لم تكن هي القاعدة المتبعة ، ولا يمكن على كل حال مقارنة هذه التماثيل ، في نوعها وعددها ، بالتماثيل المقامة على أبواب كنائس تشارتر ، أو أمين ، أو ريمس . أما الأبراج فكانت تمتاز بالفخامة لا بالارتفاع ، وإن كانت أبراج سالزبرى ، ونوروك ، ولتشفيلد تدل على ما يستطيع البناء الإنجليزي أن يفعله إذا ما أثر الرشاقة والارتفاع على الروعة والفخامة . كذلك عجز ارتفاع الكنيسة من الداخل عن أن يغرى المهندسين الإنجليز ؛ لقد حاولوه أحياناً كما فعلوا في وستمنستر وسلزبرى ، ولكنهم في الأغلب الأعم كانوا يتركون القبة منخفضة انخفاضاً مقبضاً للنفس ، كما تراها في جلوسستر ، وإكستر . يضاف إلى هذا أن طول الكاتدرائيات الإنجليزية الكبير لم يكن يشجع على بذل الجهود التي تجعل ارتفاعها يتناسب مع هذا الطول ؛ فطول كنيسة ونشستر ٥٥٦ قدماً ، وطول كنيسة إلي ٥١٧ Ely ، وكنتربري ٥١٤ ، ودير وستمنستر ٥١١ ؛ أما كنيسة أمين فطولها ٤٣٥ ، وريمس ٤٣٠ ، وحتى كنيسة ميلان نفسها لا يزيد طولها على ٤٧٥ . لكن ارتفاع كنيسة ونشستر من الداخل لم يكن يزيد على ٧٨ قدماً . وهو في كنيسة كنتربري لا يزيد على ٨٠ . وفي لنكلن لا يتجاوز ٨٢ . وفي وستمنستر لا يتجاوز ١٠٣ ؛ أما أمين فترتفع إلى ١٤٠ قدماً .

(*) والنوافذ التي سمى بها هذا الطراز عالية ضيقة تنتهي بعقد مستدق كبير : مزدوج للفتحات أو ثلاثيها . وهو كثير الوجود في مباني النصف الأول من القرن الثالث عشر .
(المترجم)

وظل الطرف الشرقى للكنيسة القوطية الإنجليزية هو القبا المربع المعروف في الطراز الإنجليسكسونى ، متجاهلا في ذلك التطور الفرنسى السهل الذى أنتج القبا الكثير الأضلاع أو النصف الدائرى . وكان الطرف الشرقى يوسع في كثير من الحالات ليكون مصلى خاصة لعبادة العذراء ، وإن كانت عبادة مريم لم تبلغ من الحفاصة الدرجة التى بلغت في فرنسا . وكثيراً ما كان موضع اجتماع القساوسة في الكندرائية وقصر الأسقف متصلين بالكنيسة يكونان معها « حرم الكنيسة » ، وكان يحيط به في العادة سور . وكان انتشار عنابر النوم ، وقاعات الطعام ، والدير ، والطرق المنعزلة في الأديرة القوطية بإنجلترا واسكتلندة — كما هي الحال في فوانتينز ، ودرابرج Dayburgh ، وملروز Melrose ، وتنتيرن Tintern داخل محيط واحد مما جعلها تكون مجموعة فنية ذات جلال وروعة .

ويبدو أن المبدأ الأساسى في العمارة القوطية — مبدأ توازن الضغوط وتصريفها لتقليل ضخامة الدعائم والمساند — وما ينشأ عن هذه الضخامة من قبح المنظر — لم يحز قط قبولا تاماً في إنجلترا ، ولم يعدل سلك الجدران الذى يمتاز به الطراز الرومنسى القديم إلا تعديلاً يسيراً في الطراز القوطى الإنجليزى ، حتى في الحالات التى يتحتم فيها تكيف التصميم ليوائم القاعدة الرومنسية كما حدث في سلزبرى . وكان المهندسون الإنجليز ينفرون من المساند المتنقلة نفور المهندسين الطليان . نعم إنهم لجأوا إليها في بعض الأماكن ، ولكنهم فعلوا ذلك في غير مبالاة ؛ وكانوا يشعرون بأن دعائم البناء يجب أن تحتويها البناء نفسه ، لا أن تكون في الزوائد التى تضاف إليه ؛ ولعلمهم كانوا في هذا على حق ؛ وإن لكندرائياتهم لقوة وصلابة ورجولة تسمو فوق الجمال إلى العظمة والجلال ، وإن كانت تنقصها الرشاقة التى نشاهدها في روائع الفن الفرنسى .

وبعد أن مضت أربع سنين على مقتل بكت في كنتزبرى احترق موضع المرممين في الكندرائية (١١٧٤) . وروع أهل البلدة لهذه الكارثة ، وأخذوا

يضرِبون الجدران برؤوسهم في غضب وحيرة لأن العلي العظيم لم يمنع حلولها بضريح أصبح قبل وقوعها كعبة الحجاج المتدينين^(٢٥) . وعهد الرهبان بناء الكنيسة إلى مهندس من أهل سان Sens يدعى وليم ، وهو رجل فرنسي ذاع صيته على أثر بنائه كندرائية لمدينته . وظل وليم يعمل في كنتربري من ١١٧٥ إلى ١١٧٨ ؛ ثم عجز عن العمل لسقوطه من فوق محالة ، فواصل العمل « وليم الإنجليزي William the Englishman » وهو رجل « ضئيل الجسم » كما يقول الراهب جرفاز Gervase ولكنه دقيق أمين في أعمال كثيرة مختلفة الأنواع^(٢٦) . وقد بقيت أجزاء كثيرة من الكندرائية الرومنسية التي شيدت في عام ١٠٩٦ ؛ بقيت العقود المستديرة بين التجديدات القوطية بصفة عامة ؛ ولكن السقف الخشبي الذي كان يغطي موضع المرنمين قد استبدلت به قبة من الحجر مضلعة ، وكذلك استطالت العمدة فعملت إلى ارتفاعها الكامل الرشيق ، ونحتت تيجانها نحتا بديعا ، وملئت النوافذ بالزجاج الملون البراق . وإن كندرائية كنتربري المتجمعة في محيطها الكندرائي ، والتي تشرف مع ذلك على بلدتها الجميلة العجيبة هي اليوم من أكثر مناظر الأرض إحياء وإلهاما للنفوس .

ونشر الأخبار والحجاج الذين لا يحصى عددهم الطراز القوطي في أنحاء بريطانيا بما أقيم من كنائس على نمطها . فأقامت پيتربورو Peterborough في عام ١١٧٧ رواقا فخما ذا عمد في واجهة الجناح الغربي من كندرائيتها ، وشيد الأسقف هيو ذه لاسي Hugh de Lacy في عام ١١٨٩ الامتداد الجميل لكندرائية ونشستر خلف مكان القربان على هذا الطراز . وحدث في عام ١١٨٦ زلزال تصدعت منه كندرائية لنكلن من أعلاها إلى أسفلها ؛ وبعد ست سنين من تصدعها شرع الأسقف هيو يعيد بناءها على تصميم قوطي قام به جوفري دهنواير Geoffrey de Noyers ؛ وأتمها جروستت Grossete الشهم النبيل حوالي عام ١٢٤٠ . وهي قائمة على ربوة تطل على ريف إنجليزي يتمثل فيه

جمال هذا الريف أصدق تمثيل . وقلّ أن يشاهد الإنسان ما يشاهده في هذه الكنيسة من روعة الحجم قد وفق بينها وبين رقة التفاصيل ؛ فأبراجها الثلاثة العظيمة ، وواجهتها العريضة ببابها ذى التماثيل المنحوتة وبواباتها المعقدة ، وصحنها الفخم الذى يبدو خفيفاً رغم ضخامة حجمه وسعته ، وجذوع أعمدتها الرشيقة وما على دعاماتها من نقوش لا تقل عن هذه الجذوع رشاقة ، ونوافذها المشبعة ، وقبوة بيت القساوسة الشبيهة بالنخلة ، وعقود الصوامع الفخمة الرائعة - هذه تكفى وحدها لأن تجعل كتدرائية لنكلن مما يشرف بنى الإنسان ، ولو لم يكن فيها « مرنمة الملائكة » . فقد حدث في عام ١٢٣٩ أن سقط برج نورمندى قديم وحطم المرنمة التى شادها الأسقف هيو ، فلما سقطت شيدت مرنمة جديدة فى الفترة التى بين ١٢٥٦ - ١٢٨٠ على الطراز المزخرف الوليد ، منقوشة ولكنها بديعة . وتعزو الأفاصيص اسمها إلى الملائكة الذين أقاموها - كما تقول القصة - لأن أيدى بنى الإنسان تعجز من أن تقيم عملا يبلغ هذا المبلغ من الكمال ؛ ولكن أغلب الظن أن هذا الاسم قد اشتق من الملائكة الموسيقيين الباحثين المنحوتة صورهم على الفرج المسدودة حول أقواس طاقات البوابكى القائمة فوق العقود بين الصحن والجناحين . وأوشك المثالون الإنجليز أن يبلغوا فى تماثيلهم القائمة على باب المرنمة الجنوبي ما بلغه المثالون فى ريمس وأمين . فهناك أربعة تماثيل قد أزال رؤوسها وشوّهها المتطهرون المتزمتون تبلغ فى الجمال مبلغ تماثيل ريمس وأمين ، ومن هذه تماثلان يرمز أحدهما إلى الهيكل وآخر إلى الكنيسة هما أبجل التماثيل الإنجليزية التى نحتت فى القرن الثالث عشر. ويظن السير وليم أسلر Sir William Osler وهو من كبار العلماء ، أن مرنمة الملائكة هذه أبجل روائع الفن البشرى على الإطلاق .

واستأجر الأسقف پور Poore فى عام ١٢٢٠ إلياس ده درهام Elias de Derham ليصمم ويبنى كتدرائية سلزبرى ؛ وقد تم بناؤها فى الفترة القصيرة

المعتادة التي لا تزيد على خمس وعشرين سنة . وهي في جميع أجزائها على الطراز الإنجليزي المبكر ، وتشذ عن القاعدة المتبعة في الكتدرائيات الإنجليزية وهي جمعها بين عدة طرز مختلفة . وإن ما تمتاز به من وحدة في التصميم ، وتناسق في الحجم والخطوط ، وجلال ساذج في برج الجناح وشروحه ، ورشاقة في القبة المقامة على معبد العذراء ، وجمال في نوافذ بيت القساوسة ، إن ما تمتاز به من هذا كله ليعوضها عن ثقل دعائم الصحن وضيق القبة المقبض . ولا يزال لكتدرائية إلي Ely سقف من الخشب ، ولكنه سقف غير منفر ، فإن في الخشب من صفات الدفء والحيوية ما لا يوجد له مثيل في العمارة الحجرية . وقد أضاف المهندسون القوط إلى الحصن النورمندى بابا غربيا جديلا هو « باب الجليل » (حوالى عام ١٢٠٥) ، وبيتا للقساوسة به مجموعة من العمد الجميلة منحوتة من رخام بربك Purbeck ، كما أضافوا إليها في القرن الرابع عشر على الطراز القوطى المزخرف مصلى للعذراء ، ومرممة ، ثم أقاموا عند ملتقى الجناحين بالسقف برج ناقوس ضخيم هو « مُشَمَّن إلى » . وكانت كتدرائية ولز (١١٧٤ - ١١٩١) من أقدم أمثلة الطراز القوطى الإنجليزي ، ولم يكن صحنها جيد التصميم ، ولحق الواجهة الشمالية التي أضافها الأسقف جوسلين Jocelyn (١٢٢٠ - ١٢٤٢) « أو شكت أن تكون أجمل ما شيد في إنجلترا » (٢٨) . ولقد كان في كوى الواجهة ٣٤٠ تمثالا ، فقد منها ١٠٦ كانت من ضحايا تزمت المتطهرين ، والتخريب ، وعوادى الزمن ، وتكون البقية الباقية أكبر مجموعة من الصور المنحوتة في بريطانيا . وليس في وسعنا أن نقول عن صنفاتها مثل ما نقوله عن عددها . . .

وكانت آخر العماثر التي شيدت على الطراز القوطى الإنجليزي المبكر كنيسة ديروستمسبر . وكان سبب بنائها أن هربى الثالث الذى اتخذ إدورد المعترف هديسه الشفيع أحس بأن الكنيسة النورمندية التي بناها إدورد (١٠٥٠)

غير جديرة بأن تحوى عظام هذا الشفيح ، فأمر فنانيه أن يستعوضوا عنها
بصرح قوطى على الطراز الفرنسى ، وجبى لهذا الغرض ضرائب بلغ
مقدارها ٧٥٠.٠٠٠ جنيه يمكننا أن نقدرها تقديراً تقريباً بما يعادل
٩٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار أمريكى حسب قيمة الدولار فى هذه الأيام . وبدأ
العمل فى عام ١٢٤٥ ، وظل قائماً حتى توفى هنرى فى ١٢٧٢ . وكان
تصميمها على غرار تصميم كنيسة ريمس وأمين لا يستثنى من هذا الجناحان
الكثيرا الأضلاع اللذان هما من مميزات الطراز القارى . ولقد تأثرت
النقوش المنحوتة فى الباب الشمالى ، والتي تصور يوم الحساب ، بالنقوش
التي فى الواجهة الغربية لكاتدرائية أمين . وفى الفرج المسدودة فى البواكى
القائمة فوق العقود التى بين الصحن والجناحين نقوش بارزة مذهبة تمثل
الملائكة ، منها ملك فى الفرجة الجنوبية يطل على الزمان بوجه حنون رحيم
يضارع ملك كنيسة ريمس . وفوق مدخل بيت القساوسة صورتان تمثلان
البشارة وتشير فيهما العذراء إشارة فائقة تجمع بين التوسل والتواضع . وأجل
من هذا كله على جماله القبور الملكية التى فى الدير ، وأجل من هذه كلها
تمثال هنرى الثالث نفسه ، وقد جمل فيه صانعه الملك البدين القصير فجعله
مثلاً أعلى فى الجمال وتناسب الأعضاء . ولقد أنست الناس هذه القبور
الفخمة جرائم عشرين من الحكام ، وكادت تعوضهم عنها العبقرية الإنجليزية
المدفونة تحت حجارة توابيت الملوك .

الفصل السابع

الطراز القوطى الألمانى (١٢٠٠ - ١٣٠٠)

استوردت فلاندرز الطراز القوطى من فرنسا فى تاريخ مبكر . فقد بدأت كنيسة القديس جودول Gudule التى ترفع هامتها كبرياء على تلها ببركسل فى عام ١٢٢٠ ، وأهم ما تفخر به هوزاجاجها الملون . وأقيمت فى كنيسة القديس بافون Bavon بغنت مرنمة قوطية فى ١٢٧٤ ؛ وكانت كنيسة القديس رمبولت Rombault فى مكلن Mechlin تشرف على الريف من أبراجها الضخمة المفرطة فى الزخرف وإن كانت لم تتم فى يوم من الأيام . ذلك أن فلاندرز كانت تهتم بالنسيج أكثر مما تهتم بالدين ، وكانت عمارتها مدنية لادينية ، وكان أعظم ما فيها من العماثر القوطية هو قاعات الأقسنة فى إيبير Ypres وبروج وغنت . وكانت قاعة إيبير (١٢٠٠ - ١٣٠٤) أفخم هذه القاعات : فقد كان لها واجهة ذات ثلاثة أطباق من البواكى طولها ٤٥٠ قدماً دمرت فى أثناء الحرب العالمية الأولى . ولا تزال قاعة النسيج فى بروج (١٢٨٤ وما بعدها) تشرف بقبة ناقوسها الفخمة التى طبقت شهرتها العالم كله على الميدان الذى تقوم فيه . وتوحى هذه المباني الجميلة هى ومبا غنت (١٣٢٥ وما بعدها) بما كانت عليه نقابات الحرف الفلمنكية من ثراء ، وما كانت تتيه به من كبرياء هى خليفة به ، وهى بعض ما فى هذه المدن السارة الهادئة فى هذه الأيام من فتنة وروعة .

ولقى الفن القوطى فى انتشاره نحو الشرق إلى هولندا وألمانيا مقاومة متزايدة ؛ ذلك أن رشاقة الطراز القوطى لم تكن تتفق بوجه عام مع النزعة العقلية التيوتونية ، وأن الطراز الرومنسى أكثر مواءمة لهذه النزعة ، ولهذا استمسكت

به ألمانيا حتى القرن الثالث عشر . وتعد كاتدرائية بيمبرج Bamberg العظمى (١١٨٥ - ١٢٣٧) مرحلة انتقال : فالنوفذ فيها صغيرة وذات عقود مستديرة وليست فيها مساند متقلبة ، ولكن القبة ذات ضلوع من الداخل وذات شكل مستدق . وإنا لنجد هنا في مطلع عهد الفن القوطى الألمانى تطوراً فى النحت ذا بال : فقد كان فى بادئ الأمر يحذو حذو النحت الفرنسى ، ولكنه سرعان ما خطا نحو طراز من النزعة الطبيعية البديعة والقوة . والحق أن الصورة التى تمثل المعبد فوق كنيسة بيمبرج لأوقع فى النفس من الصورة المماثلة لها فى ريمس^(٢٩) . وتمثالا اليصابات ومريم اللذان فى المرنمة أقرب إلى أن يكونا نسختين من الموضوعين المماثلين لهما فى فرنسا . ذلك أن تمثال اليصابات ذو وجه وشكل يشبهان وجه عضو من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى يرتدى الحبة الرومانية (الطوغة) ، وأما مريم فقد مثلت فى صورة امرأة ذات قوة وصلابة وهما الصفتان اللتان تحهما ألمانيا على الدوام .

وتكاد كل كاتدرائية ألمانية باقية من ذلك العهد تحتوى تماثيل تستلفت الأنظار ، أحسنها كلها التى فى كاتدرائية نومبرج Naumburg (حوالى ١٢٥٠) . وفى المرنمة القريبة من هذه الكنيسة اثنا عشر تمثالا متعاقبة تمثل طائفة من علية القوم المحليين ، فى واقعية حازمة ، وتوحى بأن الفنانين لم ينالوا حقهم من الأجر كاملاً ؛ وكأنما أرادوا أن يكفروا عن هذا الخطأ فكانت صورة يوتا Uta زوجة الأمير تمثل المرأة الألمانية كما يتوق إليها التفكير الألمانى . وعلى ستار المرنمة نقش يمثل يهوذا يتناول المال ليغدر بالمسيح . والصور هنا مزدحمة وذات قوة ولكنها قوة لا تضرب بفرديتها ، فيهوذا قد مثل بحيث يبدو متصفاً بشيء من العطف ، والفريسيون شخصيات ذوات قوة . تلك هى آية فن النحت الألمانى فى القرن الثالث عشر .

وفى عام ١٢٤٨ وضع كتراد الهتشتادن Conrad of Hochstaden كبير

أساقفة كولوني أشهر الكتدرائيات الألمانية وأقلها موافقة للطراز القوطي .
وتقدم العمل تقدماً بطيئاً في خلال الفوضى التي أعقبت موت فردريك
الثاني ، فلم تدشن الكتدرائية إلا في عام ١٣٢٢ ، ولهذا فإن جزءاً كبيراً
منها يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر ، أما الشماريخ الرشيقة وما على
زواياها من النقوش التي في صورة أوراق أشجار ملفوفة وزخارف النوافذ
الحجرية التي يوضع فيها الزجاج فقد بنيت في عام ١٨٨٠ حسب تصميم
لها من القرن الخامس عشر . وبنيت كتدرائية كولوني على غرار كتدرائية
أمين فترسمت الطراز الفرنسي والأسلوب الفرنسي بدقة . فخطوط الواجهة
مفرطة في اعتدالها وصلابتها ، ولكن عمد الصحن الساقمة الرفيعة ، والنوافذ
المتألثة ، والتماثيل الأربعة عشر التي على دعائم المرمنة تكسب داخل
الكتدرائية جاذبية ، لم تنج من الحرب العالمية الثانية إلا بأعجوبة ، وتكاد
تكون لإحدى المعجزات .

وكتدرائية استرسبورج Strassbourg أكثر من هذه إمتاعاً للنفس .
وهنا أيضاً كان قرب البلدة من فرنسا مما جعل الطراز الفرنسي يبدو
وكأنه أقل بُعداً عن الطابع الوطني مما يبدو في استرسبورج في هذه الأيام
(١٩٤٩) ، فخارجها يمثل الرشاقة الفرنسية ودخلها يمثل القوة الألمانية .
ويدخل الإنسان إلى الكتدرائية بعد أن يمر ببيوت مزدحمة جميلة المنظر ذات
سقف هرمية . وتزين التماثيل الواجهة ، ولكن النوافذ المشعة الواسعة ذات
الروعة أبهى من هذه الزينة . والبرج الوحيد القائم في ركن واحد من
أركان الواجهة يشوه منظرها ، إذ يوحى إلى الإنسان بأن فيها نقصاً ،
ولكن الفنان قد أفلح كل الفلاح في أن يجمع هنا بين المهابة والزخرف ،
حتى ليستطيع الإنسان أن يفهم وصف جيته لهذه الواجهة بأنها « موسيقى
متجمدة » ، وإن كان علينا نحن أن نستخدم في وصفها لفظاً غير لفظ
« متجمد » . فقد كتب جيته يقول : « لما كنت قد نشأت على احتقار
العارة القوطية ، فقد ازدريت هذه الواجهة ؛ ولكني لما دخلتها اعترفتني

الدهشة ، وأحسست بما فى جمالها من جاذبية «^(٣٠) . والزجاج الملون فى هذه الكندراية قديم العهد ، ولعله أقدم من أى زجاج فى فرنسا ، والتماثيل المنحوتة التى عند باب الجناح الجنوبي (١٢٣٠ - ١٢٤٠) نادرة الجمال ، وفى القوس التى فوق الباب نقش غائر يمثل موت العذراء ؛ والرسمل المجتمعون حول فراشها ذوو ملامح فردية غير وافية ؛ ولكن الفكرة التى أوحى بصورة المسيح جميلة وقد أبرزها المثال بمهارة . ويقوم على جانبي هذا الباب تمثالان عظيمان : يمثل أحدهما الكنيسة فى صورة ملكة ألمانية بشوشة ؛ والآخر صورة لشخص نحيل رشيق ، مكفوف ولكنه جميل ، يرمز إلى معبد اليهود ؛ ولو رفعت العصابة التى على عيني هذا التمثال لفاق المعبد الكنيسة . وقد أمرت لجنة الثورة الفرنسية فى عام ١٧٩٣ بتدمير تماثيل الكندراية لتجعل منها « معبداً للعقل » ؛ ولكن عالماً فى التاريخ الطبيعى لا نعرف من اسمه أكثر من هرمان Herman أنقذ تماثيل الكنيسة والمعبد بأن أخفاها فى حديقته المخصصة لعلم النبات ، كما أنقذ النقوش التى فوق قوس الباب بأن غطاها بلوحة عليها نقش فرنسى : الحرية ، والمساواة ، والإخاء^(٣١) .

الفصل الثامن

الطراز القوطى الإيطالى (١٢٠٠ - ١٣٠٠)

أطلق الإيطاليون فى العصور الوسطى على الطراز القوطى اسم طراز نيرسكو ؛ وأخطأ إيطاليو النهضة مثل خطتهم فى أصل هذا الطراز ، فاخترعوا له اسم القوطى لاعتقادهم أن برايرة ما وراء الألب وحدهم هم الذين يستطيعون إيجاد فن يبلغ هذا القدر من الإسراف . ذلك أن ما فى هذا الطراز من كثرة فى الزخارف وعظم فى الجرأة لم يكن بين وأذواق الإيطاليين ذات النزعة القديمة الطويلة العهد بالنقاء . وإذا كانت إيطاليا قد اتخذت الطراز القوطى ، فقد كان ذلك عن إباء يكاد يبلغ حد الاحتقار . ولم يكن فى مقدورها أن تطلع على العالم بلألاء كندرائية ميلان الغريب وطراز أرفيتو ، وسينا ، وأسيسى ، وفلورنس القوطى - البيزنطى - الرومنى إلا بعد أن كيفته بما يؤام حاجاتها ومزاجها . وكان الرخام موفوراً فى أرضها وخرباتها وكان فى وسعها أن تبنى واجهات معابدها بألواح منه متعددة الألوان ؛ ولكن كيف تستطيع أن تحت واجهة رخامية لتشيد منها المداخل المعقدة كما كان ينحت أهل الشمال بالحجارة اللينة ؟ إنها لم تكن فى حاجة إلى النوافذ الكبيرة التى تدعو إليها حاجة بلاد الشمال الباردة القائمة إلى الدفء والضوء ، وكانت لذلك تفضل عليها النوافذ الصغيرة التى جعلت كندرائياتها معابد قليلة الحرارة تقي روادها وهج الشمس ؛ ولم تكن ترى أن الجدران السميقة والأربطة الحديدية نفسها أقبح منظرأ من الدعامات المتقلبة ، فكانت لذلك تستخدمها فى تزيين مبانيها ، ولم تتقبل فى يوم من الأيام المنطق الإنسانى فى الطراز القوطى .

ويكاد هذا الطراز فى البلاد الشمالية يكون كله قبل عام ١٣٠٠ مقصوراً

على الكنائس ، لا يستثنى من هذا إلا عدد قليل منها في المدن التجارية مثل إمبر ، وبروج ، وغنت . وكان للعارة المدنية في إيطاليا الشمالية والوسطى ، وهما أغنى من الأراضي الوطنية نفسها في الصناعة والتجارة ، شأن عظيم في تنمية الفن القوطي ، فقد اتخذت القاعات العامة ، وجدران المدن ، والأبواب ، والأبراج ، وقلاع سادة الإقطاع ، وقصور التجار ، اتخذت هذه كلها الشكل القوطي أو الزخرف القوطي ؛ وبدأت بروجيا داربلديتها في عام ١٢٨١ ، وبدأت سينا دارها العامة في ١٢٨٩ ، وبولونيا دارها الشعبية في ١٢٩٠ ، وبدأت فلورنس دارها الفذة الرشيقة المعروفة بقصر فلتشيو Vecchio في ١٢٩٨ - وكلها على الطراز القوطي التسكاني .

وفي أسيسي أراد الأخ إلياس في عام ١٢٢٨ أن ينشئ مكاناً يتسع للعديد الجلم من رهبانه الفرنسيين وللطوائف المتزايدة من الحججاج إلى قبر القديس فرانسس ، فأمر بتشيد دير سان فرانسكو وكنيستها العظيمى الاتساع - وهى أول كنيسة شيدت في إيطاليا على النظام القوطي . وعهد هذا العمل إلى رئيس للبنائين ألماني يسميه الإيطاليون ياقوبو الألماني (يعقوب الألماني Jacopo d'Alemannia) ، ولعل هذا هو السبب في تسمية الطراز القوطي في إيطاليا « بالطراز الألماني » . وشيد ياقوبو « كنيسة سفلى » على الطراز الرومنسى الذى فيه القبة ذات المنحنيات الزاوية عند ملتقى العقود ، ثم أقام فوقها « كنيسة عليا » ذات نوافذ في عقودها محشوة بزخارف جميلة ، وقباب مضلعة مستدقة . وتكون الكنيستات والدير كتلة من البناء ذات روعة ، وإن كانت لا تبلغ في الإمتاع ما تبلغه المظلمات العجيبة التى أبدعتها أيدي سيابيو Cimabue ، وجيتو ، وتلاميذ جيتو ، أو السائحى والعباد الذين يهرعون كل يوم من مائة مدينة ومدينة إلى ضريح قديس إيطاليا المحبوب ، أقل من يلقي المبالاة من هؤلاء القديسين .

ولا تزال سينا حتى الآن من مدائن العصور الوسطى : فهى تتكون من

ميدان عام تحيط به دور الحكومة ، وسوق عامة مكشوفة ، تتصل بها حوانيت متضعة لا تبدل فيها جهود لاسترعاء النظر . ويتفرع من هذا الميدان المركزي نحو اثني عشر طريقاً تتعثر في طريقها الخطر الظليل بين مساكن قديمة مظلمة لا تكاد يبعد بعضها عن بعض بأقدام ، خاصة بخلائق بشوشين تفوح منهم روائح كريهة ، الماء عندهم ترف أندر وأشد خطورة على أجسامهم من التبيد . وتقوم على تل خلف المساكن كتدراية المدينة مبنية من الرخام القاتم والأبيض في سطور غير ذات جمال . وقد بدئ بناء الكنيسة عام ١٢٢٩ وتم في عام ١٣٤٨ ؛ وأضيفت إليها في عام ١٣٨٠ واجهة جديدة ضخمة من تصميم خلتفه جيوفاني بيزانو . وكلها من الرخام الأحمر أو الأسود أو الأبيض ، وفيها ثلاثة أبواب كبيرة رومانية الطراز على جانبي كل منها قوائم منحوتة نحتاً بديعاً ، وتحيط بها سقف هرمية ذات نقوش معقوفة ، ونافذة متشعبة ترشح أشعة الشمس الغاربة ؛ وتمتد البواكي والعمد على طول الواجهة تطالع الناظر بطائفة كبيرة من التماثيل ؛ وفي الأركان شماريخ وأبراج من الرخام الأبيض تقلل من حدة زواياها ، وفي المتص العالي نقش فسيفسائي ضخم يمثل العذراء الأم تسبح صاعدة إلى الجنة . وكان الفنان الإيطالي مولعاً بالسطوح البراق الملوثة ، ولم يكن كالفنان الفرنسي مولعاً بانعكاسات الضوء والظل الدقيقة على العمدة الداخلية في الأبواب وعلى الواجهات ذات النحت الغائر . وليست هنا مساند للجدران . وتعلو فوق المرتمة قبة بيزنطية الطراز ، تتحمل ثقلها جدران سميككة وعقود مستديرة متسعة اتساعاً كبيراً . تقوم على مجموعات من عمد الرخام ، وتحمل قبة ذات أضلاع مستديرة ومستدقة . والطراز القوطي التسكاني لا يزال يغلب عليه هنا الطراز الروماني ، ولا يزال بعيداً كل البعد عن طراز كينستي أمين وكالوني الثقيل المعجز . وفي داخل الكنيسة منبر نقولو وجيوفاني بيزانو . وتمثال برنزي لقائم بالتعميد صبه دوناتلو Donatello (١٤٥٧) ، ومظالمات من صنع بنتور تشيو Pinturicchio ،

ومذبح من صنع بلدسارى بروزيو Baldassare Peruzzio (١٥٣٢) ومقاعد للمرنمين كثيرة النقوش المنحوتة من عمل برتوليو نيرونى Bartolomeo Neroni (١٥٦٧) ؛ وهكذا استطاعت كنيسة إيطالية أن تنمو قرناً بعد قرن بفضل سلسلة متصلة الحلقات من العباقرة الإيطاليين .

وبينما كانت كاتدرائية سينا وبرج أجراسها يتشكلان تناقل الناس من قرية بلسينا Bolsena معجزة كانت لها نتائج معمارية . ذلك أن قساً ، كان فى سابق أيامه يشك فى عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه ، اقتنع بصدق هذه العقيدة الدينية حين رأى الدم على الخبز المقدس ؛ ولم يكتف البابا إربان الرابع بأن يخلد هذه المعجزة بضم « عيد الجسد » إلى الأعياد المسيحية (١٢٦٤) ، بل أمر بتشييد كاتدرائية فى أرفيتو القريبة من قرية بلسينا . ووضع تصميم هذه الكاتدرائية أرنلفو دى كيبو Arnolfo di Cambio ولورنزو مكتانى Lorenzo Mactani وظلا يعملان فى تشييدها من ١٢٩٠ حتى تمت فى ١٣٣٠ . وجعلت واجهتها على طراز كاتدرائية سينا ، ولكنها أجمل منها صقلا وتنفيذا ، وأحسن منها تناسبا فى أجزائها ، فكانها تصوير ضخم فى الرخام ، كل عنصر من عناصرها آية فنية بذلت فيها عناية فائقة . وتروى النقوش البارزة المفصلة تفصيلا لا يكاد يصدق العقل ، ولكنها مع ذلك دقيقة كل الدقة ؛ وتحدث هذه النقوش القائمة على العمدة المربعة العريضة التى بين الأبواب مرة أخرى عن قصة خلق العالم ، وحياة المسيح ، وتطهير المسيح للجنس البشرى من الذنوب والشقاء ، ويوم الحساب . ويمتاز أحدها ، وهو الذى يمثل زيارة العذراء لإليصابات ، بأنه يرقى فى ذلك العهد إلى الكمال الذى بلغه فن النحت فى عصر النهضة . وهناك عمد منحوتة نحتا رقيقا تقسم مراحل الواجهة الشاغخة الثلاث ، وتأوى طائفة كبيرة من الأنبياء ، والرسل ، والآباء ، والقديسين . وتتوسط هذه المجموعة المعقدة نافذة مشعة تعزى إلى أركانيا Orcania (١٣٥٩) ، وإن كان

هذا مشكوكاً فيه ، ويعلموها نقش فسيفسأى براق (أزيل في الوقت الحاضر)
يمثل تكليل العذراء . وداخل الكنيسة الذى تتناوب فيه الخطوط الملونة
تناوباً غريباً عبارة عن باسلفا ساذجة تحت سقف منخفض من الخشب ،
والإضاءة فيها ضعيفة ، وليس فى وسع الإنسان أن يمتدح المظلمات التى
صنعها فرا أنجليكو Fra Angelico وبنزو جتزولى ، Benozzoli Gozzoli
ولوكا سنيورلى Luca Signorelli .

ولكن سورة البناء التى اجتاحت إيطاليا فى القرن الثالث عشر أتت
بأعظم عجائبها فى مدينة فلورنس الثرية . فقد شاد أرنلفو دى كيبو فى عام
١٢٩٤ كنيسة الصليب المقدس (سانتا كروس Santa Croce) واحتفظ
فيها بنظام الباسلفا التقليدى الخالى من الجناحين ، ذى السقف الخشبي
المستوى ، ولكنه استخدم العقد المستدق فى النوافذ ، والصحن ذا البواكى
والواجهة الرخامية . ولا يعتمد جمال الكنيسة على هندستها المعمارية بقدر
ما يعتمد على كثرة ما فى داخلها من التماثيل ، والتقوش المنحوتة ،
والمظلمات ، التى تكشف عن مهارة أصحاب الفن الإيطالى السائر نحو
النضوج . وفى عام ١٢٩٨ أنشأ أرنلفو لمكان التعميد واجهة من طبقات
الرخام يتعاقب فيها اللونان الأسود والأبيض ذلك التعاقب الذى يمجج الذوق
السليم ، ويشوه كثيراً من مباني الطراز التيسكانى ، لأنه يخضع الارتفاع
العمودى لحشد من الخطوط المستقيمة . ولكن روح العصر المزهوة بنفسها -
وهى بشير آخر بعصر النهضة - يمكن تبينها فى المرسوم (١٢٩٤) الذى
كلف به أرنلفو ببناء الكندراية العظيمة :

لما كان الحزم أجمع يقضى على ذوى الأصول الكريمة أن يخطوا فى أعمالهم
خطة تجعل ما يتبعونه فيها من حكمة وفخامة تظهر فى صورة تراها العين ، فقد
أمرنا أن يعد أرنلفو رئيس المهندسين فى المدينة نماذج أو تصميمات لإعادة بناء
(كندراية) سانتا ماريا ربراتا Sante Maria Reparata ، بحيث تبدو

في أسمى حلة من الفخامة مهما أنفق فيها من المال ، وبحيث لا تستطيع جهود البشر ولا قواهم أن تبتكر شيئاً أيا كان ، أو أن تتعهد بالقيام بشيء ، يفوقها سعة أو جمالا ؛ وأن يراعى في هذا العمل ما أعلنه أحكم الحكماء من المواطنين وأشاروا به في مجلسهم العام وفي اجتماعهم العام وهو ألا تمس يد أعمال المدينة إلا إذا كان في نية صاحبها أن يجعلها مواثمة للروح النبيلة المؤلفة من أرواح جميع مواطنيها مجتمعة في إدارة موحدة (٣٢) .

وأثار هذا التصريح الواسع الانتشار حماسة الجماهير ، وهو الهدف المقصود منه بلا ريب ، فأخذوا يتبرعون بالمال . واشتركت نقابات الحرف الطائفية في المدينة في تمويل المشروع ؛ ولما أن تباطأت غيرها من النقابات فيما بعد تعهدت نقابة عمال الصوف بنفقات المشروع كله ، وتبرعت لهذا الغرض بمبلغ ارتفع إلى ٥١٠٠٠ ليرة ذهبية (أى ما يعادل ٩٢٧٠٠٠ دولار أمريكي) في العام (٣٣) . ولهذا صمم أرنلفو البناء على أبعاد ضخمة ، فقدر ارتفاع القبة الحجرية بمائة وخمسين قدماً ، أى بما يساوى ارتفاع قبة بوفيه ، وقدر اتساع الصحن بمائتين وستين قدماً في خمس وخمسين ؛ واعتزم أن تتحمل ثقل البناء جدران سميكة ، وأربطة حديدية ، وعقود في الصحن مستدقة ، اشتهرت بقلعة عددها الذى لا يزيد على أربعة ، وبامتدادها الهائل الذى يبلغ خمساً وستين قدماً في الطول وتسعين قدماً في العرض . وتوفى أرنلدو في عام ١٣٠١ ؛ وظل العمل قائماً بعد وفاته وأدخل على تصميمه كثير من التعديل بإشراف جيتو ، وأندريا پيزانو ، وبرونلسكى Brunelleschi وغيرهم ، ولم تدشن هذه الكتلة الضخمة المشوهة من البناء إلا في عام ١٤٣٦ ، وغير اسمها إلى سانتا ماريا ده فيورى Santa Maria de Fiore . وهى صرح ضخم غريب المنظر استغرق تشييده ستة قرون ، وغطى مساحة قدرها ٨٤٠٠٠ قدم مربعة ، وتبين فيما بعد أنه يتسع لمستعمى شقنرولا Savonarola .

الفصل التاسع

الطراز القوطى الأسبانى (١٠٩١ - ١٣٠٠)

حل رهبان فرنسا فى القرن الثانى عشر الطراز القوطى إلى أسبانيا فوق جبال البرانس ، كما نقلوا طراز العمارة الرومنسى إلى تلك البلاد فى القرن الحادى عشر . وكانت كاتدرائية سان سلفادور القائمة فى بلدة أفىلا الصغيرة (١٠٩١ وما بعدها) هى بداية الانتقال من الطراز الرومنسى إلى القوطى ، وذلك بما احتوته من العقود المستديرة ، والباب القوطى الطراز ، والعمد الشيقة التى فى القبا والى ترتفع حتى تتصل بالأضلاع المستدقة فى القبة . واحتفظ أهل سلمنقه Salamanca الأتقياء بالكاتدرائية القديمة التى تمثل دور الانتقال والى شيدت فى القرن الثانى عشر إلى جانب الكاتدرائية الجديدة التى شيدوها فى القرن السادس عشر ؛ وتكون الكنستان معا مجموعة من أكبر المجموعات البنائية وأعظمها روعة فى أسبانيا . وفى طرقرنة Tarragona كانت الصعاب المالية سبباً فى إطالة عملية بناء الكرسى الكهنوتى من ١٠٨٩ إلى ١٣٧٥ ؛ وإن ما يتصف به البناء من بساطة ومثانة ليوائم الزخارف القوطية والإسلامية ، وما فيه من الأروقة - المكونة من عمد رومنسية تحت قبة قوطية - لمن أجمل ما أخرجه فن العصور الوسطى .

وطراز البناء فى طرقرنة واضح المعالم ، أما بوجوس Burgos ، وطليلة وليون فهى أكثر منها نزعة فرنسية ، وتزيد كل واحدة عن التى قبلها فى هذا الاتجاه . ذلك أن زواج بلانش القشتالية من لويس الثامن ملك فرنسا (١٢٠٠) قد أدى إلى زيادة أسباب التدخل الذى بدأه من قبل الرهبان المهاجرون . وكان

ابن أخيها فرنندو الثالث ملك قشتالة هو الذى وضع الحجر الأساسى
لكتدرائية بوجوس فى عام ١٢٢١ ؛ وكان مهندس فرنسى غير معروف
هو الذى قام بتصميم البناء ، وألمانى من كولونى - جوان ده كولونيا
Juan de Colonia - هو الذى أقام الشماريخ (١٤٤٢) ، وبرغندى يدعى
فليبه ده برجونيا Felipé de Borgonia هو الذى بنى الناقوس العظيم فوق
ملتنى الجناحين (١٥٣٩ - ١٥٤٣) ؛ ثم قام أخيراً تلميذه جوان ده فليجو
Juan de Vallego الأسباني بإتمام الصرح كله ١٥٦٧ : وإن الشماريخ
المرخرفة النوافذ ، والأبراج المفتوحة التى تعتمد عليها هذه الشماريخ ،
والبابكة ذات القنايل ، لتخلع على كنيسة سانتا ماريلا مايور Senta Maria
la Mayor (القديسة مارية الكبرى) مهابة وفخامة لا يستطيع الإنسان
أن ينسأها فى وقت قصير . وقد كانت هذه الواجهة الحجرية كلها فى بادئ
الأمر مطلية ، ولكن الألوان زالت عنها من زمن بعيد ، ولهذا فإن كل
ما نستطيعه الآن هو أن نحاول تصور هذا الصرح المتألى الذى كان فى وقت
من الأوقات يضارع الشمس بهاء .

كذلك قدم فرنندو الثالث نفسه الأموال اللارمة لبناء كتدرائية طلبيلة
الأكثر من كتدرائية بوجوس فخامة . وقل أن توجد فى المدن الداخلية
مدينة جميلة الموقع كمدينة طلبيلة - فهى تجثم فى ثنية من ثنايا نهر التاجه ،
تحتمها تلال تحميها من الأعداء ؛ وما من أحد يعرف ما هى عليه
من فقر فى هذه الأيام يتصور أن ملوك القوط الغربيين ومن جاء بعدهم
من أمراء المسلمين ، ثم ملوك اليون Leon وقشتالة المسيحيين ، قد اتخذوا
هذه المدينة عاصمة لهم . وقد بدأت كتدرايتها فى عام ١٢٢٧ وأخذت
ترتفع فى الجوبيطء مرحلة بعد مرحلة ، حتى أوشكت على التمام قبيل
عام ١٤٩٣ . ولم ينشأ من التصميم الأصيل إلا برج واحد ؛ وهى من طراز
نصف إسلامى مغربى كطراز الخردة فى أشيلية ، وتكاد تماثلها فى رشاقتها .
وبنيت فوق البرج الثانى فى القرن السابع عشرة قبة أعدت تصميمها أشهر

أبناء طليطلة دومنجوتوتوكوبولى Domingo Teotocopuli الملقب باليونانى Elgreco . وطول الكنيسة من الداخل ٤٩٥ قدماً وعرضها ١٧٨ ؛ وهى متاهة تحتوى على خمس طرقات ذات دعامات عالية ، ومصليات مزخرفة ، وتماثيل حجرية للأولياء الزهاد ، وشبابيك من حديد مشغول ، و ٧٥٠ شباكاً من الزجاج الملون . ويتمثل فى هذه الكتدرائية الضخمة كل ما يتصف به الخلق الأسبانى من جد ، وكل ما يتصف به التقى الأسبانى من كآبة وقوة انفعال ، وما فى الآداب الأسبانية من رقة ودمائة ، كما يتمثل فيها أيضاً بعض ما يتصف به المسلمون من ولع بالزخرف .

ومن الأمثال السائرة فى أسبانيا أن « فى طليطلة أغنى كنائسنا ، وفى أفيدو أكثرها قداسة ، وفى سلمنقة أعظمها قوة ، وفى ليون أعظمها جمالا »^(٣٤) . وقد بدأ الأسقف منريك Manrique كتدرائية ليون Leon فى عام ١٢٠٥ وجمع المال اللازم لها من تبرعات صغيرة جوزى عليها من قدموها بصكوك الغفران ، وتم بناؤها فى عام ١٣٠٣ . وقد عمد المهندسون فيها إلى الخطة القوطية الفرنسية وهى أن يكون معظم بناء الكتدرائية مكوناً من نوافذ ، ولزجاجها الملون منزلة عالية بين روائع ذلك الفن . وقد يكون حقاً أن تصميم الأرض التى بنيت عليها مأخوذ من كتدراية ريمس ، وأن الواجهة الغربية قد أخذت من شارتر ، والباب الجنوبي الكبير من برجوس . ولهذا تمثل الكنيسة خليطاً عجباً من الكتدرايات الفرنسية - يحتوى على أبراج وشمايخ مصقولة .

وقامت كنائس أخرى ابتهاجاً باستعادة المسيحية أسبانيا - فى رمورة عام ١١٧٤ ، وفى توطيلة عام ١١٨٨ ، ولريده ١٢٠٣ ، وبلنسية ١٢٦٢ ، وبرشلونة ١٢٩٨ . ولكننا يصعب علينا أن نصف الكنائس الأسبانية التى قامت فى تلك الفترة من الزمان بأنها قوطية الطراز ، لا يستثنى من ذلك التعميم إلا كنيسة ليون . فقد خلت هذه الكنائس من النوافذ الكبيرة والمساند

المتنقلة ، واعتمد ثقل أبنيتها على جدران ودعامات ضخمة ؛ وتمتد هذه الدعامات نفسها حتى تكاد تصل إلى القبة ؛ بدل أن تمتد ضلوع العقود من القاعدة إلى السقف ؛ وهذه العمدة العالية التي تقوم كالمردة الحجرية في كهوف الصخون الضخمة تكسب داخل الكنائس الأسبانية عظمة قائمة مظلمة تخشع لها النفوس رهبة ؛ على حين أن الطراز القوطى الشمالى يسموها لما يغمرها من ضوء . وكثيراً ما احتفظت الأبواب والنوافذ فى الطراز القوطى الأسبانى بالعقود الرومنسية ، كما احتفظت الزخارف المكونة من طبقات مختلفة ورسوم من الآجر الملون بعنصر إسلامى مغربى بين زخارفها القوطية ؛ وبقي تأثير الطراز البيزنطى فى القباب وأنصاف القباب القائمة ، ذات التقاسيم الثلاثية المتناسقة القائمة على قاعدة كثيرة الأضلاع . وهذه العناصر المختلفة هى التى أنشأت منها أسبانيا طرازاً فذاً من الكنتدرائيات يعد من أجمل كنتدرائيات أوروبا .

وليست قصور الريف الحصينة وقلاعها ، ولا جدران المدن وأبوابها ، أقل الأعمال المعمارية فى العصور الوسطى نبلا وفخامة . فلا تزال جدران أفبلا قائمة إلى اليوم تشهد بإدراك العصور الوسطى لجمال الشكل ، كما جمعت بعض الأبواب الكبيرة كباب الشمس Puerto de Sol فى طليطلة بين الجمال والمنفعة . كذلك أقام الصليبيون من ذكرياتهم للقلاع الرومانية ، فى الشرق الأدنى - ولعل ذلك كان أيضاً من ذكرياتهم لما شاهدوه من حصون المسلمين^(٣٥) - حصوناً قوية ضخمة كحصن الكرك (١١٢١) ، تفوق فى حجمها وشكلها أية حصون من نوعها فى ذلك العهد الحربى . وشادت بلاد الحجر ، حصن أوروبا الحصين من المغول ، قصوراً فخمة حصينة فى خلال القرن الثالث عشر . ثم انتقل هذا الفن إلى بلاد الغرب وترك فى إيطاليا آيات من الفن الحربى مثل برج قلنيرا Volterra الحصين ، وفى فرنسا فى القرن الثالث عشر قصور كوسى Coucy وبييرفون Pierrefonds ، وقصر جويارد Chateau Guillard الذى شاده رتشرد قلب الأسد

(١١٧٩) على أثر عودته من فلسطين . ولم تكن القصور المحصنة في أسبانيا بدعة من بدع الخيال ، بل كانت كتلا ضخمة قوية من البناء صدت المسلمين المغاربة ، واشتق منها اسم قشتالة(*) . ولما استرد الفونسو السادس (الأذفنش) (١٠٧٣ - ١١٠٨) ملك قشتالة مدينة سيجوفيا Ssgovia من المسلمين ، أقام فيها قصرأ حصينأ على نمط « قصر » طليطلة . وقامت أمثال هذه القصور الحصينة في إيطاليا لتكون قلاعأ يسكنها النبلاء ، ولا تزال مقاطعتا تسكانيا ولبارديا مليئتین بها ؛ وكان في سان جيميانو San Gimignano وحدها ثلاثة عشر قصرأ حصينأ من هذا النوع قبل الحرب الأوربية الثانية . وبدأت فرنسا منذ القرن العاشر لا بعد تبني في شتودون Chateaudun القصور التي أضحت في عصر النهضة من أفخم مظاهر فنها المعماري . وانتقلت الأساليب الفنية في بناء القصور الحجرية إلى إنجلترا مع أتباع إدورد المعترف المحببين ، وارتقت بما اتخذته ولیم الفاتح من إجراءات هجومية دفاعية في البلاد ، فاتخذت في أثناء قبضته الحديدية عليها صروح برج لندن ، وقصر ونزر Windsor ، وقصر درهام اتخذت هذه الصروح أقدم صورها . ومن فرنسا أيضا انتقل بناء القصور الحصينة إلى ألمانيا ، حيث شغف به الأعيان الخارجون على القانون ، والملوك المحاربون ، والقديسون الغازون . فشاد اسكلس Schloss الكنجزبرجي الرهيب (١٢٥٧) حصنا استطاع الفرسان الثيوتون أن يحكموا منه السكان المعادين لهم ، حتى كان هذا الحصن ضحية هو خليف بها من ضحايا الحرب العالمية الثانية .

الفصل العاشر

لمحات متفرقات

لقد كانت العمارة القوطية أجل ما تكشفت عنه النفس البشرية في العصور الوسطى . ذلك أن أولئك الرجال ، الذين أقدموا على تعليق هاته القباب على مشاءات قليلة من الحجارة ، قد درسوا عملهم ، وعبروا عنه بإحكام أكثر مما فعله في برجه العاجى أى فيلسوف من فلاسفة العصور الوسطى ، وقد أثمرت هذه الدراسة ما لم تثمره دراسة أولئك الفلاسفة ؛ وإن خطوط كنيسة نتردام وأجزاءها المتناسقة لتؤلف قصيدة أعظم من *المهرابة الإلهية* . هذا وليس في وسعنا أن نعقد موازنة عامة بين العمارتين القوطية واليونانية — الرومانية القديمة ، لأن هذه الموازنة تحتاج إلى كثير من التخصص . ولسنا ننكر أنه ما من مدينة واحدة في أوربة العصور الوسطى قد أخرجت من العائثر ما أخرجه أثينة أو رومة ، وأنه ليس من الأضرحة القوطية ضريح حوى من الجمال الصافى ما حواه البارثنون ؛ ولكننا لا نعرف في العمائر اليونانية — الرومانية القديمة ما يضارع العظمة المعقدة التى نراها في واجهة كتدرائية نتردام أو الوحي الذى ينزل على النفس فيسمو بها حين تشهد قبة كتدرائية أمين ؛ وإن ما يتمثل في الطراز القوطى من تقيد واطمئنان ليعبر عن تعقل واعتدال كانت تدعو بلاد اليونان إليهما أهائهما ذوى العاطفة القوية الجائشة ؛ وإن النشوة الخيالية التى في الطراز القوطى الفرنسى ، والضخامة القائمة التى تمتاز بها كتدرايتنا بروجوس وطلينطلة ، واللذين ترمزان من غير قصد إلى ما في روح العصور الوسطى من شوق وحنان ، وإلى ما في العقيدة الدينية من رهبة ، وإيمان بالأساطير والعقائد الخفية . لقد كانت العمارة والفلسفة

اليونانيين - الرومانيتان القديمتان علمين يهدفان إلى الثبات والاستقرار ؛ ذلك أن العوارض الراكزة على الأعمدة والتي كانت تربط عمدة البارثون كانت هي التفسير الديني لثقوش دلتى مع تأكيد للتسامى ، والنضج بالثبات ، وهى توشك أن ترغم أفكار بنى الإنسان على العودة إلى هذه الحياة وهذه الأرض . ولقد كانت تسمية روح بلاد الشمال بالروح القوطية تسمية صادقة تنطبق على الواقع ، لأنها ورثت الجرأة القلقة التى هى من مميزات البرابرة الفاتحين ؛ وكانت تنتقل منهومة من نصر إلى نصر ، حتى حاصرت آخر الأمر السماء بمساندها المتقلبة ، وعقودها السامقة ، ولكنها كانت بالإضافة إلى هذا روحا مسيحية تطلب إلى السماء أن تهبها الرحمة التى أفصتها البربرية عن الأرض . وكانت البواعث المتعارضة هى التى أدت إلى أعظم انتصار للشكل على المادة فى تاريخ الفن من أوله إلى آخره .

ولكن لِمَ اضمحلت العمارة القوطية ؟ لقد كان من أسباب اضمحلالها أن كل فن يقضى على نفسه بتعبيره الكامل عن نفسه ، ويدعو إلى رد الفعل أو التغيير . ثم إن تطور الفن القوطى إلى العمودى فى إنجلترا ، وإلى كثرة الألوان والزخارف فى فرنسا ، لم يترك للشكل مستقبلا سوى المغالاة ثم الاضمحلال . يضاف إلى هذا أن إخفاق الحملات الصليبية ، وضعف العقيدة الدينية ، وتحول الأموال من مريم العذراء إلى رب المال ، ومن الكنيسة إلى الدولة ، قد حطم روح العصر القوطى . وفوق هذا وذاك فإن فرض الضرائب على رجال الدين بعد أيام لويس التاسع قد أفرغ من المال خزائن الكتدرائيات ، وفقدت المدن المستقلة ونقابات الحرف الطائفية ، التى كانت تسهم فى مجد العمارة القوطية ونفقاتها ، استقلالها ، وثروتها ، واعتزازها بنفسها ؛ وأنهك الموت الأسود ، وحرب المائة السنين فرنسا وإنجلترا كليهما ؛ فكانت النتيجة أن المباني الجديدة فى القرن الرابع عشر لم تقبل فحسب ، بل إن الكثيرة الغالبة من الكتدرائيات

العظيمة التي بدأت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر قد تركزت ناقصة .
وآخر ما نذكره من أسباب هذا الضعف أن إعادة كشف الكتاب الإنسانيين
الحضارة القديمة ، ونهضة العمارة الجديدة في إيطاليا التي لم تمت فيها هذه
الحضارة قط ، قد أحلا محل الفن القوطي فنا خصباً جديداً موفور النماء ،
فسيطر فن النهضة المعماري من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر على
أوروبا الغربية ، لا يستثنى من ذلك الإسراف في الزينة وكثرة التفاصيل .
ولما جاء الدور على النزعة اليونانية — الرومانية القديمة فأصابها هي الأخرى
لوهن أعادت الحركة الإبداعية التي قامت في بداية القرن التاسع عشر
العصور الوسطى إلى خيال أصحاب النزعة المثالية ، وعادت العمارة القوطية إلى
الوجود . ولا يزال الكفاح قائماً بين الطرازين اليوناني — الروماني والقوطي
في كنائسنا ومدارسنا وأسواقنا وحواضرنا ، على حين أن طرازاً معمارياً
أصيلاً أعظم جرأة من الطراز القوطي أخذ يعلو في أجواز الفضاء .

وظن رجل العصور الوسطى أن الحقيقة قد تكشفت له فلم يعد في حاجة
إلى الجري الوحشي وراءها ؛ ولهذا فإن الجهد الطائش الذي نبذله الآن
في الجري وراء تلك الحقيقة قد وجه في تلك الأيام إلى خلق الجمال ، وقد
وجد الناس بين كوارث الفاقة ، والأوبئة الفتاكة ، والحروب ، من
الوقت والروح القوية ما مكنهم من أن يحملوا ألفاً من الأدوات المختلفة
الأنواع تختلف من حروف أسمائهم الأولى إلى الكتندرائيات الشاحخة . وإذا
ما وقفنا محتبسي الأنفاس أمام بعض مخطوطات العصور الوسطى ، أذلاء
أمام نتردام ، وتمثلنا صورة صحن كنيسة ونشستر البعيدة ما كان في عصر
الإيمان من خرافات وأقذار ، وحروب دنيئة ، وجرائم وحشية ؛ وأدهشنا
مرة أخرى ما كان يتصف به أجدادنا في العصور الوسطى من صبر طويل ،
وذوق جميل ، وخشوع وإخلاص ؛ وحمدنا لألف ألف من الرجال المنسيين
ما بثوه في دم التاريخ من قداسة الفن .

الباب الثالث والثلاثون

موسيقى العصور الوسطى

(٣٢٦ - ١٣٠٠)

الفصل الأول

موسيقى الكنيسة

لقد أسأنا نحن إلى الكنتراثية . إنها لم تكن هذه المقبرة الباردة الحالية التى يدخلها الزائر فى هذه الأيام ، بل كان لها عمل توديه ؛ ذلك أن من كانوا يدخلونها للعبادة لم يكونوا يجدون فيها تحفة فنية فحسب ، بل كانوا يجدون فيها مريم وابنها يواسيهم ، ويشدان عزمهم . وكانت تستقبل الرهبان والقساوسة الذين كانوا يقفون عدة مرات فى اليوم فى مواضع الترنيم ينشدون أناشيد الصلوات الدينية . وكانت تستمع إلى أدعية المصلين الملحين يستمدون من الله الرحمة والعون . وكان صحنها وجناحها تهلى المواكب التى كانت تحمل أمام الشعب صورة العذراء أو جسم ربهم ودمه . وكانت جنباتها الرحبة تردد فى جد ووقار موسيقى القداس ، ولم تكن هذه الموسيقى أقل شأنا من صرح الكنيسة نفسه ، وكانت تؤثر فى النفس تأثيراً أعمق من تأثير جلال الزجاج والحجارة . وما أكثر النفوس الجالدة القوية ، المتشككة فى العقيدة الدينية ، التى أذابتها الموسيقى فخرت راكمة أمام ذلك السر الذى تعجز الألفاظ عنه .

وقد اتفق تطور موسيقى العصور الوسطى اتفاقاً عجيباً مع تطور الطرز

المعمارية ؛ فكما أن الكنائس الأولى انتقلت في القرن السابع من شكلها القديم شكل القباب والباسلفات ، إلى الشكل الرومنسى القوى المتين ، وانتقلت في القرن الثالث عشر إلى الطراز القوطى المعقد ، العالى ، المزخرف ، كذلك احتفظت الموسيقى المسيحية إلى زمن جريجورى الأول (٥٤٠ - ٦٠٤) بنغمات بلاد اليونان والشرق الأدنى الحزينة ، وانتقلت في القرن السابع إلى الترنيم الجريجورى أو الترنيم البسيط ، ثم ازدهرت في القرن الثالث عشر فتعددت نغماتها وكثرت أصواتها القوية الحريئة تنافس الأساليب المتزنة التى تقوم عليها الكتدرائية القوطية .

وتضامنت غارات البرابرة في الغرب ، مع بعث النزعة الشرقية في الشرق الأدنى ، في تحطيم التقليد اليونانى الذى كان يرمز إلى النغمات الموسيقية بحروف توضع فوق الكلمات ؛ ولكن الأساليب اليونانية الأربعة - الدورى ، والفريجي ، والليدى ، والمكسوليدي Mixolydean بقيت وتولد منها بطريق التقسيم الأساليب الثمانية في التأليف الموسيقى - التأملى ، والمحبوس ، والجدى ، والرزين ، والمرح ، والمبتهج ، والقوى ، والمتنشى . وظلت اللغة اليونانية ثلاثة قرون بعد الميلاد باقية في موسيقى الغرب الكنسية ، ولا تزال باقية في صلاة ارمينا يارب Kyrie eleison . واتخذت الموسيقى البيزنطية شكلها في عهد القديس باسيلي ، وقرئت الترانيم اليونانية بالسورية ، وبلغت ذروتها في ترانيم رومانوس (حوالى ٤٩٥) وسرجيوس (حوالى ٦٢٠) ونالت أعظم نصر لها في روسيا

وكان بعض المسيحيين الأولين يعارض في استخدام الموسيقى في الدين ، ولكن سرعان ما تبين أن ديننا بغير موسيقى لا يمكن أن يقوى على منافسة التناشد التى تمس حساسية الإنسان الموسيقية . ومن أجل ذلك تعلم القس أن يغنى ألفسانس ، وورث بعض الألحان التى كان يتغنى بها المرتل العبرى ؛ وعلم الشمامسة

وخدم الكنيسة أن يغنوا الردود ؛ وعلم بعضهم تعليماً فنياً في مدارس خاصة للترنيم جعلت البابا سلسطين الأول (٤٢٢ - ٤٣٢) يصبح هو نفسه مرثياً حاذقاً ، وكان هؤلاء المرنمون المنيرون يكونون فرقة عظيمة منهم ، كان في فرقة أياصوفيا ٣٥ مرثياً ، ١١١ « قارئاً » معظمهم من الغلمان^(١) . وانتشر غناء المصلين من الشرق إلى الغرب ، وكان الرجال يتبادلون مع النساء أغنيات متجاوبة ويشتركون معهن في التسيحيات الدينية . وكانوا يظنون أن المزامير التي يغنونها تردد أو تقلد على الأرض تسايح المديح التي يغنيها الملائكة والقديسون بين يدي الله في الجنة . وأدخل القديس أمبروز في أسقفيته تبادل الغناء بين الرجال والنساء على الرغم من نصيحة الرسل بأن تظل النساء صامتات في الكنيسة ؛ وقال هذا الإداري الحازم إن « المزامير حلوة النغم في كل عصر ، وتليق بكلا الجنسين ، وهي تخلق رابطة عظيمة من الوحدة حين يرفع الناس جميعاً عقيرتهم في ترنيمة واحدة »^(٢) . وبكى أوغسطين حين سمع المصلين في كنيسة ميلان يتلون ترانيم أمبروز ، وصَدَّقَ عليه قول القديس باسيلي إن المستمع الذي يستسلم للذة الموسيقى يستجيب للنشوة الدينية والتقوى^(٣) . ولا تزال ترانيم أمبروز تتلى في كنائس ميلان إلى يومنا هذا .

وثمة رواية متواترة كان أهل العصور الوسطى عامة يؤمنون بصحتها ، وأضحت الآن بعد شكوك دامت زمناً طويلاً مقبولة بوجه عام^(٤) ، تعزو إلى جريجوري الأكبر وأعوانه إصلاحاً وتجديداً في الموسيقى الكنسية الكاثوليكية الرومانية ، أدى إلى اعتبار « النشيد الجريجوري » الموسيقى الرسمية للكنيسة مدى ستة قرون . واجتمعت الألحان الهلنستية والبيزنطية مع الإيقاع العبري في الهيكل والمعبّد فشكّلت هذا النشيد الروماني أو النشيد البسيط . وكان هذا النشيد موسيقى تتألف من أغنية واحدة ؛ وأيا كان عدد الأصوات المشتركة فيه ، فقد كانت كلها تغني نغمة واحدة ، وإن كان النساء والغلمان كثيراً ما يغنون طبقة في السلم الموسيقى

أعلى من التي يغنيها الرجال ؛ وكان هذا النشيد موسيقى سهلة على ذات المدى القليل ، وكانت تسمح من حين إلى حين بإضافة نغمة أو بضع نغمات مركبة غير لفظية تحلى بها الأغنية ، وكانت في مجموعها فواصل متصلة متحررة من قيود الوزن والقافية غير مقسمة إلى أوتاد أو تقسيم للوقت الذي تلقى فيه .

وكانت العلامات الموسيقية الوحيدة المستعملة في النشيد الجريجورى قبل القرن الحادى عشر تتألف من إشارات صغيرة مأخوذة من علامات التنبير اليونانية توضع فوق الكلمات المراد غنائها . وكانت هذه « الأنفاس » تدل على ارتفاع النغمة أو انخفاضها ، ولكنها لا تدل على درجة الارتفاع أو الانخفاض ، ولا على طول مدة النغمة ؛ فقد كانت هذه تُعرف بالتواتر الشفوى وبحفظ طائفة جد كبيرة من أغاني الطقوس الكنسية . ولم يكن يسمح بأن تصحب الغناء آلة موسيقية ؛ ولكن النشيد الجريجورى أصبح على الرغم من هذه القيود - أو لعله أصبح بسبب هذه القيود - أعظم مظاهر الطقوس الكنسية المسيحية وقعاً في النفس . وإن الأذن الحديثة التي اعتادت التوافق الموسيقى المعقد لتجد هذه الأغاني مملّة رقيقة ، وترى فيها استمراراً للتقاليد اليونانية ، والسورية ، والعربية ، والعربية ذات الصوت الواحد التي لا تقلدها في هذه الأيام إلا الأذن الشرقية . لكن الأناشيد التي تغنى في كندرائية رومانية كاثوليكية في أسبوع الآلام ، تنفذ بالرغم من هذا النقص إلى قلوب المستمعين بقوة سريعة عجيبة لانجدها في الموسيقى التي تلهي تعقيدها الأذن بدل أن تحرك الروح .

وانتشر النشيد الجريجورى في أوروبا الغربية كأنه انتشار آخر للدين المسيحى ، ورفضته ميلان ، كما رفضت السلطة البابوية ، وظلت أسبانيا زمناً طويلاً محتفظة بنشيد « مستعرب Mozarabic » ألفه المسيحيون الخاضعون لحكم المسلمين ، وهو نشيد لا يزال يتلى حتى اليوم في جزء من كندرائية طليطلة . واستبدل شارلمان ، وهو الحاكم المحب للوحدة ، النشيد الجريجورى بالنشيد الغالى

في غالة ، وأنشأ مدارس لموسيقى الكنيسة الرومانية في متز وسواسون ؛ ووجد الألمان ، الذين تكونت جناجرهم بتأثير مناخهم وحاجاتهم ، صعوبة في هذه الأغاني ذات الألحان الرقيقة . وفي ذلك يقول الشماس يوتنا : « إذ أصواتهم الحسنة التي تشبه هزيم الرعد ، لا يمكن أن تنطق بالنغمات الرقيقة ، لأن هذه الأصوات مبخوخة من كثرة الشراب » (٥) .

وربما كان الألمان قد كرهوا الأسلوب الذي أخذ منذ القرن الثامن وما بعده يزين النشيد الجريجورى بـ « المخط القصيرة » وبسلسلة النغمات التي تتعاقب بانتظام . وقد بدأ « المخط » بوصفه طائفة من الكلمات يسهل بها تذكر اللحن ، ثم صار بعدئذ إدماجا للألفاظ والموسيقى في النشيد الجريجورى ، كما كان يحدث حين لا ينشد القس Kyrie eleison أرصمنا يارب بل ينشد Kyrie eleison (fon Pillatis, a quo bona cuncta Priocedant) أرصمنا يا من نؤمن علينا بجميع الخبرات يارب . وأجازت الكنيسة هذه التحليلات ولكنها لم تقبلها قط ضمن الترانيم الرسمية . وكان الرهبان المتضايقون من حياة الأديرة يسلون أنفسهم بتأليف هذه العبارات وإدخالها ضمن الأناشيد ، حتى كثرت فيها كثرة أدت إلى وضع كتب خاصة بها لتعلم الناس العبارات المحببة منها أو تحفظها من النسيان . ونشأت موسيقى التمثيل الكنسي من هذه العبارات . وقد وضعت سلاسل النغمات المتعاقبة على نسق تسابيح القديس . ونشأت هذه السنة من إطالة الحرف المتحرك الذي في آخر الكلمة إطالة سموها اليوبيلوس iubilus أى نشيد الابتهاج ؛ وكتبت في القرن الثامن عدة نصوص لهذه التوقيعات التي أدخلت في الألحان . وأصبحت هذه السنة فنا راقيا حوّل النشيد الجريجورى تدريجا إلى طراز مزخرف لا يتفق مع روحه الأولى أو مع قصده « البسيط » (*) . وقضى هذا

(*) ولم تقبل الكنيسة في أورادها إلا خمسة من هذه الأناشيد .

التطور على نقاء النشيد الجريجورى وسلطانه فى القرن الثانى عشر الذى شهد الانتقال من الطراز الرومنسى إلى الطراز القوطى فى العمارة فى بلاد الغرب . وتطلب نقل هذه الكثرة من التواليف المعقدة علامات موسيقى أحسن من العلامات التى استعملت فى تلك الأغنية السهلة . ولهذا قام أودو Odo رئيس دير كلونى ونوركر ببلولس Norker Balbulus أحد رهبان دير القديس جول Gall فى القرن العاشر بإحياء الطريقة اليونانية القديمة طريقة تسمية النغمات بحروف . وفى القرن الحادى عشر اقترح كاتب لم يفصح عن اسمه استخدام السبعة الحرف الكبيرة الأولى من السلم الموسيقى ، واستخدام ما يقابلها من الحروف الصغيرة اللاتينية فى الطبقة الثانية من السلم ، والحروف اليونانية للطبقة الثالثة منه^(٦) . وقام حوالى عام ١٠٤٠ راهب من ميموزا Pomposa القريبة من فرارا Ferrara يدعى جيدو الأرزوى Guido of Arezzo فسمى الست النغمات الأولى من السلم الموسيقى بأسمائها الحالية الغربية بأن أخذ المقاطع الأولى من كل نصف شطر من ترنيمه ليوحنا المعمدان :

أذنت الدنيا من دنس الشفاء	
حتى يستطيع عبيدك	<i>Ut queant laxis re sonare floris</i>
الذين يقومون بخدمتك	<i>Mira gestorum famuli tusum</i>
أن يرددوا أعذب	<i>Solve Polluti labū reatum</i>
الألحان فى الفضاء	
الواسع المزهر	

وأصبحت تسمية النغمات الموسيقية بالمقاطع : أت أودو ، رى ، مى ، فا ، صل ، جزءاً لا يتجزأ من شباب الغرب .

وأهم من هذا تطور « الموسيقى » على يد جيدو . فقد نشأت حوالى عام ١٠٠٠ عادة استخدام خط أحمر للتعبير عن النغمة التى يمثلها حرف F ، ثم أضيف بعدئذ خط آخر أصفر أو أخضر ليمثل حرف C ، ثم وسع جيدو أو شخص آخر قبله هذه الخطوط ليجعل منها مدرجا ذا أربعة خطوط ، أضاف إليه معلمو

الموسيقى فيما بعد خطا خامسا . وكتب جيدو يقول إن غلمانَه المرنمين قد استطاعوا بهذا المدرج الحديد وبالنفثات أت ، رى ، مى ، أن يتعلموا فى أيام قليلة ما كان يتطلب منهم قبلئذ عدة أسابيع « وكان هذا تقدما يسيراً ولكنه تقدم عظيم الشأن بدأ به عهد جديد فى تطور الموسيقى ؛ وبفضله لقب جيدو بلقب **مُخترع الموسيقى** وأقيم له تمثال فخم لا يزال يُرى فى ميدان أرزو العام إلى هذا اليوم . وأحدث هذا التطور انقلاباً عظيماً فى الموسيقى ؛ وبفضله تحرر المغنون من حفظ الترانيم الموسيقية الدينية كلها عن ظهر قلب ، وأصبح من الميسور أكثر من ذى قبل تأليف الموسيقى ، ونقلها ، وحفظها ، كما أصبح فى مقدور العازف أن يقرأ النفثات الموسيقية بمجرد النظر إليها ، ويستمتع إليها بعينه ؛ ولم يعد المؤلف مضطراً إلى أن يكون قريباً من الألحان التقليدية خشية أن يرفض المغنون حفظ الأدوار التى يؤلفها ، بل أصبح فى مقدوره أن يغامر بألف من التجارب . وأهم من هذا كله أنه قد أصبح فى وسعه أن يكتب موسيقى متعددة الأنغام ، يمكن أن يغنيها صوتان أو أكثر من صوتين فى وقت واحد ، أو أن يعزف اثنان أو أكثر من اثنين ألباناً مختلفة ولكنها متوافقة .

ونحن مدينون لآبائنا فى العصور الوسطى باختراع آخر أمكن بفضلَه وجود الموسيقى الحاضرة . ذلك أنه قد أصبح من المستطاع تلحين الغناء بنقط توضع على سطور المدرج الموسيقى أو بينها ، ولكن هذه العلامات لم تكن تدل أية دلالة على المدى الذى يجب أن تمتد إليه النغمة ، وأصبح لا بد لتطور الموسيقى ذات اللحين المستقلين (أو الأكثر من لحنين) تعزفان متناسقين فى وقت واحد ، أصبح لا بد لهذا التطور من وجود طريقة يُقاس بها زمن كل نغمة وتدل على هذا الزمن ، وربما كانت معلومات منقولة عن رسائل الكندى ، والفارابى ، وابن سينا وغيرهم من علماء المسلمين وفلاسفتهم الذين عالجوا موضوع أطوال النفثات الموسيقية أو علامات القياس^(٧) . وكتب قس عالم فى الرياضة من كولولى

يدعى فرانكو فى وقت ما فى القرن الحادى عشر^(٨) رسالة فى قياس الغناء جمع فيها كل ما وجد قديما من المقترحات النظرية والعملية . ووضع أساس طريقتنا الحاضرة للدلالة على أطوال النغمات الموسيقية ، واختبر عود ذو رأس مربع كان فى بادئ الأمر يستخدم للدلالة على النغم ، استخدم هذا العود ليمثل النغمة الطويلة ، وكبرت علامة أخرى هى النقطة حتى أضحت شبه منحرف ومثلت بها النغمة القصيرة . ثم بدلت هذه العلامات على مدى الأيام ، وأضيفت إليها ذبول حتى تطورت منها بمئات من السخافات طريقتنا السهلة التى نستخدمها الآن لقياس النغمات .

وقد مهدت هذه التطورات الخطيرة السبيل إلى الموسيقى المتعددة النغمات ، وكانت هذه الموسيقى قد كتبت قبل فرانكو ، ولكنها كانت موسيقى خشنة تعوزها الرقة ، فلما أشرف القرن التاسع على الانتهاء وجدنا طريقة فى الموسيقى تدعى « التنظيم » - أى غناء النغمات المتطابقة بأصوات متوافقة . ثم انقطعت أخبار هذه الطريقة فلم نعد نسمع منها إلا القليل النادر قبل نهاية القرن العاشر إذ نجد لفظى organum وسمفونيا symphonia (الأغنية المنتظمة والإيقاع) يستعملان لهذه النغمات المركبة من صوتين . وكانت الأرغنة (الأغنية المنتظمة) قطعة من القنداس يواصل فيها الصادح لحناً قديماً موحد النغمة ، فى الوقت الذى يضيف فيه صوت آخر لحناً يتفق معه . ثم نشأت صورة أخرى من هذا النوع نفسه كان للصادح فيها نغمة جديدة عجيبة ، واجتذبت صوتاً آخر فى اللحن المشترك . وخطا المؤلفون فى القرن الحادى عشر خطوة لا تقل فى نوعها جرأة عن توازن قوة الدفع فى العمارة القوطية . فقد كتبوا قطعاً متعددة الأصوات بوحدة ملائمة لم ينقد فيها الصوت « المنجذب » إلى الصادح انقياداً أعمى فى علو اللحن وانخفاضه ، بل اندفع إلى ألحان أخرى ذات نغمات لا يحتم عليها أن تتحرك فى خط متواز مع أصوات الصادح . وكاد هذا الإعلان للاستقلال يصبح ثورة حين

سحب الصوت الثانى نغمة الصااى الآخضة فى الارتفاع بحركة انخفاض
مقابلة لها : وأصبح هذا التوافق عن طريق التباين وحل التنافر الموقت فى
بسر ، أصبح هذا وذاك هياما عند المؤلفين يكاد يجرى بجرى القانون ، وهذا
دعا جون كتن John Cotton أن يكتب حوالى ١١٠٠ يقول : « إذا كان
الصوت الرئيسى يرتفع ، وجب أن ينخفض الجزء المصاحب له »^(٩)
وانتهى الأمر بأن جعلت ثلاثة أصوات مختلفة ، أو أربعة ، أو خمسة بل ستة
فى بعض الأحيان تغنى فى مجموعة متشابهة من الإيقاع الانفرادى ، تتقابل
فيه الألحان المتباينة المتطابقة وتمتزج فى انسجام رأسى أفقى دقيق ، رشيق ،
شبيه بالمقود المتقابلة فى قبة قوطية . ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان
هذا الفن القديم فن تعدد الأصوات قد وضع أساس التأليف الموسيقى الحديث .

وكان التحمس للموسيقى فى هذا القرن ذى العواطف الثائرة والمهتاجة
يضارع الروع بالعمارة والفلسفة . وكانت الكنيسة تنظر شزراً إلى تعدد
الأصوات فى الموسيقى ، لأنها لم تكن تثق بقوة التأثير الدينى للموسيقى
إذا ما أصبحت فى نفسها إغراء وغاية . ولهذا دعا جون أسقف سلزبرى
وفيلسوفها إلى وجوب وقف حركة التعقيد فى التأليف الموسيقى . ووسم
الأسقف جويوم دوراند Guillaume Durand الصااى بأنه « موسيقى
مختلة النظام » ، وأسف روجر بيكين ، التأثير فى ميدان العلم ،
لزوال الشيد الجريجورى الضخم . وندد مجلس ليون Lyons (١٢٧٤)
بالموسيقى الجديدة ، وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر (١٣٢٤) اعتراضا
على الموسيقى المتعددة الأصوات لأن المؤلفين أصحاب هذه البدعة : « يفتنون
الألحان ... فتندفع بعضها فى إثر بعض بلا توقف ، حتى تسكر الأذن
من غير أن تهديها ، وتقلق بال المتعبد الخاشع دون أن تثير فيه خشوعه »^(١٠) .
لكن الثورة ظلت تجرى فى مجراها ، فى أحد حصون الكنيسة الحصينة
- كنيسة نردام فى باريس - ألف ليونينس Leoninus رئيس جماعة

المرنمين حوالى عام ١١٨٠ أجمل أغنية فى أيامه ، وارتكب خليفته برونوس Petronius لثما كبيراً إذا ألف مقطوعات من ثلاثة أصوات أو أربعة . وانتشرت الموسيقى المتعددة الأصوات ، كما انتشر الطراز القوطى ، من فرنسا إلى إنجلترا وأسبانيا . وقال جرالدوس كمبرنسس Giraldus Cambarensis (١١٤٦ — ١٢٢٠) بوجود أغانى مكونة من جزأين فى أيرلندة ، كما قال عن بلدة ويلز قولاً لا نخطئ إذا قلناه عنها اليوم :

وهم فى أغانيهم لا ينطقون بالنغمات متحدة . . . بل ينطقون بنغمات كثيرة — بطرق كثيرة وأصوات كثيرة ؛ ومن ثم فإن وجود المغنين الكثيرين الذين جرت عادة هذا الشعب على جمعهم ، يؤدى إلى سماع أصوات يبلغ عددها عدد من تقع عليهم العين من المغنين ، كما يؤدى إلى سماع أجزاء مختلفة متباينة تجتمع آخر الأمر فى لحن متوافق متحد^(١) .

وخضعت الكنيسة آخر الأمر لروح العصر ونزعته اللتين لا تخطئان أبداً ، وارتضت الموسيقى المتعددة الأصوات ، واتخذتها خادماً قوية للإيمان ، وأعدتها لمسانلته من انتصار فى عهد النهضة .

الفصل الثاني

موسيقى الشعب

وظهرت الرغبة في الوزن في مائة صورة من الموسيقى والرقص غير الدينيين . وكان لدى الكنيسة من الأسباب ما يجعلها تخشى هذه الغريزة إذا لم تفرض عليها رقابة . وكان من الطبيعي أن تتحالف هذه الرغبة مع الحب مصدر الأغاني والمنافس القوي للدين من هذه الناحية . وكانت النزعة الأرضية القوية التي تغلب على عقول العصور الوسطى في غيبة القسيس مما يميل بتلك العقول إلى التحرر في النصوص وإلى البذاءة فيها في بعض الأحيان ، تحرراً وبذاءة ارتاع لها رجال الدين وأثارا للمجامع الدينية إلى إصدار قرارات لم يكن لها أثر . وكان المتعلمون الجوالون يلقون في تجوالهم أو يؤثفون في أثنائها أهازيج في النساء والحر ، ويقلدون الطقوس المقدسة تقليداً ساخراً معيياً . ونشرت مخطوطات تحتوي مقطوعات موسيقية جديدة تلحن الألفاظ المرحلة لقداس السكيرين ، كما نشر كتاب صلوات البصخابين (١٣) . وكانت أغاني الحب كثيرة كما هي في هذه الأيام ، وكان منها ما هو في رقة ابتهالات الحور وحنانها ، ومنها ما هو حوار للإغواء تصحبه نغمات رقيقة ، ولا حاجة إلى القول بأنه كانت في ذلك الوقت أغان حربية ، يقصد بها الوصول إلى الوحدة عن طريق اتحاد الأصوات ؛ أو تحث على طلب المجد بالألفاظ الموزونة التي تسلب الحس . وكانت بعض الموسيقى أغاني شعبية وضعها عباقرة غير معروفين ، وادعاهها عامة الشعب - أولعلمهم نقلوها عن مؤلفيها ، كما كان البعض الآخر من الموسيقى الشعبية ثمرة قرائح محترفين ماهرين يستخدمون كل ما تعلموه في أورااد الكنيسة من فنون الموسيقى المتعددة الأصوات . ووحد

في إنجلترا ضرب من الموسيقى المتعددة الألحان المحبوبة وهو الموسيقى الدورية؛ فيها يبدأ أحد الأصوات لحناً ، ثم يبدأ صوت ثان هذا اللحن عينه أو لحناً آخر موثقاً معه حين يصل الأول إلى نقطة متفق عليها فيه ، ثم يبدأ ثالث والثاني مستمر في غنائه ، وهكذا دواليك حتى يجتمع عدد من الأصوات قد تبلغ الستة في دورة مرحلة نشطة من النغمات المجتمعة .

وتكاد أغنية « الصيف مقبل » الذائعة الصيت تكون أقدم أغنية دورية ؛ وأكبر الظن أن مؤلفها راهب من رهبان بلدة ردينج Reading وأن ذلك كان في عام ١٢٤٠ . وتدل هذه الأغنية المعقدة ذات الستة الأجزاء على أن الموسيقى المتعددة الألحان قد استقرت بين الشعب . ولا تزال ألفاظ هذه الأغنية شاملة لروح ذلك القرن الذي كانت فيه حضارة العصور الوسطى كلها في طريق الازدهار :

الصيف مقبل

فغنّ يا وقوق بصوت عال !

فالبنور تنبت والكلاء يتأبل

والزهر يفتتح الآن في الغاب

غنّ يا وقوق !

النعجة تثني وراء النحمل

والبقرة تخور وراء وليدها

والثور يقفز والوعل يفرّ

غن مرحاً يا وقوق !

يا وقوق يا وقوق ما أعذب شديوك ؛

فلا تقف عن الغناء ، لا تقف الآن أبداً ،

غن يا وقوق الآن ، غن يا وقوق ،

غن يا وقوق ، غن يا وقوق الآن .

وما من شك في أن هذه الأغنية وأمثالها توائم المغنين الجوالين الذين كانوا ينتقلون من بلدة إلى بلدة ، ومن بلاط إلى بلاط ، بل من قطر إلى قطر . فنحن نسمع عن مغنين من هذا النوع يأتون من القسطنطينية ليغنوا في فرنسا ، وعن آخرين من إنجلترا يغنون في أسبانيا . وكان وجود هؤلاء المغنين وقيامهم بعملهم جزءاً معتاداً في كل وليمة رسمية . فقد استخدم إدورد الأول ملك إنجلترا (٤٢٦) مغنيا في الاحتفال بزواج ابنته مرجريت (١٣) . وكثيراً ما كانت هذه الجماعات من المغنين تنشُد أغاني مجزأة كما كانت في بعض الأحيان معقدة تعقيداً غير مألوف . وكانت هذه الأغاني يؤلفها عادة - ألفاظها وموسيقاها - شعراء غزلون في فرنسا وآخرون مثلهم في إيطاليا وألمانيا(*) . وكان معظم الشعر في العصور الوسطى يكتب لكي يُغنى ، وفي ذلك يقول فلكيه Folquet الشاعر الغزلي الفرنسي : « إن القصيدة بغير الموسيقى كطاحون بلا ماء » (١٤) . ولدينا في هذه الأيام موسيقى لمائتين وأربع وستين أغنية من الأغاني الباقية للشعراء الغزليين البالغ عددها ٢٦٠٠ ، وتتألف هذه الموسيقى في العادة من نغمة متتابعة ذات مقطع واحد ووصلات على مدرج من أربعة خطوط أو خمسة . وأكبر الظن أن شعراء أيرلندة وويلز كانوا يغنون ويعزفون على آلات .

وإن كثرة الآلات الموسيقية واختلافها في العصور الوسطى لما يثير الدهشة : فالآلات القرع - كالأجراس ، والصنوج ، والدفوف ، والمثلث الموسيقى ، والطلبة - والآلات الوترية - كالقيثارة على اختلاف أنواعها ، والربابة ، والعود ، والكمان الأصغر ، وذات الوتر الواحد وغيرها ؛ وآلات النفخ ، كالصفارة ، والناي ، والمزمار ، والآلة ذات القربة ، والنفير ، والبوق والقرن ، والأرغن ، هذه أمثلة اخترناها من مئات . لقد كان لدى أهل تلك الأيام

(*) وكانوا يسمون Trobadors في فرنسا ، و Troubadors في إنجلترا و Trovatore

في إيطاليا و Minneingers في ألمانيا . (المترجم)

كل ما تتطلبه اليد أو الإصبع ، أو القدم ، وكل ما يحتاجونه لضبط الأوتار . وكانت بعض هذه الآلات قد بقيت من أيام اليونان وجاء بعضها الآخر ، بصورته واسمه ، من بلاد الإسلام كالرق والنأى والقيثارة ، ومنها ما كان نماذج قيمة لتحف فنية من المعدن أو العاج أو الخشب . وكانت الآلة العادية للمغنى الجائل هي الكمان الصغيرة ، وهي آلة كالكمّان قصيرة يعزف عليها بقوس كقوس الرامى منحنية الظهر . وكان أكثر أنواع الأرغن انتشاراً قبل القرن الثامن هو الأرغن المائى ، ولكن جيروم وصف فى القرن الرابع أرغنأ هوائياً^(١٧) ، وكتب بيدى يصف أرغنأ ذا « أنابيب من الشبه تملأ بالهواء من منفاخ ويصدر منه نغمات فخمة حلوة إلى أقصى حد »^(١٨) . وقد اتهم القديس دنستان St. Dunstan (٩٢٥ ؟ — ٩٨٨ ؟) بالسحر حين صنع قيثارأ يعزف إذا وضع أمام ثقب فى جدار^(١٩) ، ووضع فى كتدرائية وستمنستر حوالى عام ٩٥٠ أرغن ذو ستة وعشرين منفاخا ، واثنين وأربعين نافخا لهذه المنافخ ، وأربعائة أنبوبة ، وكانت منافيخه ضخمة ضخامة تضطر العازف إلى أن يضربها بقبضات تحميها قفازات ذات بطانات سميكة^(٢٠) . وكان فى ميلان أرغن أنابيبه من الفضة ، وفى البندقية أرغن ذو أنابيب من الذهب^(٢١) .

وبعد فإن كل ما يبعثه وصف العصور الوسطى للجحيم من رهبة فى النفس ليفنى إذا ما نظر الإنسان إلى مجموعة الآلات الموسيقية فى تلك العصور . وإن الصورة التى تبقى لدينا من ذلك الوقت هى صورة قوم لا يقولون عنا سعادة إن لم يزيدوا علينا ، يستمتعون بمرح الحياة ومطامعها ، لا ينوء بهم الخوف من نهاية العالم أكثر مما تنوء بنا شكوكنا هل تدمر الحضارة وتنفى قبل أن نتم كتابة تاريخها ؟

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع المجمل في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER XXVII

1. In Coulton, *Social Life*, 15.
2. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, lxiv, 4.
3. In Coulton, *Five Centuries of Religion*, I, 60.
4. *Ibid.*, 31.
5. Gregory I, *Dialogues*, iv, 30, 36, in Lecky, *Morals*, II, 220.
6. *Ibid.*, 221.
7. Westermarck, *Moral Ideas*, I, 723, Coulton, *Five Centuries*, I, 71.
8. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, Supplement, xcvi, 5, 7.
9. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 384.
10. *Ibid.*, 385.
11. Coulton, *Centuries*, I, 40.
12. Gregory I, *Dialogues*, i, 4, in Dudaen, II, 367.
13. Coulton, *Five Centuries*, I, 445-9, II, 665.
14. Coulton, *Panorama*, 416.
15. *Id.*, *Social Life*, 337.
16. Westermarck, *Moral Ideas*, I, 722.
17. Coulton, *Panorama*, 416.
18. *Cambridge Medieval History*, VII, 635.
19. Coulton, *Inquisition and Liberty* 19.
20. *Id.*, *Panorama*, 417.
21. *Id.*, *Medieval Village*, 241.
22. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xxiii, 7.
23. Coulton, *Life*, I, 54.
24. Lecky, *Morals*, II, 220.
25. In Coulton, *Inquisition and Liberty* 18.
26. Lea, *Auricular Confession*, III, 322.
27. Dudaen, II, 427.
28. Renan, E., *Poetry of the Celtic Races*, 177.
29. Coulton, *Five Centuries*, I, 76.
30. *Id.*, *Inquisition and Liberty*, 2.
31. John of Salisbury, *Metalohicus*, vii, 2.
32. in Munro and Selery, 489.
33. Giraldus Cambrensis, *Gemma Ecclesiastica*, ii, 24, in Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 311.
34. *Ibid.*, i, 51, in Robertson, II, 311.
35. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 558.
36. Coulton, *Social Life*, 218 ; *Five Centuries*, I, 71.
37. Vincent of Beauvais, *Speculum Morale*, ii, 3-6, ii, 111.
38. Coulton, *Five Centuries*, I, 31.
39. Coulton *The Inquisition*, 62.
40. Quoted by Berthold of Regensburg in Coulton, *Five Centuries*, I, 72.
41. Aucassen et Nicolette, iine 22.
42. Coulton, *Panorama*, 17.
43. *Id.*, *Five Centuries*, I, 308.
44. Reese, G., *Music in the Middle Ages*, 110.

45. Wright, Th., *The Book of the Knight of La Tour - Landry*, prologue, and ch. 35, 174.
46. Coulton, *Village*, 524.
47. Raby, *Christian Latin Poetry*, 358
48. Durand, *Rationale divinorum officiorum*, in Raby, 357.
49. Raby, 356.
50. Giraldus Cambrensis, *Itinerary*, i, 1.
51. Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale*, vi, 99, in Coulton, *Life*, i, 1,
52. Caesar of Heisterbach, ii, 170.
53. Ibid.
54. Millman, III, 242.
55. Coulton, *Five Centuries*, i, 300.
56. Moore, *Judaism*, II, 4.
57. Catholic Encyclopedia, I, 634.
58. Voltaire, *Works*, XIII, 136.
59. In Spengler, O., *Decline of the West*, II, 295.
60. Voltaire, III, 137.
61. Lea, *Auricular Confession*, II, 443
62. Ibid., III, 285.
63. Catholic Encyclopedia. VII, 787.
64. *Cambridge Medieval History*, VI, 678, Funk, I, 379.
65. Adams, B., *Law of Civilization and Decay*, 64.
66. Lanfranc. *Decorum et sanguinis Domini*, in *Cambridge Medieval History*, VI, 678.
- 66a. Lacroix. *Military*, 454,
67. Matt. vi. 7.
68. Encyclopaedia Britannica, VI, 795
69. Montalembert. i, 57.
70. Male, E., *L'art religieux du XIIIe siècle en France*, 309-11.
71. Coulton, *Panorama*, 107.
72. Coulton, *Life*, I, 168.
73. Addison, *Arts*, 65.
74. Coulton, *Five Centuries*, IV, 94.
75. Haskins, *Renaissance of Twelfth Century*, 235.
76. Jussermad. 327.
77. Ibid.,
78. Coulton, *Five Centuries*, IV, 106
79. Calvijo, O. de, *Embassy to Tamerlane*, 7, 63, 81.
80. Coulton, *Five Centuries*, V, 105
81. Ibid., IV, 120.
82. V, 99.
83. Coulton, *Five*, IV, 98.
84. Ibid., 116.
85. III.
86. Haskins, *Renaissance*, 235.
87. Coulton, *Five Centuries*, IV, 121
88. Funk, I, 297.
89. Howard, C., *Sex Worship*, 78-93; Coulton, *Life* IV, 209-10.
90. Davis. *Medieval England*. 202, Frazer, Sir J., *Magic Art*. II, 370.
91. Weigall, A., *The Paganism in Our Christianity*. 181.
92. Adams, H., *Most St. Michel*, 91.
93. Coulton, *From St., Francis*, 119.
94. In Adams, H., 262.
95. Ibid., 93, 254.
96. 259.
97. 258.
98. Funk. I, 296.
99. Catholic Encyclopedia, IX, 991d
100. Julian Ribera in Thorndike, *Short History of Civilization*. 350
101. For tr. of *Dies irae* cf. Van Doren, M., *Anthology*. 460.
102. Gibbon, VI, 494f.
103. Renard, 42; Brentano in Smith, T., *English Guilds* ixxxv.
104. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 674 Barnes. *Economic History*. 164.
105. Catholic Encyclopedia, V, 679.
106. Villari, 161.
107. Coulton, *Five Centuries*, VI, 383; *Medieval Village*, 294.

108. Ibid.,
109. Maine, *Ancient Law*, 132.
110. Coulton, *Panorama*, 172, 293,
From St. Francis, 293, Lea,
Sacerdotal Celibacy, 238, Mat-
thew Paris, I, 83.
111. Davis, *Medieval England*, 28.
112. Coulton, *Panorama*, 137, 154.
113. Id., *Medieval Village*, 205.
114. Ibid., 303, id., *Panorama*, 197,
204, *Social Life*, 213, *Life*, III 30
115. Lecky, *Morals*, II, 335.
116. Coulton, *Panorama*, 120.
117. Lea, *Inquisition in Middle Ages*,
I, 3.
118. Thatcher, 165-6.
119. *Cambridge Medieval History*,
VI, 543
- 119a. Jewish Encyclopedia, I, 550.
120. Lea, op. cit., I, 13.
121. *Cambridge Medieval History*,
VI, 8.
122. Ibid 3; Taylor, *Medieval Mind*,
II, 303.
123. Carlyle, R.W., *Political Theory*,
V, 157, 182.
124. Ibid, 162,
125. Encyclopaedia Britannica, II,
370 a,
126. Clayton, J., *Pope Innocent III*,
181,
127. Walsh, J., *Thirteenth Century*
370,
128. *Cambridge Medieval History*,
VI, 2,
129. In Lea, *Inquisition in Middle
Ages*, I, 129
130. *Cambridge Medieval History*,
VI, 694
131. Encyclopaedia Britannica, XII,
370b.
132. Coulton, *From St. Francis* 275
133. Funk, I, 358
134. Coulton, *From St Francis* 277,
135, *Cambridge Medieval History*
VI, 120
136. Luke Wadding in Coulton,
From St. Francis 277,
137. Ibid, 225,
138. Coulton, *Panorama*, 165
139. Thompson, *Economic History
of the Middle Ages* 688
140. Voltaire, XIII, 130,
141. Clapham and Power, 189
142. Lea, *Auscular Confession*, III,
17
143. Taylor *Medieval Mind*, II, 303;
Thompson, *Economic Middle
Ages*, 689
144. Id., *Feudal Germany*, 19
145. Boissonnade, 82, 243
146. Ibid., Lacroix, *Manners* 12
147. Fisher H.L. *Medieval Empire*,
II, 64.
148. Thompson, *Economic History
of the middle Ages*. 692
149. Ibid., 691
150. Id., *Later Middle Ages*, 12
151. Funk, I, 355,
152. Lea, *Inquisition in Middle
Ages*, III, 624
153. Lavissee, E., *Histoire de France*
III, 318,
154. Matthew Paris, I, 50
155. Coulton, *Five Centuries* IV, 522
156. Coulton, *Life*, I, 36
157. Milman, V, 139
158. Porter, *Medieval Architecture*
II, 164; Coulton, *Social Life*,
215
159. Cf. Lea, *Inquisition in Middle
Ages*, I, 21-38, for many instan-
ces of ecclesiastical self-reform

CHAPTER XXVIII

1. Coulton, *From St. Francis*, 12
2. Beer, M, *Social Straggles in
the Middle Ages*, 185, 177

3. Luchaire in Munro and Sellery, 438.
4. Ibid., Beer, 133.
5. Encyclopaedia Britannica, XXIII, 288b.
6. Coulton, *Panorama*, 463
7. Vacandard, *Inquisition*, 70
8. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 622
9. *Cambridge Medivale History*, VI, 21.
10. Sabatier, *Life of St. Francis*, 43
11. Matthew Paris, I, 66
12. Vacandard, 83
13. Ibid., 74.
14. 91.
15. Luchaire, 444.
16. Vacandard, 77 ; Beer, 129-31.
17. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 79, Vacandard, 97; Luchaire, 441
18. Coulton, *Inquisition and Liberty* 70, Vacandard, 73, Morey. *Medieval Art* 355.
19. Vacandard, 77.
20. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 103.
21. Rowbotham, 293.
22. Luchaire. 434.
23. Ibid., 436.
24. Lea, I, 120, 133.
25. Thatcher, 209.
26. Lea I, 139.
27. Ibid., 141.
28. Ibid.
29. 146.
30. 153.
31. 154.
32. Quizot, *France*, I, 507 Coulton. *Life*, I, 68.
33. Lea, I, 162.
34. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 490.
35. Lea, 654.
36. Maimonides, *Guide to the Perplexed*, III, intord., xli.
37. Vacandard, 48.
38. Ibid.
39. 63.
40. 68.
41. Sumner, *Folkways*, 238.
42. Catholic Encyclopedia, VIII, 28c.
43. Lea, 237.
44. Vacandard, 63.
45. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 49.
46. Vacandard, 37.
47. Lea, 69.
48. Mickerson. H., *Inquisition*, 61.
49. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 680.
50. Lea, 318.
51. Ibid, 321,
52. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 49,
53. Catholic Encyclopedia, VIII, 29a; Vacandard, 52,
54. Ibid, 119,
55. Coulton, *Inquisition* 59 ; *Inquisition and Liberty*, 66,
56. Vacandard, 61,
57. Sarton, II(2), 546,
58. Vacandard, 183,
59. Ibid, 163,
60. Davis, *Medieval England*, 406,
61. Thatcher, 309,
62. Lea, 371 ; Vandard, 190.
63. Lea, 381,
64. Ibid, 436,
65. 317,
66. Catholic Encyclopedia, VIII, 31d
67. Lea, 441.
68. Catholic Encylodedia, VIII, 31c
69. Lea, 441,
70. Catholic Encyclobedia, VIII, 32b
71. Ibid, 32d,
72. Ibid

73. Caulton, *Inquisition*, 86.
74. Vacandard, 183.
75. Lea, II, 97.
76. Catholic Encyclopedia, VIII, 33d.
77. *Cambridge Medieval History* VI, 723; Vacandard, 203.
78. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 689.
79. Vacandard, 144, 178.
80. Lea, I, § 49.
81. Ibid., 550.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 728; Vacandard, 196, Lea, I, 651.
- 83., Ibid., 393.
84. 113.
19. Cf. Longfellow's "Golden Legend."
20. *Cambridge Medieval History*, V, 675.
21. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 612.
22. Étienne de Bourbon, *Anecdotes*, in Coulton, *Five Centuries*, I, 79.
23. Ogg. 258.
24. Coulton, *Five Centuries*, I, 308.
25. Ibid., IV, 165.
26. I, 304.
27. Munro and Sellery, 410.
28. In Gilson, E., *La philosophie au moyen âge* I, 92.
29. W. B. Yeats, introd. to Tagore, R., *Gitanjali*, xviii.
30. Munro and Sellery, 412.
31. Ibid.
32. Coulton, *Five Centuries*, I, 305.
33. Ibid., 391.
34. 336.
35. 387.
36. Jørgensen, *Francis*, 12.
37. In Sabatier, 149.
38. Jørgensen, 21.
39. Sabatier. 26, Bonaventure, *Life of St. Francis*, ch. 1.
40. Sabatier, 59f.
41. *Mirror of Perfection*, ch. 14.
42. *Tres Socii*, 35, in Sabatier, 74.
43. *Mirror*, ch. 69.
44. Ibid., ch. 11.
45. Ibid.
46. Coulton, *Panorama*, 529.
47. *Tres Socii*, 38-41.
48. *Little Flowers of St. Francis*, ch. 8.
49. Ibid., ch. 9.
50. *Mirror*, ch. 16.
51. Ibid., chs. 29-35.
52. Ibid., ch. 114.
53. *Little Flowers*, ch. 22.

CHAPTER XXIX

1. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 603.
2. Coulton, *Five Centuries*, IV, 15.
3. Gilson, E., *Philosophy of St. Bonaventure*, 31.
4. Coulton, *Life*, IV, 98.
5. In Coulton, *From Francis*, 70.
6. Coulton, *Life*, IV, 238.
7. Lea, I, 35.
8. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 604.
9. Milman, IV, 259.
10. Coulton *Life*, IV, 155.
11. Coulton, *Five Centuries*, IV, 96, 367-77.
12. In Coulton, *Life*, VI, 199.
13. Caesar of Heisterbach, I, 249, in Coulton; *Five Centuries*, I, 377; Jocelyn's *Chronicle*, in Carlyle, Th., *Past and Present*, p. 72.
14. Waddell, H., *Wandering Scholars* 210.
15. Taylor, *Medieval Mind*, I, 268.
16. Ibid., 430.
17. Coulton, *Five Centuries*, I, 183.
18. Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, 692.

54. Ch. 16.
55. Sabatier. 97.
56. Arnold, M., *Essays in Criticism*
First Series, 155.
57. *Little Flowers*, ch. 11.
58. Ch. 24.
59. Sabatier, 229.
60. *Ibid.*, 227.
61. Dr. E. F. Hartung in *Time*,
Mar 11, 1935.
62. *Mirror*, ch. 116.
63. Ch. 120.
64. Faure, E., *Medieval Art*, 398.
65. Text of the will in Sabatier, 337
66. Milman, V, 242.
67. *Cambridge Medieval History*
VI, 737f.
68. Matt. Paris, ii, 443, in Coulton,
Five Centuries IV, 170.
69. *Ibid.*, 388.
70. Coulton, *From Francis*, 101-2.
71. *Ibid.*
72. Funk, I, 370.
73. Crompton, 413.
74. Lea, *Sacerdotal Celibacy*, 105.
75. Power E. *Medieval People*, 64.
76. *Little Flowers*, ch. 33.
77. E. g., *Nan's Rule* (Ancren Riwele)
105, 185.
78. Cf. pp. 294-6.
79. Montalembert, II, 703.
80. *Ibid.*
81. Lea. *Celibacy* 264.
82. Taylor, *Medieval Mind*, I, 492.
83. Coulton. *Panorama*, 622.
84. Power, *Medieval people* 80.
85. *Ibid.*
86. Lea, *Inquisition Middle Ages*,
III, 10-17.
- 87, Lea. I, 272,
88. *Cambridge Medieval History*,
VII, 789.
- 89, Sabatier, 52.

90. Lea, II, 326,
91. Coulton, *Life*, III, 54 ; Kantorowicz., 419.
92. Sabatier, 52 ; Taylor, *Medieval Mind*, I, 460.
- 93, Milman. VI, 123.
94. Coulton, *Life*, I, 205.
95. Catholic Encyclopedia, II, 662d.
96. *Ibid.*, 663,
97. Thatcher, 311.
98. *Cambridge Medieval History*
VII, 7-8.
99. Milman, VI, 282; Coulton, *Panorama*, 212,
100. Guizot, *France*, I, 591,
101. Catholic Encyclopedia, II, 666c
102. *Ibid.*, 667c. Ogg, 383-8.
103. Adams, B., *Law of Civilization and Decay*. 173, Draper, *Intellectual Development*, II, 83
104. Guizot, *France*, 596.
105. *Cambridge Medieval History*,
VII, 18
106. Guizot, 601 ; Draper, II, 86.
107. Milman VI, 494f.
108. Lea. II, 58.
109. Hume. *England*, I. 511,
- 110, Coulton, *Five Centuries*, IV, 118
111. Coulton, *From Francis*, 150.

CHAPTER XXX

1. In Coulton, *Five Centuries*, I, 176
2. *Ibid.*, *Medieval Village*. 103.
3. Bede, i, 27,
4. Coulton, *Life*, IV, 160n.
5. In Coulton *From Francis*, 18.
6. Benvenuto da Imola in Coulton,
From Francis, 416, Lecroix, *Prostitution*, I, 694,
7. *Ibid.*, 695,
8. 700
9. 697,
10. II, 908,

- 1, Wright, ed., *Book of the Knight, of La Tour-Landry* Prologue, and ch. 35.
- 12, In Briffaulte, *Mothers*, III, 417.
13. Lecky, *Morals*, II, 152.
14. Lacroix, *Prostitution*, II, 904
15. *Ibid.*, 904
16. 905
17. I, 721.
18. II, 869. Sumner, *Folkways*, 529, Bebel, 61, Garrison, *History of Medicine*, 192, Sanger, Wm., *History of Prostitution*, 98.
19. St. Augustine, *De ordine*, II, 4.
20. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II, Ilea, x, 11.
21. Encyclopaedia Britannic, V XIII, 598a
22. *Ibid.*
23. Lacroix, *Prostitution*, I, 733-42.
24. *Ibid.*, II, 751, Tanager, 95
25. Coulton, *Panorama*, 172.
26. Lecky, *Morals* II, 218.
27. Power, E. *Medieval People*, 118.
28. Pollock and Maitland, II, 387.
29. Coulton, *Panorama*, 634
30. Bevan, E., and Singar, C. *Legacy of Israel*, 102
31. Cremp, 846
32. Thomas Aquinas, *Summa Contra Gentiles*, III, 122
33. Himes, *Contraception*, 160f
34. Lacroix, *Prostitution* I, 699
35. Coulton *Medieval Village*, 404,
36. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 122
37. Freeman, *Norman Conquest*, II, 166.
- 38, Wright, Th., *History of Domestic Manners and Sentiments*, 275,
- 39, Pollock and Maithland, II, 390; Crump, 297; Butler, P, *Women of Medieval France*, 30,
- 40, St. John Chrysostom in James, B., *Women of England*, 108
41. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, Supplement, lxxxI, 3.
42. *Ibid.* I, xciii, 4
43. Supplement, xxxix, 3
44. II, Ilea, xxvi, 10
45. In Coulton, *Panorama*, 614, quoting Gratian, *Decretum*, II, xxxiii, 5
46. Coulton, *Life*, III, 114, *Five Centuries*, I, 174
47. *Id.*, *Chaucer's England*, 212
48. *Id.*, *Panorama* 618.
49. Schoenfeld, 41.
50. Davis, *Life on a Medieval Barony* 102.
51. James, *Women of England* 182.
52. Renard, 20,
53. Cf. James, 116
54. Wright, T. *Domestic Manners*, 273-4
55. Butler *Women of France*, 104
56. Adams, H. *Mont st. Michel*, 211
57. Butle, 123
58. Tout. T.F., *Medieval Forgers*, in Coulton *Five Centuries* IV, 310
59. Haskins, *Renaissance* 89
60. Exs. in Coulton, *Chaucer's England*. 200, *Five Centuries*, I, 251
61. Lacroix, *Manners*, 41
62. Coulton, *Medieval Village* 72, 344
63. *Id.*, *Panorama* 74, 369
64. Encyclopaedia Britannica VIII. 8d
65. Coulton *Inquisition*, 47
66. Hume I. 185
67. Sslzman 309
68. Ashley, II, 73
69. Coulton *Chaucer*. 131
70. Coulton. *Life* III. 57f
71. *Id.*, *Medieval Village* 50
72. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 571, Potter *Medieval Architecture*. II. 159.

73. Coulton, *Panorama*, 377.
74. Ibid.
75. Lea. *Inquisition in Middle Ages* I, 234-5.
76. Coulton. *From Francis*. 218
77. Sumner. 472, Jusserand. 212. Boissonnade. 262-
78. Coulton. *Social Life*. 395.
79. Joinville, 309
80. Cf. Coulton. *From Francis*, app C.
81. Jusserand. 132f.
82. Davis. *Medieval England*. 425
83. Zimmern. *Hansa* 111
84. Ibid.
85. Coulton. *Social Life*, 371, 425
86. Ashley, II. 328
87. Bacon. R. *Opus maius*. ed. Bridges, II. 251
88. Ashley. II. 307,
89. Ibid., 323
90. Davis. *Life on a Medieval Barony* 95.
91. Traill. I. 484
92. James. *Women*, 208
93. *Speculum*. Apr. 1940. 148. Encyclopaedia Britannica. IV. 470.
94. In Adams. H. 202
95. Frienländer *Roman Manners*. II. 183.
96. Butler *Women*, 147,
97. Dante, *Purgatorio*. xxiii. 102
98. Coulton. *From Francis*. 271
99. Davis. *Life on a Medieval Barony*, 96
100. In Coulton. *Life*. III. 64
101. Crump. 431
102. Beard. 69
103. Coulton. *Life*. IV. 173
104. *Speculum*. Apr. 1928
105. Sarton, II (1), 69
106. *Speculum*. Jan. 1934 306
107. Ibid.
108. Lowie. *Are We Civilized?* 75
109. Lacroix. *Manners*, 176
110. Butler. *Women*, 150
111. Giraldus Camprensis, *Description of Wales* i. 10
112. Salzman. 171.
113. Lacroix P. *Arts of the Middle Ages*. 13
114. Rogers. *Sex Centuries* 46
115. Sedgwick, *Italy*. II. 197
116. Power. *Medieval People*. 103.
117. Thompson *Economic History of the Middle Ages* 595
118. Müller. *Lyer. Marriage* 56.
119. Coalton *Panorama* 313. Addison *Arts*. 272
120. Coulton *Medieval Village*. 27
121. Schevill. *Siena*. 349
- 122 Haskins. *Studies in Medieval Culture*. 132
123. Sedgwick. II. 206
124. Coulton. *Panorma* 96
125. Power E. *Medieval People*. 76
126. Laroix. *Manners*. 239. Coulton. *Medieval Village*. 559
127. Coulton. *Panorama* 96
128. Kirstein L. *Danee*. 88
129. Wright, Th. *Domestic Manners* 257.
130. Walsh J. *Thirteenth Century*. 452.
131. Davis *Medieval England*. 372.
132. Davis, *Life on a Medieval Barony*. 64
133. Encyclopaedia Britannica. XIII. 791c
134. Lacroix. *Manners*. 233
135. Gardiner. F. N. *Athletics of the Ancient World*. 287
136. Coulton *Panorama* 83
137. Gardiner. 238
138. Coulton, *Panorama* 95
139. Coulton, *Social Life* 292
140. Id., *Chaucer*, 278.

141. Chambers. E. K. *The Medieval Stage*. I. 287. Maitland. *Dark Ages*. 174. Lacroix *Science and Literature in the Middle Ages* 240.
142. *Ibid.*, Chambers. I. 23. Coulton *Panorama*, 616.
143. Chambers I. 343.
144. *Time* Dec. 31. 1945.
154. Waddell. *Wandering Scholars*. 200.
146. Coulton, *From Francis*. 56.
147. *Ibid.* 55.
148. 57.
149. 13.

CHAPTER XXXI

1. Jackson. Sir T. *Byzantine and Romanesque Architecture*. 94.
2. *Id.* *Gothic Architecture*. I. 59.
3. Spencer. H. *Principles of Sociology* III. 291. Coulton. *Life* IV. 169.
4. Theophilus *Schedula diversarum artium*. Introd. in Dillon. *Glass* 126.
Addison *Arts* 86. 59.
6. *Ibid.* 186.
7. Walsh *Thirteenth Century*. 515.
8. Saunders. *English Art in the Middle Ages*. 65
9. Ackerman. Phyllis. *Tapestry*. 42f
10. Ruskin. *Stones of Venice* I. ch. 2.
11. Morcy. 195.
12. Short E. H. *The Painter in History* 75.
13. Mâle. *L'art religieux du XIIIe siècle*. 80
14. Taine. H. *Italy : Florence and Venice*, 49.
15. *Encyclopaedia Britannica*. V. 706d
16. Vasari, *Lives*. I. 66

17. Morey. 267
18. Lacroix. *Art* 251 i
19. Adams H. *Mont St. Michel*. 137
20. Saunders. 105
21. Mâle. 78
22. Bond. F. *Wood Carvings in English Churches*. 167
23. *Ibid*
24. Mâle 74
25. S Reinach in Walsh. *Thirteenth Century*. 106.
26. Kantorowicz. 53f. Morey. 314. Sedgwick, II 225.

CHAPTER XXXIII

1. Pope A.U. *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture*. 127
2. Porter. II. 170
3. *Speculum* Jan 1927. 23
4. Mâle 66. Morey 214
5. William of Malmerbury, v.3
6. *Encyclopaedia Britannica*, VII 763
7. Cram, *Substance of Gothic* 119.
8. Pope *Contributions* 137
9. Bond. F. *Gothic Architecture in England* 263. Pirenne. *J Grands Courants*. II. 135. Porter II. 63.
10. Addison. *Arts* 201
11. Panofsky. I. Abbot Suger
12. Cram 144
13. Coulton, *Life* II, 18 Porter I. 151f.
14. Headlam. C. *Story of Chartres* 140
15. Jackson *Gothic Architecture*, I. 96
16. Ferguson. J *History of Architecture* I, 540
17. Adams H, 66
18. Headlam. *Chartres*. 229
19. *Ibid*, 208

20. Ibid
21. Adams H. 76
22. Connick C. J., *Adventures in Light and Color*. 10
23. Robillard. M. *Chartres*. 54.
24. Faure. *Medieval Art*, 348. Bood. *Gothic Architecture in England*
33. Moore. C. H., *Development of Gothic Architecture*. 124
25. Jackson, *Gothic Architecture*, 1, 189
26. Ibid
27. Walsh *Thirteenth Century*, 108
28. Armstrong, Sir W., *Art in Great Britain*, 46
29. Morcy, 293. Germany was closed to more scholars during the composition of these pages, which must therefore speak of German architecture and sculpture at second hand, or from vague memories of visits in 1912 and 1932
30. DeWulf, *Medieval Philosophy* 1, 3.
31. Morey, 297
32. In Taine, *Italy : Florence*, 89
33. Beard, 143
34. Streat O. *Gothic Architecture in Spain*, 106
35. Arnold, *Legacy of Islam*, 168, Dieulafoy. *Art in Spain*, 147.

CHAPTER XXXIII

1. Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 61.

2. Ibid., 43
3. Reese, *Music in the Middle Ages*, 63
4. Ibid., 20f, *Oxford History of Music*, introductory volume, 137
5. Lang, 71
6. Grove, *Dictionary of Music*, s.v. Notation.
7. Arnold, *Legacy of Islam*, 17. Sarton, II (1), 25, 406
8. The date and identity of Franco are disputed, cf. Grove, s.v. Franco of Cologne
9. Lang, 130
10. Ibid, 139
11. Giraldus Cambrensis, *Description of Wales* I, 8.
12. Lang. 97.
13. Jusserand. 196
14. Reese 206
15. Ibid , 246.
16. So argues, with considerable scholarship. Julian Ribera in *La musica de las cantigas*; cf. McKinnon H. D.; and Anderson. W. R., *Music in History*. 181. Beck Gennrich, and Reese prefer to derive the name and songs of the troubadours from the trope, cf. Reese. 218.
17. Lacroix, *Arts*, 203.
18. Addison, *Arts*, 110.
19. Reese, 123.
20. Rowbotham, 6. Lacroix, *Arts*, 205.
21. Ibid., 204.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

الباب السابع والعشرون : مذهب الروم الكاثوليك

١	الفصل الأول : عقيدة التعميد
١٤	الفصل الثاني : الأسرار المقدسة
٢١	الفصل الثالث : الصلاة
٣٣	الفصل الرابع : الطقوس
٤٥	الفصل الخامس : القانون الكنسي
٥١	الفصل السادس : رجال الدين
٥٨	الفصل السابع : البابوية في أوجها
٦٨	الفصل الثامن : مالية الكنيسة

الباب الثامن والعشرون : محاكم التفتيش في بداية عهدها

٧٥	الفصل الأول : الإلحاد الألبجنسي
٩٠	الفصل الثاني : منشأ محكمة التفتيش
٩٧	الفصل الثالث : المحققون (المفتشون)
١٠٤	الفصل الرابع : النتائج

الباب التاسع والعشرون : الرهبان والإخوان

١٠٧	الفصل الأول : حياة الرهبة
١١٣	الفصل الثاني : القديس برنار
١٢٣	الفصل الثالث : القديس فرانس
١٤١	الفصل الرابع : القديس دومنيك
١٤٦	الفصل الخامس : الراهبات
١٥١	الفصل السادس : المتصوفة
١٥٩	الفصل السابع : البابا المنكود
١٦٩	الفصل الثامن : عود على بدء

الباب الثلاثون : الأخلاق والآداب في العالم المسيحي

١٧٣	الفصل الأول : القانون الأخلاقي المسيحي
١٧٧	الفصل الثاني : الآداب قبل الزواج
١٨٢	الفصل الثالث : الزواج

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : النساء	١٨٧
الفصل الخامس : الأخلاق العامة	١٩٣
الفصل السادس : ملابس العضود الوسطى	٢٠٠
الفصل السابع : في المنزل	٢٠٧
الفصل الثامن : المجتمع والألعاب	٢١٦
الفصل التاسع : الأخلاق والدين	٢٢٤

الباب الحادى والثلاثون : بعث الفنون

الفصل الأول : يقظة حاسة الجمال	٢٢٨
الفصل الثانى : زينة الحياة	٢٣٣
الفصل الثالث : التصوير	٢٤٢
١ - الفسيفساء	٢٤٢
٢ - نقوش المخطوطات	٢٤٤
٣ - النقوش الجدارية	٢٤٦
٤ - الزجاج الملون	٢٥١
الفصل الرابع : النحت	٢٥٤

الباب الثانى والثلاثون : ازدهار الفن القوطى

الفصل الأول : الكتدرائيات	٢٦٥
الفصل الثانى : الطراز الرومنى القارى	٢٧٥
الفصل الثالث : الطراز النورمندى فى إنجلترا	٢٨٠
الفصل الرابع : نشوء العمارة القوطية وارتقاؤها	٢٨٥
الفصل الخامس : الطراز القوطى الفرنسى	٢٩٢
الفصل السادس : الطراز القوطى الإنجليزى	٣٠٦
الفصل السابع : الطراز القوطى الألمانى	٣١٣
الفصل الثامن : الطراز القوطى الإيطالى	٣١٧
الفصل التاسع : الطراز القوطى الأسبانى	٣٢٣
الفصل العاشر : لمحات متفرقات	٣٢٨

الباب الثالث والثلاثون : موسيقى العصور الوسطى

الفصل الأول : موسيقى الكنيسة	٣٣١
الفصل الثانى : موسيقى الشعب	٣٤١
المراجع	٣٤٥

فهرس الصور

رقم الصفحة	مذلولها	رقم الصورة
	الدريشة المشبكة من الحديد المشغول في دير أورسكامب أول الكتاب	١
٢٤	القديس نيكيمس بين ملكين - من كتدراية ريمس أمام ص	٢
٤٠	البشارة والزياره في كتدراية ريمس أمام ص	٣
٢٦٤	كتدراية ريمس أمام ص	٤
٢٨١	دير وستمنستر بلندن أمام ص	٥
٢٩٠	داخل كتدراية ونشستر أمام ص	٦
٢٩٠	داخل كتدراية درهام أمام ص	٧
٣٠٤	فندق المدينة « إيبير أمام ص	٨
٣٠٤	كتدراية كنتربري أمام ص	٩
٣١٦	كتدراية سلزبرج أمام ص	١٠

قصة الحضارة

ول وَايرئيل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الخامس من المجلد الرابع

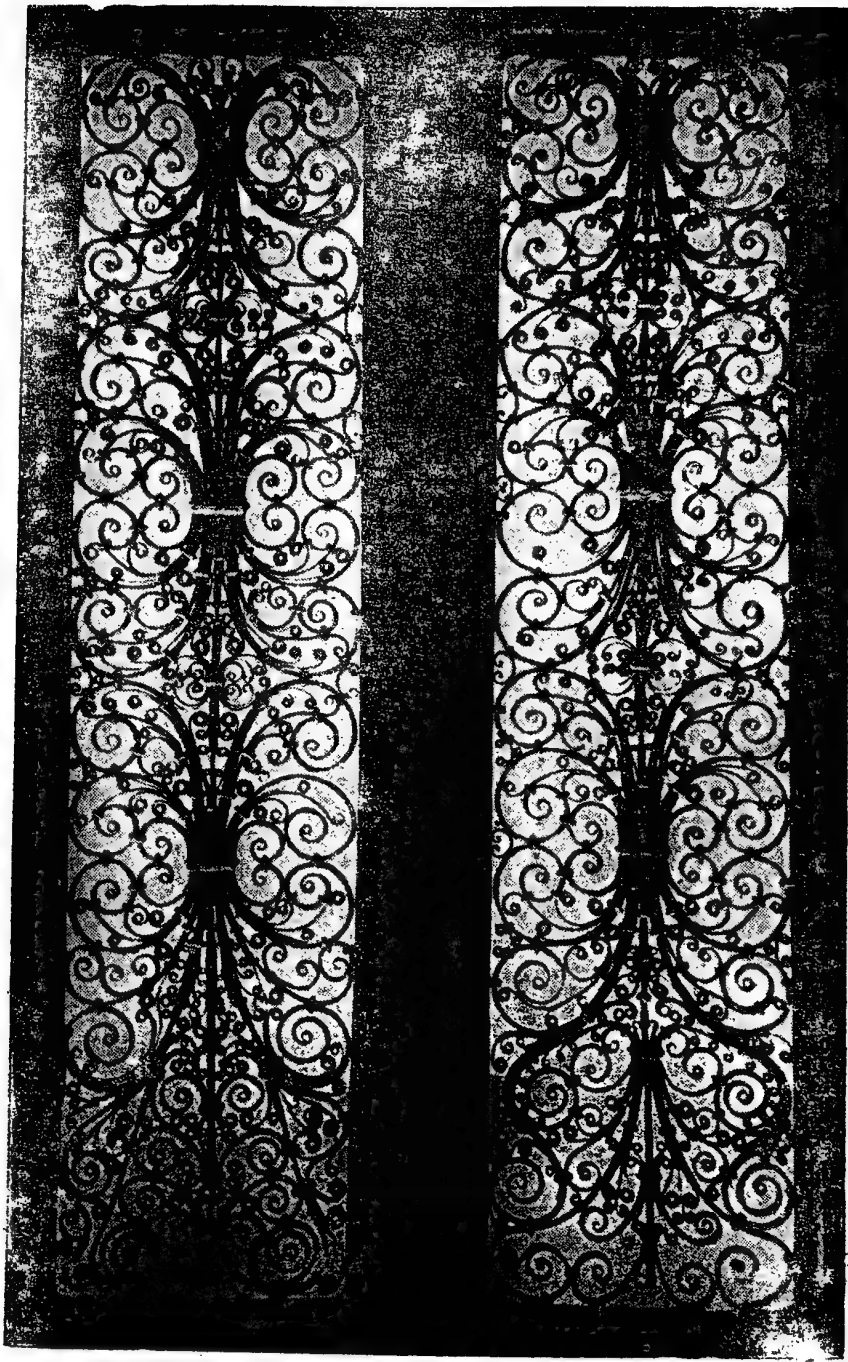
١٦



تونس



بيروت



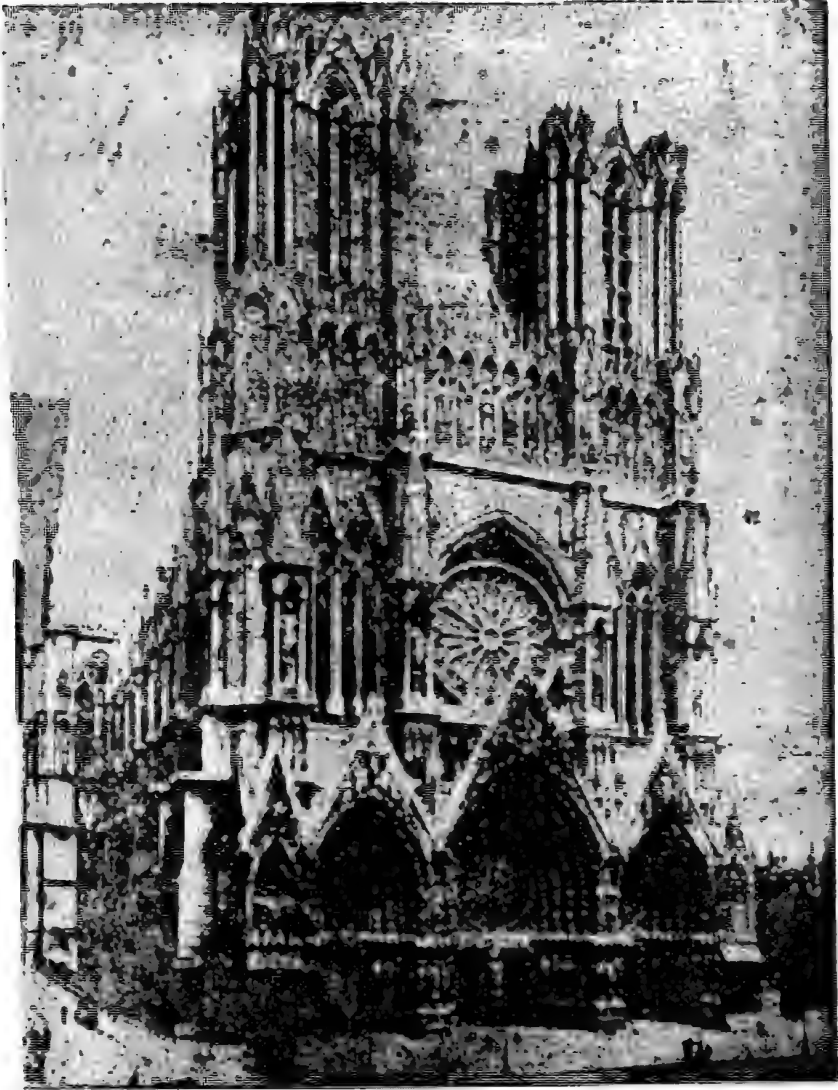
(الصورة رقم ١) الدريئة المشبكة من الحديد المشغول في دير أورسكامپ



(الصورة رقم ٢) القديس نيكولاس بين ملاكين - من كنيسة ائية ريمس



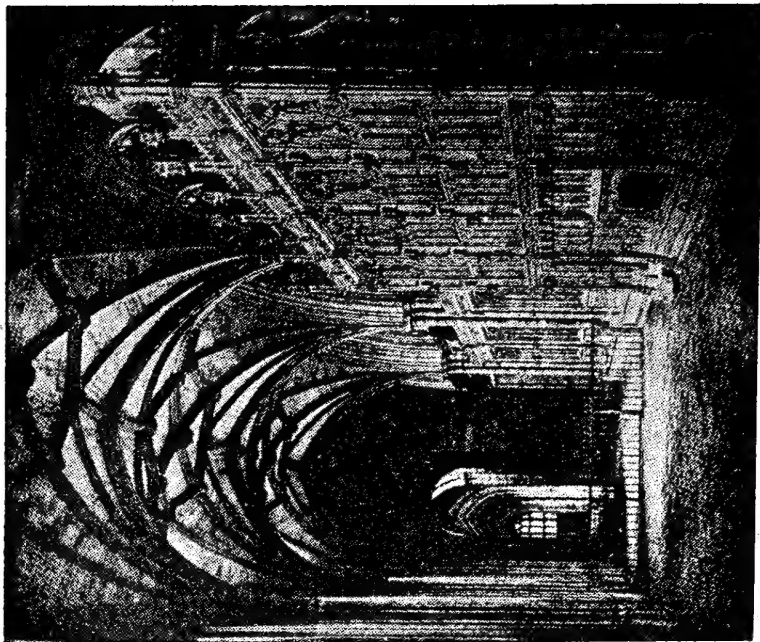
(الصورة رقم ٣) « البشارة والزياره » في كاتدرائية ريمس



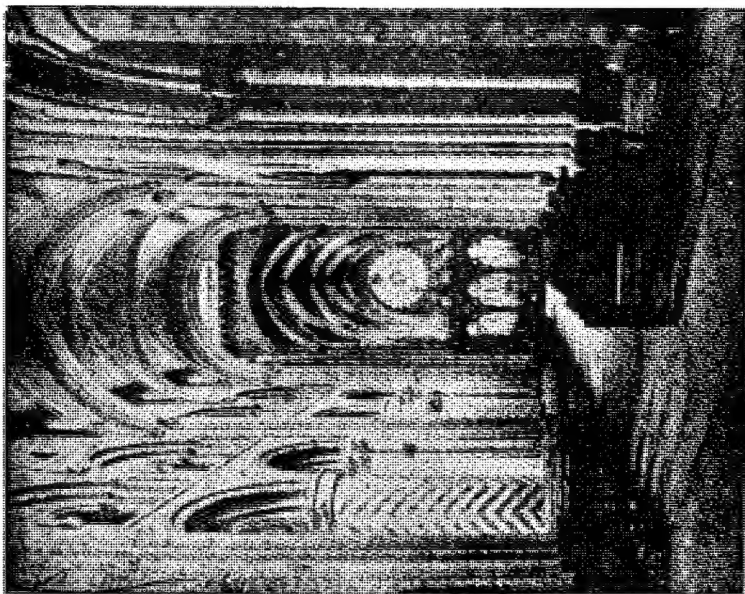
(الصورة رقم ٤) كنائس ريمس



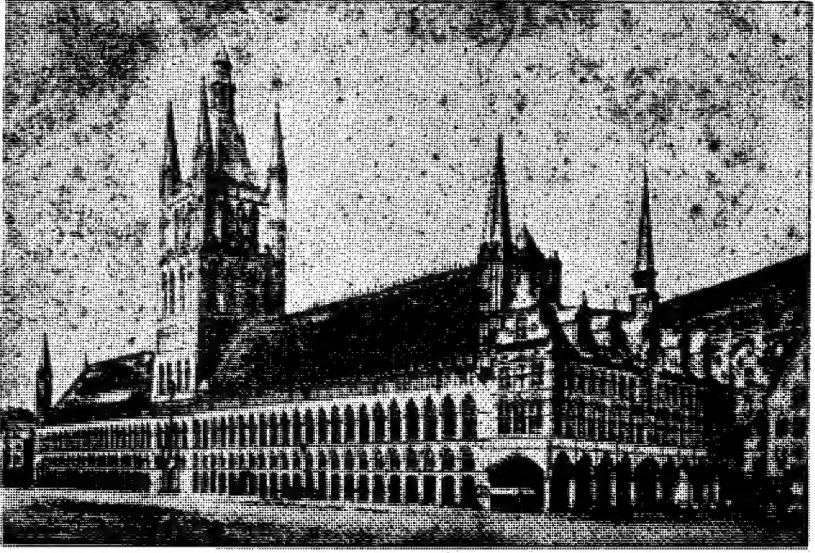
(الصورة رقم ٥) دير وستمنستر بلندن



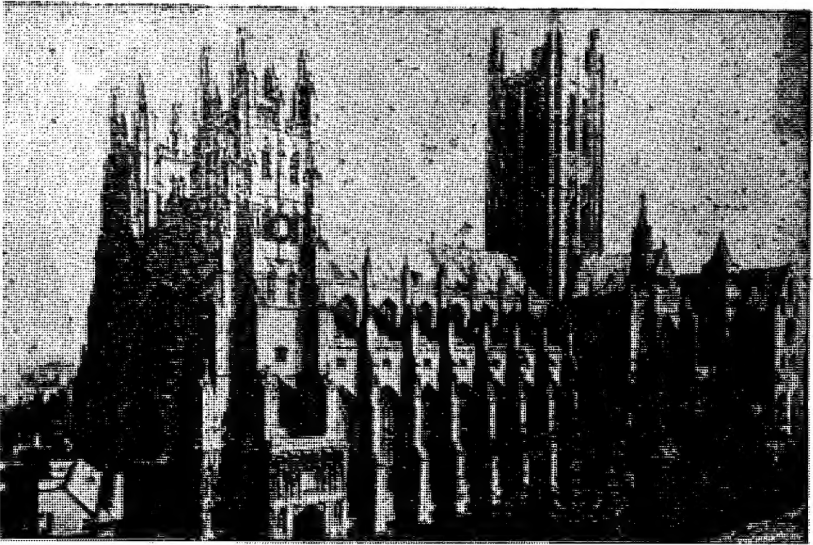
(الصورة رقم ٦) داخل كنديائية ونشستو



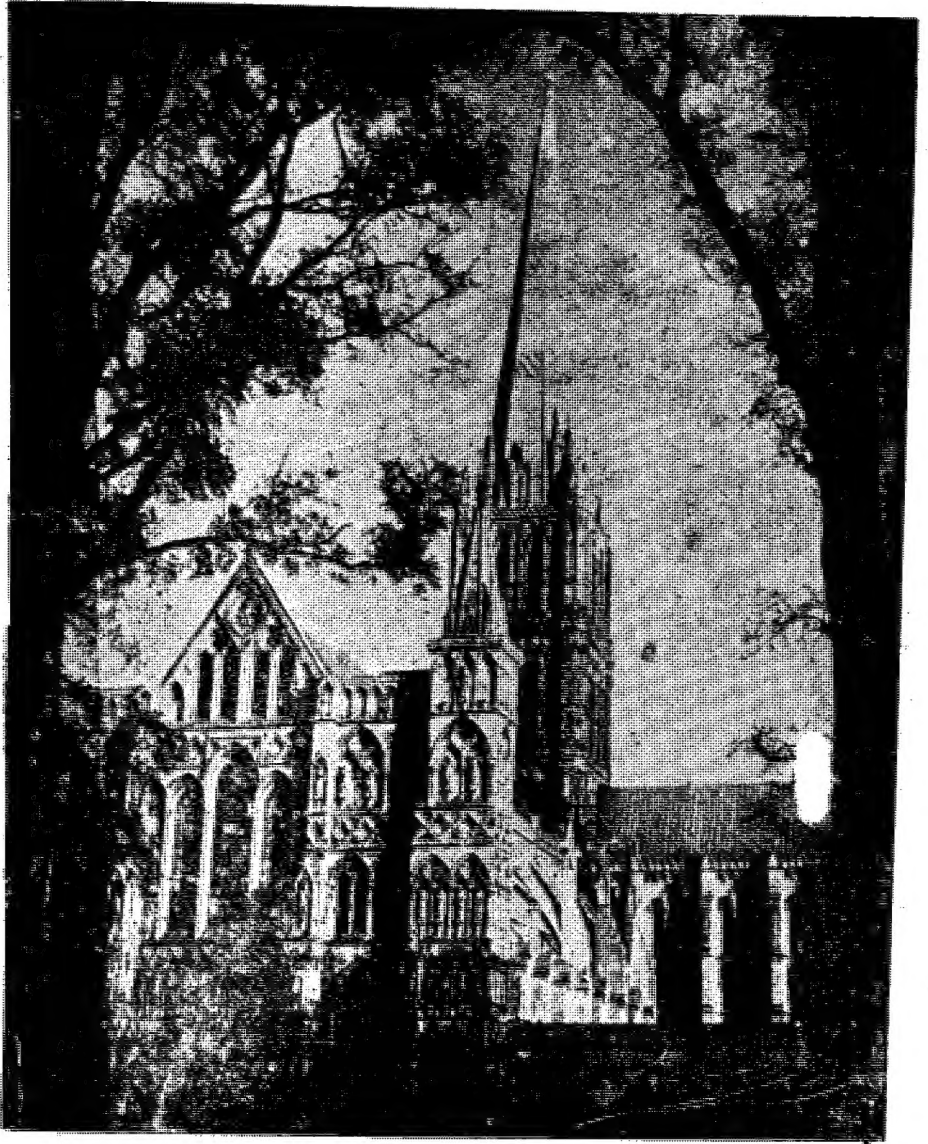
(الصورة رقم ٧) داخل كنديائية درعام



(الصورة رقم ٨) « فندق المدينة » إيبير



(الصورة رقم ٩) كندرائية كنتربرى



(الصورة رقم ١٠) كندراية سلبرج